كارلوس فوينتس

كرسي الرئاسة

ترجمة: خالد الجبيلي

رواية

رواية

كرسي الرئاسة

كارلوس فوينتيس

رواية

كرسي الرئاسة

ترجمة: خالد الجبيلي

للنشر والتوزيع

2009

مرايا الكتاب

الكتاب : كرسي الرئاسة
رواية
ترجمة : **خالد الجبيلي**
المدير المسؤول : رضا عوض
رؤية للنشر والتوزيع
القاهرة 012/3529628
٨ ش البطل أحمد عبد العزيز - عابدين
تقاطع ش شريف مع رشدى
Email: Roueya@hotmail.com
فاكس : 25754123-23953150
الإخراج الداخلى : حسين حبيل
جمع وتنفيذ : القسم الفنى بالدار
مراجعة لغوية : صفاء رستم
الطبعة الأولى 2009
رقم الإيداع : 2008/19607
الترقيم الدولى : 977-6174-68-8

جميع الحقوق محفوظة لـ رؤيــة

(في عـام 2020، وخـلال انعـقاد اجـتـمـاع لمجلس الأمن في الأمم المتحـدة، تجرأ رئيس جمهـورية المكسيك المثـالي النزعة، وصـوّت ضد احتـلال الولايات المتـحدة لكولومـبـيا ورفض واشنطـن تسديد أسـعـار النفط إلى منظمة الأوبك. ويأتي انتقام الولايات المتـحدة سريعاً. إذ تقرر رئيـسة الولايات المتحدة كـونداليزا رايس أن تقطع نظام الاتصـالات في المكسيك - فلم تعـد هناك هواتف أو فـاكـسـات أو بريد إلكتـروني - ويـغـوص البلد في كـابوس إداري لا حـدود له، ويصـبـح تبـادل الرسـائل الوسـيلة الـوحـيـدة للاتصـالات. وسـرعـان مـا يبـرز المتنافـسون الذين يـسعـون للاستـيـلاء على السلطة من خلال الرسائل التي يتبادلونها.)

1

من ماريا دِل روساريو غالبان إلى نيكولاس بالديبا

لا بد أنك ستظن بي الظنون، وستقول إني امرأة نزواتية. وأظن أنك على حق، لكن من يخطر بباله أن الأمور قد تتغيّر تغيراً جذرياً بين عشية وضحاها؟ فعندما التقيت بك البارحة، لأول مرة، طلبت منك ألا تدوّن أياً من آرائك السياسية. لكني اليوم لا أجد وسيلة أخرى كي أتواصل معك. ولا بد أن هذا الأمر سيعطيك فكرة عن الأوضاع الصعبة التي نمر فيها...

ستقول إن اهتمامك بي - الاهتمام الذي أبديته ما إن وقعت عيناك عليّ في الردهة خارج مكتب وزير الداخلية - لم يكن اهتماماً سياسياً، بل اهتماماً رومانسياً، بل ربما كان انجذاباً جسدياً، أو مجرد شعور عاطفي إنساني بسيط. لكن يجب أن تعلم في الحال، يا نيكولاس بالديبا، أن كلّ شيء بالنسبة لي هو ضرب من السياسة، حتى ممارسة الجنس. ولعلك ستدهش لهذا الضرب من النهم المهني. لكن الأشياء لن تتغير. فأنا في

علي مولا

الخامسة والأربعين من عمري الآن، ومنذ أن كنت في الثانية والعشرين، أركّز في حياتي على تحقيق هدف واحد وهو أن أعيش، أن أتمتع بجسد رشيق وجميل، وأن آكل، وأن أحلم، وأن أتذوق، وأن أعاني من السياسة. هذه هي طبيعتي، موهبتي. لا تذهبّن بك الظنون بأن هذا يعني أنني أضع ما أحبه جانباً لكوني امرأة، متعتي الجنسية، رغبتي في ممارسة الجنس مع رجل جميل ينعم بالشباب مثلك...

بكل بساطة، إني أعتبر السياسة تعبيرًا عن العواطف الخاصة القوية أمام العامة، وهي تشمل، بل وربما كانت أهمّ من أي شيء آخر، عواطف رومانسية جامحة. إن العواطف ليست إلا مجرد أشكال اعتباطية من أشكال السلوك، أما السياسة فإنها عبارة عن انضباط ونظام. إننا نتصرّف بأكبر قدر من الحرية التي منحنا إياها الكون، وهي في الوقت ذاته هائلة، وملتبسة، وعشوائية وضرورية، الكفاح للوصول إلى السلطة، والتنافس ولو على مجال صغير من السلطة.

هل تظن أن هذا الشيء ينسحب على الحبّ؟ إنك مخطيء. فللحبّ قوّة لا تعرف حدوداً، قوّة تُدعى الخيال. فحتى لو سُجنت في سجن القلعة في سان خوان دي أولوا، فإنك ستظل تنعم بحرية الشهوة، لأن الإنسان يظل دائماً سيّد خياله الإيروتيكي. ومن الناحية الأخرى، ما جدوى التمني والتخيّل في السياسة إن لم تكن تملك القوّة؟

أكرّر وأقول إن القـوّة إحدى طبائعي. إن القوّة مـوهبة من مـواهبي. وهذا أول شيء أريد أن أحذرك منه، إذ إنك شـاب في الرابعة والثلاثين من العـمر، وقد جذبني جمـالك الجسدي على الفـور. لـكن يمكنني أن أقـول لك أيضـاً، إن الرجـال الجـذّابـين قلة، وقلمـا تجدهم في ردهـة مكـتـب وزيـر الداخليـة، بيرنال هـيريرا. كـما لا توجـد الكثـير من النسـاء الجميلات. وبما أن صديقي الوزير معـروف بسمعته في التقشف والزهد، فإن الفراشات لا تقترب من حديقته، بل تعشش تحت سجادته عقارب الخداع والغش، ويئز نحل الطموح حول قرص عسله.

هل بيـرنال هيـريرا جـدير بالسـمـعـة التي يحظى بهـا؟ ستكـتشف ذلك بنفـسك. إن كلّ ما أعـرفه أنه في عـصر يوم شديد البرودة في مطلع كانون الثـاني، وفي غرفة انتظار مكتب الوزير في قـصـر كوبيـان القـديم، كانت هـناك امرأة تقـارب الخمسين من العمر، لكنها لا تزال تتمتع بجاذبية شديدة - كان وجهك يقول كلّ ذلك، يا حبـيبي - تبادلت النظرات مع شابّ وسيم، كلّ جزء فـيه مشتهى مثلـها، لا يكاد يبلغ الثلاثين من العمر. لقد اشتعلت الشرارة، يا عزيزي نيكولاس. . .

يجب تأجـيل الملذات، يجـب إرجـاء المتع يا صـديقي الشاب.

ها أنا أعترف لك بكلّ شيء: إن طول قامتك يلائم طول قامتي. كما ترى، فأنا فارعة الطول، ولا أرغب في أن أنظر إلى الأعلى أو إلى الأسفل، بل أفضّل أن أنظر في عينيّ الرجل أمامي مباشرة. وعيناك تقعان على ذات المستوى مع عيني، ولونهما يميل إلى اللون الأخضر، رماديتان، تتغيران باستمرار، أما عيناي فهما سوداوان داكنتان، مع أن بشرتي أنصع من بشرتك. لكن لا تظن أن هذه ميزة في بلد مختلط وعنصري كالمكسيك، البلد الذي رزيء بمسألة لون البشرة (مع أنّ أحداً لا يقرّ بذلك مطلقاً) بل على العكس تماماً: فأنا أجتذب النقمة، تلك الرذيلة الوطنية التي ابتلينا بها، ذلك الملك الشحيح الذي يحكم بلاطاً من الأقزام الممتلئين حسداً. ومع ذلك، يمنحني قوامي نوعاً من التفوق الصامت الذي نعزوه جميعنا إلى جنس الفاتحين.

أما أنت يا حبيبي، فإنك تتمتّع بثمار جمال المولّد(*). تلك البشرة الذهبية، بلون القرفة التي تناسب تماماً القسمات الجميلة لرجل مكسيكي: وجه رهيف، شفتان رقيقتان، شعر طويل مسترسل. لقد رأيت كيف أن الضوء الذي كان مسلطاً على رأسك، يمنح الحياة لجمال ذكوري قد يخفي غالباً خواء عقلياً واسعاً. ولم أستغرق سوى بضع دقائق في التحدث إليك لأدرك أنك تتمتع بذكاء داخلي، بقدر جمالك الخارجي، والأهم من ذلك، تلك النقرة الجميلة التي تزين ذقنك.

(*) شخص ينحدر من نسل إسباني أو أوروبي وهندي أمريكي.

يجب أن أكون صادقة معك: إنك شاب غرّ، تعوزك التجربة، ساذج جداً. إنك لا تزال أجاصة صغيرة فجّة كما يقولون في البلدة، مسقط رأسي. انظر فقط إلى نفسك. إنك تعرف الشعارات كلها: الديمقراطية، الوطنية، سيادة القانون، فصل السلطات، المجتمع المدني، التجديد الأخلاقي. لكن الخطر يكمن في أنك تصدقها. المشكلة أنك ترددها عن إيمان وقناعة. حبيبي نيكولاس بالديبا، أيها الجميل، البريء. لقد ولجت الغابة وتريد أن تصطاد أسوداً قبل أن تحشو بندقيتك.

لقد حدثني الوزير هيريرا عنك كثيراً بعد أن التقى بك: قال لي: «إن هذا الفتى حاد الذكاء، لكنه يفكّر بصوت مرتفع. فلم يتعلّم كيف يتدرب أولاً على ما سيقوله لاحقاً. يقولون إنه يكتب جيداً. لقد قرأت مقالاته في الصحف. لكنه لا يعرف أن الحوار الوحيد الممكن بين الصحفي وموظف الحكومة، هو الحوار الذي يقع على آذان صمّاء. فلست أنا، بصفتي وزيراً للداخلية، من النوع الذي لا يقرأ ما يكتبه الصحفيون، ولا أشعر بالإطراء أو باللامبالاة أو بالإهانة مما يقولونه عني، لكن ما أقصده، بالنسبة لسياسي مكسيكي، أن القاعدة الذهبية هي ألا تعبّر عن رأيك كتابة، وألا تعلّق على الآراء الكثيرة التي ستنهال عليك».

اعذرني، يجب أن أسخر من كل ذلك.

أما اليوم، فلا يوجد أمـامنا خيار سوى أن نكتب رسائل. إذ انقطعت جـمـيع أنواع الاتصـالات الأخـرى. بالطبع، يجب أن يتحدث أحدنا إلى الآخر على انفراد، لكننا، لكي نفعل ذلك، لا بد أن نضيّع وقتاً ثميناً في تحـديد المواعيد والانتقال من مكان إلى مكان، ونخشى أن يكون الشيء الوحـيد الذي لا يزال يعمل هو الميكروفـون المخفي في مكان لا يمكنك أن تتـوقعـه. لكن الشيء الأول قد يشجع حمـيمية غير مرغوب فيـها، أما الشيء الثاني، فقـد يتعـرّض المرء لأشد حـوادث المرور فظاعة، ولا يوجـد ثمة شيء أكثر حزناً من القول إنك تعرضت لحادث مرور عادي.

عـزيزي نيكولاس، سـأتحـدّى الـعـالم، وسـأكـتب لك رسائلي. سأعـرّض نفسي لأشدّ المخاطر في السيـاسة: سأترك ورائي سجلاً مكتوباً. هل جننت؟ لا. بكل بساطة، إني شديدة الإيمان بقدرتي على القيادة، وسأستخدم ذلك الآن لأكون مثالاً يحتـذى. فعندما يعرف السـياسيـون في هذا البلد أن ماريا دل روسـاريو غـالبـان تتـواصل مع الآخـرين عن طريق الرسـائل المكتوبة باليد، فإنهم سيـحذون حذوي. فلا يريد أحد أن يبدو أنه في مكانة أقـلّ مني: انظر كم تتـحلى مـاريا دل روسـاريو بالشجاعة! لا يمكنني أن أدعهـا تتفوق عليّ، أليس كذلك؟ هذا ما سيقولونه جميعهم.

إني أضحك يـا صديقي الشاب الجـميل. انتظر لـترى كم عدد الأشخاص الذين سيـحذون حذوي، بعد أن ترسّخ جرأتي

سابقة قـانونية. إنه أمر مسلّ، أليس كـذلك؟ عندما أتذكر أني قلت لك البارحـة، عندما كنا في حديقـة بوكاريلي، ألا تدوّن شيئاً من آرائك يا نيكولاس. إذ لا يجب على السياسي أن يدع الناس يعـرفون تصـرفاته الطائشـة، التي تضعـف مصـداقيـته ومواهبه، والتي تثير مشاعر الحسد.

لكني اليـوم، وبعد الكارثة الـتي حلت بنا هذا الصبـاح، يجب أن أبتلع كلماتـي، وأن أتنكر لفلسفتي التي طالما تشـبثت بهـا طوال عـمـري، وأتـوسل إليك يا نيكـولاس، أن تكتب إليّ. . . فـأنت في حـضـرة امـرأة مـقـامـرة. إذ لم أولد في أغواسكالينتيس أثناء مهرجان سان ماركوس عبثاً. فقد اختلطت أنفـاسي الأولى مع خيـول تصـهل، وديوك تصيح، وأصـوات السكاكين وهي تتطاير فـي حلبات مـصارعـة الديوك، وأوراق اللعب وهي توزع على اللاعـبين، وألحان تُعـزف على الغيـتار الكهربائي، وصوت ألحان الكانتادورا ذات الطبقة العالية، وفرقة الأبواق وهي تعزف «أغلقوا الأبواب!»

لا مـزيد من المراهنات بعـد الآن. لقد انـتهت الألعـاب. وكما ترى فقد راهنت البارحة على الصمت. كنت مستغرقة في التفكير كيـف أن الأشياء التي نكتبها سراً قـد تنقلب ضدنا أمام عامة الناس. كنت أفكّر بهوس ريتشـارد نيكسون بتسجيل خزيه على شـريط، بأكـثـر الألفاظ السـوقـيـة التي يمكن للمـرء أن يتخيّلها، تصدر من فرد من طائفة الفـريندز البروتستانتية. أقول

لك بصراحة شديدة: لكي تكون سياسياً يجب أن تكون منافقاً، ولكي تمضي قدماً، يصبح كلّ شيء مقبولاً. يجب ألا تكون كاذباً ومخادعاً فقط، بل ماكراً أيضاً. فكلّ سياسي يصعد إلى الأعلى يجر وراءه هياكل عظمية، مثل علب الكوكا كولا المربوطة في ذيل قطّة متمردة لكنها خائفة. إنّ السياسي العظيم هو الذي يستطيع أن يصل إلى القمة بعد أن يكون قد تخلص من جميع مراراته وأحقاده ولحظاته القاسية. إن رجلاً متزمتاً بيوريتانياً مثل نيكسون لهو أشدّ أنواع السياسيين خطورة، له ولشعبه. فهو يؤمن أنه يتعين على الجميع أن يسامحوه لأنه خرج من الحثالة. إن إحساسه بالوضاعة والاضطهاد يغذي كبرياءه البغيض، وهذا ما جعل نيكسون يسقط في نهاية الأمر: التوق إلى الروث، تلك الرغبة المستميتة للعودة إلى بالوعات العدم والتفاهة وتطهير ذاته من الشرّ، غير مدرك أنه سيغوص في الوحل الذي خرج منه، وأؤكد لك أنه استطاع أن يحقق طموحه وتمكن من الخروج زاحفاً من حفرته، وصعد ثانية.

«الحنين إلى الوحل» كما يقول الفرنسيون (وهذا بالمناسبة، شيء آخر أعشقه فيك، لأنك تتكلّم الفرنسية، لأنّك درست في الكلية الوطنية للإدارة في باريس، ولأنك أحد الذين يتفقون مع من تخلواّ منا عن اللغة الإنكليزية منذ أن أصبحت لغة التخاطب، لكي نعيد إلى اللغة الفرنسية هيبة تكاد تكون قد أصبحت سرية ونخبوية، لغة التواصل بين السياسيين المتنورين).

نيكسون في الولايات المتحدة، ودياز أورداز في المكسيك، وبيرلسكوني في إيطاليا، وربما هتلر في ألمانيا، وستالين في روسيا، مع أن هذين الأخيرين تمكنا من تحويل الشرّ إلى عظمة، فيما حوّله الآخرون إلى مجرد تعاسة. . . ادرس هذه الحالات يا عزيزي نيكولاس. ادرس طرفي النقيض إن كنت تريد أن تصل إلى المتوسط الذهبي، يا حبيبي.

نعم، أتذكّر نيكسون وهوسه الجنوني بتسجيل مؤامراته ومخططاته على شريط، متفوهاً بأقذع العبارات وأكثرها قذارة، وفي أحيان، كان يبدو أشبه بصبي صغير يريد أن يجلد العالم بسوطه، وفي أحيان أخرى، كان يبدو أشبه بمجرم فظ الفؤاد. وماذا يمكننا أن نقول عن زعمائنا المحليين، الذين يسجّلون أكثر أعمالهم دناءة على شريط، ويجدون متعة مريضة في التفكير ملياً بالجرائم الخسيسة التي سيرتكبونها والتي يعرفون أنهم سيفلتون من العقاب منها؟ هل يمكنك أن تتخيّل اللذة الإيروتيكية التي تعتريهم عندما يرون مجموعة من الفلاحين المسلوبي الإرادة وقوات سعادة الحاكم تطلق النار عليهم، فيتساقطون على الأرض والدماء تسيل منهم؟

إن المكسيك ملوّثة بأنهار مخضبة بالدم، وبالمقابر الجماعية، تتناثر فيها الجثث غير المدفونة. أما الآن، وفي حين تتهيأ لظهورك السياسي للمرة الأولى يا صديقي المحبوب الجميل، تذكّر أن تلقي نظرة إلى مشهد الظلم المقفر الذي يُعتبر الكتاب

المقدس في بلداننا الأمريكية اللاتينية. نعم إن الأسرار مهمة للغاية، لكن مجرد إفشاء صغير قد يحوّل حصانة محافظ أو رئيس إلى خزي وعار جماعي لا يستطيع حتى الأقوياء كبحه.

لا يوجد شيء يجعلني مستعدة للتحول الكبير في الأحداث كهذا الشيء الذي حدث في السنة الجديدة. فإن كانت نظم الاتصالات لدينا قد توقفت حقاً، وإذا لم تعد لدينا هواتف تعمل، ولا فاكسات، ولا رسائل بالبريد الإلكتروني، بل ولا حتى أجهزة إرسال البرقيات المتواضعة كما في الماضي، ولا حتى حمام زاجل (فقد سُمِّم جميعه وكأن ذلك قد تم بقدرة ساحر)، ولم يبق لدينا إلا الإشارات بالدخان التي كان يستخدمها هنود التاراهومارا، وهم يلوّحون بملاءاتهم الملوّنة، وإذا لم تكن هذه الاتصالات قد تعطلت بسبب خطأ بقة الألفية التي كانت ستؤدي إلى توقف وانهيار جميع أجهزة الكومبيوتر المبرمجة في القرن العشرين ونحن نلج عام 2000، بل بسبب رقم هذه السنة، يمكنني عندئذ أن أعترف لك بحرية بأنّ حياتي ستتغيّر أكثر مما سيكون بوسعي أن أحتمل، وسأغوص في حالة من الصدمة الشديدة التي، كالعادة، سأخرج منها بطريقة ما، وأجد القوّة لأذكّر نفسي:

ماريا دل روساريو، اهتمي بصديقك خافيير «سينيكا» ساراغوسا، مستشار الرئيس لورينزو تيران الموثوق به، الذي يقول إنه عندما يخفت بريق هذا العالم المخادع، فإن ورقة رابحة

مدخـرة، فيهـا خطة سرية احـتياطيـة، قد يسخـر منها الجـميع ويعتبرونها غير ذات جدوى، حمـاقة غير واقعية: ذلك الشخص النبيل الذي يمكن أن تخلصنا كرامته، نحن الذين بقينا، من عارنا المزري، الرجل الطاهر الذي قد يكون بوسعه أن ينقذ نظامنا.

هل أنت هو ذلك الـرجل، يا نيكولاس بالديبـا، أم أنـي أسأت التقدير؟

هل تعثّر حـدسي الأسطوري؟ هل نهشت السيـاسة عقلي نهشـاً إلى درجة أن جانب المرء الكامل - الجـانب الأخلاقي - قد توقّف عن العمـل برمته؟ هـل يمكـن أن تكـون أنت، يا صديقي الفتّان، ذلك الشخص الـذي يستطيع أن يبعث الحياة في هذا النظام بقدرة قادر؟

حسناً، إذا أصبحت قاعدة الحذر والتـعقل مستحيلة، فربما ولت القواعد التي تحكم الفسـاد والنفاق والأكاذيب أيضاً. وإذا كان الأمر كذلك، فـإن الضرورة ستغدو فضيـلتي، وسأستسلم للطيش والتهوّر المطلقين.

إن الرسالة الـتي أكتبـها إليك الآن، يا نيكولاس بـالديبا، ليـست إلا دليـلاً على ذلك. فـلا توجـد ثمـة أشكال أخـرى للتواصل تتجـاوز الحضور الشفوي، واللقاء وجـهاً لوجه، وهو أمر أشـعر أنـه في غاية الخطورة، أو «الوسـيط» الذي هو أقل خطراً، والذي هو في نهاية الأمر، خيارنا العملي الوحيد. إذن يكمن السـؤال، أيهـا الشاب المحـبـوب، في مـعرفـة أي من

الطريقتين - الشفوية أم الكتابية - ستعجّل في حدوث الأمر الذي نريده كلانا، مع أن توقيت كل منا قد يكون مختلفاً. فالدرب إلى سريري لا يخلو من العقبات يا عزيزي نيكولاس. إذ عليك أن تفتح ألف باب وباب قبل أن تدركه. إنه يكاد يشبه إحدى تلك الحكايات الشرقية، وأنت تعرف ما نوع الحكايات التي أقصدها. وسأضعك موضع الاختبار كل يوم، والجائزة تعتمد على نجاحك في الاختبار. أعرف أن متعي الجسدية تكفي لإرضائك. وأعترف بأني أشتهي جسدك، لكنّي أشتهي نجاحك أكثر. فقد يكون الجنس آنياً، وقد ينتهي به الأمر أن يكون مجرد مضاجعة سريعة غير مرضية.

أما النجاح السياسي، فهو رعشة جماع طويلة جداً يا عزيزي. وإذ قيض للنجاح أن يدوم، يجب أن يكون تدريجياً، وأن يحصل ببطء. رعشة جماع طويلة، يا حبيبي.

ابدأ بفتح هذه الأبواب، يا طفلي المحبوب، واحداً تلو الآخر. فغرفة نومي تقبع وراء آخر عتبة، والمفتاح الأخير هو الذي يفتح جسدي.

نيكولاس بالديبا: سأكون ملكاً لك عندما تصبح رئيساً لجمهورية المكسيك.

وأؤكد لك: سأجعلك رئيساً لجمهورية المكسيك. أقسم لك بذلك وأنا أرسم شارة الصليب. باسم عذراء غوادالوب المقدّسة، أعدك بهذا يا حبيبي.

2

من خافيير «سينيكا» ساراغوسا إلى ماريا دل روساريو غالبان

لا أتوقّع أن أحداً يعيرني أي اهتمام. مستشار موضع ثقة مثلي يؤدي واجبه بإسداء النصح والمشورة بنوايا سليمة، وهو شيء لا يكفي على الإطلاق، بدون معلومات جيدة لا تأتي أبداً، وإذا نجوت من هذه الكارثة، فلن يكون ذلك إلا لأن الرئيس، في الواقع ولسوء الحظ، قد استمع إليّ هذه المرة.

كما هو دأبي يا صديقتي العزيزة، فإني أستشهد بالمباديء. فالمباديء هي التي تجعل الرئيس يستمع إليّ. إني صرصار الليل الذي يئز في أذن ضميره. أفتّش في ملفاتي عن الأشياء الأخلاقية. ربما كان أملي في سريرتي، يا ماريا دل روساريو، أن يظل ضميري مرتاحاً حتى لو انحدرت السياسة الواقعية(*) إلى مستوى السياسة البراغماتية. وكما تعرفين، فإن السياسة الواقعية هي الشرج الذي نتخلص به من كل ما كنا قد تناولناه،

(*) سياسة مبنية على عوامل عملية ومادية لا على عوامل نظرية أو أخلاقية– م

سواء كـان كافيـاراً أو صبّـاراً، أو بطة بالبرتقـال، أو تاكو دي نينبـيل. أما المباديء، فـهي الرأس بدون الشـرح. والمباديء لا تذهب إلى الحمّام. إن السياسة الـواقعية هي التي تسد أحواض مراحيض العالم، وفي عالم القوّة هذا ليس ثمة خيار أمامك إلا أن تعترفي بفضل الطبيعة الأم.

اليـوم، وللمرة الأولـى، انتصـرت المبـاديء. ربما كهـدية للجـماهير المضطـربة بمناسبة حـلول عام 2020 الجديـد، قرّر الرئيس أن يقدم شيئاً من الرضاء الأخلاقي، وليس مجرد أخبار جيـدة. ففـي الرسالة التي وجـهها إلى الكونغرس، دعـا إلى انسحاب قوّات الاحتلال الأمريكية مـن كولومبيا، كما دعا إلى وقف تصـدير النفط المكسـيكي إلى الولايات المتـحـدة، إذا لم توافق واشنطن على رفع الأسعار التي حـددتها منظمة الأوبك. ولزيادة الطين بلّة، أعلنّـا هذين القرارين في اجـتـماع مـجلس الأمن التابع للأمم المتحـدة. وكما ترين، لم يتأخر الرّد كـثيراً. فقد استيقظنا في صبيحة اليوم الثاني من كانون الثاني، ووجدنا أن نفطنا وغازنا ومبادئنا سليـمة، أما نظم الاتصالات في بلدنا فقد قُطعـت مع سائر أرجاء العالم. وزعمت الـولايات المتحدة أن عطلاً حدث في القمر الصناعـي للاتصالات بعد أن تفضلوا علينا وسمـحوا لنا باستخـدامه، وأصبحنا بدون فـاكسات، أو بريد إلكتـروني، أو إنترنت، أو خـدمة هاتف. ولم يعـد لدينا سـوى شكلين من أشكال الاتصـال المتـاحة الآن، الشـفـهيـة

والرسائل، كما تثبت هذه الرسالة التي أكتبها إليك الآن، مع أني أقاوم الرغبة في أن آكلها وأبتلعها كلها. لماذا بحق الجحيم أعارني الرئيس اهتمامه ووضع مبادئه أمام الواقعية اللعينة هذه المرة؟ أوه، لو كان بإمكانك أن تريني الآن، إني أدق رأسي في الحائط، ولا أستطيع أن أتوقف عن أن أسأل نفسي مراراً وتكراراً:

«سينيكا، من قال لك أن تكون صاحب مباديء؟»

«سينيكا، ما المشكلة في أن تكون أكثر واقعية؟»

«سينيكا، لماذا عارضت معظم الوزراء؟»

ها أنا ذا، يا ماريا دل روساريو الغالية، ها هنا سينيكا العجوز يدق رأسه على جدران رئاسة الجمهورية، حائط المبكى المكسيكي الأبدي.

فعلى الأقل، يا صديقتي العزيزة، لم يُصنع الحائط من الحجارة. بل إنه مبطّن، كما هو الحال في مستشفى الأمراض العقلية، الذي يجب أن يكون صديقك الطبيب خافيير ساراغوسا، المعروف بـ«سينيكا» نزيلاً فيه لأسباب وجيهة ولأسباب بائسة في الوقت نفسه. فقد كان سينيكا الذي ولد في قرطبة، الفيلسوف الرواقي (انتبهي إن كنت لا تعرفين ذلك، واصبري معي إن كنت تعرفين، وإن كنت لا تزالين تحبينني) الذي انتحر في بلاط نيرو. وكانت مبادئه تتناقض مع مباديء

الإمـبـراطورية. ومع ذلك، وحـتى يومنا هذا، لا تزال كلمـة «سينيكا» التي تعني الحكيم أو الفـيلسوف، تستخـدم في مسقط رأسه، الأندلس.

ماذا سيكون مصيري في بلاط رئاسـة جمهوريـة المكسيك يا عزيزتي ماريا دل روساريو الغالية؟ حيـاة مفعمة بالبهجة، أو موت بسبب خيبـة الأمل؟ ففي فجر عام 2020، من المؤكد أنه توجد لدينا أسباب لليأس وخيبة الأمل. نظام اتصالات مقطوع عن باقي بلدان العـالم، واضطرابات وأعمال شـغب تندلع هنا وهناك، دلائل عـلى التـشـرذم والانقـسـام الاجـتـمـاعي والجـغـرافي... ورئيس طيب، ذو نـوايا حـسنة، وضـعـيف وسلبي.

لا تلوميني يا ماريا دل روساريو. إنك تعرفين أن نصيحتي مخلصة، بل وتكون أحيانا فجة. إنك تعرفين حق المعرفة أن لا أحد يتكلّم مع الرئيس بصدق شديد كـما أتكلم معه أنا. وإني على قناعة تامة بأنّ هذه البلاد في حاجة ماسة إلى صوت واحد على الأقل يكون مـجرداً من المصالح والأغـراض الشخصـية، يهـمس في أذن الرئيس لورينزو تيـران. هكذا كان اتفـاقنا، يا صـديقتي العـزيزة، أنا وأنت. فـأنا هناك لأقـول: «يا سيـادة الرئيس، إنك تعرف إنني صديقك النزيه تمامـاً»، وهذا أمر غير صحيح تماماً. فـقد كان اهتمامي الرئيسي يتـمثل في أن أجعل الرئيس ينفض عنه تلك السـمعـة بالتقـاعس التي التصـقت به

خلال الفترة التي أمضاها في منصبه، ثلاث سنوات تقريباً يوجهها اعتقاد خاطيء بأن جميع مشاكلنا ستحل من تلقاء نفسها، وأن إقحام الحكومة في هذه المشاكل سيخلق مزيداً من المشاكل بدلاً من أن يحلّها، وأنه يجب على المجتمع المدني أن يكون السبّاق دائماً في التصرف. وفي رأيه، يجب أن تكون الحكومة دائماً الملاذ الأخير الذي يمكن اللجوء إليه. ولمرة واحدة يجب أن نعترف بأنه كان على حق. بحق السماء ماذا أدخل في رأسه، في رأس السنة الجديدة أن ينادي بمباديء السيادة وعدم التدخّل، بدلاً من أن يدع التفاحة تسقط من الشجرة، بما أنها كانت متعفّنة؟ ما شأننا بكولومبيا؟ ولماذا لا ندع فنزويلا والعرب يحلّون مشاكلهم القذرة المتعلقة بأسواق النفط، بدلاً من أن ننحاز إلى عصابة من الشيوخ الفاسدين؟ كنّا دائماً نستفيد من صراعات الآخرين إلى أبعد درجة دون أن نحتاج إلى الوقوف إلى جانب هذا أو ذاك. لكنك عندما تقدم مشورتك، فإنك لا تعرف تماماً ما ستؤول إليه النتيجة، وإني أعترف في هذه المرة، بأن الرياح أتت بعكس ما نشتهي.

«اطرح بعض الأفكار، يا سيادة الرئيس، قبل أن يفرضها الشعب عليك. وعلى المدى البعيد، إذا لم تطرح أفكاراً من تلقاء نفسك، فإن الآخرين سيسحقونك».

«مثل أفكارك مثلاً؟»، سأل بوجه ترتسم عليه أمارات البراءة.

فقلت بجـرأة: «لا، لا. كنت أفكّر بذلك المتسلق تاسيـتو دي لاكانال».

أدركت الآن أنني جرحت كبرياءه. فـقد تصرف بعكس ما نصحه أن يفـعل رئيس ديوان مكتبه تاسيـتو دي لاكانال، الذي كان أكثـر من مجرد خادم عادي، هذا الـرجل الذي ألّف كتاباً عن العبودية.

أريد منك يا صديقتي العزيزة أن تجلسي ذات يوم وتفسري لي كيف يمكن لرجل ذكي ومبـجل ورقيق مثل رئيس دولتنا أن يبقي إلى جـانب كرسي الرئاسة رجلاً مـتزلفاً، متملـقاً، ذليلاً مثل تاسيتو دي لاكانال. فإذا نظرت كـيف يفرك يديه ويرفعهما بتواضع إلى شفتيه، ويحنـي رأسه إلى الأمام، فإنك سترين أنه ليس إلا رجلاً لئيـماً، فاسداً، لا يعادل نفاقه إلا الـطموح غير المحدود الذي يخفيه بشكل سيء وراء إخلاصه الزائف!

انظري إلى هذا التناقض يا صديقتي (الأثيرة): فقد أفضت مشورتي الجيدة إلى نتـائج محزنة، في حين كان من الممكن أن تؤدي نصيحة تاسـيتو الفظيعة إلى تفادي هذه الـكارثة برمتها. لكنني أشـعر بالرضا عـن نفسي، يا ماريـا دل روساريو، لأني تعوّدت أنه يخيل لي أني كلما قدمت مـشورتي الجيدة، فستلقى الإهمال مرة أخرى. إنني أعـرف أن كلماتي تضرب على الوتر الأخلاقي لرئيس دولتنا، الذي ما إن يستمع إليّ حتى يشعر بأنه

«أخلاقي» ويعتبر أنه قد أدى واجبه إزاء المباديء، مما يتيح له أن ينفذ نصيحة تاسيتو دي لاكانال، التي تكون عادة عكس مشورتي، بضمير مرتاح.

أخبريني إن كان ذلك لا يكفي لأن يجعلك تشعرين باليأس وتريدين أن تستسلمي له كلية. ماذا يوقفني؟ قد تسألين. أمل فلسفي مبهم. قد تكون لديّ عيوبي، لكنني لو لم أكن هناك، لحلّ مكاني شخص أسوأ بكثير. قد أكون مريراً مثل هزائمي، لكنني أستطيع، على الأقل، أن أنام في الليل: أقدم مشورتي بصدق، وليس ذنبي إن لم يؤخذ بها. فهناك أصوات كثيرة تستحوذ على اهتمام قائدنا. ولا بد أن يتسرب القليل من صدقي إلى روح الرئيس لورينزو تيران. لكن في هذه الحالة، يا صديقتي العزيزة، كنت أفضل أن يكون الرئيس قد أنصت إلى كلمات أعدائي، ولم يستمع إليّ.

3

من ماريا دل روساريو غالبان إلى نيكولاس بالديبا

نيكولاس الحبيب الوسيم، إنك شخص لحوح جداً. فأنا أرى أن رسالتي لم تفلح في إقناعك. إن عدم قدرتي على إقناعك يؤرقني أكثر مما يؤرقني عدم تمتعك بالذكاء، لذلك فأنا لا ألومك. لا بد أنني غبية خرقاء ولا أستطيع أن أعبّر عما يجيش في نفسي. فمع أنني شرحت لك أسبابي على نحو مباشر وصريح، فإنك لم تفهمني، وأنت ذاك الفتى الذكي. وأكرر أنه لا بد أن يقع اللوم عليّ. ومع ذلك يجب أن أعترف بأنني لست غير مبالية بعواطفك التي تجعلني أكاد أرغب في أن أتراجع عن كلمتي. والآن، لا يخيّل لك أنك تمكنت بنشرك المتقد من تهديم جدران قلعتي الجنسية، كما تقول. لا، فالجسر المتحرك لا يزال قائماً والسلاسل على البوابة لا تزال مقفلة. لكن هناك نافذة، يا نيكولاس الشاب الرائع، تضيء كلّ ليلة في الساعة الحادية عشر.

ستجد هناك امرأة تثير شهوتك، تخلع ثيابها ببطء، وكأن شاهداً أكثر إنسانية ودفئاً يراقبني من سطح مرآتها البارد. لا يرى تلك المرأة أحد، ومع ذلك فهي تخلع ثيابها ببطء حسّي، وكأن أحداً يراقبها. إن ذلك المخلوق ممتع ولذيذ، يا نيكولاس. وهي تجد متعة في خلع ثيابها ببطء أمام المرآة وتتعمد إصدار حركات بطيئة مثل فنانة على خشبة المسرح أو في البلاط (أعرف أنها صورة خيالية)، تتظاهر بأن عيوناً نهمة، أشد نهماً من المرآة، تنظر إليها بشهية عارمة، برغبة حارقة، أيها الشاب الشرّير، يا من أشتهيه، فقط لأني أستطيع أن أؤجلك. لأن ثمن الرغبة المنجزة - ألا تعرف بعد؟ - فضيلة لاحقة، بل الأسوأ من ذلك، لامبالاة.

ستقول إنه يحق لامرأة على أبواب الخمسين أن تحمي نفسها من مشاعر شاب متقدة ولاهبة، لكن ربما كانت عواطف طائشة وعابرة لفتى لم يكد يبلغ الثلاثين من العمر. صدّق ذلك إذا أرْدت. لكن لا تكرهني. إني مستعدة تماماً لأن أؤجل كراهيتك وأشجّع رجاءك، يا صديقي الذي يكاد يكون، لكنه لم يعد في غاية السذاجة. هذه الليلة، عند الساعة الحادية عشرة، سأمضي في نزع ثيابي. سأترك ستائر غرفة نومي مفتوحة على وسعها. وسأترك الأضواء منارة لكي أكون ذات عقل راجح، متواضعة، ومدغدغة بنفس القدر.

إننا على موعد، يا عزيزي، أما الآن فلا أستطيع أن أعرض عليك المزيد.

4

من أندينو ألماسان إلى الرئيس لورينزو تيران

سيادة الرئيس، إن كان ثمة أحد يعاني من القيود التي فرضت مؤخراً على نظام الاتصالات فهو أنا، خادمك المؤتمن. وأنت تعرف جيداً أنني دأبت على أن أسدي لك مشورتي خطياً. «آراء» كان يحلو لبعض وزرائك، زملائي، أن يطلقوا على هذه التوصيات، وكأن علم الاقتصاد مجرّد رأي. في حين يطلق عليها أعدائي داخل مجلس الوزراء «عقائد»، براهين وأدلة لا يمكن تحملها، ثقة تامة من وزير المالية، أندينو ألماسان، خادمكم المخلص، يا سيادة الرئيس. لكن هل القوانين والعقائد هي ذاتها؟ هل تعتبر أن التفاحة التي سقطت على رأس نيوتن وكشفت قانون الجاذبية أمر عقائدي؟ وهل قول آينشتاين بأن الطاقة تساوي الكتلة مضروبة بمربع سرعة الضوء هو مجرد رأي؟

لست أنا من وضع الفكرة، يا سيادة الرئيس، بأن الأسعار تحدد حجم الموارد المستخدمة، أو أن الأرباح تعتمد على التدفق

النقدي، أو أن إنتاجية المستخدم هي التي تحدد الطلب عليه في سوق العمل. لكنك تعلم جيداً ما يسميه أعدائي - أعني زملائي - «أغنيتي ورقصتي القديمتان». ومع ذلك فإنني يا سيادة الرئيس، يجب أن أكرّر كتابي المقدس اليوم أكثر من أي وقت آخر، بسبب الأوضاع التي نعيشها الآن، الأوضاع التي اخترتموها بحكمة لمواجهة التدابير الشعبية (التي سيقول عنها نقّادك، يجب أن أحذّرك، إنها عديمة الفائدة، وسيقول عنها أصدقاؤك، مثلي، تنازلات تكتيكية)، اليوم أكثر من أي وقت مضى، لمصلحة الاقتصاد في هذا البلد.

أولاً، تحاش التضخم. لا تسمح لأحد أن يدير آلات الأوراق النقدية الصغيرة بذريعة «حالة الطوارىء الوطنية». وثانياً، ارفع الضرائب لتسديد نفقات الطوارىء بدون التضحية بالخدمات. وثالثاً، حافظ على انخفاض الرواتب بحجة الطوارىء نفسها: مزيد من العمل لقاء قدر أقل من المال، إن كنت تعرف كيف تقدّم هذه الصيغة الوطنية. وأخيراً، ثبّت الأسعار. لا تتساهل - بل عاقب بشدّة - أي شخص يجرؤ على رفع الأسعار في خضم حالة الطوارىء الوطنية هذه.

قلت لي ذات مرة إن الاقتصاد لم يوقف التاريخ قط، وربما كنت محقاً. لكن من الصحيح أيضاً أن الاقتصاد يستطيع أن يصنع التاريخ (مع أنه قد لا يكون تاريخاً). لقد قررت اتباع سياستين تضمنان لك دعماً شعبياً (مع أن أحداً لا يعرف إلى

متى) ونزاعاً دولياً (مع أكبر دولة عظمى في العالم). بالنسبة للدعم الشعبي، فإني أسألك مرة أخرى: إلى متى يمكنه أن يستمر؟ أما بالنسبة للتوتّر الدولي، فكما ترى أنني لست عقائدياً كما يدعيّ أعدائي، ولن أقول لك إنه سيدوم أكثر من الدعم الوطني القصير الأجل الذي نحظى به عندما نواجه الأمريكيين دون تقييم النتائج. أما الآن، فإني سأدير خدي الآخر وأقول لك، يا سيادة الرئيس - وسمنّي متهكماً إذا أردت - إن المكسيك وأمريكا اللاتينية لن تتقدم إلا إذا ركزت على خلق المشاكل.

إن المكسيك وأمريكا اللاتينية مهمة لا لأننا لا نعرف كيف ندير أمورنا المالية، بل إننا مهمون لأننا نخلق مشاكل للآخرين.

أنتظر بفارغ الصبر خطابكم الذي ستلقونه أمام الكونغرس غداً، وتفضلوا بقبول فائق الاحترام، وأظل، كعادتي، في خدمتكم.

5

من نيكولاس بالديبا إلى ماريا دل روساريو غالبان

لا أعرف بماذا سأبدي إعجابي أكثر، يا سيدتي العزيزة، بجمالك أم بقسوتك. ليس للجمال سوى اسم واحد، ولا يستطيع أي مرادف آخر أن يعطيه حقه. بماذا يمكنني أن أقارن الشيء الذي لا يقارن؟ أرجو ألا تظني أني بريء أو أعمى. فقد رأيت العديد (وربما الكثير) من النساء وهن عاريات، لكنني لم أر امرأة تتعرى من جميع ثيابها حقاً إلى أن رأيتك.

إنني لا أشير إلى جمالك، يا سيدتي العزيزة - سأناقش ذلك في حينه - بل أشير إلى فحش عريك برمته. لا أريد هنا أن أتلاعب بالكلمات (يخيّل إليك أن معرفتي لم تنضج بعد، لكنني في الواقع أشكّل أكبر مجموعة من المراجع الغنية بالمعلومات)، لكنني عندما أقول ذلك، فإني أقول بأنّ عريك فاحش، مخفي، لا يضاهى، وغير مرئي، ولا يمكن إدراكه إذا لم يتجسد وراء مرحلة وجودك - ووجودي العادي، حياتك -

حياتنا اليومية، مـا وراء العالم الذي ترتدين فيه ثيابك وتظهرين في العالم العادي... فعندما تتعرين، خارج المشهد، على نحو داعر، مـهدّد، فإنك تصـبحين امرأة أخـرى، ومع ذلك تبقين المرأة ذاتها، هل تفـهمـينني؟ إنك المرأة ذاتها، ولكن في هيـئة مـختلفـة، وكأنك بتـجردك مـن ثيابك، يا سـيدتي العـزيزة، تُلمحين إلى جـمال لا نهائـي، جمال مـوت يعيش إلى الأبد. تناقض ساحر. الطريقة التي رأيتك فيها، هكذا ستكونين دائماً، حتى موتك.

لا، دعـيني أصلح ذلك. كـان يجب أن أقول «حـتى في الموت» أو «في الموت فقط». فمنذ اليوم الذي التـقيت فيه بك، أحسست أنك سـتمنحينني متـعة غير معـهودة، متعة شـهوانية وحسيّة لم أعرفها من قبل، لا يمكن مضاهاتها بأيّ شئ رأيته أو تخيلته من قـبل. يا لها من جائزة لا أستحقـها في أن أتجسس عليك من الغـابة وأنت تقفـين أمام النافـذة المضاءة في البـيت تخلعين ثوب السـهرة الأسود، ثم تمدين يديـك خلف ظهرك، وتفكين إبزيم حمالة صـدرك السوداء بحركة مبهـمة وجريئة في الوقت ذاته، لتكشفي عن هذين الكوبين الممـتلئين المترعين، ثم ترفعين الجزء الأمامي من حمالة صدرك وتحررين ثدييك بمداعبة مزدوجـة، تقفين هنـاك لا يستر عـريك شيء سوى سـروالك الداخلي الأسود، الذي تخلعينه وأنت جالسة على حافة سرير، والذي كـان يبـدو - اغفـري لي أن أقـول ذلك - بارداً جـداً

ووحيداً، ثم تنهضين بغتة يا سيدتي، في بهاء نضجك الجنسي، جسدك الناصع البيــاض، الوردي مرّتين، والأسود مرة واحدة، تواجهــينني قبل أن تديري ظهرك لي لكي أبدي إعــجابي بتلك المؤخرة، مــؤخرة فينوس غــاليبيــغوس(*)، التي عُشــقت حتى غــاصــت في الأرض وردفــاها لا يزالان يــرتعــشـــان، لذلك استطعت أن أرى ما كنت قــد تحدثت عنه في ذلك اليوم، رؤية متعة يجب أن أتملكها لقاء ثمن - أسخر من نفسي يا سيدتي - ربما كان يفوق طاقتي.

نعم، إن كلّ ما أحتاجه هو نظرتك تلك. وإني لأقدّر غاية التــقدير ذلك الشيء الذي تفــضلت وقدمــته لي ولي فــقط، يا مــاريا دل روساريو، لأنني قلت لــنفسي: إنه لي، ولي فــقط. هذا المشــهد في منتــصف الليل، الذي يتــبــدى أمام عــيني من الغرفــة المضاءة الوحيدة في بيــت في وسط غابة الصنوبر، إنك تقدمينه لي كله...

لماذا فعــلت ذلك، يا سيــدتي العزيزة، مــا هذه الوحشــيّة المطلقة، ما هذا الدافع الشرير الذي دفعك لأن تجعليني أشاطرك في الرؤية التي كنت أعــتقــد أنها لي وحــدي مع مخــتلس نظر آخر، متلصص آخر مثلي، يقف على بعــد بضعة أمتار أمامي،

(*) «أفروديت ذات الردفين الجـميلين»، تمثال امــرأة عارية من العصــر الهيليني، يظهر امرأة شبه مغطاة، ترفع غلالتها لتكشف عن وركيها وردفيها الجميلين، وتنظر إليهما من فوق كتفها لتراهما - م.

والذي كشف وجوده صوت اهتـزاز الأغصان، ورغم أن صوته لم يدركه أحد، إلا أنه كان مدوياً في أذنيّ المتيمتين الحساستين؟ لماذا؟ لماذا كان ذلك المـتطفل هناك، مع أنني كنت أظن أن ذلك المشهد كان لي وحدي، أو لنا وحدنا، أنا وأنت؟

من كان المتلصص الآخر؟ هل كان مـتطفلاً بالصدفة؟ هل يعـرف عاداتك، يا خلـيلتي العزيزة؟ هـل كان، مـثلي، على موعد كنت قـد حددته له، موعد غـرامي يلائم - اعذريني إن جرحت مشاعرك - محظية محـترفة، عاهرة من الطبقة العليا؟ هل يمكنك أن تصدقيني القـول؟ هل يمكنك على أقل تقدير أن لا تجعليني أصبح مختلس نظر حقيـراً، مثيراً للشفقة، مجنوناً، حبيباً مخدوعاً؟

6

من بيرنال هيريرا
إلى الرئيس لورينزو تيران

أكتب لك الآن، يا سيادة الرئيس تيران، متمنياً لك التوفيق في الكلمة السنوية التي ستلقيها أمام الكونغرس، والتي عُدّل موعد إلقائها ليصبح في مطلع كانون الثاني في ضوء الأوضاع الوطنية الطارئة الراهنة، لكي تتمكن من التحدث بشجاعة أجلّها وأقدّرها فيك كثيراً، قبل أن تلقي رئيسة الولايات المتحدة الأمريكية خطاب حالة الاتحاد. إذ إن ردّ فعل البيت الأبيض على القرارات التي اتخذتموها عشية عيد الميلاد وعطلة سان سيلفيستر - بالحفاظ على ارتفاع سعر النفط والدعوة إلى إنهاء الاحتلال الأمريكي لكولومبيا - لا يمكن أن يوصف إلا بأنه عقاب. لكنني لا أنصحك بأن تستخدم هذه التعابير عندما تلقي خطابك: بل تمسّك بذريعة تعطّل نظام الاتصالات الدولي. ولا تذكر عبارة «لقد انهار النظام»، أولاً، لأن هذا النوع من العبارات سيعيد ذكريات حزينة عن أعمال التزوير القديمة العهد

التي ارتكبت في ظل حكم الحزب الثوري الدستوري «دكتاتورية تامة»، كنّا رميناها وراء ظهورنا أخيراً. وثانياً، لأن كلمة «انهيار» تعني ذلك الفعل الذي يتحول بطريقة غير سارة إلى نبوءة ذاتية، كما جاء في التعبير الذي سكّه لنا أبناء عمنا في الشمال. وبدلاً من ذلك، أوصيك بأن تتحاشى توجيه أيّ انتقاد إلى الحكومة الأمريكية، وأن تعرض ذلك على أنها مشكلة تقنية مؤقتة أصابت شبكة اتصالات القمر الصناعي العالمية، سببها ردّ فعل غير متوقّع لازدواجية الأرقام في بداية السنة الحالية، 2020. نوع متأخر، لكن ربما كان متابعة لظاهرة بقة الألفية التي أصابت الجميع بالذعر قبل عام 2000، عندما كانت جميع أجهزة الكومبيوتر في العالم - الشخصية والحكومية، في البنوك والمطارات، الخاصة والعامة - ستفقد عقلها عندما ينتقل نظامها من الرقم «19» إلى الرقم «20». وليس من المهم إذا لم يصدقوك غداً، ما داموا يتقبلون القصة اليوم. استخدمها، فلن تخسر شيئاً. كلّ ما هنالك ألا تأتي على ذكر حكومة الولايات المتحدة. سيادة الرئيس، تحدّث عن وقوع عطل فني بسيط. اغفر لي لأني أكرر ما أقوله مرات عديدة، فأنا لا أكتب إليك هذه الأمور كمجرد رسالة تذكيرية، بل باعتبارها مذكرات صغيرة لي أنا، إنك تعرف كيف أفكر وأسلك. وبحكمتك وثقتك العظيمتين، أطلب منك أن تتفهم صديقك القديم وأن تسامحه. أما الشيء التالي فهو: كن حريصاً على عدم التطرق

كثيراً لمسألتي كولومبيا وأسعار النفط، بل ركّز على مشاكلنا المحلية. أعرف أن عدداً من الوزراء - وخاصة الذين يطلق عليهم التكنوقراط - سينحون باللائمة عليّ بصفتي وزيراً للداخلية. وسيقولون إنني سأستفيد من هذا الوضع. بأني أهيّئ نفسي - اعذرني لكوني صريحاً للغاية - لكنني أنا وأنت أكثر من مجرد رئيس وتابع له، رئيس جمهورية وموظف مؤتمن؛ فنحن صديقان قديمان، وأنا أعتقد أننا كذلك دائماً، لأن خلافة الرئيس ستتم بعد أقل من ثلاث سنوات، وما إلى هنالك. إنك تعرفني، وتعرف أنني عندما أقدم لك المشورة أضع في اعتباري دائماً شيئين اثنين، أولهما، أنني رفيقك المخلص، وثانيهما، أنني أضع مصالح المكسيك فوق كل اعتبار. فلم يكن بوسعي أن أتبوأ منصب وزير الداخلية لو لم يكن باستطاعتي أن أعادل بين هذين الأمرين. الولاء للمكسيك والولاء للرئيس. وبعد قولي هذا، اسمح لي أن أكرر بقناعة شديدة بأن المشاكل الرئيسية التي يجب معالجتها بسرعة وحكمة هي الاضرابات الثلاثة الجارية حالياً.

أولهما، الطلاب الذين يرفضون تسديد رسوم التسجيل أو إجراء امتحانات القبول، ويحتلّون حالياً عدة مبانٍ في الحرم الجامعي.

وثانيهما، العمال المضربون في المصنع في سان لويس بوتوسي الذي تملك معظم أسهمه شركة يابانية.

وثالثهما، مسيرة الاحتجاج التي يقودها الفلاحون في لا لاغونا، الذين يطالبون باستعادة الأراضي التي وعدهم بها نظام الإصلاح الزراعي في عهد الرئيس كارديناس، الأراضي التي انتزعها منهم شيئاً فشيئاً الزعماء المحليون الفاسدون في الشمال.

أما توصياتي، يا سيادة الرئيس، فهي كما يلي:

تجاهل أمر الطلاب. باستطاعتهم احتلال مكتب العميد ومباني الجامعة كلها إلى أن يتجمّد الجحيم. بالنسبة للطلاب، لا ينفع معهم سوى القمع. ولا تنس أبداً مذبحة ميدان دي لاس تريس كولتوراس في عام 1968، وكيف أن النظام، الذي خيّل له أنه حقق انتصاراً ما، كان قد انتحر في واقع الأمر في ذلك اليوم، بإثارة الغضب العامّ، المعاناة الجماعية، وفي النهاية، موت الاستبدادية ونظام الحزب الواحد، بالإضافة إلى خزي الرئيس إلى الأبد في ذلك الوقت، وإرغام الذين خلفوه على أن ينأوا بأنفسهم عنه، «جزّار تلاتيلولكو»، حتى عندما كان ذلك يعني تحدّي المنطق الاقتصادي. أما النتيجة فكانت أننا أخذنا نتخبط من أزمة إلى أزمة، لأن كل ما فعلناه هو أننا قتلنا عدداً من الطلاب. دع الأمر كما هو واتركه حتى يتعفن. إذ سيعود جميع هؤلاء الطلاب المفعمين بأفكار التضامن اليوم إلى صوابهم ويفكّرون بأعمالهم غداً.

دعنا نلزم الهدوء، يا سيادة الرئيس، ونتحلّ برباطة الجأش أكثر من بنيتو خواريز.

أما بالنسبة لعمال مصنع السيارات المضربين الذين يطالبون بزيادة أجور فظيعة ويجرؤون على مقارنة رواتبهم برواتب نظرائهم في اليابان، فاضرب المضربين بيد من حديد، وأعلن أمام العالم أنّ المكسيك ترحّب بالاستثمارات الأجنبية بأذرع مفتوحة. فلدينا فائض من اليد العاملة الرخيصة، وسينتهي بنا الأمر بأن نربح جميعنا. أما العمّال الساخطون، فسيكونون سعداء إذا بنيت لهم قاعة سينما مجانية، ومستشفى لائقًا.

قد تقول إن تدخّل الشرطة في سان لويس بوتوسي سيعمل لمصلحة الرئيس/ الزعيم العنيد رودولفو روكوي مالدونادو، لكني أجادل بأن مجرّد انتشار القوات من جانبنا سيبث الذعر في مالدونادو ويجعل هؤلاء اليابانيين الأذكياء يقفون إلى جانبنا. لا شكّ أنها مجازفة. فكّر بالأمر يا سيادة الرئيس. إننا لا نريد أن نلعب عندما يتعلق الأمر بخبزنا وزبدنا. هل تتذكر أغنية بيدرو إنفانت القديمة؟ فقد أُعطيت الزوجة بيزوتين اثنتين لتسديد الإيجار وفواتير الهاتف والكهرباء. الحنين إلى تلك الأيام قبل أن يحصل التضخم. في جميع الأحوال، فإن قدراً قليلاً من النقود أفضل من لا شيء، ولن تقبل عائلات عمّال سان لويس ألا يجلب رجالها نقوداً إلى البيت. وسترى الشركات الأجنبية أن السلطات هنا راغبة وقادرة على الدفاع عن الاستثمارات الأجنبية. فكيف استطاعت النمور الآسيوية أن تكسب كل هذه الأموال؟ اسأل شبح لي كوان يو. إن سنغافورة

مكان آمن لأنهم يقطعون يديك إذا سرقت. بالإضافة إلى ذلك، عزيزي الرئيس، فإن عرضاً للقوة في منطقة سان لويس بوتوسي سيساعد أيضاً في إخضاع الزعماء المحليين الذين يستغلّون حالات الفراغ في بنية القوة الإقليمية التي سببتها مرحلة انتقالنا الطويلة إلى الديمقراطية. أعرف أني أكرّر شيئاً كنت قد ذكرته من قبل. اعذرني لأني أعود إلى هذه النقطة. لكننا في الغالب، نمنح الديمقراطية لنفقد السلطة، ونخلق جيوباً من الفوضويين يملأهم صف لا ينتهي من الزعماء المحليّين والقوى التي يقودونها: مالدونادو في سان لويس، وفيليكس إلياس كابيزاس في سونورا، وشيشو دلغادو في بايا كاليفورنيا، وخوزيه دي لا باز كوينترو في تاموليباس.

وأخيراً يا سيادة الرئيس، أولِ اهتماماً للفلاحين في لا لاغونا. استغل الوضع لإحياء بعض القضايا الزراعية التي أجبرتنا سياستنا البرغماتية على إهمالها. امنح حكومتك دعم الجماهير الريفية التي يتلاعب بها دائماً أعداؤنا - الزعماء المحليون المذكورون أعلاه، كبداية - بواسطة العزلة والجهل، معتمدين على الواقع بأن أيدينا مغلولة بسبب قربنا من الولايات المتحدة، وكأن الديمقراطية والسلطة لا تتوافقان. إنك تعرف الشعار الذي أرفعه: نعم للسلطة، لا للاستبدادية. استغل الموقف كي تلصق ذلك بالزعماء المحليّين، وسيشكرك على ذلك قطاع التجار في الشمال، لأنهم يعرفون أكثر من أي

شخص آخر، أن الفقر أسوأ استثمار على الإطلاق، وأن الفلاح الجائع لا يستطيع أن يشتري الطعام من السوبر ماركت، أو الثياب من محلات بنيتون المحلية.

أما بالنسبة للموضوع الذي يخصنا بالسرّ المتعلق بجريمة قتل توماس موكتيزوما مورو، فإن نصيحتي لك بأن تتركها كما هي، باعتبارها سراً يلائمنا جميعنا.

يا سيادة الرئيس، أتمنّى بكل صدق أن تنظر في نصيحتي هذه بروح من الوطنية وبالدعم الذي أعرضه عليكم. «هذا»، قال أحد الفلاسفة الألمان، «هذا»، إن كلمة «هذا» هي أصعب كلمة يقولها المرء. حسناً، يا سيادة الرئيس، هذا ما أحثّك على عمله: افعل هذا. قل، تجرأ وقل هذا.

ملاحظة: أرفق طيه المذكّرة التي طلبت من خافيير ساراغوسا أن يكتبها ويشرح لك فيها أسباب العطل الذي طرأ على نظام الاتصالات.

المذكّرة

يتعرض نظام اتصالاتنا الحديث لمفارقة خطيرة، فمن ناحية، بذلنا كل ما بوسعنا لنصبح جزءاً من أضخم شبكة اتصالات عالمية في الوجود، ومن ناحية أخرى، كنا نرغب في أن نحتكر الحصول على المعلومات لصالح حكومتنا. ولبلوغ الهدف الأول، أعطينا إدارة الإذاعة والتلفزيون والاتصالات

السلكية واللاسلكية والإنترنت، وكل ما يتعلق بذلك إلى مركز فلوريدا للأقمار الصناعية، الذي يقع في ما يسمّى عاصمة أمريكا اللاتينية، ميامي. وكان أملنا من ذلك أن يضمن لنا هذا القرار الدخول في شبكة الاتصالات العالمية. ونقلنا عملياتنا العالمية إلى شركات خاصة مثل شركتيّ X9NوB4M، للحصول على أقصى درجة من الكفاءة، وعلى أقصى ما يمكن من الاتصالات. أما الشيء الذي لم نكن نعرفه فهو أنّ الشركات الخاصة هذه التي اعتمدنا عليها، كانت تعتمد بدورها على البنية التحتية التي تسيطر عليها وزارة الدفاع الأمريكية. ولم نكن نعرف كذلك أن مركز فلوريدا للأقمار الصناعية يعمل برعاية وزارة الدفاع الأمريكية التي تسيطر وتتحكم بفعالية النظام أو عدم فعاليته، بالإضافة إلى أزماته الحقيقية والمحتملة والمخطّط لها عبر الوصول حصرياً إلى المدارات المتزامنة لعدد من الأقمار الصناعية الثابتة التي تبعد 40000 كيلومتر فوق سطح البحر. وكان النذير لذلك أزمة Y2K في السنة الجديدة 1999-2000، أو ما يدعى «ببقة الألفية» التي كان يظن أنها ستؤدي إلى تعطل نظام الاتصالات العالمي، عندما تقفز أجهزة الكمبيوتر المبرمجة من الرقم «19» إلى الرقم «20.» ولم يكن هذا الذعر، كما أصبحنا نعرف الآن، سوى أسلوب اتبعته وزارة الدفاع الأمريكية لتذكر الجميع بأنها قادرة على أن تجعل المعلومات لا مركزية في حال تعرضت البنية التحتية إلى الهجوم، أو أن تقوم

بزعزعة النظام طوعاً، بادعاء أنه تعرض لهجوم (لا وجود له).
إذن كـان خطأ المكسـيك أنـها قـررت أن تـفـعل ذلك بعـينين مغـمضتين، وبأمل عـولمة اتصالاتنا بسرعـة عن طريق الارتباط بعملية لا نملك نحن أنفسنا السيطرة عليها أو التحكم بها، فيما قـمنا بتسـيـيس الاتصالات عـلى الصعـيـد الداخلي لإحبـاط الاسـتـخدام الديمقـراطي التعـددي لوسائل الإعـلام هذه. وقد اختارت حكومة الحزب الثـوري الدستوري التي عادت إلى سدة الحكم في عـام 2006، الحـداثة الخـارجـيـة عـبـر فلوريدا، والاحـتكار الرسمي للـشبكة في الداخل. فـمن ناحـية تعـمل الحكومة عمودياً، ومن ناحية أخرى تـعمل الشبكة أفقياً. وكان الرئيس سيزار ليون قد قرّر أن يجعل جميع الاتصالات الداخلية أفقـية، مما يعني حرمان اتحـادات العمال، والزعـماء المحليّين، والجامعـات، والحكومات المحلية، والمجتـمع المدني بشكل عام من استخدامها، في حين مُنحت الشركات التجارية التي تحابيها الحكومة، وعلى نحو قـاتل، صناعة الترفيه، اتصالات أفـقية. قيل الشيء الكثـير عن الأخ الكبيـر. لا توجد إضرابات كبـيرة (في الواقع، لم نتفاد الإضرابات، بل أعلنا بكل بساطة أنها غير مـوجودة؛ وتمثل الهـدف الرئيـسي في ألا يحاكي أي إضـراب إضراباً آخر أو أن يلقى دعماً منه). وتكمن الفكرة في أنه عندما بدأت أنظمة العالم صغيرة، ثم تنامت بسـرعة، وقدمت قيمة، كانت حكومة المكسيك قد بـدأت كبيرة، ونمت ببطء، وأنتجت

قمامة. محلياً، حدّدنا أنفسنا ببوابة حاسوبية ضيّقة؛ وعالميا، كشفنا أنفسنا أمام بوابة هائلة. لذلك أصبح تعرضنا للخطر مضاعفاً. وها هي الآن الولايات المتحدة تغلق بوابتنا الكبيرة، فأثّرت على جميع جوانب اتصالاتنا، لا الخارجية منها فحسب بل الداخلية أيضاً، بما أن اتصالاتنا الداخلية الضئيلة تعتمد اعتماداً كلياً على مركز فلوريدا للأقمار الصناعية. لقد استبدلت بقة العام 2000 بما يدعى ببقة العام 2020، وهي بقة لم تؤثّر إلا على المكسيك بشكل خاص، كوسيلة لمعاقبة البلاد لأنها عارضت الاحتلال العسكري الأمريكي لكولومبيا، ولأنها أيدت ارتفاع أسعار النفط الذي قررته الأوبك. إنها تُعرف «بعملية كوكاراشا». وكما تعرف يا سيادة الرئيس، كما تقول الأغنية المعروفة «لا يستطيع الصرصور أن يمشي إلا إذا حصل على شيء يدخنّه - ماريوانا، حشيش، شوكولاته فو مانتشو... إن «20/20» هي العبارة التي يستخدمها الأمريكيون لوصف حدة البصر وصفاء الرؤية على مسافة عشرين قدماً. أما ما يفصل بلدينا، فهي حدود يبلغ طولها 1200 ميل. توصّل إلى استنتاجاتك الخاصة بك يا سيادة الرئيس. وفكّر إلى متى نستطيع أن نهدئ من روع المستثمرين اليابانيين في كوهويلا - مع أنه يقال بالطبع، إنه توجد لديهم أساليبهم السرية لفهم الأشياء.

7

من ماريا دل روساريو غالبان إلى نيكولاس بالديبا

ألم يُدخل موعدنا الليلة قبل الماضية السرور إلى نفسك؟ هل أحسست بالإهانة من الطريقة التي جعلتك فيها شخصاً متلصصاً؟ لا تفقد صبرك أو أعصابك. أظهر قليلاً من الرقة يا عزيزي، قليلاً من الإنصاف، قليلاً من الشفقة لصديقتك المسكينة. لقد كانت لديّ حياة قبل أن نلتقي كما تعرف. إنك تريد يا عزيزي نيكولاس الطيب أن تظن كما تقول الأغنية القديمة: «لا وجود للماضي، وإننا ولدنا في اللحظة التي التقينا فيها». أخشى ألا يكون الأمر كذلك، فأنا أكبرك في السنّ. وإن كنت ترغب في أن تلومني على الحياة التي عشتها قبل أن يتعرف أحدنا على الآخر، فإنك تعرّض نفسك لأمور عديدة. أولها، مفاجآت عديدة، بعضها غير سار على الإطلاق، وبعضها لذيذ نوعاً ما. وثانيها، أنك ستحترق بنار الغيرة من جميع الرجال الذين كانوا عشاقي ذات يوم. وثالثها، أن صبرك سينفد من الجدول الزمني الذي أفكر به من أجلي ومن أجلك.

«لماذا هم وليس أنا؟»

من بين الاحتمالات الثلاثة، يروق لي الاحتمال الثاني فقط. إذ تعشق النساء - وأنا لست استثناء منهن - أن يكنّ موضوعاً للغيرة. فهي تؤجج فيهن لهيب العاطفة. تلهب الانتظار الطويل البارد، وتضمن ذروة الإثارة الإيروتيكية الأكثر بهاء وألقاً. لكن دعني أتجه مباشرة إلى الفكرة التي أريد أن أقولها. سترى. سأصبح الآن مختلسة للنظر معك. سنجلس معاً هنا في غرفة جلوسي، أحدنا إلى جانب الآخر، وسنناقش بالتفصيل نسختي من الخطاب الذي ألقاه الرئيس ليلة البارحة. لقد أحضرت شخصاً ليصوّر هذا الحدث، ولن نركز كثيراً على الرئيس وعلى ما قاله، بل على وجوه الأشخاص الجالسين في صفوف المستمعين، لكي تتعرّف على السياسيين الذين يحكموننا.

أولاً دعني أنتهِ بسرعة من رئيس الكونغرس الذي ردّ على الخطاب. اسمه أونيسمو كانابال، وهو تافه في كلّ شيء: في الماضي والحاضر والمستقبل، وفي شكله وحجمه الجسدي، ومكانته السياسية، وتكوينه الأخلاقي، إنه واحد من بين الآلاف، لكنه اليوم أصبح يشعر بأنه شخص لا مثيل له. كيف يمكن له أن يعرف الحقيقة؟ فلن يخبره أحد بحقيقته على الإطلاق. يجب أن يضرب نفسه على رأسه كي يتبين كم هو غبي. لكن كما تعرف، يذهب معظم البلهاء إلى قبورهم دون أن يعرفوا أبداً أنهم أغبياء.

لننتقل الآن إلى الوزراء الذين يجلسون في الصف الأمامي من قاعة الكونغرس.

وزير الداخلية، بيرنال هيريرا، وكاتم أسراري. إنه يتمتع بخبرة وبرأي سديد. إنه يعرف أن للنظام حدوداً، وأن لا حدود للفوضى. إن توازنه السياسي يكمن في تجنّب الفوضى المزمنة والشرور المتطرّفة التي تغذّيها: الجوع، الإحباط، عدم ثقة الشعب. ويعلم هيريرا أن الفوضى تثير أعمالاً لا عقلانية وتسهّل حدوث مغامرات سياسية يتبين في نهاية الأمر أنها مصائب. إن المرارة تنكأ الكثير من الجراح، وتمنحها فترة قصيرة من الزمن كي تلتئم. إذن هيريرا رجل يدعو إلى ثلاثة أنواع من القوانين: القوانين التي يمكن أن تطبق، والقوانين التي لا يمكن أن تطبق على الإطلاق، والقوانين التي تمنح الناس الأمل، سواء كانت قابلة للتطبيق أم لا، أو كانت تتعلق بالمستقبل أكثر منه بالحاضر. إنه أفضل وزير وسياسي في حكومتنا.

أما وزير الخارجية، باتريسيو بالافوكس، الجالس إلى جانب هيريرا، فهو رجل ذو خبرة أيضاً، مثالي لكنه واقعي. وهو يفهم أننا نعيش بجوار القوّة العظمى الوحيدة في العالم، وأننا نستطيع أن نختار أصدقاءنا لكننا لا نستطيع أن نختار جيراننا (تماماً كما لا نستطيع أن نختار أقرباءنا، مهما كانوا غير مناسبين لنا في معظم الأحيان). إن بالافوكس يجيد التعامل مع الأمريكيين، لكنه يجيد خاصة كيف يجعلهم يرون أن المكسيك

بلد ديمقراطي أيضـاً ويجب أن يولوا اهتماماً برأيه العـام. ففي بعض الأحيـان، يقول لهم إننا لا نسـتطيع أن نسيـر ضدّ الرأي العام، تمامـاً كما لا تسـتطيع الولايات المتحـدة. لكنهم، لسوء الحظ، ينحـون إلى التمسّك بهـذا المبدأ بأي ثمن. فـالولايات المتحـدة تعمل دائماً وفق الاقـتراع، ومعارضـة الكونغرس، أو الآراء التي تظهر في الصحافة الوطنية، وتمضي السلطة التنفيذية في طريقها ما دامت أفكارها تنسجم مع كل هذه العوامل.

أما نحن، من الناحية الأخرى، فإننا ندفع ثمناً باهظاً لأننا نتخذ قراراتنا باسـتقلالية - وقد ثبت ذلك في حالة كـولومبيا. فقـد وجدنا أنفسنا مـرغمين على دعم الرئيس الجـديد، خوان مانويل سانتوس، والمطالبة بانسحاب الأمريكيين من البلد. ولم يكف أننا أبرمنا مـعهم اتفـاقيات تجـارية، وإجراءات لمكافـحة الإرهاب، وصـوتـنا في عـدد من المنـظمـات الدوليـة لدعم مواقـفهم، وحماية المـكسيكيين الذين سجنوا ظلمـاً بل وحتى الذين حُكم عليهم بالإعدام في الولايات المتحدة. لقد أنهى كلّ ذلك شيئـان أثارا الذعر - كولومبيـا والنفط - وجعل واشنطن تتخذ هذا الردّ القاسي، المتشـدّد: قطع جميع الاتصالات عنا، وجعلنا في هذا العالم المعولم مجرد صحراء.

ورغم كل ذلك، فـإنك لا ترى أدنى شـعـور بالقلق على وجه الوزير بالافـوكس، الذي يتحـدر من عائلة كـبيرة عـريقة عاشت على مدى ثلاثة قرون من تاريخ المكسيك المضطرب. لا

شيء يغضبه. إنه يتمتع بأعصاب فولاذية. إنه رجل محترف بكل معنى الكلمة، مع أنه يوجد هناك دائماً حفنة من الأشخاص الحقودين الذين يقولون أشياء مثل: «إن الصفاء الذي يميّز الوزير بالافوكس ليس بسبب دمه الأزرق، بل بسبب سمعته التي اكتسبها بصعوبة كلاعب بوكر».

يبدو أن القاعات التي تدرب فيها بالافوكس، ليست قاعات فيرساي بل صالات القمار، تلك الغرف المليئة بدخان السكائر والأنوار الخافتة ومناضد اللعب. مملكة الحظ، كما يقال. وقل لي يا صنيعتي الفاتن، كيف يمكن للمرء أن يوفق بين الضرورة والحظ؟ هذا هو السؤال العظيم الذي لا توجد إجابة عنه في جميع الأوقات، كما يقول صديقي العزيز خافيير ساراغوسا، الملقّب بـ «سينيكا» على نحو مضلّل، فقد تعلمت منه أكثر مما تعلمته من دراسة العلوم السياسية. إذا أردت معرفة المزيد، انظر إلى صحيفة البارحة: ففيها مقال رائع كتبه السيد فيدريكو رييس هيروليس، عبّر فيه عن آرائه بمناسبة بلوغه الخامسة والستين.

من الآن وصاعداً، ستبدأ الأمور في الانحدار، يا تابعي العزيز نيكولاس بالديبا. أما الآن، فلنأت إلى المراقب المالي العام، دون دومينغو دي لا روسا، المعروف للكثيرين باسم «فلامينغو» لأنه لا يعرف أبداً على أيّ ساق يجب أن يقف، اليسرى أم اليمنى. وبما أن حكومة رئيسنا الحالي تسمّى حكومة

«وحـدة وطنيـة»، فـفي بعض الأحـيـان يجب أن تسـتـرضي المحـافظين، وفي أحيـان أخـرى الليبـراليين. المشكلة أن كـلا الجانبين يكـون صادقاً عندمـا يكون في المعارضـة. لكن ما إن يتـولى رئاسة الحكومـة، حتى يتـعلم المقولة التي سكّهـا ذلك الشخص المتلون من ماضي بلادنا السحـيق، سيزار غاريزوريتا، المعروف باسم «حـيوان الأبوسـوم»: «من لا يعيش على حـياة الخزانة العامة فهو مخطئ».

لكنني أستطيع أن أخـبرك الآن أن الرجل الذي يحـاول، مثله، أن يكون صديق الجمـيع عن طريق توزيع الامتيازات يميناً ويساراً لن تبـقى لديه أموال كـافية. وإذا لم يتـبق لدى المراقب المالي العام ما يكفي من الأموال، فـكيف يمكن أن تتبقى أموال لدى الجمهورية؟

إنك مـحق يا عـزيزي نـيكولاس. إذ أن وزير التـعليم أوليـسس باراغان كـارثة بكل معـنى الكلمة. وهم يقـولون إنه يكذب أكـثر مما يكذب طبـيب الأسنان، وإنه لا توجد لمناجـاته الدائمة التي لا نهـاية لها سوى ميـزة واحدة: فهو قادر عـملياً على إثارة أيّ جمـهور بليد، ويكون مـفيداً عندما يتـعلق الأمر بالتعامل مع اتحـاد العاملين في مجال التعليم بأعـضائه المليونين المذعـورين عندما يجـتمـعون جـميـعهم في قـاعة إلبـا إستـر غـورديللو. أمـا الشيء الـسيء في الوزير باراغـان، فـهـو أن خطاباته مملّة إلى درجة أنه لا يجعل مستمـعيه يشعرون بالنعاس

فقط، بل يغلبه النعاس هو نفسه كذلك! ففي إحدى المناسبات مثلاً، أثار الصمت الطويل شكّ البوّاب في الجامعة الوطنية الذي وجد أن جميع من في قاعة المحاضرات يغطون في النوم: الحاضرون الستّة والستون الذين كانوا يستمعون إلى المحاضرة بالإضافة إلى المحاضر نفسه، الوزير باراغان.

أما وزير الصحة، أبنديو كولميناريس، فهو يؤدي عمله بثقة أكيدة، بل وحتى بخيلاء وغطرسة. إنه فاسد فاسق يستغل موقعه السياسي لينال متعه، كلّ ذلك بذريعة الشفاء. يا له من شخصية فظة، لكنه يستطيع أن يكون لطيفاً جداً عندما يريد. يقولون إنه فظ وشهواني: فلا يستطيع الرجال الذين يكرههم ولا النساء اللاتي يشتهينه الفكاك منه إذا ما علقوا في قبضته.

أما وزيرة البيئة، السيدة غويليرمنا غويلين، فهي مفعمة بالنوايا الطيبة. وخيالها شديد الخصوبة إلى درجة أن كل ما عليها أن تفعله هو عكس ما تفكر به لكي تكون واقعية. إذ تعمل على حماية ملاذات الطيور بتطهيرها بالبخار إلى حد أنها تقتل أيّ شيء وكلّ شيء يطير. كما توزّع رخصاً لقطع الأشجار يمنة ويسرة، وهي لا تعلم أنه لن يتبقى لها غابات تقوم بحمايتها. وبهذا تحلّ المشكلة. وكانت قد طلّقت زوجها مؤخراً لأنها اكتشفت أن رجلها الطيب لا يضع أسنانه الصناعية إلا عندما يزور عشيقته.

أما وزير العمل، باسيليو تاراسينا، فهو عكس ما يبدو عليه تماماً. انظر إلى عينيه. إنهما عينا كوريلو(*) قادم من غوودالاهارا مباشرة، لكنه لا يهدأ. إنه رجل مقنّع، تغطيه السحب، ضبابي، وإذا كان ثمة شئ يمنحه سبباً لأن يكون وزيراً للعمل، فهو جسمه. لاحظ مجموعة التشنجات اللاإرادية العصبية الكثيرة، والطريقة التي يحكّ فيها نفسه باستمرار: رقبته، تحت إبطيه، باطن فخذه، وكأن القمل يسري في جسده...

أما وزير الزراعة، السيد إبيفانيو ألاتوري، فهو صورة راسخة في السياسة الوطنية منذ أيام لوبيز ماتيوس، وقد اشتهر بتنبؤاته فيما يتعلق بالمحاصيل والطقس: «إذا ما أخذنا بالاعتبار كميات الأمطار الهاطلة، فمن الممكن أن تكون المحاصيل جيدة هذه السنة، وقد تكون سيئة، أو قد تكون العكس تماماً».

وبما أنه يشتغل في السياسة منذ أكثر من نصف قرن، كان كثيراً ما يُسأل كيف استطاع أن يبقى في ظل هذه التغيرات الكثيرة، بدءاً من لوبيز ماتيوس وحتى فوكس إل تيران، ورداً على ذلك، لا يفعل السيد إبيفانيو شيئاً سوى أن يلعق سبابته ويرفعها في الهواء وكأنه يريد أن يقول إنه يعرف دائماً في أي اتجاه تهب الريح. لا تجادله ولا تدخل معه في نقاش على الإطلاق. لأن ذلك سيكون أشبه بمجادلة فرقة مارياتشي(**).

(*) كوريلو: شخص من دم اسباني صاف مولود في أحد بلدان أمريكا اللاتينية – م

(**) فرقة موسيقية تعزف ألحاناً شعبية في الشوارع في المكسيك – م

ويجب أن تحـرص أيضاً على ألا تثق بوزير الاتصـالات، فيليب أغويري. إذ سرعان ما ستلاحظ أن لون وجهه هو نفس لون جواربه، وهي دلالة أكيـدة على طبيعة خسـيسة، أو على الأقل على عدم وجـود خيال. إن أقـواله المأثورة الشهـيرة عن الزواج تلخص حقيقة شخصـيته: «هل تريد أن تصبح عجوزاً؟ إذن امض حياتك كلها مع المرأة العجوز ذاتها».

وفي حين أن هذه النصـيحـة قد لا تكون أخـلاقيـة، فإن تصـرّفه ليس كـذلك. فـقد أصـبح عـجوزاً ويعـيش مع المرأة العجوز ذاتها، وهي امرأة ضخمة الجثة تبث الذعر في نفس كلّ من يعبر طريقها لأنها تمشي وهي مغمضة العينين، مثل مصّاص دماء بدين أعمتـه الشمس. والدليل على ذلك أن أفضل وسيلة للتـواصل مـع مـسـؤول الاتصـالات في بلدنـا هي الصـمت والظلام، ومنح عقـود توفر له عمولات مربـحة جداً. ويطرح الآن هذا السؤال، لماذا يتحـمّله الرئيس إن كان يعرف أن الوزير لا يرى شيـئاً ويسرق كلّ شيء؟ إنهـا نظرية استثنائيـة وقديمة يا عزيزي نيكولاس: فالحكومة لا تعمل إذا لم تزيّتها بالفساد.

إن الفســاد يجعل الأمور طرية، ليّنـة، لكن انظر إلى وجه رئيس شركة النفط الوطنيـة المتجهم، السيد أوليغـاريو سانتانا، فـهـو يرحّب برأس المال الأمـريكـي ويرفض أن يخـصـخص الصناعة، لكننا عندما ندافع عن أسعـار النفط، تعاقبنا الحكومة الأمريكية، وبـذلك فهي تعاقب مسـتثمريها أنفـسهم. هذا هو

تناقض واشنطن الأبدي الذي يقع بين الادعاءات الدولية الجارفة والمصالح المحلية الصغيـرة: فمصنع النسيج في نورث كارولاينا سيقضي دائماً على مصنع النسيج البرازيلي وعلى منظمة التجارة العالمية، لأن هذين الاثنين لا يصوّتان في الانتخابات الأمريكية. وكما سترى، فإن قسمات وجه رئيس شركة النفط تشبه قسمات شخص لا يتوقف عن اغتصاب فتيات في العاشرة من عمرهن. فكيف يسمح لنفسه أن يظهر على الملأ وترتسم على وجهه هذه التعابير المذنبة؟ إنه رجل يستحق الشفقة.

الآن وجّه انتباهك إلى الضابطين العسكريين اللذين يجلس أحدهما بجانب الآخر. فالضابط الذي يبدو مثل يونكر بروسي(*)، كما تعرف، هو وزير الدفاع، موندراغون فون بيرتراب، الذي درس في هوكشول دير بندزفيهر، الأكاديمية العسكرية الألمانية، ولديه علاقات ممتازة مع وزارة الدفاع الأمريكية، وكان قد قرأ كلّ ما يتعلق بحملات القيصر في بلاد الغال وحملات بونابرت في إيطاليا وحفظها عن ظهر قلب، ويمكنه أن يلقي كلاوسفيتز عن ظهر قلب، ولا توجد صفحة واحدة في تاسيتوس جيرمانيا أو تاريخ ليفي لم يدرسه بعناية شديدة. إنه أفضل مثال على الضابط المخلص المثقف والمسؤول والجاد الذي تحتاجه الأكاديمية العسكرية البطولية منذ أجيال. لكن لا تستعجل وتغامر بنفسك معه يا عزيزي نيكولاس

(*) اليونكر: عضو من أعضاء الطبقة الارستقراطية الإقطاعية البروسيّة – م

بالديبا. فبسبب تعليمه وكفاءته المهنية تماماً، فإن فون بيرتراب رجل آلي منضبط ينفذّ واجباته حرفياً: الولاء للرئيس، ما دام الرئيس يحافظ على ولائه لمؤسسات الجمهورية، لكنّه موال ومخلص لروح الأمة - مهما كان ذلك يعني - أكثر من ولائه للرئيس نفسه إذا ما خيّل له أن الرئيس لم ينجز مهامه تجاه الأمة. ونحن نعرف تماماً ماذا يعني ذلك! ومع كل هذا، فإن اليونكر المحلي الجديد بالإعجاب لا يوسّخ يديه، يا نيكولاس، بل يترك ذلك للشخص الشرير الجالس إلى جواره، سيسيرو أروسا، رئيس الشرطة الاتحادية.

انتبه جيداً إلى هذا الرجل، وإني جادة فيما أقوله حقاً. إن فون بيرتراب هو الوجه الودود للقوة، أما أروسا فهو الشخص الحقير، وشعاره «الدم والموت والنار.» إنه ذئب يرتدي ثوب إنسان، وعقبته الوحيدة هي فون بيرتراب، الذي قال عن سيسيرو: «إن منح أروسا أيّ سلطة أشبه بتعيين شخص يحب إشعال الحرائق مسؤولاً عن إدارة الإطفاء».

ومع ذلك فإنه لا يساور أحداً - وأعني لا أحد حقاً - أيّ شكّ بأنه يمكن الاستغناء عن أروسا في الوقت المناسب. وهو يعرف ذلك، وهو يتوقّع تلك اللحظة بخلسة نمر يطوف في الغابة: يقولون إنه كان بإمكان الجنرال سيسيرو أروسا أن يرغم بنيتو خواريز على الاعتراف بأنه عميل مزدوج للفرنسيين. إني لا أقول أن أروسا ليس مفيداً، لكني أقصد، بما أنه مفيد وبنّاء، فإن ذلك يعني أنه يحوّل التخويف إلى خدمة عامة.

أظن أني سألخص وزير الإسكان، إفرين إتوربيد، في بضع جمل قصيرة. فهم يقولون إنه أفضل غبي يرتدي بدلة على سطح الأرض. وهو يتباهى بأنه سليل ذلك الإمبراطور الأخرق المثير للضحك الذي كان إمبراطوراً لنا في مطلع القرن التاسع عشر، أوغستين الأول، وهذا ليس صحيحاً. إن إفرين العزيز يتصنّع ذلك المظهر لكي يزيّف نسبه. ومن الطبيعي أنه لا يمكن لأحد أن تكون له مثل هذه البشرة نصف الشفافة دون أن ينتمي إلى طبقة «أناس محترمين». محترمون يا صديقي؟ هذا ما يقوله الرأي العام عنه وعن منصبه: «إن إفرين إتوربيد هو وزير الدولة لشؤون إسكان إفرين إتوربيد».

وهذه هي الحقيقة. فلم يقم ببناء سوى بيت واحد: بيته هو.

أما ذلك الرجل الذي تبدو من تعابير وجهه أنه مندهش، فهو خوان دي ديوس مولينار، وزير الإعلام ووسائل الاتصالات الذي، بفضل تصرّف جيراننا الأشداء، جُرِّد فعلياً من قدرته الإعلامية، باستثناء قدرته على كتابة الرسائل، كما قرّرت أنا أن أفعل (وأرجو أن يحذوا جميعهم حذوي). انظر إليه كيف أنه سيء المظهر والهيئة، هذا المسكين: فهو كئيب المزاج، ولديه ابتسامة خجولة، وعينا نمر، ويدا نجار، وجذع مغن إيطالي. في بعض الأحيان، تبلغ أمنا الطبيعة هذه الدرجة من الحقارة! والأهم من كل هذا وذاك، فله فم مغلق كقفل. إنه صورة حيّة عن البليد المذهول، وإني أشعر بالأسى عليه. يقول صديقي هيريرا إن هذه

الطريقة أفضل. وبما أن وزير الإعلام لا يقدم معلومات، فإن وزير الداخلية يتلاعب بالأخبار كما يشاء.

وبخلاف ذلك، انظر إلى المدعي العام المبتسم، بالاديو فيلاسينيور، الذي يقول لكل شخص أينما ذهب: «هذا عظيم، هذا عظيم»، ولا عجب أن يُطلق عليه اسم «السيد هذا عظيم»، لكنني أظن أنه أذكى بكثير مما يبدو، وأن سمعته بأنه أحمق تنقذه من أن يتخذ قرارات حاسمة، أو أن يحقّر علناً الأشخاص الذين يضاجعهم تحت الطاولة. وكما ترى، فإن لذلك محاسنه ومساوئه، لذلك ليس من العبث، حسب الظروف، أنه يستطيع أن يكون ثعبان البحر أو محارة.

والآن يا عزيزي نيكولاس، يأتي دور اللاعبين الجدد. فوزير المالية، أندينو ألماسان، تكنوقراطي صلب، يرفض أن يتزحزح سنتيمتراً واحداً عن معتقداته الراسخة بالاقتصاد. إنه لاهوتي عنيد في علم الاقتصاد. فهو يعتبر أن تخفيض قيمة عملتنا أشبه بأن تجعل ابنتك مومساً. أما الشيء الذي لا يعرفه هذا الرجل المسكين هو أن زوجته، التي يطلق عليها الجميع «لا بيبا»، قحبة تخونه ليلاً ونهاراً. لكنني سأحدثك عنها في وقت لاحق يا عزيزي.

إني متلهّفة لأن أصل إلى أسوأ واحد فيهم لكي أنهي العرض المرعب هذا. إذ أن أكثر الأصوات العصية على التفسير

في جوقة رئاسة الجمهورية هذه هو رئيس ديوان الرئيس لورينزو تيران، المتملق، الجدير بالازدراء، تاسيتو دي لاكانال. انظر بدقة: يجب ألا يُرى في وضح النهار، فرأسه أشبه بندبة كبيرة تمتد من ذقنه وحتى مؤخرة رأسه، ويغطي كلا المنطقتين شعر قصير خشن لا يخفي كثيراً بيضة جمجمته الصلعاء. انظر إليه كيف يفرك يديه معاً في محاولة لأن يبدو متواضعاً. إنه يحاول أن يبدو ذلك الفقير الدائم، وكأنه على وشك أن يستجدي؛ إنه ممسحة أرجل، بساط يدوسه الرئيس بكل معنى الكلمة. إنه يتحكم بالدخول إلى المكتب التنفيذي، ويتطوع لأن ينظّف نعليّ الرئيس قبل أن تطأ قدماه مكتبه. إن تاسيتو دي لاكانال من ذلك النوع من الرجال الذين يبدون وكأنهم لم يستنشقوا هواء عليلاً في حياتهم. هذا ما يقولونه عنه. لكنني أعرف المزيد عنه. إن تاسيتو دي لاكانال هو الرجل الذي يراقبني من بقعة معينة في الغابة كلّ ليلة وأنا أخلع ثيابي. إنه المتلصص الذي ينافسك على نافذتي، مختلس النظر البغيض الذي رأيته في تلك الليلة...

تلك هي الشخصيات التي قدمتها لك في هذا العرض الصغير. سأنتظر وقتاً أفضل لكي أعطيك معلومات عن مجموعة أخرى من الشخصيات: المشرّعون من الدرجة الثالثة، أعضاء الكونغرس، وأعضاء مجلس الشيوخ الذين بعد أن سحقتهم الأقليات الصغيرة، تركوا إدارة الكونغرس بين يدي

رئيس الكونغرس الأحمق وغير الكفء، أونيسمو كانابال، الذي بامتناعه عن المصادقة على القوانين الضرورية، يجعل الرئيس والوزير هيريرا يتصرفان ببراغماتية تكون أحياناً قانونية، لكنها في أحيان أخرى لا تكون قانونية، كما حدث الآن (كولومبيا ومسألة النفط)، براغماتية جلبها مبدأ للتعويض عن البراغماتية التي أرغمهما عليها تشرذم الكونغرس وتفرّق صفوفه، والتي كان عليهما أن يقبلاها كجزء لا يتجزأ من النظام.

أما الآن، فقد جاء دور الأخبار الطيبة يا أميري الليلي الجميل. فقد طلب صديقي المقرّب، وزير الداخلية بيرنال هيريرا من الرئيس معروفاً شخصياً: أن يعيّنك مستشاراً لمكتب الرئيس في لوس بينوس، حيث لن تعمل مع أحد إلا مع تاسيتو دي لاكانال.

هل إني أقدم لك كأساً مليئة بالسمّ؟ لا. إني أمنحك الفرصة يا حبيبي لكي تحضر لي تفاحة ذهبية من قلب عدن الخربة. استفد من ذلك إلى أبعد الحدود، يا بالديبا. هل لديك أي سؤال؟

8

من خافيير «سينيكا» ساراغوسا إلى الرئيس لورينزو تيران

سيدي الرئيس! كيف لي أن أنسى ما قلته لي بعد أن تسلمت منصبك بأربع وعشرين ساعة؟

«إنهم يجعلونك تؤدي اليمين القانونية كرئيس للجمهورية، يا سينيكا، ويضعون على صدرك الوشاح الثلاثي الألوان، وتجلس على كرسي الرئاسة، وهكذا تبدأ مسيرتك! وكأنك تركب قاطرة سريعة، يدفعونك إلى الأسفل فتتمسك بالكرسي بقدر ما تستطيع وترتسم على وجهك تعابير الصدمة، تلوي قسمات وجهك فتتحول بسرعة إلى قناع لا تستطيع إزالته. وستبقى قسمات وجهك التي ظهرت في ذلك اليوم طوال ستّ سنوات، ومهما اختلفت الأساليب التي قد تحاول أن تبتسم من خلالها أو أن تبدو جدّياً، ممعناً في التفكير، غاضباً - فإن تلك النظرة التي ظهرت على وجهك في تلك اللحظة المرعبة ستلتصق بك، وعندها تدرك، يا صديقي، أن كرسي الرئاسة،

عرش النسر، ليس سوى مقعد في قاطرة سريعة نطلق عليها اسم جمهورية المكسيك».

منذ تلك اللحظة التي قلت لي فيها هذه الكلمات، يا سيادة الرئيس، فهمنا، أنت وأنا، أنك تدعوني لأن أكون إلى جانبك لأنك تريد شخصاً صادقاً معك، يسدي لك نصيحة موضوعية صادقة، ويساعدك في إخفاء تلك النظرة الحائرة المرتسمة على وجهك التي سببها ذلك الإحساس بأنه ألقي بك من منحدر شاهق إلى الخواء في تلك النزهة في مدينة الملاهي التي تُعرف برئاسة الجمهورية.

«إنهم ينتخبونك، يا سينيكا. وما إن يفعلوا ذلك، حتى تفقد جميع صلاتك الحقيقية بالناس. ويبدأ حتى أقرب أصدقائك بالرغبة في انتقادك».

حسناً، لقد حاولت أن أثبت أني جدير بثقتك، مع أن نصيحتي قد لا تكون هي الأفضل دائماً، لأنك تملك الحق في أن تدرس وجهات النظر المعارضة - وهي ليست قليلة في صفحات الافتتاحيات والأفلام المتحركة السياسية. ومن واجبي (على الأقل كما أفهمه أنا) أن أقول لك ما أعتقده بصدق تام. أما الآن، وبعد أن انقضت بضعة أيام على إكمالك السنة الثالثة في منصبك، يا سيادة الرئيس، فإن انتقادي المخلص لك هو أن الآخرين يعتبرونك شخصاً غير فعّال نوعاً ما، ولا يرون أنك

رجل يستطيع إدارة دفة البلاد، بل يرونك رجلاً يترك الأمور تجري دون أن يتدخل. إني أعرف ما هي فلسفتك: لقد اجتزنا مرحلة الاستبدادية، عندما كانت إرادة الرئيس هي الشيء الوحيد الذي يؤخذ بالاعتبار، من سونورا إلى يوكاتان، مثل قبعات تاردان التي عادت موضتها الآن. هكذا هي الأشياء، تأتي وتذهب!

إننا نعرف أن الحزب الثوري الدستوري قد مارس دكتاتورية معتدلة امتزجت بدرجة معينة من التسامح إزاء النخبة المكسيكية وآرائها الجاهلة بصورة عامة، وانتقادها، واحتقارها. فقد سُمح للشعراء والروائيين، والصحفيين العرضيين، ومهرّجي السيرك، ورسّامي الكاريكاتير، ورسامي الجدران الذين يفوقون الوصف، بأن يقولوا ويكتبوا ويرسموا ما يريدونه تقريباً. مجموعة من النخبة الثقافية تنتقد النخبة الحكومية، صمّام ضروري للتنفيس حتى امتد إلى الكوميديين - من سوتو إلى بيريستين إلى كانتينفلاس وباليلو، الذين مُنحوا جميعهم هذا الامتياز الكبير. ولم يُمنح منتجو الأفلام هذا الامتياز، ولا حتى معظم الصحفيين، باستثناء بعض اتحادات العمال المستقلة. لكن ماذا عن المحافظين - رؤساء البلديات غير الفعالين، والسلطات العسكرية في الأقاليم، وقوى الشرطة بشكل عام، حتى موظفي الجمارك المنحطين؟ إن عدداً كبيراً من مسؤولي السلطات المحلية، يا سيادة الرئيس، يتصرفون وهم يتمتعون بحصانة قوية

فاسدة تجعلهم يفلتون من قبضة العقاب. الفاسدون فقط هم الأحرار. لقد استنبطنا ثقافة تخلو من القانون، حتى عندما يتصرف الرئيس ذاته في نطاق القانون، أو عندما يطلق حملات أخلاقية.

بحق الله، يا سيادة الرئيس! حتى في زمن الاستعمار، كان الناس في مدريد يتحدثون عن unto mexicano، المرهم المكسيكي - الرشاوى، المبالغ التي كانت ولا تزال تدفع «للتأثير» على الناس. أتعرف ماذا يقولون: «من لا يخدع، لا ينجز».

ماذا حدث لك، رجل نقي خرج من صفوف المعارضة لينظف إسطبلات أوغياس؟ لقد تحولت إلى هرقل ديمقراطي يثق بقوّة المجتمع لينظف الأوساخ التي تركها هرقل الأسطوري بقوة وعنف، تماماً كما فعل هرقل إلهي آخر - المسيح - الذي أخرج التجار من المعبد بالسوط.

من الناحية الأخلاقية، يا سيادة الرئيس، إنك موضع إعجاب واحترام. دع المجتمع ينظّف نفسه بنفسه. دع الأنقياء بيننا يطهّرون الملوّثين - أو دعهم يطهّرون أنفسهم. مرة أخرى، اغفر لي صراحتي إلى درجة الفظاظة، يا سيادة الرئيس، واسمح لي أن أبرر انتقادي لك. إذ إنك تدرك، أنت نفسك، أن بعض جوانب الواقعية المكسيكية معتمة للغاية، ولا يستطيع

أن يسيطر عليها حقاً إلا الأشخاص ذوو الأيدي القذرة. وفي الوقت نفسه، فقد عانيت الأمرين لكي ترقي مسؤولين حكوميين مخلصين وصادقين يمكنهم أن يضفوا وجهاً عاماً جميلاً على نظامك. خذ وزير دفاعك، فهو ضابط عسكري مشهود له بالاستقامة والنزاهة، الجنرال موندراغون فون بيرتراب. أو وزير الداخلية، بيرنال هيريرا، المهني الجليل الذي يطيع القانون لكنه يفهم الحكمة اللاتينية القائلة dura lex sed lex: القانون قاس، لكنه القانون. ومن الناحية الأخرى، فإنك تعرف أنت وفون بيرتراب تمام المعرفة أن قائد الشرطة، سيسيرو أروسا، سفاك عنيف لا يتورع عن ممارسة القمع سواء كان مبرراً أم غير مبرر.

شرّ لا بد منه؟ ربما. لكن هناك حالة أخرى، يا سيادة الرئيس، ترفض أن تبحث فيها، وأنا هنا أشير إلى رئيس وزرائك، تاسيتو دي لا كانال. أعرف أنني عندما أقول ذلك، فإني أطرح رأياً مثيراً للجدل: فأنا أتّهم دون أن تكون لدي إثباتات. حسناً، إذن سأقتصر على ذكر ملاحظة أخلاقية بسيطة. هل يمكن لشخص متزلّف مثل تاسيتو دي لا كانال أن يكون رجلاً صادقاً؟ ألا ترتاب بأن بئراً عميقاً من النفاق يقبع تحت تودّده المتذلّل والمتزلف؟ ألا تعتقد أن تاسيتو دي لا كانال يستحق منك ولو شيئاً من الحذر؟ أم هل أفترض أنك تتعمد التظاهر بأنك لا ترى ولا تسمع وتدع تاسيتو أن يكون حارسك

المتملّق المرفوض لكي تنعم أنت بالهدوء والسكينة، وتسمع الثناء والإطراء من عبد لك يدافع عنك مثل كلبك المخلص؟ صدقني أنني عندما أقول لك ذلك فإني أتفهم تماماً الحاجة إلى وجود قزم ماكر يقف عند باب القلعة ليهشّ المزعجين وغير المرغوب فيهم والطموحين. لكني لا أعرف إن كنت تريد أن تعرف أن الكلب الحارس الذي وضعته للعرض ربما يبعد أيضاً المستشارين الصادقين، والأصدقاء المخلصين، والتكنوقراطيين المفيدين، والمثقّفين المهتمين والقلقين، لأنه ببساطة يعتقد بحق بأنهم، حتى أكثر من جميع الآخرين الذين لا توجد مسحة من الحياء في وجوههم، الساعين إلى أن توليهم الاهتمام، أكبر منافسين له في المعركة لجذب اهتمام الرئيس.

أكرّر يا سيادة الرئيس، أرجوك أن تعذرني على صدقي الشديد إلى درجة الفظاظة في بعض الأحيان في نصحي لك، لكنك لهذا السبب جعلتني مستشاراً لك: لكي أقول لك كلمة الحق. لقد حذّرتك من هذا منذ أول يوم. يستطيع السياسي أن يستخدم مثقفاً، لكنه لا يستطيع أن يثق به ثقة مطلقة. فلا بد للمثقف في نهاية الأمر أن يختلف مع السياسي. وسيفسر السياسي ذلك دائماً بأنه خيانة. سواء كان خبيثاً أم عبقرياً، مكيفيلياً أم طوباوياً، فإن الرجل القوي يعتقد دائماً أنه على حق، والشخص الذي يعارضه إما أن يكون خائناً، أو على الأقل، يمكنه الاستغناء عنه.

9

من ماريا دل روساريو غالبان إلى بيرنال هيريرا

بيرنال، أدرك تماماً أنه يتعين عليك أن تجري تدقيقاً أمنياً شاملاً قبل أن تدع شخصاً مجهولاً تماماً مثل نيكولاس بالديبا يدخل إلى عرين القصر الجمهوري. لقد اطلعت بدقة شديدة على الملف الذي أرسلته لي. فقد وُلد نيكولاس في سيوداد خواريز، تشيهواهوا، في كانون الأول من عام ١٩٨٦، من أب مكسيكي، وأمّ أمريكية. وعمل كلاهما في مدينة إل باسو في تكساس، لكنهما كانا مواطنين مكسيكيين. يمكن الاطلاع على شهادة ميلاد نيكولاس من مكتب سجلات سيوداد خواريز. وقد مات أبواه في حادث سيارة عندما كان بالديبا في الخامسة عشرة من عمره.

توجد فجوة كبيرة في حياة بالديبا إلى أن يعود ويظهر مرة أخرى في باريس، كطالب في الكلية ذاتها التي درسنا فيها أنا وأنت. لقد اختبرته. إنه يعرف جيداً المواضيع التي تُدرَّس

والأساتذة الذين يـدرّسون هناك. وكان قـد التقى في السـفارة المكسيكية في فـرنسا بالجنرال موندراغون فـون بيرتراب، عندما كان آنذاك ملحـقاً عسكرياً في البعـثة. واستخدم فـون بيرتراب الطالب الجامعي في كـتابة تقارير، وجمع مـعلومات، وما إلى هنالك. وكـان الجنرال هو الذي أعـاده إلى المكسـيك، حـيث أمضى بالديبـا خمس سنوات وهو يدرس على حسـابه الخاص في مسقط رأسه في ولاية تشيهواهوا.

ماذا حـدث له بين الخامسـة عشرة والثـانية والعـشرين من عمره؟ سـألت وزير الدفاع الحالي، فون بيـرتراب لأحصل منه على بعض معلومات. ابتسم. كـيف يمكن للمرء أن يعرف حقاً عن حياة مراهق يتيم اضطر لأن يكسب رزقه بعرق جبينه؟

لقد خـفّف فون بيـرتراب من حدة مـخاوفي. إن أردت أن تتأكد فاسأله. لقد عاش نيكولاس مـتشرّداً لفترة من الزمن: فقد عمل في ناقـلات النفط المكسيكية وسفن الشـحن الهولندية التي غالـباً مـا كانت ترسـو في تامبـيكو؛ وكان قـارئاً نهمـاً وواسع الاطلاع، وكـان يدرس كلما أتيح له الوقت، وقـد درس جمـيع المواضيع التي كـان يحتاج إلى دراستهـا لينال شهادته الجامـعية. وأخيراً، قُبل في كليـة الإدارة الوطنية بفضل وساطة الجنرال الذي دعم طلبه بجميع الوثائق الضرورية التي تشهد بأن بالديبا قد بذل جهداً كبيراً واستثنائيـاً في الدراسة. كما تعرف - إنه شاب خرج من بطون قصص جاك لندن أو إرنست همنغواي. . .

هل يمكنك أن تطلب توصية أفضل من هذه يا بيرنال؟ ربما كانت لديه بعض العيوب المدفونة في ماضيه، لكني يجب أن أطلب منك مرة أخرى أن تثق بحدسي الأنثوي. إن نيكولاس بالديبا ينظر إليّ بوجه ملاك. يقول لي إنه يحبّني، وأنا أدعه يفعل ذلك. لكنني رأيت أيضاً تلك النظرة الأخرى، النظرة الخفية، النظرة التي تبدو على وجهه عندما يظن أني لا أراه. تلك النظرة «الضامرة والنهمة» التي يصوّرها شكسبير في مسرحية يوليوس قيصر. نظرة إنسان طموح. شيطان صغير بوجه ملاك؟ ماذا يمكننا أن نطلب غير هذا يا صديقي العزيز لكي نهزم تاسيتو دي لا كانال؟ لنجعل بالديبا يدين لنا بكلّ شيء، ويقدم لنا كلّ شيء أيضاً. إن حدسي يقول إنه سيكون عميلنا المثالي. وأذكر أنك كنت قد قلت لي إن الدم الجديد ضروري دائماً في السياسة الجديدة، حتى لو كان يشكل خطراً.

عزيزي، دعني أجازف وأدفع ثمن الضرر، إن وقع. فكلّ منا يلعب لعبة السياسة الواقعية. نكون مثاليين أحياناً، كما كان شأن رئيسنا، حتى حلّت بنا الكارثة في اليوم الأول من شهر كانون الثاني. لكن في نهاية الأمر يجب أن نكون واقعيين، لأننا يجب أن نتعامل مع ردود فعل واقعية إزاء سلوكنا الشرعي. إن الشيء الجيد في السياسة الواقعية أنك تستطيع أن تغيّر اتجاهك تغييراً تاماً بينما لا تزال تحافظ على مبادئك الأساسية. إن نيكولاس بالديبا هو طارىء على السياسة

الواقعية، سياستك وسياستي. ويمكننا أن نتخلّص منه بنفس السهولة التي دفعناه بها.

صدّق أو لا تصدّق، فقد بلغ بي الأمر أني قلت له إنه يستطيع أن يمتلكني جنسياً إذا استطاع أن يشق طريقه إلى سدة الرئاسة. وأظن أنه صدقني! أو على الأقل أجج اقتراحي لهيب خياله وشهوته.

ليكن ما يكون، إذ إننا بحاجة لأن نُدخل أحداً من طرفنا إلى كهف الرتيلاء. وإذا لسعت نملتنا الصغيرة بالديبا ولقيت حتفها، غير مأسوف عليها، فما علينا إلا أن نستبدل بها شخصاً آخر. أما الآن، فهو رجلنا في لوس بينوس. اترك لي الأمر، فأنا سأتولى خداعه والتلاعب به كما أراه مناسباً. اطمئن، إن كان ذكياً، فسيكون خادماً مطيعاً.

عندما قلت له: «إنك ستصبح رئيس جمهورية المكسيك» لم يرف لبالديبا الشاب جفن. ولم ترتسم على وجهه علائم الدهشة. ربما كان يفكر بما تفكر به أنت الآن: ماذا لو خاننا، ماذا لو تملكته الرغبة في أن يفشي السر أو أن يدفعه طموحه لأن يكشف خطتنا؟

أظن أن هذا الفتى في منتهى الذكاء. إنه يجيد قراءة عيون الناس. لقد قرأ عينيّ: إذا خنتني، فلن يصدقك أحد، بل سيظن الجميع أنك مجرد شخص صغير طموح، بل وحتى

أحمق كبير. وإني لست بحاجة إليك كضحيّة. إني أحتاج إليك كحليف. إن إبليساً صغيراً مثلك هو كلّ ما أحتاج إليه.

إنه متعجرف بقدر ما هو حاذق ويتمتع بالدهاء. إنه يصدق ما أقوله له. لكننا سنقع في مشـاكل عندما يتجرد من أوهامه. فمن الممكن أن يردّ الصاع صاعين ويثأر منا. يجب أن نتأكد من أنه لا توجد لدى ضحيتنا أسلحة يستطيع أن ينتقم بها منا.

10

من «لا بيبا» الماسان إلى تاسيتو دي لا كانال

حبيبي الأصلع الغالي، كيف لا أكتب إليك رسائلي، وهو شيء دأبت عليه منذ أن أصبحنا عاشقين. ورغم أني كنت حريصة على ألا أذكر اسمك المبجل في رسائلي، يا حبيبي الغالي، فقد أضحيت الآن أشد حرصاً من أي وقت مضى. إنك تعرف حقيقة مشاعري تجاهك: فإذا فتح أحدهم بعد سنوات عديدة، الصندوق القديم الذي يشبه الصندوق الذي كانت تحتفظ به جدتي في يوكاتان، فإني أريده أن يعثر بالصدفة على مجموعة رسائلي الغرامية، التي لن تكون آنذاك رسائل موجهة من زوجة خائنة، بل من عاشقة رومانسية تعشق بكل جوارحها، وهذا ما أشعر به حقاً تجاهك، يا حبيبي المكتنز، اللحيم، الأصلع، الصغير، حبيبي «أفضل من لا شيء» كما يسميك «الثرثارون» الأشرار، لمجرد أنه لم تتح لهم الفرصة ليعرفوا كم أن لسانك ذرب وممتع ولذيذ، ناعم وطويل عندما

تقبّل كلّ بقعة في جسدي، جسدي الجميل الذي يشبه جسد فينوس المرمري، كما تحبّ أن تصفه. . . لكن كفانا من هذه المتع الآن يا حبيبي المجهول، ولندخل مباشرة إلى صلب الموضوع، وهو الألفة والصداقة الحميمية التي تجمع م. ر. صاحبة الدسائس الماكرة، ومنافسك، الوزير ب. هـ. إنك تكون طيباً أكثر من اللازم في بعض الأحيان، يا حبيبي الصغير المبجل: فولاؤك للر. يعميك عن الأشخاص الذين يريدون أن يسقطوك وينالوا منك، أولئك الذين يطلقون عليك «لاعق مؤخرة» عديم الضمير. وهذا تماماً ما يضمره لك هذا الثنائي الشيطاني: إنهما يريدان أن يجعلاك تبدو مثل لاعق مؤخرة آخر عديم الأخلاق يستغل قربه من الر. لكي يرتقي إلى المراتب العليا متمنياً أن يصبح هو نفسه الر. في الانتخابات القادمة. دعنا لا نتغابى عن ذلك، يا عزيزي ت. فقد انقضت السنة الثالثة من «الولاية» (ولا أشير هنا إلى هورموناتي السماوية)، لكن الشيء الوحيد المهم الآن هو خلافة الر.

هكذا أرى الأشياء. فقد تحالفت م. ر. مع ب. هـ. الذي تكمن قوته في صفائه ورصانته المزعومتين، وسمعته بأنه رجل شريف في بلد مليء باللصوص. إنه يترك العمل القذر لـ م. ر. التي تثير اهتمام الر. بما أن الر. كما تعرف، رجل يعترف بالجميل، وعندما كانا غير معروفين، مجرد نكرة، كانت م. ر. عشيقته، علّمته جميع خدع وألاعيب السياسة. إن الشيء

الجيد والسيء في الر. أنه رجل يعترف بالجميل. لذلك حاول أن تجد طريقة، يا جميلي، تجعله يشعر فيها بالامتنان نحوك أكثر من أي شخص آخر. لقد بدأ الشعر ينمو ويزداد طولاً (أنا آسفة يا حبيبي، وهذا ليس لمزاً بك، يا أصلعي الجميل)، فإن كنا نريد حقاً أن نحصل على ما نريده، يجب أن نجد، أنا وأنت، نقطة ضعف في هذين الشيطانين الصغيرين. إننا نمتلك ميزة قد تكون كذلك عقبة ومثلبة. فزوجي الموقر، الجدير بالإعجاب، رجل صلب مثل صخرة جبل طارق، لا شيء يزحزحه؛ إنه شخص مملّ لكنه مأمون الجانب. فما إن يعرف أن هذين الصغيرين قد أتيا بأي حركة مريبة، حتى يهرع مباشرة إلى الر. وينقل له المعلومات التي تناهت إليه. إني متيقنة من ذلك بقدر يقيني من أن موسى قد ظهر فوق الجبل مدججاً بالوصايا العشر.

إن زوجي عبقري في جعل الآخرين يبدون وكأنهم مخطئون. وكلنا نعرف أن الر. لا يتحمّل أن يبدو مخطئاً. لذلك ما يتعين على زوجي أن يفعله كي يجعل الر. تنتابه الريبة، أن يكشف إحدى زلات ب. هـ. صدقني يا فطيرتي التورتيلا الحلوة، إن أفضل وسيلة نجعل فيها الر. إلى جانبنا هي أن نبث بذور الشكّ في رأسه. فكما تعرف، إنه رجل يحتاج إلى الأمن، والأمن، ودائماً المزيد من الأمن. دعنا لا نخدع أنفسنا، فهو مستعد لأن يتغاضى عن الفساد ما دام يشعر

بأنه في أمان - وهو أمر مؤكد ومتوقّع. خذ وزير الاتصالات، فيليب أغوير مثلاً. فجميعنا نعرف، كما يعرف الر. نفسه، أنه يأخذ ألذّ قطعة من مؤخرة راقصة الرومبا من كلّ عقد يبرمه. والر. يعرف هذا ولا يكترث، فلديه نظريته الخاصة بأن الرشوة «مُزَلّق»، وأظن أن ذلك مثل شخص يُناك من مؤخرته. إنّ وزير الاتصالات خنزير. إنه شيء معروف، مقبول، مفهوم، بأي صيغة تريد أن تقولها.

أما ب. هـ. فإن الاستقامة الأخلاقية والأمانة، وجميع الأشياء الأخرى التي لا يمكن أن تُطعم إنسانًا (وخاصة السيد الر.) هي كلّ ما يتوقّعونه منه. لذلك، يا أصلعي اللذيذ، فإن كلّ ما نحتاج إليه هو أن نمسك م. ر. الكسولة في صفقة رخيصة فاسدة لنحبط طموحه في تسلم زمام السلطة. فالر. يثق بك كما لا يثق بأحد آخر لأسبابه الخاصة. إنه يقول دائماً: «إني لا أقدم على أي حركة بدون ت.»، و«إن ت. هو كل ما أحتاج إليه».

حتى هنا في ميريدا، يعرف الجميع ماذا يقال في مكتب الر: «إن ت. هو أكثر خدمي ولاء وإخلاصاً، ولا أستطيع أن آتي بحركة بدون ت. إني أثق بـ ت. أكثر مما أثق بنفسي، إن ت. هو الإبن الذي لم أنجبه...».

وهكذا.

فطيرتي التـورتيلا اللذيذة، يجب أن نكون أكـثر فطنة من النسر الذي تسلّق شجرة الصـبّار المليئة بالأشواك دون أن يطلب إذناً ليفعل ذلك. النسر الذي يشرّف الكرسي الرئاسي!

ما الفـضائل التي نملكها؟ توخي الحـذر والتعقل كـبداية. فليس ثمة تدريب على السياسة أفضل من الزنا. أسرار صغيرة، أسرار صغيرة. مفاجئات كبيرة، مفاجئات كبيرة. لا يمكن لأحد أن يشك بنا، بل ولا يمكن أن يخطر ببـال أحد أن يربط أحـدنا بالآخر بأي شكل من الأشكال. فـأنا أعيش هنا في أرض طائر الدرّاج والغـزلان، ولا يمكن لأحـد أن يرتاب بمغـامـراتنا الرومانسـية الصـغيـرة في كانكون. يا إلهي! فـبتلك البـاروكة الهـيـبية، لا يمكن لأحـد على وجـه الأرض أن يعـرفك في الفندق، وأرجـو أن تسامحني لقـولي هذا، يا جمـيلي الحلو، لكننا عندمـا ذهبنا إلى الشـاطئ في آخـر مـرة، دعاني شـابان أمريكيـان لمرافقـتهـما إلى المرقص ومـراقصتـهمـا، وقالا لي: «اتركي أباك في البيت، فـفي جميع الأحـوال، إنه يمضي نهاره كله في أخذ قيلولة».

سامحني، سامحني، سامـحني يا حبيبي، لكني أقول لك هذا لكي تدرك أن علاقتنا سـرية، سرية للغاية، لذلك لا يمكن لأحد أن يكتشفها. فقد كنت دائماً أستاذاً في القانون المدني في الجامـعة الوطنية، وعـضواً محـترماً في الـكونغرس من طرف الحزب الثـوري الدسـتوري الذي لم يعد له وجـود الآن. ففي

البداية، كنت نصيراً موالياً، ثم أصبحت عضواً، والآن تسعى لتتبوأ كرسي الرئاسة، لا تشوبك شائبة. يمكنهم أن يتّهموك - بأنك شبق داعر يا عزيزي، رغم أن هذا ليس إثماً، بل وليس إثماً يستحق المغفرة. ويتهمونك بأنك لصّ. لا يتعين عليك أن تقول شيئاً عن هذا، ليس لي، يا عزيزي. فأنا أعرف كيف تعيش، في تلك الشقّة الصغيرة المؤلفة من غرفة نوم في كولونيا كووهتيموك. ورائحة الطهي والقمامة والبول تهب من بئر الدرج وتبعث على الغثيان. بل حتى لا يوجد فيها مصعد! وبدلاتك الثلاث من ماركة سيرس، وأزواج الأحذية الستة القديمة التي اشتريتها من ذلك المحل الكبير القديم «إل بورسيغوي»، وقبعتك الباسك التي تعتمرها لتحمي بها رأسك الصلعاء من برد كانون الثاني. يا إلهي! إنك متقشف، يا فطيرتي التورتيلا! لكن ما لا يعرفونه بالطبع، هو أن الصلع دلالة - ثانوية، كما يقولون، لكنها مع ذلك- دلالة على الرجولة، حتى لو كنت متواضعاً في كلّ شيء، فإنه لا يوجد لديك قرين في مواهبك الذكورية، يا رجلي المفعم بالطاقة والحيوية. وكأن الله الأب قد منحك كلّ شيء بأحجام صغيرة نوعاً ما إلا شيئاً واحداً، أفعى طرزان كبيرة، ذلك الأير الذي يجعل العيون تُفتح على وسعها دهشة، ذلك الشمبانزي الحار الذي هو ملكك يا حبيبي الخجول، لكنه ملكي أنا أيضاً، المرأة التي تعشقك كثيراً، وتطلب منك أن تفكر جيداً لأنه لم يبق أمامنا إلا سنتين لتحقيق هدفنا.

إني أعشقك يا عزيزي ت. أرجو أن تخـبرني متى أستطيع أن أراك ثانيـة، وأكـرّر: لا توسخ يديك وابقـهـما نظيـفـتين، وعمودك الفقري مستـقيماً، لكن قبل كل شيء راقب الأمر، يا حبيبي، افـتح عينيك على وسعيهما، وكن مـستعداً لأن تكون ابن حرام بعض الشيء...

11

من نيكولاس بالديبا
إلى ماريا دل روساريو غالبان

أشكركِ لأنكِ سمحتِ لي بأن أرفع الكلفة وأن أخاطبك بالصيغة المألوفة، ماريا دل روساريو. إنها هدية، وخاصة لأنها تعوضني عن المكانة التي وضعتني فيها. أعرف أنه قرار اتخذه الرئيس، وأعلم أني أستطيع أن أشكره من خلالك لأنني أجلس حالياً وراء طاولة مكتب في قاعات السلطة التنفيذية المبجلة لكن ما هو الثمن الذي جعلتني أسدده! أن أتعامل مع تاسيتو دي لا كانال طوال النهار! إن كل ما أخبرتني به عنه لا يساوي شيئاً بالمقارنة مع الحقيقة الكئيبة. وإن كان بوسعي أن أتحمله فذلك كله من أجلك، لأني أحبّك ولأنني أشعر بالامتنان لمساعدتك لي. كما أنني أكنّ احتراماً كبيراً لعقلك. إن أول منصب أتبوؤه في إدارة تيران القريب جداً من مكتب الرئيس الذي هو قلب أعلى سلطة في البلاد، هو أن أكون في خدمة تاسيتو دي لا كانال، رئيس ديوان الرئاسة.

يتعين علي أن أقبل صحبة هذا الرجل البغيض كل يوم. أطيعه. أحترمه. إن لم يكن ذلك أفضل وأكبر دليل على حبّي لك، يا ماريا دل روساريو، فأنا لا أعرف ما هو، سوى الانتحار الرومانسي بالطريقة التي ارتكبها الشاب ويرثر. تقولين لي إني يجب أن أبدأ من مكان ما، وأرجو أن تكون فترة خدمتي في هذا المكتب قصيرة وأن أتعلم منها الكثير. إني حقاً أشعر بالغثيان من تزلّف السيد دي لا كانال المقرف: الطريقة التي ينحني فيها أمام الرئيس، الطريقة التي يقف فيها دائماً بجانب الرئيس مثل كاردينال يقف بجانب الملك، وتلك الطريقة المتذللة التي يجري فيها ليرتب ويمسد كرسي الرئيس في كلّ مرة يقف فيها تيران ويجلس. هل يتعين على تاسيتو دائماً أن يفتح منديل الرئيس ويضعه على حضنه أثناء وجبات الطعام؟ بينما يتناول رئيسنا لورينزونا تيران، المتواضع، غير المدعيّ، طعامه وهو يرتدي قميصاً فقط ويرمي قطع اللحم إلى كلبه، إل فاراون. لا أعرف إن كان رئيس الديوان يفضّل أن يطعم الكلب بنفسه، أو إن كان يفضّل، في الواقع، أن يكون هو الكلب وأن يتلقى الفتات من يد الرئيس وهو جاث على أربع.

ماريا دل روساريو، إن كنت ترغبين في أن تقدمي لي برنامجاً مكثّفاً عن الآثام والمساويء التي يجلبها الخنوع والذل السياسي، فلا تستطيعين أن تختاري مكاناً أفضل من هذا المكان، أو موضوعاً أكثر اكتمالا واستيفاء. لقد أصبح بوسعي

أن أقدم لك تحليلاً أساسياً ولم يمض عليّ سوى أسبوع واحد في هذا المكتب. إذ إن تاسيتو دي لا كانال هو سيد الخداع بلا منازع، شجاع جسور في الظّل، وذليل مهان في وضح النهار، كريم عندما يضطر إلى ذلك، لكنه بخيل في طبعه وفطرته. انظري فقط كيف يعامل مرؤوسيه. فهو يزرع الخوف والنقمة في نفوسهم لأنه يعرف أنه ليس مرؤوساً، لكن قد يعود يوماً ويصبح مرؤوساً.

توجد في المكتب سكرتيرة تظهر بشكل فاضح بسبب الثياب الغريبة التي ترتديها في مكان العمل. تكاد تبلغ الأربعين من عمرها - وهي تبدو في عمرها الحقيقي - لكنها ترتدي ثيابها وكأنها فتاة صغيرة. لا كمراهقة، يا ماريا دل روساريو، بل بدقة شديدة، وحرفياً، مثل فتاة صغيرة. جدائل مجعّدة يتوجها قوس أزرق كالذي تضعه طفلة صغيرة. وفساتين زرقاء ووردية من قماش التفتا، وجوارب قصيرة بيضاء تصل إلى الكاحل مطرّزة عند الأطراف، وحذاء من الجلد الطبيعي من ماركة ماري جانيس. ولا يثبت أنها تقدمت في السن إلا طبقات المسحوق العديدة التي تتكدس فوق وجهها لتخفي تجاعيدها، وأحمر الشفاه القرمزي الغامق الذي تطلي به شفتيها، وحاجبيها المنتوفين، ورموشها المكسوة بطبقة من مجمّل الرموش.

وما إن وقعت عيناي على هذه المرأة، حتى عرفت أنه يوجد لديها سرّ، وأن الشيء الصحيح، الشيء الإنساني، هو أن أحترم ذلك.

تخيّلي مدى اشمئزازي، مدى رعبي، عندما رأت البارحة دمية باربي تجلس على الكرسي الدوّار الذي تجلس عليه هذه السكرتيرة الطفلة، فاهتاجت لدى رؤيتها وراحت تقرأ بلهفة البطاقة المعلقة على مقدمة شعر الدمية الباربي الأشقر بدبوس شعر.

لا أعرف ماذا كان مكتوباً في البطاقة، لكنها قرأتها، وأجهشت في البكاء، وألقت بالدمية في سلة المهملات. أردت أن أعرف ماذا يجري حقاً، فقالت لي بينيلوب، وهي سكرتيرة بدينة أكبر سناً، وصريحة للغاية، إن السيد دي لا كانال يتلذذ بإذلال دوريس (هذا هو اسم المرأة الطفلة). فيرسل لها هدايا مخصصة للفتيات ممن هن في العاشرة من العمر، ويعيّرها باستمرار بقول أشياء مثل: «ماذا تقول لك ماماتك؟ إنك فتاة صغيرة كسولة. وإنه يجب أن يعاقبك معلمك».

ثم دخلت دوريس إلى مكتب تاسيتو وخرجت منه بعد نصف ساعة وهي تبكي لكنها تحاول أن تخفي بكاءها. كان شعرها مشعثاً منكوشاً، تمسك القوس الأزرق الذي يضعه الأطفال بيدها، وتسوّي حمالة صدرها...

تقول بينيلوب إنه لا يمكن أن يعيش دي لاكانال دون وجود موظّفة يهينها ويحقّرها، وقد وجد في دوريس الضحية المثالية. وكان من عادتي دائماً أن أنادي أولاً أو أقرع الباب قبل ان أدخل إلى مكتب تاسيتو، لكنني لم أتحمّل ما جرى البارحة فتوجهت مباشرة ودخلت إلى مكتبه عندما كانت دوريس وحدها مع دي لا كانال. كان يمسك تلك الطفلة التي هي في شكل امرأة، ويده اليمنى تداعب صدرها، ويده اليسرى تغوص في سروالها الداخلي ذي الأهداب، ويهمس في أذنها، «لا تقولي لماماتك وإلا لعاقبتك بشدة. وإن تصرفتي جيداً معي، فسأشتري لك دمى أخرى. احترمي ماماتك، خافي منها، وأطيعي كلّ ما تقوله لك، ما عدا الأشياء التي نفعلها أنا وأنت معاً، أيتها القحبة الصغيرة».

أقسم لك يا ماريا دل روساريو، إن وحشية تاسيتو دي لا كانال بغيضة أكثر من فساده الخلقي. إنه يفعل هذه الأشياء الصغيرة البغيضة - فعلى سبيل المثال، يقوم بجولة أسبوعية على المكاتب ويفتش الخزن التي توضع فيها القرطاسية، ويعدّ جميع أقلام الرصاص والأوراق الرسمية ولاقطات الأوراق والمحّايات والمقصات والملفات والأقلام وما إلى هنالك. وكانت بينيلوب قد عوضت البارحة جميع القرطاسية الناقصة من المكتب كله.

قالت له: «إن العدد الذي بحوزتي صحيح يا سيدي، وإذا أردت، يمكننا أن نعدّها معاً وسترى أنه لا يوجد فيها نقص».

«هل أعددت كلّ شيء في الوقت المناسب يا بينيلوب؟» سألها دي لا كانال المتغطرس.

«لم آخذ منها شيئاً يا سيدي».

«هل كنت تتلصصين عبر طاولة مكتبي يا بينيلوب؟»

«إن مهمتي أن أحرص ألا يكون هناك شيء ناقص يا دون تاسيتو».

هل تعرفين ماذا فعلت يا ماريا دل روساريو؟ لقد أمسكت ذراع دوريس، وجررتها إلى محلات فراتينا، وألبستها ثياباً سوداء من قمة رأسها حتى أخمص قدميها: بدلة سوداء أنيقة، جوارب نسائية سوداء، حذاء أسود ذا رأس مدبب، حقيبة يد شانيل، ثم أخذتها إلى بيت أمّها في كولونيا ساتيليت. كانت الفتاة المسكينة مذعورة حتى الموت. عندما دخلنا من الباب، كان عليّ أن أعرفّها على أمّها التي لم تميّزها. كانت عجوزاً شمطاء قد جف جلدها، تحدّق بعينين ساهمتين في كرة الصوف بين يديها. كانت تجلس على كرسي متحرك وإلى جانبها دورق عصير الليمون، وترسانة من الحبوب. نعم، وقطّة قبيحة تجثم في حضنها.

كان كلّ ما قلته لها: «من الآن وصاعداً، سترتدي دوريس ثياباً كهذه عندما تأتي إلى العمل».

«ومن أنت بحقّ الجحيم؟»

«أنا رئيسها في العمل يا مدام، وإذا أردتِ أن تجلب ابنتك دوريس راتباً إلى البيت وتعتني بك، فمن الأفضل أن تأتي إلى العمل هكذا، لأنها إن لم تفعل ذلك، فإني سأختطفها وآخذها لتعيش معي...»

بدأت السيدة العجوز تصرخ، وبغتة خطر لي خاطر، مثل صاعقة صغيرة ومضت في دماغي، فقلت: «سأقول كلّ ما أعرفه إلى تاسيتا دي لا كانال المنحط. لقد انتهت اللعبة يا سيدتي. وإذا استمررتي تعرضيّن على ابنتك، فسأزج بك في السجن».

علا صوت السيدة العجوز وبدأت تصرخ بحدة، فقفزت القطة من حضنها وأخذت تموء ثأراً، وكأنها تدافع عن سيدتها. ركلت القطة الحقيرة في مؤخرتها، وعندما رأت دوريس أن أمّها قد هزمت، ابتسمت للمرة الأولى. ومنذ ذلك الحين، بدأت تأتي إلى المكتب وهي ترتدي ثياباً تليق بعمرها.

غمزتني بينيلوب ورفعت إبهامها علامة النصر. لكن تاسيتو بدأ يرمقني بكراهية شديدة. إنه يعرف أنني أستطيع أقرأه مثل كتاب، من الأعلى إلى الأسفل. إنه ذليل أمام

الأقوياء، ويرشح بالازدراء أمـام الضعـفاء. من أي مكان أضع فيه نفسي؟ أنظر في عينيه مباشرة. ولا يجد خياراً إلا أن يحدّق فيّ أيضاً. لكني أبتسم. أما هو فلا. وعندما ينادي دوريس إلى مكتبه، أقول، «آسف يا سيدي، إن دوريس تنفذ لي أمراً مهماً جداً».

لو كان لابن الحرام هذا شعر، لانتصب واقفاً.

12

من بيرنال هيريرا
إلى ماريا دل روساريو غالبان

هل أنت واثقة من أن خطتك هي الخطة السديدة؟ فإذا كان صنيعتك نيكولاس بالديبا يعمل حالياً لدى تاسيتو دي لاكانال، فإن ذلك ليس بهدف أن يكتسب خبرة، ولا ليتعرف على أشياء مباشرة من خصمنا. بل هو موجود هناك ليكشف نقطة ضعف تاسيتو دي لاكانال، الحقيقة التي ستقضي عليه، التصرف الذي سيدينه. إننا نعرف أن تاسيتو رجل منحط، لكن كم عدد المنحطين الآخرين الذين شاهدتهم يعملون في السياسة ولا يزالون يتمتعون بثرواتهم التي حصلوا عليهم بطرائق غير مشروعة وأفلتوا من العقاب؟ يجب أن نقبض على تاسيتا متلبّساً. ماذا اكتشف بالديبا؟ لم يكتشف الشيء الكثير. أشياء نعرفها: أن تاسيتو رجل متذلّل، فظ وقاس، يتزلف ويتودد لمن هم أعلى منه، ويحتقر ويركل من هم أدنى منه، ويدع الرئيس يعامله مثل منديل مستعمل. ربما كان ذلك لأن الرئيس يحتاج

إلى تابع يداهنه ويتملقه. ربما كان ذلك لأن الرئيس يحتاج إلى كلب حراسة حول رقبته طوق ليبعد عنه الزوّار المشاكسين.

لا شيء جديد. إن كل ما يحتاجه زعيمنا المبجل رجلاً من بني نعم، شخصاً يوافقه على كلّ ما يقوله. وكما ترين، فإن رئيسنا يتبع تقليداً قديماً، تقليداً اتبعه أشخاص مثل فريدريك في بروسيا، وكاثرين العظيمة، مستحضراً عصر التنوير الفرنسي إلى بلاطه. أما في وضعنا، فإن صديقنا الطيب خافيير ساراغوسا، سينيكا، هو الذي يقوم بالدور الذي كان يؤديه فولتير وديديرو. وكان لدى فريدريك خادمه فريدرسدورف الذي كان يلعق حذاءه، وكان لدى كاثرين بوتيمكين الذي كان يلعق شيئاً آخر مختلفًا تماماً. أما لورينزو تيران فلديه تاسيتو دي لاكانال الذي يقوم بذلك.

إني لست راض يا صديقتي. فالزمن يمضي، وفي السياسة فإن التوقيت يعتبر نصف المعركة على الأقل. فإذا لم نتمكن من القضاء على تاسيتو خلال ستة أشهر، فإنه سيستغل منصبه كنقطة انطلاق ليستولي على كرسي الرئاسة. أتعرفين؟ إن مجرد فكرة أن أرشّح نفسي ضد تاسيتو دي لاكانال لا تثير اشمئزازي فقط، بل أعتبرها إهانة لي. فإذا فزت في انتخابات ٢٠٢٤ ضد دودة مثل تاسيتو، فإن انتصاري سيكون أشبه برجل تمكن من أن يسحق صرصوراً تحت قدميه. سيكون نصراً أجوف، وإذا

هزمني بسبب تأثيره على الرئيس، فإن هذا يعني نهاية عملي في السياسية.

تعرفين تماماً يا ماريا دل روساريو إنني لست جباناً وأتحمل مسؤوليتي كاملاً. لكن الحياة جعلت منا أكثر من مجرد صديقين: فأنا وأنتِ حليفان، ومصير أحدنا مرتبط بالآخر. إني بحاجة إليك لأنك امرأة - لا بسبب غرائزك الأنثوية فقط. إني أحتاج إليك لأنك تملكين، بالإضافة إلى الغريزة، مهارة سياسية استثنائية. إنك تعرفين كيف ترين غير المرئي. إنك تعرفين كيف تقرأين بين السطور. إنك تلاحظين أشياء لا أراها أنا. أعرف أنني لا أخبرك شيئاً لا تعرفينه (أو أني لم أقله من قبل). بدونك لا أستطيع أن أحرز أي تقدم. إنك التي تساعدني في تحمّل فظاظة السياسة غير المستساغة. لقد علّمتني شيئاً لا غنى عنه في السياسة: وهو القدرة على إدارة الرجال الذين لا يشعرون بالأمان. إنك تعرفين كيف تفعلين ذلك، وقد رأيت ذلك بأم عيني. فبطريقة ما تستطيعين أن تجعلي أكثر أعضاء الوزارة غباء (وهناك الكثير منهم) يشعرون وكأنهم أرسطو وبونابارت مجتمعين. وبالثقة التي تغرسينها فيهم، توحين لهم بأنك تمثليّتي، وبأنك تنفّذين تعليماتي. إنك امرأة تتمتعين بموهبة لا حدود لها، لكنك لست شخصاً حراً. إنك مرتبطة إلى الأبد ببيرنال هيريرا.

ما أقصده أن الجميع يعرفون أنك تقدمين لهم الدعم والنصيحة لأنني طلبت منك أن تفعلي ذلك. فقد جاءني وزير الزراعة إيبيفانيو ألاتور، ليشكرني شخصياً لأنك أخبرته عن هبوط أسعار السكّر الوشيك، وهو الذي يخزّن بغباء شديد السكّر وكأنه ذهب، وهو أمر لم يكن يتوقعه أبداً. إذ لا يدرك ألاتور أن السياسات الزراعية التي تنتهجها الولايات المتحدة والاتحاد الأوربي ستمنع تصدير المنتجات الزراعية نهائياً من البلدان الفقيرة: إننا نبيع قليلاً، ولا نكسب شيئاً عندما نخبئه على أمل أن ترتفع الأسعار في نهاية الأمر. لن يكون هناك شح في أيّ شئ في العالم المتطور. ولن يكون هناك سوى كرم وسخاء تجاه الشحاذين، هذا كلّ ما في الأمر. صدقات. كما يشعر وزير الأشغال العامة أنطونيو بيغارانو، بأنه يدين لي بحياته لأنك أخبرته عن المقاول برونو ليفي وعلاقاته بالشركة التي كانت تنافس بيغارانو عندما كان رجل أعمال - بالمناسبة المنافسة التي لم تنته تماماً لأنه لا يزال يمتلك أسهماً بواسطة مجموعة من الوكلاء المزيفين. كم أتمنّى أن نكتشف أن تاسيتو متورط في صفقة فاسدة كهذه. لكن بيغارانو خارج عن الموضوع من الناحية السياسية. فباستطاعته أن يكون فاسداً كما يحلو له. مع أننا نحن من سيمارس الضغط عليه عندما تحين الفرصة. بدوني - بدونك، أي أن - سقوطه مجرد مسألة وقت.

يمكنني أن أسترسل في الحديث يا سيدتي الغالية. لكن أكبر سمكة من بين هؤلاء جميعهم، منافسي الظاهر الوحيد في انتخابات عام 2024، لا يدين لأحد منّا بشيء. وهذه أكبر نقطة ضعف فينا. إنني لا أؤمن بذكاء تاسيتو الشديد، لكنني أعرف أنه عندما يتعلق الأمر بالسياسة، فإنه يصبح كلباً ماكراً، ميكافيللي المكسيكي الذي لا تنضب قدرته على التلاعب والخداع، يا صديقتي العزيزة، مثلما لا ينضب شعور الواحد منا بالامتنان والمودّة المتبادلة تجاه الآخر. ويجب أن نفترض أن كلّ وزير خارجية يدين لتاسيتو بأفضال بقدر ما يدين لنا. فلا شيء يحمل المفاتيح إلى قدس الأقداس، عرين الرئيس الداخلي، «المكتب البيضوي» ؟.

على أيّ حال، يجب أن نعتبرها معركة بين أنداد. الآن، هل سيتمكن صنيعتك بالديبا، المزروع بين موظفي تاسيتو، من أن يأتينا بسرّ واحد يمكن أن يؤدي إلى دماره، شيء أسوأ من عادة تاسيتو في إغواء السكرتيرات؟

نتائج سيئة، يا ماريا دل روساريو، شحيحة جداً. فإذا لم نبرز أدلة قاطعة قريباً نسقط فيها تاسيتو دي لاكانال، فسنبدأ، أنا وهو المعركة بقوة متعادلة. لا يمكنني أن أتحمّل ذلك. أريد أن أكون متفوقاً عليه بشكل لا يقبل الجدل. ماذا سيكون؟ يمكنني فقط أن أعتمد على سمعتك التي تستحقينها جيداً كامرأة ذكية، ذات حدس قوي. ومغوية.

13

من نيكولاس بالديبا إلى ماريا دل روساريو غالبان

وهكذا يا سيدتي المحبوبة الرائعة، فقد نفّذت تعليماتك مرة أخرى (التي تطلقين عليها كلمة «اقتراحات» المُلطِّفة) وسافرت إلى ميناء فيراكروز لكي «أكسب نقاطاً» و«أصقل ثقافتي السياسية» كما تقولين، حيث وصلت حاملاً رسالة التقديم التي أعطيتني إياها لأسلمها إلى الرجل العجوز.

رأيته كما قلتِ لي تماماً بأني سأراه، جالساً إلى طاولة تحت صفّ من الأعمدة الضخمة في مقهى دي لا باروكويا، يمسك عكازاً، وأمامه فنجان قهوة يتصاعد منه البخار. كان يبدو تماماً كما تتذكرينه أنتِ وأتذكره أنا ويتذكره البلد كله. رأسه النبيل المنتصب فوق جسده الهشّ. الجبهة الواسعة، وخط الشعر المنحسر العريض بعرض جادة، والشعر الأشيب الممشّط بعناية. (لا أعرف السبب، لكنه أعطاني انطباعاً بأنه ممشّط من الرأس حتى أخمص القدمين) وبالطبع، كانت نظرته هي الشيء الذي

يميّزه: نظرة شاردة كالعصفور وحادة كالصقر! إنه نسر بكلّ معنى الكلمة، مهما كانت نظرته حادّة أو شاردة. لم يجسّد رئيس جمهورية آخر مثل هذا التلاقي التام بين الشخص والرمز. عندما كان الرجل العجوز جالساً على عرش النسر، كان هو النسر الحقيقي.

كان الجميع يعرفونه بأنه الرجل العجوز تحت القنطرة. ورغم أنه قد يكون قد غيّر اسمه وكذب في البوح بعمره الحقيقي، فإن الدوائر العميقة الداكنة التي تجعل جفنيه يبدوان وكأنهما ستاران أسودان ضخمان تظل طرية بسبب حاجبيه العريضين. وفي حين يقولون إن بعض الجبال يكسوها «ثلج دائم»، ففي حاجبيّ الرجل العجوز تحت القنطرة «ظلام دائم». الحاجبان اللذان يكادان يبدوان شيطانيين إن لم يكونا متناقضين إلى درجة كبيرة مع تلك الابتسامة المتحجرة التي ترتسم بين شفتيه الغليظتين الورديتين بالنسبة لشخص مسنّ في عمره، تؤطرها وتبرزها خطوط عميقة على الجانبين. وبين فمه وعينيه، هناك أنفه المستقيم الرصين، لكن المسطّح، باستثناء منخريه المتوهجين الواسعين مثل منخري كلب بوليسي.

إني أصف لك شخصاً تعرفينه حق المعرفة لكي أؤكّد انطباعي عن الرجل العجوز. لأنه معروف هكذا هنا: الرجل العجوز تحت القنطرة، يجلس طوال اليوم إلى إحدى الطاولات على رصيف مقهى دي لا باروكويا، يرشف القهوة التي تفوح

منها رائحة عطرية من كوتيبيك، وتتخلل ذلك رشفات من المياه المعدنيـة، وقد أُفـترشت على حـضنه نسخة من صـحيـفة La Opinion. إنه أنيق في ملـبـسـه، كـدأبه، إذ يرتدي بدلة مخططة رمـادية داكنة، وقميصـاً أبيض، وربطة عنق منقّطة في شكل فراشة لا يتخلى عنها أبداً، وحلقات أطراف كميّه الموشاة بصورة النـسر والثعـبان، وجـوربيه المنقطين، وحـذاءه الأسود اللامع.

قدّمت له نفـسي، وأعطيته رسالتك. وكمـا حذّرتني، بدأ الرجل العجوز تحت القـنطرة كلامه بتقديم تعـاريف وتوصيات سيـاسية مـثل كاهن يتلو أسس العـقيدة المسـيحـية. ولم يكن الرجل العجـوز يفتـقر إلى روح الدعابة، فـقد كـان يعرف أنه رجل عجـوز، مسنّ، وأن جيل الشـبـاب قد كـتب عليه الموت بالنسيان منذ أمد بعيد.

قال لي: «يظن البعض أن الإسراع برحلتي إلى القبر شيء إنساني». قال ذلك وهو يضحك دون أن يضحك - واحدة من عاداته كـما يبدو، وأضـاف «لكني لن أمنحهم هذه المتـعة، بل سأستمرّ في أن أكون ذلك الشخص الذي يسميه البعض مصدر إزعاج سياسي».

ثم، وبدون أن يضيع وقـتاً (تماماً كـما قلتِ إنه سيـفعل، وتماماً كما كـان يعرف أنك ستخبرينني بأنه سـيفعل)، بدأ يردد أقواله المشهورة، التي أصبحت قديمة الآن، والتي يعرف الجميع

أنها أضحت جزءاً من فولكلورنا السياسي. لكن كما أسلفت، لا يفتقر الرجل العجوز إلى روح الدعابة، ولا يعجز عن النقد الذاتي بوجه لا تعبّر قسماته عن مشاعره.

«لنستعرض جميع الأقوال التي ينسبونها إليّ، لكي لا نضطر إلى ترديدها مرة أخرى...»

«أنا واحد من الشبان الذين لا يهتمون بذلك يا سيادة الرئيس. فكلّ شيء عنك هو جديد بالنسبة لي».

«ماذا تقصد؟ ولا تدعوني «سيادة الرئيس»، تذكّر أني لم أعد رئيساً».

«إنها ثقافتي الفرنسية يا سيادة الرئيس. ففي فرنسا، لا يصبح أحد شيئاً سابقاً. إن ذلك يعتبر وقاحة».

«فرنسي آخر في فيراكروز!» صاح دون أن يبتسم، «تلك الضفادع الملعونة ثانية!»

«ما أردت أن أقوله هو أنني درست في الكلية الوطنية للإدارة في باريس...»

«لقد رست السفن الحربية الفرنسية هنا، كما تعرف، أثناء حرب الفطائر».

«ماذا...؟» سألت، كاشفاً عن ضآلة معرفتي بالتاريخ المكسيكي.

«نعم»، قال وهو يرشف قـهوته، «ففي مكسيكو سـيتي، اشتكى خباز فطائر فـرنسي يدعى ريمورتل، بأن الرعاع حطّموا مخبزه الذي يصنع فـيه فطائر ومعجنات أثناء الاضطرابات التي وقـعت في المدينة، وهكذا أرسل الفـرنسـيون في عـام 1838 أسطولهم لقصف مدينة فيراكروز، وطالبوا بدفع تعويضات عن الفطائر التي أُتلفت. ماذا عن ذلك إذن؟ ألم تشاهد الفيلم الذي تقوم ببطولته مابي كورتيس؟»

«مابي...».

قـال: «حـسناء من حـسناوات بـورتوريكو، إنهـا رائعـة الجمال. فخذان رائعتان. لقد رقصت رقصة الكونغا التي تدعى pim-pam-pum، ورشف رشفة أخرى.

«طبعاً»، أجـبت محاولاً أن أستعـيد قليلاً من مصـداقيتي المكدومـة، وقـد أدركت الآن أن مـابي كـورتيس ورقـصتـهـا pim-pam-pum كانت أكـثر أهمية من تخـرجي في الكلية الوطنيـة للإدارة. بالطبع جـاء العالم بأسـره إلى المكسـيك عن طريق فـيـراكـروز، بعـد وصـول هيـرنان كـورتيس إلى هذه الشواطيء في عام 1519....

«ثم عاد الفرنسيون في عام 1862 للمساعدة في الدفاع عن إمبراطورية ماكسيـمليان وكارلوتا». لقد جلب هذا الحنين بريقاً مـؤقتـاً إلى عينـيه، وأضـاف: «تصورّ قـوات من البلجـيكيين والنمـسـاويين والهنغـاريين والألمان، ورجـالاً قـادمين من براغ

وتريست ومرسيليا والزواوي، بالإضافة إلى البوهيميين، والفلمنكيين، الذين وضعوا أقدامهم هنا ورفعوا أعلامهم يا صديقي الشاب، وعلى جميع الأعلام بلا استثناء يوجد نسر، نسور ذات رأسين، نسور ذات تيجان، نسور رنكية، أما نحن فكان على علمنا نسر صغير مسكين - لكن يا له من نسر يا صديقي الصغير بالديبا، نسر جميل، لا يضاهيه أي نسر آخر، مخالبه جاثمة فوق نبات الصبار، ويلتهم ثعباناً. لم يكن هؤلاء الأوربيون يتوقّعون ذلك، أليس كذلك؟»

«لا أظن ذلك يا سيدي».

«الأثر الذي خلّفته قوات الإمبراطورية في فيراكروز من الأطفال ذوي البشرة السمراء والعيون الزرق. هل رأيت فيلم «سلاح الفرسان الإمبراطوري؟»

«لا، لكنني قرأت رواية رائعة عنوانها «أخبار من الإمبراطورية»، بقلم فرناندو ديل باسو».

«يا إلهي»، قال، ونبرة من الشفقة في صوته، «فعلى الأقل تعرف شيئاً».

نظر بعيداً باتجاه البحر وقلعة سان خوان دي ألوا، كتلة ضخمة رمادية اللون بشعة تنتصب فوق جزيرة موحشة. رآني العجوز وأنا أنظر، وبدا أنه عرف ماذا يدور في رأسي.

تحدثت كما لو كان قد سألني شيئاً.

«اغفر لي يا سيادة الرئيس. . . عندما كنت طفلاً كان هناك حاجز لصد الأمواج يصل القلعة باليابسة».

فقال: «لقد أمرت بإزالة الحاجز الذي يصد الأمواج. كان مصيبة على المشهد الطبيعي»، فيما أخذ النادل، وذراعه مرفوعة عالياً فوق رأسه، يصبّ القهوة التي ينبعث منها البخار متجهة مباشرة إلى كوبيّ القهوة الزجاجيين.

واصل العجوز كلامه:

«لهذا السبب أجلس هنا، أنظر إلى ميناء فيراكروز لأحذّر إذا ما تجرأ أيّ عدو أجنبي على تدنيس أرضنا بنعاله، كما يقول نشيدنا الوطني».

بدأ يخيّل لي أن الرجل العجوز تحت القنطرة لم يكن سوى رجل مهووس جامح لا يتوقف عن ترديد الأخطاء التي عانت منها المكسيك خلال قرون.

«والأمريكيون يا بني، لقد امتص الأمريكيون أدمغة الشباب المكسيكي. فقد أصبحوا يلبسون مثل الأمريكيين، ويرقصون مثل الأمريكيين، ويفكرون مثل الأمريكيين - يتمنّون أن يكونوا أمريكيين».

ثم أبدى إشارة بذيئة بيده اليسرى ورفع عكازه بيده اليمنى.

«بساق سانتا آنا المقطوعة، يستطيع هؤلاء الأمريكيون أن يقبّلوا مؤخرتي! فقد أتوا إلى هنا في عام 1847، ومرة أخرى في عام 1914 . . . متى سيعودون؟»

عدّل طقم أسنانه الذي انزلق من مكانه من شدة حماسه، وعاد إلى الموضوع الذي نتحدث عنه:

«اسمع يا بني، لكي لا تغادر هذا المكان خائباً، دعني أعطيك بعضاً من حكمي الأسطورية. . .».

وراح يتلوها. . . بجدية، بطريقة أشبه بالتأمل، وهو يحرّك ملعقة السكّر في كأس قهوته:

«إن السياسة هي فن ابتلاع الضفادع دون أن يرمش لك جفن».

لم يضحك. كان كلّ ما فعله أنه عضّ بقوة على طقم أسنانه ليثبته جيداً في لثته.

«في السياسة المكسيكية، حتى العَجَزَة يستطيعون أن يقدموا على تصرف خطير».

استغل ضحكتي المفتعلة ليطلب من النادل خبز موليت.

قال: «فاصولياء مقلّية وجبن ذائبة في لفّة خبز ساخن. إنها جيدة للهضم»، وأضاف، «انظر، إن الحقيقة المجرّدة هي أن الرئاسة قاطرة سريعة. فالقسمات التي ترتسم على وجهك

عندما تنطلق بك هي القسمات التي ستبقى مرتسمة عليه إلى الأبد».

قضم قضمة كبيرة من خبز الموليت.

«لهذا ترى دائماً ذات القسمات على وجهي التي كانت عندما كنت رئيساً للجمهورية ذات يوم».

تابع كلامه، يا ماريا دل روساريو، بابتسامة مريعة بعض الشيء، «ما لا يعرفه أحد أن مخزوني من الأقوال التي لم تنشر بعد لا نهاية لها».

رمقته بنظرة متسائلة بأدب.

ثم، وبصوت يشبه قرع أجراس جنائزية تصدر من وراء حنجرته، قال: «لا ترتكب أي خطأ. فأنا محصّن ضد الرصاص والزكام».

لذت بالصمت بعد تلك الحكمة المدوّية، وانتظرته ليقول شيئاً آخر، متسائلاً ماذا أفعل حقاً هناك، يا سيدتي الجميلة، بالإضافة إلى تنفيذ تعليماتك التي تقول: «تحدّث إلى الرجل العجوز تحت القنطرة. تحلّ بالصبر وتعلّم منه».

«أتعرف يا بني؟ قبل أن تصبح رئيساً، يجب أن تعاني وتتعلّم. وإذا لم تفعل ذلك، فإنك ستعاني وتتعلّم خلال فترة رئاستك، على حساب البلد».

هل يعني ذلك أن ماريا دل روساريو غالبان - نعم، أنت يا سيدتي العزيزة - هي التي أخبرت الرئيس السابق العجوز بوعدها الجريء بأني سأعتلي عرش النسر، وأنها قالت له إنني ذهبت إلى فيراكروز لكي يعلّمني؟ بالطبع إن كنت أعرف ذلك، فلن أتفوه علناً.

تجاسرت على القول: «لقد أصبح كارديناس رئيساً وهو في السادسة والثلاثين من العمر، وأليمان في التاسعة والثلاثين، وأوبريغون في الرابعة والأربعين، وساليناس في الأربعين...».

«إنني لا أتحدّث عن العمر يا سيد بالديبا. لم أقل كلمة واحدة عن العمر الذي يعد لهذا الرجل العجوز موضوعاً محرّماً. إني أقصد المعاناة والتعلّم. أقصد الخبرة. كان جميع الذين ذكرتهم شباناً، لكنهم كانوا يتمتعون بالخبرة. أليس كذلك؟»

هززت رأسي، وقلت: «سيادة الرئيس، أعترف أنني لازلت غراً. لكن قضاء صباح واحد معك يكفي لأن أتعلّم كلّ شيء لم أتعلّمه في الكلية الوطنية للإدارة في باريس».

هزّ رأسه قليلاً، وكأنه يخشى أن تتفكك جميع الأجزاء في داخله، أن تُحلّ براغيه.

قال: «صحيح»، وأخذ رشفة من قهوته، «إنك تعرف أن ولاية كلّ رئيس تنتهي من حيث ينبغي أن تبدأ ولاية الرئيس

التالي. أي من حيث يجب أن يبدأ. هل كلامي واضح؟ فالرئيس المنتهية ولايته يتكلم مع الرئيس التالي دون الحاجة للتفوه بكلمة واحدة. هذه هي الخبرة التي أتحدّث عنها».

«إلا إذا سدّ الرئيس التالي أذنيه ولم يستمع إلى سلفه».

ظننت أنه سيشعر بالارتياح لذكائي. لكن نظرته المتجهمة ازدادت تجهماً.

«العرفان بالجميل يا سيد بالديبا، العرفان بالجميل ونكران الجميل. الأولى شكل نادر جداً من أشكال العملة السياسية. أما الثانية فهي نفايات يومية».

برصانة شديدة، أزال قذى من زاوية عينه، وقال: «فكّر للحظة كم رئيس من الحزب الثوري الدستوري كان موالياً لسلفه. على كل حال، كان الرئيس السابق الذي يعتلي كرسي العرش في ظل حكم الحزب الثوري الدستوري القديم هو الذي يأتي بالرئيس التالي. إذ إن «الشخص المتواري» هو الذي يصبح «الشخص المكرّس». نتيجة منحرفة للنظام: يجب على الزعيم الجديد الكلي القدرة أن يثبت، بأسرع ما يمكنه، أنه لا يعتمد على الرجل الذي عيّنه. يا له من شيء متناقض يا سيد بالديبا. نظام الحزب الواحد الذي تفوز فيه المعارضة دائماً، لأنه يجب على الرئيس الجديد أن يهزم سلفه».

«رغم وجود استثناءات»، قلت بروح ديكارتية.

اختار الرجل العجوز ثلاث لفافات من سلة الخبز وترك الثماني الأخرى. لم يقل شيئاً آخر، لكنه أخذ يرسم بأصابعه الأرقام «1940 - 1994» بشكل غير مرئي فوق مفرش المائدة.

«بالطبع أصبحنا نعيش الآن في ظل ديمقراطية»، قلت بتفاؤل مفتعل.

«ومع ذلك فهناك الشخص الذي يفضل الرئيس أن يخلفه، الذي يظن أنه سيخدم البلد بشكل أفضل، الشخص الذي سيكون الأكثر إخلاصاً وولاء له، من سيحترم شعبه، ومن لن. . .».

«أما اليوم، فإن مرشّح الرئيس ليس بالضرورة هو الذي سيخلفه، كما كان يحدث في أيامنا. . .».

«لا، لكن بغض النظر عمن سيفوز في الانتخابات، فإن الرئيس السابق سيبقى دائماً، وعلى نحو قاتل، الرئيس السابق. ويتبين أنه توجد في خزانة كلّ رئيس سابق هياكل عظمية. أخوة محتالون، عشيقات نهمات لا يشبعن، أخوات فاسدات، أطفال منحرفون، وكلاء مزيفون لمصالح أعماله، أصدقاء مدى الحياة لا يمكن الحكم عليهم بالموت، وأشياء أخرى. . . ماهو الخيار الآخر الذي يمكنه أن يفعله سوى أن يوقف طيش المقربين إليه وتبذيرهم ليعودوا للعيش في تقشّف رهباني؟ انظر ماذا يقولون عني؟ إني آوي إلى فراشي في وقت مبكر لكي لا أهدر الشموع».

«إنك تعرف كلّ شيء».

أبديت له أجمل ابتسامة لدي، لكنه لم يبادلني الابتسامة.

«عانِ وتعلّم»، تنهد، ومرة أخرى، راح ينظر حالماً باتجاه كتلة قلعة سان خوان دي أولوا الضبابية، الحصن الذي يحرس مدخل الميناء.

أدركت أنني، لأنني كنت أركّز على كلمات وقسمات الرجل العجوز، لم أنظر بدقة إلى كتلة دي أولوا الرمادية، التي بدت لي هيكلاً هندسياً منفصلاً، يعود إلى الماضي، مثقلاً بتاريخ لا يمكن التخلص منه.

«انظر إلى تلك القلعة التي كانت سجناً هل يمكنك أن تتخيّل عدد السياسيين الذين يجب أن يكونوا هناك الآن، لكي يتطهروا من أخطائهم؟»

«إذا كان هذا رأيك، يا سيدي.».

هزّ كتفيه، وقال بصوت يشوبه صرير:

«لدينا قاعدتان ذهبيتان في السياسة المكسيكية، واحدة حميدة وهي عدم إعادة الانتخاب. والأخرى أشد قسوة: المنفى. لكن السبب هو ذاته: جميع الجانحين ينزعون للعودة إلى جنوحهم، يا صديقي الشاب».

نظر إليّ من أعماق الخطوط تحت عيونه.

«من الخطأ الاعـــتـقـاد بـأن الرئيس لا يسـيـطر إلا على الضعفاء. إن المهـمة الأكثر إلحاحاً، لكنها الأكـثر صعوبة، هي السيطرة على الأقـوياء. سأعطيك قاعـدة يمكنك أن تنقلها إلى جميع من تعـرفهم الذين يطمحون إلى نـبوؤ منصب عام. أي شخص يريد أن يصبح وزيراً عليه أن يستنشق أولاً لتراً من الخلّ في أنفـه. فـهـذا أفـضل تدريب للاقـتــراب من الرئاسـة، أعدك...».

اقترب النادل منا وهو يحـمل إبريق قهوة ضخماً يتـصاعد منه البخـار. انحنى الرجل العجـوز. لم يقدم لي قهـوة ثالثة، لكنه دفع كأس قهوتي نحوي.

عندها، وبشكل يكـاد يكون غيـر مناسب، سـألت رئيس الدولة السـابق: «وأنت يا سيـدي الرئيس، هل هناك شـخص تفضّل أن يكون خلفاً للورينزو تيران؟»

لاذ الرجل العجوز بالصمت للحظة وهو يحدّق في الغربان التي بدأت تتـهـيـأ للنوم بين نبـاتات الـغار الـهندي التي تحفّ الميدان: أسراب من الطيور تحـدث جلبة وهي تبحث عن مأوى تمضي فـيه الليلة، ولحسن الحظ أنها غطت على صـوتي، مع أنني أعرف أن الرجل العـجوز قد سمعنـي. لم أعرف رجلاً ذا أذن حادة السمع مثل الرئيس السابق، يا سيدتي العزيزة، مع أن جميع الذين كانوا يطلبون منه معروفاً، كانوا يأخذونه بغباء إلى

ركن منعزل في مكتبه ويقولون له: «بما أن الجميع يقولون في أعماقهم إنك رجل طيب.».

لا أعرف إن كان الرجل العجوز تحت القنطرة رجلاً طيباً أم رجلاً سيئاً. كلّ ما أعرفه أنه كلب عجوز ماكر، وأنه يعرف كلّ شيء، وأنه لا يبوح بشيء. هل سمعني؟ ألم يسمعني؟ ألم يرغب في أن يسمعه النادل؟ مهما كان الأمر، فقد استخدم صديقي الجديد بإعجابي، رغم فظاظته، الرجل العجوز، دقائق الصمت تلك، التي لم تقاطعها سوى أصوات النعيق الخشنة (أم هل كانت حزينة؟) المنبعثة من تلك الطيور في الغسق، ليعلّمني درساً في السياسة وهو كيف تقول كلّ شيء دون أن تقول شيئاً.

إني أحثّكِ على أن تكرري، أمام المرآة، كلّ إيماءة أبداها لي الرئيس السابق العجوز.

أولاً، رفع إحدى أصابعه إلى شحمة أذنه وفركها. يجب على المرء أن يعرف كيف ينصت.

ثم غطّى عينيه بكلتا يديه. إذا رأيتك، فإني لا أتذكّر.

ثم أخذ سبابته وشدّ أحد جفنيه.

ابقِ عينيك مفتوحتين. كن حذراً. كن متيقظاً على الدوام.

ثم رفع أحد حاجبيه، وكأنه يقترح التشكك والارتياب. لا تدع هذا الرجل يخدعك.

وفي الوقت نفسه، حرّك يده يساراً ويميناً وكأنه يريد أن يقول، احذر هذا الآخر. فهو زلق أكثر من سمك الأنقليس. إنه يعرف كيف يتلقى حيلة ماكرة.

وكانت حركته النهائية، أنه وضع سبابته على إحدى فتحتي أنفه. لا تدعهم يخدعونك. تشممهم.

وها أنا أعدّد لكِ يا صديقتي العزيزة، التعاقب السريع للإشارات التي أعقبت الرمزية الأنفية: يدًا على القلب. اليدين كلتيهما تصفقان للدلالة على فصل القضايا غير المتوافقة. يدًا على المنشعب بين الساقين للإشارة إلى الخصيتين. الإبهام مرفوعة للأعلى، مثل قيصر وهو يمنح الحياة في ساحة ماكسيموس، ثم يوجهها نحو الأسفل وكأنه يدين شخصاً بالموت. والسبابة تقطع الحنجرة مثل حدّ سكين. السبابة والإبهام مضمومتان معاً في شكل دائرة كاملة للإشارة إلى النجاح. الشفتين مزموتين في تجهم لحقن شيء من الشكّ في لحظة انتصار. التطلع شزراً لإبداء الشكّ والتساؤل، من تظن نفسك؟ الكتفين مرفوعتين باستسلام، وكأنه يريد أن يقول، ماذا يمكننا أن نفعل حيال ذلك؟ اليدين مفتوحتين، وكأنه يريد أن يقول، هكذا هي الحياة. ثم يرفع سبابته الشهيرة في تحذير مشؤوم. وأخيراً، الإصبع ذاتها تمرّ فوق الشفتين مثل سحّاب بنطال غير مرئي. عدم التفوه بكلمة واحدة. ششش! السكوت من ذهب.

بعد هذا العرض البارع للغة الجسد، يا سيدتي الجديرة بالإعجاب والمشتهاة، كان كلّ ما عليّ أن أفعله هو أن أشكر الرجل العجوز تحت القنطرة على نصيحته، ووقته، واهتمامه. نظر إليّ من وراء قناع النزاهة الذي يرتديه. كان يريدني أن أنظر إليه كشخصية تؤدي دوراً. أبا البلاد الرؤوف. سينسيناتوس المكسيكي الحكيم. كان يعلّمني: يا بني، تظاهر بالغباء. يجب على المرء أن يعرف كيف يتظاهر بأنه غبي. كن أبله القرية. مجرد إيماءات. لا تفه بكلمة واحدة. سيد الإطناب. مشعوذ جميع الأشياء الصامتة، دون كلام لأن الجميع يفهمها. ملك الكلام الملطف.

غادرت، شاكراً الرجل العجوز، الذي أحنى رأسه نحوي مثل ببغاء يقف على كتفيه وقدم له النادل علبة الدومينو.

كانت الشمس تميل نحو الغروب على نحو مدهش، وأخذت الغربان غير المرئية تنعق، وكان سجن قلعة سان خوان دي أولوا، يبدو مشؤوماً خلال النهار، وأسطورياً عندما يهبط الليل.

ملاحظة: لقد ألغيت حقي في التحدث إليك بدون تكلف حتى أثبت أنني أستحق هذه الظروف. لقد أرسلتني مثل تلميذ مدرسة صغير كي يعلمني الرجل العجوز تحت القنطرة وكأن آخر نسخة من أكاديمية أفلاطون موجودة حالياً في الميدان الرئيسي لهذا الميناء المهجور القديم. لكن لا تظني أنني أحسست بالإهانة، بل إن ذلك يغريني.

ن. ف.

14

من دولس دي لا غراسا إلى ماريا دل روساريو غالبان

سيدتي: إن كنت قد تجاسرت وكتبت إليك، فلأنه لا توجد لديّ وسيلة أخرى اتصل فيها بك. وأنتِ من أنتِ. والبلد كله يعرف ذلك. فلا توجد امرأة واحدة في هذا البلد تتمتع بنفوذ أكبر (لا أعرف إن كنت قد قلت هذا بطريقة ملائمة - فربما كان من الأجدر أن أقول إنه لا توجد امرأة واحدة أشد نفوذاً وتأثيراً؟) منك. إن جميع الأبواب مشرعة أمامك، وجميع أصحاب النفوذ ينصتون إليك. لكن أبوابك موصدة أمام الضعفاء. إني امرأة ضعيفة تافهة، كنت ذات يوم قوية كما هو حالك الآن. لكن اسمي يقول كل شيء - ذات يوم كان بوسعي أن أصبح قوية، لكنني لم أصبح. لذلك، فأنا أكتب إليك الآن يا سيدتي، أن أعترف أمامك بحرية لأنك قوية، أما أنا فلست قوية. لكنني أكتب إليك أيضاً لأسألك من امرأة إلى امرأة: ماذا حلّ بحبيبي؟ ألا تستطيعين أن تخبريني أيّ شيء؟

من هو الشخص الذي يثوي في قبر حبيبي في فيراكروز؟ ولماذا يوجد قبران، قبـر تحت الآخر؟ قبر من الشمع يذوب في داخله بفعل الحرارة، والقبر الآخر فارغ؟ سيدتي، إن كنتِ قد شعرت ذات يوم بحبّ رجل - ولا أشـكّ بذلك - فـأرجـو أن ترأفي بحالي. بحق الرجل الذي أحببته كثيراً في حياتك، فكّري بي، ارحميني، ارحمي وحدتي وعذابي، وأرجوك أخبريني: أين هو جسـد حبيـبي؟ إلى أين أستطيع أن أذهب لأحـضر له أزهاراً، أجثو أمامه، أصلّي من أجله، أفكّر به، وأقول له كم أنا مشتاقة إليه، وبحاجـة إليه؟ ألا تستطيعين أن تساعـديني؟ هل ما أطلبه كثير؟ هل هو حقاً كثير جداً؟ هل إني أطلب المستحيل؟

15

من الرئيس السابق سيزار ليون إلى الرئيس لورينزو تيران

أودّ أن أشكرك، يا سيادة الرئيس، على الصداقة، بل وعلى الثقة التي منحتني إياها، بإلغاء قرار النفي غير المكتوب الذي جعلني أمكث خارج البلاد طوال السنوات التي أعقبت «رئاستي السابقة». إن هذا الكرم الذي أسبغته عليّ ما هو إلا دليل على مدى ثقتك بنفسك. سيادة الرئيس، لم آت إلى هنا لآخذ منك شيئاً، مع أن أسلافك كانوا سيقولون ذلك. ومهما كان المنفى رائعاً، فإنه يظل دائماً مراً كالعلقم. فالمرء يحمل بلده في قلبه، وفي دمه، وفي رأسه، بل وفي قدميه أيضاً. أن تتمكن قدماي من أن تطأ تراب المكسيك مرة أخرى، يا سيادة الرئيس، لهو أعظم هدية تقدمها لي، وسأردّ لك هذا العمل الجليل بالامتنان والولاء.

لقد بدأت أعتقد أن إثبات ولائي لك كان صمتي. أما الآن، وبعد أن أبديت الشهامة التي تليق بك، وبروح من الولاء المتبادل، طلبت مشورتي ونصيحتي.

تخيّل ماذا يعني ذلك بالنسبة لرجل مثلي، كان يعيش ذات يوم في وسط التملق والمداهنة ليستيقظ في اليوم الكئيب التالي ليجد نفسه مطروداً من منصبه، ويسأل نفسه ذلك السؤال الممض: «أين ذهب جميع أصدقائي؟»

كنت وكأني جراكوس، النبيل الروماني الذي جرى إلى الشاطيء ظناً منه أن الجنود القادمين قد جاؤوا لتحريره، لكنه اكتشف أنهم جاؤوا لكي يقتلوه. إذ يمكن تغيير الولاء بسرعة كما تُبدّل المعاطف. فالرجل الذي كان صديقي ذات يوم، انقلب فجأة إلى عدوي في أقل من نصف ساعة...

حسناً، يا سيادة الرئيس، بما أنك طلبت مني أن أتكلم بصراحة، فها هي رسالتي لك.

مع أنك فزت في الانتخابات، فلا تنس أبداً أنك في نهاية الأمر ستخسر سلطتك.

إني أعرف عما أتحدّث.

كن مستعداً.

إن النصر الذي جعلك رئيساً سيؤدي في نهاية الأمر وبشكل حتمي إلى الهزيمة وستصبح حينها الرئيس السابق.

كن مستعداً.

إن كونك رئيساً سابقاً يجعلك بحاجة إلى خيال أكبر بكثير مما تحتاجه وأنت الرئيس الحالي، لأنك لا بد أن تخلّف وراءك مشكلة، ولهذه المشكلة اسم يدعى: أنت.

إن مشاكل المكسيك تعود إلى قرون عديدة، ولم يتمكن أحد من حلّها على الإطلاق. إلا أن الناس اعتادوا على أن يحمّلوا أمراض البلاد هذه على كاهل الذين يتبوؤن السلطة، لا، بل على عاتق الذين غادروها.

كان ذلك سبب سقوطي. ربما لا يقع اللوم على الشخص بل على المنصب نفسه. فمن السهل أن تفوّض آخرين منذ أول يوم تتسلم فيه منصبك. لكن الأمر لا يسير هكذا. لا يمكن. فمنذ اللحظة التي يجلس فيها الرئيس على عرش النسر، يجب عليه أن يثبت أنه لا يوجد في المكسيك كلها إلا صوت واحد أحد - وهو صوته. كان هذا معنى اسم الإمبراطور الأزتي، تلاتواني، إله الصوت العظيم. هذا ما يفرضه علينا منصبنا، نحن الذين نتبوأ عرش النسر: أن نحظى بالصوت العظيم، بالصوت الأوحد.

بالطبع نستطيع أن نطرد وزيراً غير كفء (أو غير مخلص). إلا أن المسؤولية برمّتها تقع في نهاية الأمر على عاتق الرئيس. في بعض الأحيان، تُقدم إلينا الشمبانيا، لكننا نُرغم في أحيان كثيرة على تجرع شراب مرّ. ونتمنى جميعنا ألا يحكم

علينا الناس نتيجة الأخطاء التي ارتكبت خلال الأيام القليلة الأخيرة من حكمنا، بل أن يحكموا على الأمور الجيدة التي حققناها في السنوات الماضية، التي يوجد دائماً القليل منها. لكني أود أن أنبهك، بكلّ الاحترام الذي تستحقه، أنه نادراً ما تُحسب الأمور بهذا الشكل.

ولا مكان للنوايا أيضاً، بل إن كلّ ما يهم هو النتائج. وبما أنك سمحت لي أن أثير موضوع تعاقب تولي الرئاسة الذي يبدو أنه موضوع أكثر جسامة إذا ما أخذنا في الاعتبار طبيعة نظامنا الديمقراطي الجديد السريعة (فقد تمكن عدد منا في الحزب الثوري الدستوري القديم من إبقاء خيولنا مربوطة في اسطبلاتها حتى اللحظة الأخيرة قبل انطلاق السباق، لكنك تجد نفسك تسابق في مضمار آخر، يكون فيه الفرسان جميعهم بدينين)، ما أريد أن أقوله إننا كنا في الماضي، ما إن يتم اختيار المرشح - في وقت متأخّر- حتى يكون الرئيس قد أصبح رئيساً سابقاً.

لكن ثمة شيء لم يتغير بعد، وهو أن عملية التعاقب لا تزال تتم بصورة رئيسية في رأس الرجل الذي يشغل عرش النسر. ففي داخل رأسه يقبع اسم الشخص، من بين جميع الورثة المحتملين لرئاسة الحزب الثوري الدستوري الوراثي، الذي يتمتع بأقوى دعم شعبي، وأكبر درجة من الولاء لدى العمال والفلاحين وأكثر الناس تأييداً له في الانتخابات.

سيـادة الرئيس، هل عليّ أن أقـول لك الحقـيقة، جـوهر المسألة؟ إن الرأي الـعام لا يساوي بعـرة. لا تكوّن الفكرة التي تقول بأن سين سـيكون وريثاً ناجحـاً لأنه يتمتع بشعـبية كبـيرة وسيكون ذلك لمصلحـة الرئيس. فما إن يتولى الرئيس الـشعبي منصبـه، وهو لا يدين بفوزه إلا للناخـبين، حتى يقطع جـميع التزاماته تجاه الرئيس الذي انتهت ولايته. إنك تريد، بل وتأمل في أن يصبح ع من الناس رئيساً، لأنه يدعمك ولا أحد سواه، لأنه كان يؤيدك في جميع الاقتراعات، ولأنه سيكون مديناً لك عندما يخلفك. لذلك، سـيكون أكثر الأشـخاص ولاء من بين الآخرين جميعهم.

سيادة الرئيس. هذا خطأ كبير. ثق أنك إذا اخترت الرجل الذي يدين لك بالكثيـر، فإنه سيخونك بسـرعة لكي يثبت لك أنه لا يعتـمد عليك. بمعنى آخر، إن الـشخص الذي يدين لك كثيـراً سيشعر بأنه يجب أن يمارس اسـتقلاليته، أو بعبـارة أكثر صراحـة، يمارس عدم ولائه. إن تـناول لحوم البـشر السيـاسي يحدث في كل مكان، لا فـي المكسيك وحدها، حـيث يضاف إلى الجيفة العامة مئـتا نوع مختلف من الفلفل الحار، من أصغر أنواع الفلفل إلى أكبرها وأكثرها شهـية. إن التصرف الشعائري المعتاد هو أن يقـتل الرئيس الجديد سلفه. استعـد لهذا الأمر يا سيادة الرئيس. احم ظهرك. فلن يـقف إلى جانبك عندما تهزم سوى حفنة قليلة، لا كما كانوا يقفون إلى جانبك أثناء نصرك.

آنذاك، آنذاك فقط سيوضع ولاؤهم على المحك لإثباته. لذلك لم تبق لنا سوى فرصة أو فضيلة وحيدة، وهي الأكثر صعوبة، وهي أن نبذل ما بوسعنا لأن نكون أفضل رئيس سابق، وذلك بأن نكبت رغبتنا في التذمر، وأن نتجاهل جميع الأضرار التي لحقت بحلفائنا، وننسى الإهانات، والأهم من كل هذا وذاك، أن نبدي ولاءنا لرئيس الدولة الجديد. إني أحذّرك سلفاً: إن هذا أكثر الأشياء صعوبة. إذ ننحو لأن يتملكنا الغضب والكراهية، ويعترينا الشعور بالامتعاض، وتنتابنا الرغبة في أن نحيك المؤامرات والانتقام. يتملكنا الإغراء الحتمي بأن نؤدي دور الكونت مونت كريستو. إنه خطأ كبير. فإذا فاقم ألم المنفى (طوعياً من الناحية النظرية، وإجبارياً من الناحية العملية) رغبتنا في الانتقام، فإننا سنفقد في نهاية الأمر إحساسنا بالواقع، ونبدأ نخترع بلداً خيالياً يتواصل فيه كلّ شيء كما تركناه تماماً عندما غادرنا عرش النسر.

سيادة الرئيس، إن أهم نصيحة يمكنني أن أقدمها لك هي أن تتظاهر بأنك مخطيء حتى لو شعرت بأنك مضطهد. ليكن ولاؤك الظاهر أشد أنواع الثأر مكراً وبراعة. إني أؤكد لك أني بذلت كل ما بوسعي لأن ألقي كلّ شيء وراء ظهري وقد نجحت تقريباً. لقد أمضيت فترة المنفى في سويسرا وأنا أقرأ مجلداً وراء مجلد من التاريخ القديم، لأن أكثر الدروس المتعلقة بممارسة السلطة ديمومة هي التي يقدمها لنا بلوتارك وسوتونيوس

وتاسيتوس. وأهم ما يروونه من بين قـصصهم تلك، يا سيدي الرئيس، قصة النبيل سابنوس، الذي قُتل بسبب خيانته المزعومة للقيصـر. وتقول القصة إن كلب سابنوس رفض أن يبـتعد عن جسد سيده، حتى عندما وضعـوا طعاماً في فمه. وأخيراً أُلقي بجسد سـابنوس في نهر التيبيـر، لكن الكلب قفز وراءه وأبقى الجسد عائماً.

«اقتلوا الكلب!» أمر الحارس.

هكذا هو الولاء المفرط، يا سيدي الرئيس. ثق بي.

16

من نيكولاس بالديبا
إلى ماريا دل روساريو غالبان

إن كان تاسيتو دي لاكانال زلقاً ومراوغاً كالأفعى كما تقولين يا سيدتي العزيزة، فهذا يعني أنني لسوء الحظ، لم أتمكن من تقديم مزيد من البراهين التي تدعم الادعاءات التي تتجاوز تزلّفه لرؤسائه، وفظاظته ووحشيته مع مرؤوسيه. فقد حرص رئيس ديوان مكتب الرئيس على أن يبدو شديد التواضع إلى درجة أن أصبح يضرب به المثل. فهو يعيش في كولونيا كووهتيموك، في شقّة تتألف من غرفتين صغيرتين ومطبخ، وتفوح من منبسط الدرج رائحة تشبه رائحة بول القطط، ومؤثث بأثاث من ليردو تشيكويتو، وتملؤه أكداس من المجلات القديمة. إنه راهب، إن شئت، لا يوجد شيء يسعده ويسليه سوى السلطة والعيش من أجل السلطة.

حسناً. لقد توصلت أخيراً إلى دليل غير حاسم في حد ذاته، لكنه قد يفتح الباب أمام ألغاز أكبر.

كما تعرفين يا عشيقتي ماريا ديل روساريو، فهو يشبه تلك الكتب التي كانت تعطينا إياها جدّاتنا. فعلى إحدى الصفحات، توجد صورة بيت من الداخل فيه نافذة صغيرة تسمح برؤية الحديقة على الصفحة التالية، يوجد لها بوابة تنفتح على صفحة ثالثة، ثم تنفتح الصفحة الثالثة تلك على غابة تقود العين هبوطاً إلى حافة الماء، حيث ينتظرنا مركب يقودنا إلى جزيرة مسحورة. وهكذا دواليك. إنها تشبه القصة التي لا نهاية لها، أليس كذلك؟

حسناً، بعد أن تحوّلت إلى موديل من فيرساتشي وأصبحت أتلقى التعليمات من حضرتك، فقد أدخلت دوريس الصغيرة في روع تاسيتو أنها أصبحت الآن امرأة عصرية أنيقة، وأنها لن تعترض على إقامة علاقة أكثر حميمية معه. ومن المؤكد أن تاسيتو رجل داعر ومتهتك، كما كان إله المراعي والغابات، وبدأت دوريس، شيئاً فشيئاً - وفق تعليماتي مرة أخرى، التي كان يجب عليها أن تنفصل عن أمّها الشريرة لكي تتفتح، تتلاعب بتاسيتو، تصدّه، تجعله يرافقها إلى المطاعم في البداية، ثم إلى الحانات، ثم إلى مرقص غران ليون لكي تعرض نفسها عليه وهي ترقص، لكنها كانت ترفض أن تذهب معه إلى أيّ موتيل، وقد رافقته في مرات قليلة إلى غرفة في أحد الفنادق.

لقد ازداد حماس تاسيتو. ويعرف جميع الموظفين في المكتب ذلك. وأخيراً، وافقت على أن تذهب معه إلى شقّته في

شارع ريو جواديانا. وما إن دخلت شقـته، حتى أمسكت أنفها ورددت عبارة مأخوذة من بيتي ديفيس كنت قد علمتها إياها:

«إنه مكبّ زبالة! فتـحة جهنم قـذرة! كوخ حقـير! فتـحة خراء!»

وقـالت لـي دوريس وهي تكاد تموت من الـضـحك، إن تاسيتو أحس بمهانة شديدة فأمسكها من يدها، وأخرج مجموعة من المفاتيح، وتوجـه إلى المطبخ الصغـير، وفتح باباً بالمفـتاح، فكشف عن مشهد رائع في الداخل، وكـأنك تقلبين صفحة في أحد الكتب المصورة تلك. فقد ظهـرت أمام عينيّ دوريس شقة فاخرة على السطح - شرفة تعج بأصص أزهار كبـيرة، مسبحًا مستطيلاً، وكراسي للتشمّس. ووراء الشرفة، كانت هناك غرفة جلوس واسعـة، مؤثثة بأثاث فـاخر، ولوحات غاليـة الثمن - الكثير من لوحـات روبنس المقلدة، وفهمت من وصف دوريس - سـجـادات فارسـيـة، أرائك من الريش، أوانـي زجاجـيـة رخيصة، وبابًا، منفرجًا قليلاً، يفضي إلى غرفة النوم.

وحسب التـعليمـات أبدت دوريس صدمة وبهـجة، فيـما أبدى تاسيتو عدم مبالاة وكـبرياء. وعندما بدأ هذا الحقير يتودد إليها أكثر، استأذنت دوريس بغنج شديد وتوجهت إلى الحمام، وكـأنهـا تريد أن تتـهـيأ للقـاء الحبّ في عـصـر ذلك اليـوم، فأخرجت مـنديلاً من حقيبتـها وألقته من النافـذة إلى الشارع.

رأيت الإشارة، وما هي إلا خمس دقائق، حتى اقتحمت غرفة نوم تاسيتو هذا الذي لا يوجد له مثيل، متظاهراً بأني العشيق الديوث المتيم الغاضب. كان عارياً تماماً، كاشفاً عن كلّ ما أورثته إياه أمّنا الطبيعة بقسوة: الرأس الأصلع، الأجمة الكثيفة من الشعر التي تغطي صدره وساقيه، هذا إذا لم نذكر عدداً من المناطق الشعثاء الأخرى التى أفضّل ألا آتي على ذكرها. كان يجري وراء دوريس المدربه جيداً، والتي كانت تصرخ بأعلى صوتها وهي بكامل ثيابها: «لا أستطيع! ماذا ستقول أمّي!»

سحبتها بعيداً عن رئيس ديوان مكتب الرئيس الذي كان يرتدي ثياب يوم مولده، وأمسكتها بقوّة. أمطرته بوابل من الإهانات والشتائم، وقلت له إن دوريس حبيبتي، وأنا بيجماليونها (كانت الجملة الأخيرة صحيحة، والأولى خاطئة طبعاً)، وغادرنا نحن الاثنان، لا نكاد نستطيع أن نتمالك نفسينا من الضحك، فيما كان تاسيتو واقفاً هناك كما ولدته أمه.

بدا أن تمثيليتنا الهزلية الصغيرة مسلّية للغاية. لكنها لم تثبت أيّ شيء حقاً، يا صديقتي العزيزة، باستثناء أن تاسيتو داعر ضئيل مضحك، وأن فقدان الشعر إشارة ثانوية - ربما كانت ثانوية، لكنها إشارة في جميع الأحوال - عن الفحولة. على أي حال، أصبح لديك على الأقل برهان الآن بأن تقشّفه المزعوم مزيف. لنأمل بأن نحظى بحظ أفضل في المرة القادمة!

17

من الجنرال سيسيرو أروسا
إلى الجنرال موندراغون فون بيرتراب

صديقي ورئيسي الجنرال (رغم أنك لن تصبح في مرتبة أعلى من رئيس الجمهورية، الذي هو بحكم منصبه القائد العام للقوات المسلحة)، اسمعني جيداً لأن الفأر بدأ يلعب في عبي. فثمة شيء مريب يجري هناك.

نعرف كلانا أنه توجد أوقات يصبح فيها نشر القوات المسلّحة خيارنا الوحيد. إذ إن تدخّل الجيش في سان لويس بوتوسي ضد المشاركين في الإضراب الذين يسببون مشاكل لليابانيين ويتصرفون مثل مصارعي الساموراي الحقيقيين، أظهر بوضوح شديد أن الاستثمار الأجنبي يحظى بالاحترام هنا - لماذا، فلولا اليد العاملة الرخيصة لما أتوا إلى هنا أصلاً، وماذا كان سيحل بنا عندئذ؟ نعبث بأصابعنا تسجية للوقت. لذلك فإني أنصحك بتنفيذ هذه العملية السريعة والنظيفة، أيها الجنرال. وفي جميع الأحوال، فأنا سعيد بأن مظاهر استعراض

القـوة تقع على عاتقك. وكـما يـقول المثل في المكسـيك، إننا نحبّ أن تكون صـفـقاتنا واضـحـة كالكريـسـتـال، وأن تكون الشوكولا الحـارة سميكة، لكن ينتهي بنا الأمر غالبـاً بشوكولا طرية، سـائلة، وتشوب صـفقـاتنا الريبـة. ما أعنيـه هو أنهم يدسون دائماً قطعة صغـيرة من لحم الماعز في طعامنا، إن كنت قد فهـمت ما أقصده. إذ إنك تعرف جـيداً، أيها الجنرال، أنه يوجد دائـماً فرق كـبيـر بين الضبـاط الذين تلقوا تدريبـهم في الأكاديميـات العسكرية، مـثلك، والضباط الذين حـصلوا على ترقياتهم بعـد أن كانوا جنوداً عاديين. لا أعني بذلك أنّ هؤلاء أفـضل من الآخرين، فـأنت نفـسك تعـرف أن جنرالنا العظيم فيليب أنغيلس كان قد تخرج في أكـاديمية سان سير في فرنسا، وخاض معارك ضد الجنود الذين كـانوا زملاء له وانتصر عليهم في الجيش الاتحادي في عام 1914. أما جنرالنا بانتـشو فيللا، فقد كان مـزارعاً يربي المواشي، ثم هرب لأنه قتل الرجل الذي اغتصب أخـته. إنه قاطع طريق، سارق ماشيـة، سارق أبقار، وإلى ما هنالك. وذات يوم جمـيل وجد ضالته، وأنشأ جـيشاً من الريفيين يضم ثمـانين ألف رجل، يكاد يكون جميـعهم من الفلاحين، ثم انضم إليه أصحاب المزارع في الشمال، والتجار، بل وحتى الكتّاب والمهنيون. وحقق فيللا كلّ ما حققه أنغيلس، لكنه لم يدرس في أيّ أكاديمية أجنبية معروفة - بل حتى أنه لم يكن يجيـد الكتـابة والقراءة، ومـع ذلك، فقـد هزم الجـيش

الاتحادي. إن ما أحاول أن أقوله، أيها الجنرال، إنني لا أدقق في أوراقك لأتأكد منك، ويجب عليك ألا تقلّل من شأني أيضاً. اتفقنا؟ إننا - آه، نسيت الكلمة - إن أحدنا يكمّل الآخر، مثل الملح والليمون في تاكيلا جيدة، ألا ترى ذلك؟ إنك تنتصر في المعارك الوطنية الكبيرة، وأنا أعتني بالمناوشات المحلية الصغيرة. إنك تقضي على عمّال السيارات المضربين في سان لويس بوتوسي، أما أنا فلا يسمح لي بأن أوجّه ضربة لأبناء الكلاب طلاب الجامعة الذين يسيل المخاط من أنوفهم. إنهم يدّعون أنه بسبب استقلالية الجامعة لا يمكننا انتهاك حرمتها. لكن ألم ينتهكها هؤلاء المتوحشون أنفسهم، عندما حطموا مختبرات العلوم وبالوا على كرسي رئيس الجامعة؟ ستقول لي، أيها الجنرال، إن يديّ مليئتان بمدينة يغمرها الخوف، وحوادث الاختطاف السريعة، والابتزاز، والسرقة، والقتل... إنك تعرف المشكلة جيداً. لنفترض أنني قررت أن أطهّر قوات الشرطة من الفاسدين، فإن ذلك يعني أنه يجب أن أطرد ألفًا أو ألفيّ شرطي منحرف. ماذا أكون قد حققت؟ أكون قد ساهمت في زيادة عدد العصابات المجرمة بألف، ألفين. إذ سيتجه أفراد الشرطة المسرّحون هؤلاء مباشرة لممارسة الخطف، أو الاتجار بالمخدرات، أو القيام بعمليات السطو المسلح. إنه شيء جميل. وهكذا أبحث عن ألفيّ شرطي آخر، أطفال صغار، نظيفي اليد، مثاليين. لا يمكن لأحد أن يتهمني أنني لم

أحاول ذلك، وأنت تعرف ذلك. لكن لم يحالفني الحظ. متى سأحصل على استراحة؟ فبعد مضي سنة، سيكون جميع رجالي قد أصبحوا فاسدين، لأنه كيف يمكن لراتبي الذي يبلغ خمسة آلاف بيزو أن ينافس الخمسة ملايين بيزو التي يتقاضاها رجال الشرطة المنحرفون لقاء عملية واحدة يقوم بها تاجر مخدّرات معروف؟ إنني لا أفتقر إلى النوايا الحسنة، أيها الجنرال. إني أحد أولئك الرجال المستعدين لقتل ألف شخص بريء لكي لا أدع رجلاً مذنباً يكون طليقاً حراً. وبمناسبة الحديث عن الشرطة، لا تنس أنني لم أتدرب مثل كانتينفلاس العزيز في ذلك الفيلم، الذي يغوي الخادمات ليحصل على طبق مجاني من الفاصولياء (لكن اسمح لي أن أحكي لك هذه النكتة الصغيرة: عندما يتعلق الأمر بالخادمات، أغسلهن أولاً، ثم ضاجعهن، وبعد ذلك، كمكافأة لهن، أرسلهن إلى بيت الدعارة). إن ما أحاول أن أقوله حقاً هنا هو أنني تدربت على محاربة رجال العصابات والثوّار والمتمردين الذين كانوا في المكسيك، لا أعرف منذ متى - يوم في موريلوس، ويوم في تشياباس، ويوم آخر في غويريرو... وماذا تعلّمت من كلّ هذا، أيها الجنرال؟ لقد تعلمت حقيقة ساطعة واحدة وهي أن الليل يساوي مليون عسكري. لذلك فإني أكره الألغاز - لأنها مثل الليل. ففي الظلام تولد جميع هذه الجيوش الخفية، وفي يوم جميل، ودون أن يحتاجوا لإظهار وجوههم، يدكون

الإسفين في مؤخراتنا. أما محاربة رجال العصابات، أيها الجنرال، فإننا نمتاز بقدرتنا على اختراق جميع قواعدهم، لأن هذا ما يفعله العدو تماماً. أيها الجنرال، إن أفضل وسيلة لكي تجعل جنودك يحبونك هو أن تتركهم ينهبون ويسلبون ما يحلو لهم ثم أن تضع اللوم في ذلك على العدو. الخروج للقتال من أجل لقمة الطعام - قل لي، هل يمكن أن يجذب الجندي المكسيكي الفقير شيء أكثر من هذا، أحد هؤلاء المجندين الذين يُستخدمون طعماً للمدفع بما أنه لا يوجد لدينا جنود سود كما هو الحال في الولايات المتحدة؟ قل لي يا من درست في أكاديمية ألمانية: كم هو رائع أن تصدر أوامر كما تفعل، يا جنرالي، من بعيد، وكأنك تلعب لعبة كمبيوتر، وأنت تعرف أن أعداءك محصنون في قلعة ثم تهاجمهم مستخدماً قوة عسكرية كبيرة، عندما تكتشف نقطة ضعفهم، فتخترق صفوفهم، وتبث الذعر في نفوس المدنيين، لأن جميع عمليات التمرّد الناجحة تحظى بدعم كبير من المدنيين، أليس كذلك؟ ألا تظن أنني أشتاق، بل أحنّ، إلى تلك الأيام التي كنت فيها قائداً ميدانياً، عندما كنت أواجه أعداء أشداء، أقوياء؟ حسناً، انظر إليّ الآن، فإني استخدم أقزاماً جاؤوا من رياض الأطفال لأحافظ على النظام - إنهم يقولون لي: شتت صفوف المحتجين، يا جنرال أروسا، دع الجرذان تخرج إلى القاعة، ثم ألق عليهم من شرفات الطابق العلوي أكياساً بلاستيكية مليئة

بالبول... إني أحلم كلّ ليلة بريفنا الجميل، بالكلاب وهي تنبح على النجوم، بالجثث المشنوقة المعلقة على عواميد، وبالريح التي تصفر في أفواههم الفاغرة. أيها الجنرال، لقد اكتشفت الآن فجأة فرصة وأشعر بإخلاص أني يجب أن أبلغك إياها، لأن تنفيذها يقع في مسؤوليتك، مع أن المعلومات قد ترد إليّ أولاً. وإذا كان الأمر كذلك، فلن يكون أمامنا خيار إلا أن نوّحد صفوفنا، يا جنرالي الطيب. إذ إننا نشعر ببعض الأشياء بجلدنا، ونرى بعضها الآخر بعيوننا، وأخرى تخفق في قلوبنا. باختصار، هناك سرّ، أيها الجنرال. سرّ دفين في قلعة سان خوان دي أولوا. نعم، عند مدخل ميناء فيراكروز. كيف عرفته؟ لأن جاسوساً أخبرني به. أو إذا أردت، عصفورة صغيرة. عصفورة رقيقة ليست لي وحدي فقط... أو بمعنى آخر، إنها القفص الرائع الذي تغني فيه عصفورتي الصغيرة. أولوا، إنها قفص وقلعة وسجن. قد تتساءل كيف يمكن أن يكون لهذا علاقة بجميع القضايا الأخرى التي نواجهها الآن - إذا كان على الرئيس أن يرتقي إلى مستوى الأحداث، قضية الغرينغو الذين هددونا وعزلونا، وقضية من سيصبح الرئيس القادم، وقضية الطلاب، والفلاحين، وعمّال المصنع...

هناك ألف خيط في هذا النسيج، أيها الجنرال، ومع ذلك لا يزال حدسي كجندي قديم يلحف في السؤال عليّ: أولوا، أولوا، ماذا يجري في أولوا؟

18

من بيرنال هيريرا إلى ماريا دل روساريو غالبان

لقد جاء الرئيس السابق سيزار ليون لزيارتي. في البداية لم أعرفه. فقد أصبح ذلك الشاب ذو الشعر الأسود المتموّج رجلاً مسناً ذا شعر أبيض متموّج. لقد عرفته من تلك الخصلات المتموّجة الرائعة، من النواحي السياسية والأدبية والجسدية أيضاً. لقد ذكرتني بتلك الأغنية القديمة، «أمواج البحيرة»: «أمواج تأتي، وأخرى تذهب، بعضها إلى سأولوا، وبعضها إلى سابوتلان...» السؤال هو: أين هي سأولوا في رأي سيزار ليون، وأين هي سابوتلان؟

أقدم لك هنا ملخصاً عما تبادلناه من حديث، بالإضافة إلى الاستنتاجات التي خلصت إليها، بما أن ليون، كان (وربما لا يزال) صديقكِ. فقد كنت أنت التي قدمت له النصيحة التي كفلت له شعبيته. أطلق سراح السجناء السياسيين، يا سيادة الرئيس. امتدح المثقفين. احضر جميع المناسبات المدنية

والثقافية. قم بدور بنيتو خواريز الجمهوري. بدّل قيادات اتحادات العمال. اجلب وجوهاً جديدة. إن التغيير مقبول كدليل على التجديد الأخلاقي. (نعرف جميعنا أن العكس هو الصحيح: فلدى البيروقراطي الجديد جميع الطموحات التي كان البيروقراطي القديم قد حققها. لذلك، سيكون الجديد أكثر شراهة من القديم). تعاون مع الأمريكيين في كلّ شيء، إلا في مسألة كوبا. فقد أتاحت كوبا على الدوام، ولا تزال تتيح لنا الفرصة للتملق الكلامي لكي نحافظ على استقلالنا. فبفضل كوبا لم نعد الهدف الرئيسي للحملات والمؤامرات وأعمال العنف التي تطلقها الولايات المتحدة على أمريكا اللاتينية بين الحين والآخر. فالولايات المتحدة أشبه بالكابتن أهاب الذي يلاحق موبي ديك الذي ربما يرضي هوس الأمريكيين في النظر إلى العالم باللونين الأسود والأبيض فقط. إذ يفقد الأمريكيون عقولهم إذا لم يعرفوا من هو الرجل الجيد ومن هو الرجل السيء - وكانت المكسيك الرجل السيء على مدى قرن ونصف القرن من الزمن، حتى جاء، ونشكر الله على ذلك، فيديل كاسترو، وأصبح مانعة صواعق بالنسبة لنا. وجعل سيزر ليون الأمريكيين يفهمون أن المشكلة هي أكثر تعقيداً من مجرد مؤامرة غربية قديمة. إذ ستكون المكسيك من أشد الحلفاء موالاة للولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية، لكن لن يكون ذلك ممكناً إلا إذا حافظت المكسيك على علاقة جيدة مع كاسترو للإبقاء

على خطوط الاتصال مفتوحة (المسألة رقم واحد) وأداء دور في مرحلة انتقال كوبا بعد وفاة كاسترو (المسألة رقم اثنين). لكن الوعد الثاني هو الذي خيّب أملنا. فالقائد العجوز لا يزال قابعاً هناك، ويبلغ الثالثة والتسعين من العمر، وقد قرأت في الصحف أنه افتتح مؤخراً مدينة ملاه في سييرا مايسترا.

لا أقصد أنكِ أنتِ التي اخترعت سياسات المكسيك تجاه كوبا والولايات المتحدة، يا صديقتي العزيزة، لأن هذا سيكون مثل أن يقول المرء أنكِ أنتِ التي اكتشفت المياه الفاترة. لكن بحيلك وخدعك المغرية والجذابة التي تشتهرين بها، زرعت هذه السياسات في عقل الرئيس الشاب سيزر ليون، الذي هو غرينغو نفسه، والذي درس في جامعة برينستون وكلية ماساشوسيتس للتكنولوجيا قبل أن يتسلم مهام السياسة الخارجية الدفاعية للمكسيك، وأصبح مثل السلحفاة التي تنام إلى جانب الفيل.

كما ذكّرته أنه يجب أن يكون الرئيس المنتخب في نظام الحزب الثوري الدستوري الذي عاد إلى السلطة مؤخراً (كان ذلك قبل أربعة عشر سنة) شوكة في خاصرة أقرباء وأصدقاء رئيس الدولة المنتهية ولايته، لأنه بهذه الطريقة يستطيع إرضاء الرأي العام وإيهام الناس ببداية جديدة.

سيزار ليون. حتى أننا لم نكن نذكر اسمه منذ أن فاز في انتخابات عام 2006. لقد قررنا، ببساطة، أن نعتبره نكرة، شخصاً لا وجود له.

لكنه في الواقع عاد. وقد رحّب به الرئيس تيران بذراعين مفتوحتين.

قلت له: «احذر يا سيادة الرئيس. إن سيزر ليون مثل العقرب التي تقول للضفدع، «احمليني على ظهرك عبر النهر. أعدك بأن لا ألدغك»، ومع ذلك، فقد لدغ العقرب الضفدع...».

«أعرف هذه الحكاية»، قال لي الرئيس، مبتسماً... «إنها من طبيعتي» قالت العقرب. وفي هذه الحالة فإن ليون الضفدع وأنا العقرب.

«ماذا تريد إذن؟ أن تلدغه أم أن تكون على الجانب الآخر؟»

«هذا شيء سأقرّره في الوقت المناسب. اصبر».

إني أقدم لك هذه المعلومات يا صديقتي العزيزة، لكي تفهمي الحديث الذي دار بيني وبين سيزر ليون في الليلة الماضية.

أخذ يتحدث قليلاً عن «تواضعه»:

«لقد تعلّمت أشياء كثيرة في المنفى. أريد أن أكون عنصراً من عناصر الوحدة. فبعد فترة وجيزة، سيحل أحدهم مكان الرئيس تيران وسنجري انتخابات في خضم صعوبات خطيرة للغاية».

وهذه الصعوبات الأخيرة، التي أعرفها أنا وأنت جيداً: الطلاب، العمّال، الفلاحون، الأمريكيون. . . فقد تطوّع ليتوسط في كلّ مسألة، وتحدّث عن الدعم الذي يقدمه له الحزب الثوري الدستوري القديم الذي انشقّ بسبب موقفه غير المتسامح والمستبدّ والمتغطرس حتى انتهاء فترة رئاسته. حتى أنه استشهد باقتباس لاتيني (يبدو أنه أمضى وقته في أوروبا يقرأ الأعمال الكلاسيكية): "Divide et impera".

تظاهرت بأنني لم أفهم العبارة وطلبت منه أن يترجمها لي. فقال بعجرفة: «فرّق تسد».

هكذا إذن، قلت لنفسي، إنك هنا لتحقق فوزاً عن طريق التفرقة، هذا اللقيط. احتفظت بالتعليق لنفسي. لقد أردت أن أسمعه يقولها - إذ إن ذلك سيكون مثل الاستماع إلى أغنية كانت معروفة منذ عشرين سنة، تنبعث من أسطوانة قديمة مشروخة- وكرّر بأنه يريد أن يكون أفضل رئيس سابق للجمهورية، جيمي كارتر المكسيكي، لا يتذمر أبداً، ويتصرّف وكأن أحداً لم يسيء له على الإطلاق. بمعنى آخر: لقد عاد، متعطشاً للسلطة، تماماً مثل شخص نجا من سفينة غرقت وعام فوق طوافة من قناديل البحر طوال سنوات وسنوات، تحيط به المياه من كل جانب، ومع ذلك لا يستطيع أن يشرب منها قطرة واحدة.

قال إنه يريد أن يكون عنصراً من عناصر الوحدة والتعاون فيما تبقى من الحزب الثوري الدستوري القديم، المحطم. بمعنى آخر: إنه يريد أن يستولي على الحزب ويعيد بناءه بتقديم الوعود إلى جميع القواعد القديمة، التي أُضعفت حالياً، لكن فيها قوّة كامنة، ثم يجمع كلّ المجموعات المهتمة المتباينة، قواعد السلطة المحليّة والرجال الأقوياء - لسوء الحظ الذين يتكاثرون بسبب ديمقراطيتنا الجديدة وموقف رئيسنا من سياسة عدم التدخل وإطلاق الحريات - في حزب معارضة موحّد يمكنه أن يخرجنا من السلطة.

اقترح بتهكم شديد أنه يستطيع أن يكون وسيطاً، أن يكون صلة وصل بين الرئاسة والكونغرس الصعب المراس، علماً أنه لا توجد أغلبية في سان لازارو، وأن جميع مشاريع القرارات التي تقترحها السلطة التنفيذية، إما أن تؤجل أو تُسوَّف أو تركن على الرفّ تماماً.

باختصار، كان يعرض علي أن أساعده للتصدي لهذه العقبات ولتمهيد الطريق أمام الانتخابات الرئاسية.

جلست هناك أنظر إليه، صامتاً تماماً. لا داع لأن أقول لك إن هذا لم يزعجه على الإطلاق. برقت عيناه الصغيرتان الماكرتان وقال بهدوء شديد: «هيريرا... مهما حدث... فإنه لم يحدث».

حدّقت فيه بإمعان.

«سيادة الرئيس»، قلت، بالمجاملة اللائقة، «عندما كنت لا تضاهى، لم تكن تكره أحداً. أما الآن وبعد أن أصبحت بين الأنداد، فمن هو الذي تكرهه؟»

كان رده ماكراً ويشي بالإعجاب بنفسه:

«إن السؤال، أيها السيد الوزير، هو أنت ندّ من؟»

أردت أن أسخر من ذكائه الحاد الذي لا يمكن إنكاره. لكن ضحكته [illegible] فوق [illegible] التألق وقال لي شيئاً بذلك الصوت القوي، المهدد الذي كان يستخدمه دائماً ليخيف حلفاءه وأعداءه كذلك.

«إن كنت تريد نصيحتي، فابق بعيداً عن قضية مورو».

لا يمكنني إلا أن أفترض أنه كان يتوقّع ردّ فعلي، إلا إذا كان قد أصبح شديد الغباء أو شديد السذاجة، وهما في نهاية الأمر الشيء ذاته. كان ردّ فعلي، كما تفهمين، ضرورياً في وجود مثل هذا الرجل الداهية، الخطير

«يبدو أنك، يا سيادة الرئيس، لا تدرك أن أيامك قد انتهت...»

«وكلّ ما حدث آنذاك... لم يحدث؟ لنر كيف يمكن أن يكون ذلك ممكناً؟»

«ببساطة شديدة، إن القوانين التي التزمت بها ذات يوم لم تعد القوانين التي نعيشها اليوم... فقد تغيّرت المشاكل، والحلول تغيّرت، ويجب أن أكرّر، أن الزمن نفسه قد تغيّر».

«آه، لكن أنا وأنت، رغم اختلاف مشاكلنا وزمننا، سنرتكب دائماً، في نهاية الأمر، أعمالاً شريرة إذا كان ارتكاب الأعمال الشريرة ضرورياً، أليس كذلك؟»

عندها رفع رأسه الأسدي ونظر إليّ بغطرسة وازدراء.

«لا تقترب من قضية مورو أيها الوزير. فما دمت بعيداً عنها سنكون أنا وأنت على خير ما يرام».

«أوه، اخرس!» قلت، بعد أن عيل صبري، «إني أعرف جيداً ما حدث في قضية مورو، لكني لن أقوم بدور الشرطي».

«حسنا، لنر. من الممكن أن تقوم الشرطة بعملها على أكمل وجه إلى درجة أن ينتهي بك الأمر في السجن».

عند ذاك، قفزت واقفاً وقلت: «إنك لست سوى حلم ضائع».

«لا»، ابتسم وهو يتجه نحو الباب قبل أن يلتفت ليواجهني للمرة الأخيرة، «على العكس تماماً. فأنا كابوس حيّ».

ضربت قبضتي على جبهتي بعد أن أغلق سيزار ليون الباب وراءه. كان يجب ألا أفقد أعصابي بحضور تلك الأفعى.

في أي اتجاه، يا صديقتي العزيزة، تتجه الأمواج في البحيرة الآن؟

19

من نيكولاس بالديبا
إلى ماريا دل روساريو غالبان

لديكِ كلّ الحقّ في أن تؤنبيني على بطئي الشديد يا سيدتي العزيزة. واسمحي لي أن أستشهد بالقول الإيطالي المأثور، بما أن إيطاليا مصدر الحكمة كلها، ولكن أيضاً مصدر كلّ الخبث والدهاء السياسي: Chi va piano va lantana (من يسر الهوينى يقطع شوطاً لأطول) وأتمنى أن تمنحيني ذات يوم ذلك الامتياز الذي يتمتّع به إيطالي آخر (وهو غير معروف كما هو معروف صاحب هذا القول، للتأكيد على الأمر)، وأن تعترفي بي، يا سيدتي العزيزة، لكوني أنا: فتى شابًا حالفه حظ جيد، لكنه مع ذلك، يعيش على خطا كلمات قالها شخص يدعى «ميكافيللي»، الذي كان يحذّر دائماً من الاعتماد الشديد على الحظ، مع أنه، رغم ذلك (ومن يستدعي ذلك إلى الذاكرة؟) متقلّب، متلون، وقح.

في جميع الأحوال، هل تظنين أن قدرتي على تحطيم

غـرور تاسيـتو دي لا كـانال، وتغيـير دوريتـا المحبـوبة، التي أخضـعها وقهـرها رئيسهـا وأمّها منذ أمـد بعيد وجعلهـا امرأة حقيقية، أمر تافه؟

إني أواصل هذا الأسلوب، يا عـزيزتي الغـالية مـاريا دل [illegible]. فقد كان البارحة الرابع عشر من شباط، عيد القدّيس فالنتاين، عيد العشـاق (من يعرف السبب)، لذلك أقمت حفلة في المكتب واخترت أن أقـيمها في غرفـة إميليانو زاباتا لأن [illegible] على أن يقتل أبـطاله ثم يقـيم لهم تماثيل لتكريمهم. بدا لي أنه المـكان الملائم للذين يعـملون في القصـر الرئاسي. كمـا تعرفين - جمـيع الذين لا يراهم أحد لأنه ليس من المفترض أن يراهم أحد. لقد ذكرت للتو السكرتيرات اللاتي اضطررن لإخراج آلات الكاتبـة «ريمنغتون» القـديمة وأزلن عنها الغبار الذي تجـمع عليها في غرفة الأرشـيف، بعد أن أضحت أيامنا هذه صـعبـة للغاية بدون هواتف وكـمبـيوترات وأجـهزة فاكس.

الأرشـيف! من منكم رأى هؤلاء العـجائز (لماذا لا يعـمل أحـد من الشـباب هنـاك؟ هل لاحظت ذلك؟) الذين يعـتنون بسجلات الرئاسـة بنوع من الولاء يستحقون عليـه وساماً؟ إنهم الأشـخاص غـير المرئيين، الذين يعـيشـون في كهـوف مليئـة بالأوراق، يحـفظون كل مـا يجب إخـفاؤه ونسـيـانه. هؤلاء المسؤولون عن الأرشيف.

ودعوت إلى الحفلة عمال الحديقة، والبوّابين، والسائقين، والطهاة، والنادلات، وعاملات التنظيف، وعاملات الغسيل. وكلفت بينيلوب المخلصة- لا توجد امرأة يلائمها اسمها مثل هذه المرأة - بالقيام بجميع الترتيبات الضرورية: تعليق الفوانيس، تزيين كلّ شيء في شكل قلوب، تعليق أشرطة ملوّنة، كما طلبت الطعام، كلّ شيء.

لا يمكنك أن تتخيلي الوقت الممتع الذي كان يمضيه الجميع، إلى أن دخل تاسيتو دي لا كانال المبجل بزهو، فأطبق على الحفلة صمت جنائزي، مما أدخل شعوراً غامراً بالبهجة إلى قلب رئيس الديوان. كان شديد التأنق في ملبسه لهذه المناسبة، وهذا يعني أنه خلع ربطة عنقه وفك الأزرار الثلاثة العليا من قميصه، لا لكي يبدو أنه في مظهر غير رسمي، بل لأنه يريد أن يكشف صدره! كان أصلع مثل بطيخة. كان يريدنا جميعنا أن نرى تلك الأجمة، الدليل على فحولته المتضخمة. يجب أن أقول إن الأمر كان استثنائياً: طرزان يستطيع أن يتأرجح من حلمة إلى حلمة بسهولة. حسناً. لكن لا يمكنك أن تتخيلي ماذا كان يعلق في رقبته، التي يكسوها ذلك الشعر المتشابك الكث. سلسلة علقت عليها حجرة ثمنية نقشت عليها صورة، وهل تستطيعين أن تعرفي صورة من كانت تبتسم فيها؟

لم تكن صورة أحد غيرك، يا سيدتي العزيزة ماريا دل روساريو غالبان. ستسألين ألم تكن عذراء غوادالوب؟ لا، يا

سيدتي العزيزة، كانت أنتِ، أيقونة تتدلى بين حلمتي تاسيتو دي لا كانال المليئتين بالشعر. وقد تسألين ماذا حدث بعد ذلك؟ حسناً، فقد قال تاسيتو للجميع متباهياً إنه أكثر من صديق حميم لصديقة الرئيس الحميمة، وإنكِ أنتِ، يا سيدتي المبجلة، تستمتعين بأفضال السيد دي لا كانال المشعرة.

افعلي ما تشائين. إنني موجود هنا لكي أزوّدك بالمعلومات، أنفّذ بإخلاص ما أمرتني به سيدتي الجميلة (أنقل مباشرة الأخبار من قلب الظلام الذي يخفق تحت درع تاسيتو المشعر)، أنقل أخبار وقاحة المتلصص الذي تجسّس على أكثر حالاتك تميزاً وإمتاعاً عندما كنت تخلعين ثيابك، يا سيدتي، وتحولت إلى عارضة حبّ - آمل - ألا يكون متبادلاً.

غادر دون أن يتفوه بكلمة واحدة، سوى أنه هنأني على مبادرتي «الهزلية»، وأطلق العنان لموجة من البهجة غير المقيّدة بشكل غير متعمّد، ردّ فعل على وجوده المثير للكآبة. إذ يوجد لبعض الناس تأثير. طلبت أن توزع المرطبات على الجميع، وسرعان ما بدأ المرح يخرج عن السيطرة على نحو خطير، وكأنهم كانوا يستعدون لاقتحام الباستيل. أخذت أثير الحماس في الغرفة، أتوقف هنا وهناك لأدردش مع هذا وذاك، أبعث الحيوية في الأشياء، إلى أن وجدت نفسي أقف أمام واحد من الذين يطلق عليهم اسم «شيخ المؤرشفين».

إلى أي عصر يعود أكبرهم سناً؟ إنه يعود إلى أيام لوبيز ماتيوس. وأصغرهم سناً؟ منذ لوبيز بورتيلو؟ هل يحبون عملهم؟ بالتأكيد، إذ يجب أن يكونوا منظمين إلى درجة كبيرة لكي يصنفوا الوثائق حسب الموضوع والتاريخ والاسم. هل يقرأون كلّ الأشياء التي يصنفّونها؟ نظرات ساهمة. لا. أبداً. فهم يستلمون الوثائق، ويختمونها بخاتم المكتب والتاريخ، ويدوّنون ملاحظة عن الموضوع في الزاوية اليمنى العليا، ويضعونها في الملف الملائم. هل توجد فيها وثائق ممهورة بخاتم «سرّي للغاية»، «سرّي»، «شخصي» أو شيء من هذا القبيل؟ طبعاً. هل يتذكر أيّ منهم موضوعاً معيناً مصنفاً وفق هذا التصنيف؟ لا، لا، كلّ ما يفعلونه هو تصنيف الوثائق.

إن عيونهم تكشف أحد شيئين: إما أنها مجوفة، أو أنهم لا يفهمون. وعلى أية حال، فإن حجم الأوراق التي يتلقونها يومياً كبير جداً إلى درجة أنهم لا يكادون يجارونه. كان هذا كلّ ما في الأمر.

هل أستطيع أن أقوم بزيارة هذه الأرشيفات؟

لم أجرؤ في الحقيقة أن أسأل هذا السؤال، يا صديقتي العزيزة، لأني شعرت بروح أخوية تسود هؤلاء المؤرشفين، نقابة تقوم على أساس أوراق قديمة، أقبية معتمة، ساعات طويلة من الرتابة والملل، عطلة قصيرة ضئيلة التعويض، أسر لا يكادون يذكرونها، ووجوه شاحبة.

لقد اخترت واحداً منهم من بين الآخرين جميعهم. الشخص الذي قال إنه يعمل هناك منذ رئاسة لوبيز بورتيلو. الشخص الذي لم يخلع زيّ العمل الرسمي القديم، حتى في الحفلة: واقية عينين حال لونها إلى الأخضر تعانق جمجمة وتحمي نظرة لا هي فضولية ولا هي مريبة. وياقة بلاستيكية متصلة بالقميص بزرّ بلاستيكي أبيض. صدرية منفلتة الأزرار، وربطة ذراع لإخفاء التباين بين طول الكمّ وطول الذراع، أو ربما لكي لا يهترىء طرفا الكمين.

«أسرتي من ياليسكو»، قلت كاذباً، مع أن تعليقي لم ينتزع منه أي ردّ فعل.

«إننا على صلة قرابة بعائلة غالفيز إي غالو»، أضفت.

أشرق وجهه.

«رئيس الديوان الذي أكنّ له إعجاباً شديداً!» قال مبتهجاً.

«هو ذاته».

«يا له من رجل محترم! متزوّج من سيدة حقيقية. هل تصدق يا سيد بالديبا، إنهما لا ينسيان عيداً واحداً من أعياد ميلادنا؟ ويقدمان لنا هدية دائماً، ابتسامة لك. أوه، يا له من فرق!»

«تقصد بينهم وبين تاسيتو دي لا كانال؟»

«أوه، لم أقصد.». رفع الرجل العجوز إحدى يديه إلى فمه.

«لا... لم...».

عانقته بدفء.

«لا تفكر بالأمر ثانية، يا سيد...».

«كاستولو ماغون، في خدمتك. إني أعمل في قسم الأرشيف منذ عام 1982. زمن مختلف، يا سيد بالديبا!»

«أعرف، أعرف. أن تتذكر هو أن تعيش. إني مهتمّ جداً بأرشيفاتنا، كما تعرف».

«حقاً؟»

«نعم، حقاً، يا دون كاستولو».

«حسنا، أنا في خدمتك. تفضل لزيارتي في أي وقت تشاء. سيكون ذلك من دواعي سروري. لكن يجب أن أحذّرك بأنه توجد أوراق كثيرة هناك، الكثير من التاريخ. حتى إننا نضيع في دهاليز تلك المتاهة».

إن الشيء الذي لم أقله له هو هذا: إني أعرف عما أبحث. لا تقلق.

20

من خافيير «سينيكا» ساراغوسا إلى الرئيس لورينزو تيران

إن الزمن يجري بسرعة. فقد مضت ثلاث سنوات على تبوئك منصبك هذا يا سيادة الرئيس، ولم تتكرم بأن تسألني: «ماذا سأفعل يا سينيكا؟» إن ذلك يجعلني أفكّر بجميع الأشياء، ويذكرني بألف ليلة وليلة، يا سيادة الرئيس، وأودّ هنا ان أذكّرك بقصة الخليفة هارون الرشيد، الذي ما إن مالت الشمس إلى الغروب، حتى غادر قصره مرتدياً ثياب شحاذ ليختلط بالناس ويسمع ما يقولونه عنه فعلاً، غير الكلام المنمق المعسول الذي يسمعه من أفراد حاشيته. دعني أخبرك يا سيادة الرئيس أن المكسيك تشكّلها دينامية القدر. إنك شديد الإيمان بالمجتمع المدني، وبمنح الناس حرياتهم. ونصيحتي التي فكرت فيها كثيراً، هي: ضع حدوداً لهذا الأمر. فإذا تركت شعبنا يتحرك بسهولة دون توجيه على الإطلاق، فإن الحرية ستتحول إلى فوضى، ولن تقود هذه الحرية قوّة الإرادة، بل ستقودها قوى القدر.

لقد دفنت هذه البلاد الـكثير من مشاعـر السخط على مرّ السنين، قـرون طـويلة من الفـقـر والظلـم والأحـلام التي لم تتحقق.

فإذا لم تنشيء القنوات السياسيـة الصحيحة، وإذا كان كلّ ما يوجد لدينا حريّة بدون قيود، فـإنه ستنبعث من المياه الراكدة القابعة تحت الأرض فـقاعات وتبدأ تصعد إلى السطح لتـتحوّل إلى دفقات سريعة قوية ستهدم كلّ شيء في طريقها.

أعرف أنك تؤمن بشيئين اثنين: الأول، أن الناس سيقدّرون الحريات التي تمنحها لهم. والثاني، أن القوّة العامة في المكسيك هي بيد جيش محترف من ناحـية (فون بيرتراب)، وقوّة شرطة غاشمة من الناحية الأخرى (أروسا). وهاتان القوتان ستسيطران على الزعـماء المحليين الصـغـار الذين، بدلاً من أن يتلاشـوا، تمكنوا من التغلغل في ظل النظام الديمقراطي. هذا لا يكفي، يا سيادة الرئيس. ثمـة شيء ناقص. هل تعرف ما هو؟ إنه أنت. فالنـاس بحاجة لأن يروك. ومـثل العديد من أسـلافك، بدأت تصـبح الرجل العظيم الذي يطوف في القـصر وحده، الشـبح الذي يعتلي عرش النسـر. أرجوك ردّ على هذا. لا يزال هناك وقت. لا تدع الناس يظنون أنك لعبة تحت رحمـة قوى خارجة عن السيطرة. توقّف عن التحـديق في الأفق مثل صوفي عندما تظهر أمام الناس في عيد الاستقلال، وفي السنة الجديدة، وفي الخامس من أيار. تـطلع في عيون الناس، دعـهم يروك، لكن

تأكد من أنك أنت الذي يرونه، يا سيادة الرئيس، وليس خدمك وأذنابك. دع صوتك يملأ الساحات ويجد طريقه إلى كلّ ركن من أركان هذه البلاد. فلا يمكن للسياسة أن تعيش وتتنفس إلا في الأماكن التي يُسمع فيها صوت الرئيس. هل اختبرت مدى حدود صوتك؟ هل قست الحدود بين العمل والاستسلام؟ يجب أن يوجد الرئيس من أجل مواطنيه. وإذا لم يفعل ذلك، فإنهم سيسحبون الاحترام الذي تتوقعه منهم. فالرجل الذي يُمتدح كإله ذات يوم، يمكن أن يُنظر إليه باحتقار كالشيطان في اليوم التالي.

اخرج إلى الشوارع، يا سيادة الرئيس. ألق ببعض الأفكار قبل أن تُرمى عليك. لأنه إذا لم تكن لديك أفكار، فلن تكون شيئاً سوى لسان حال الآخرين. كن حذراً يا سيادة الرئيس. فأنا لا أرى إلا الطفيليين والعلقات والمتملقين في مكتبك. هل تستفيد منهم حقاً، أم ربما كان العكس؟ لقد بدأت تدخل الآن النصف الثاني من ولايتك، ويمكنك أن تنظر بأمان إلى الوراء وتهنّيء نفسك لأننا أصبحنا الآن بلداً يتمتع بديمقراطية وحرية أكثر من قبل. يا له من شيء رائع. لكنك الآن يجب أن تتطلّع إلى الأمام وأن تتقدّم بحذر لأننا سنواجه قريباً منتصف آذار (اليوم الذي اغتيل فيه يوليوس قيصر في سنة 44 قبل الميلاد): مسرحية خلافة الرئاسة التي تحلّ علينا كلّ ستّ سنوات. وبخلاف الرؤساء الآخرين، فإنك لن ترشح خليفتك. لم يعد

للشخص «المرسّم» وجود. لكن لا بد أن يكون هناك أشخاص يفضلهم الرئيس في كلّ إدارة. ويكون لدعم الرئيس وزن كبير. داخل الأحزاب. داخل الإدارة. حتى داخل نفسك. دون الحاجة إلى ذكر الرأي العام.

لكن كن شديد الحرص يا سيادة الرئيس. فبعد أن تجرأت وأشرت إلى أن عامة الناس يعتبرونك سلبياً، فإني أشجّعك على أن يكون لديك ظهور هادئ بارز وواضح. لكني يجب أن أحذّرك من القيادة بطريقة عدائية مفرطة، ذلك النوع من القيادة الذي يخنق الحريات الديمقراطية بدلاً من أن يدعمها. فقد استسلم هيديغير إلى إيمان النازيين في ألمانيا بالإعلان أن الأرض والدم هما أهم من حرية التعبير. ومنح احتراماً أكاديمياً للزواج غير المقدس بين الموت والعنف؛ لنوع الزعيم الذي يوجه طاقاتنا ويرغمنا على قبول - وهنا أقتبس قول الفيلسوف من الذاكرة - «الاستسلام الشهواني للطاعة التامة». كيف نعرف أن الشعب المكسيكي، الذي أتعبته ديمقراطية أصبحت مشوشة بالاستسلام، لن يختار قيادة استبدادية تمنحه على الأقل وهم الأمن والإحساس بالهدف؟

هذا هو الجانب المتشدد الآخر. لا تقع فريسة له. افحص وقيّم وجودك لدى العامة. لكن، وإني أعود إلى الجانب المتشدد الآخر، لا تدعهم يقولون عن لورينزو تيران ما قاله جورج بيرنانوس عن فرنسا بعد أن هزمها أدولف هتلر: «لقد أُغتصبت

امـتنا على يد صـعاليك ومـشـردين بينما كنـا نغط في سبـات عميق».

عزيزي، أيها الصديق المبـجل، إنك تشرّفني بثقتك، لكن ارجوك، مهما فعلت، تذكّر دائماً أن رئاسة الجمهورية هي وعاء من السمك الذهبي. ومهما قررت أن تفعل، افعله جيداً. لأنك إذا أخفـقت، فلن تكون أسوأ زعيم ديمقـراطي حكم هذه البلاد فقط، بل ستكون آخر زعيم فيها.

21

من الرئيس السابق سيزار ليون إلى تاسيتو دي لا كانال

يا لها من ورطة صغيرة وسخة، يا صديقي القديم والمميز! «إن السياسي المكسيكي لا يدوّن شيئاً على الإطلاق» كانت تلك العقيدة السائدة في السابق. حسناً، انظر ماذا حلّ بنا الآن، أيها الأحمق، انظر أين أوصلنا صلفنا بالسيادة السيئة السمعة - أم أنها سيادة متغطرسة؟ لنقل الأمور بصراحة، بدون لف أو دوران أظن أن أحدنا يعرف الآخر جيداً في ذلك. سمّني أوغسطس وسأسميك كاليغولا، مع أن كاليغولا هو الامبراطور الذي قرّر أن يخلفه حصانه، وفي حالتك، ستكون أنت الحصان إذا تمكنت من الوصول إلى حيث تريد أن تصل.

دعني أضحك، أيها الخراء كاليغولا، أيها الخائن المثير للاشمئزاز. إنه أمر مضحك، أليس كذلك؟ فأنا الشخص الذي يستطيع أن يجلسك على عرش النسر، لكني سأذلّك في كلّ خطوة وأنت تخطو إليه، لأنك لن تكون مديناً لي فقط، بل

ستكون مديناً لي بحياتك. تـذكّر ما قلته لك ذات يوم، عندما كنت تعمل من أجلي، أيها اللقيط لاعق الطيز؟ لا تبدأ تتوجس من المؤامـرات، لأنه حـتى لو لم تكن هناك أي مـؤامرة، فـإن الأمر سينتهي بك باختلاق واحدة.

صدقني، كنت أفكر بك كثـيراً في سنوات المنفى تلك، يا كاليغولا. إن سيزر أوغسطس لم ينسك أبداً - إلى درجة أني، في الواقع، أجازف وأكتب إليك الآن.

هكذا إذن لا توجد لدينا هواتف، ولا فـاكسات، ولا بريد إلكتروني، ولا كمـبيوترات، ولا إنترنت، ولا أقمـار صناعية؟ حسناً، يمكنـني أن أقول لك إنه يوجد لدينا شـيء واحد. لدينا الشيء غير المتوقع. المجهـول. اللا مرئي. فقد استطاع الجنرال موندراغون فون بيرتراب والجنرال سـيسيرو أروسا، الذي يقف أحدهمـا على طرف النقيض مع الآخر بكل مـعنى الكلمة، أن يتفقا على وسيلة لمراقبتنا جـميعنا. لا تسألني كيف اخترعاها أو كيف استنبطاها. يقـولون إن موندراغون يحتفظ بمجـموعة من المفكرين والأدمـغـة بقـيمـة مليـون دولار في سـجل الرواتب الحكومية، تصوّر هذا فقط، أيها البليد، أفضل الأدمغة من كلية ماساشوستس للتكنولوجـيا، ومن وادي السيليكون، ومن المركز الوطني للبحوث العلمية في باريس.

حسناً إذن، هل تسـتطيع أن تخمّن ماذا استنبطا لاسـتبدال كلّ شيء فقدناه؟

دبّوس، أيها المداهن المتملق الذي يسيل لعابه، دبّوس صغير جداً يسجّل أصواتنا ويرسلها مباشرة إلى مركز قيادة الاستخبارات في مكتب موندراغون. هذا الشيطان الماكر، فون بيرتراب يصفّيّ ما لا يريد أروسا أن يسمعه. إن أحاديثنا جميعها تسجل بواسطة ميكروفون صغير بحجم دبّوس يزرع في مكان ما في أجسامنا، مع أن لا أحد يعرف أين. ليس في ثيابنا، لأني أعرف أنني عندما أدخل إلى الحمّام، فإن صوت الدش لا يغطي على صوت غنائي.

أتمنى ألا يظنوا أن الأغاني التي أغنيها وأنا أستحم ليست رسائل سياسية مشفرّة: «توقّف عن سؤالي، دعني أتخيّل...»، أو «فيراكروز، الركن الصغير حيث تبني الموجات عشها...»

يمكن تفسير كلّ أغنية سياسياً. لكن هذا شيء جانبي. إن الحقيقة هي أن لا أحد منّا يعرف أين، ومتى، وفي أي جزء من أعضاء جسمنا (أو الأسوأ من ذلك، داخل أي عضو في الجسم) -الحاجب، الركبة، الأذن، الضرس، أو ربما في مؤخرتنا - فقد تمكن موندراغون فون بيرتراب، بمساعدة العلوم الألمانية الدقيقة، أن يزرع تلك الدبابيس التي تكاد لا ترى والتي تنقل أحاديثنا.

هذا يعني أن يتدنى بنا الحال إلى مستوى كتابة الرسائل الآن. ليس أمامنا خيار آخر. ماذا يمكننا أن نتمنّى؟ أن يقوم

متلقي الرسالة بتمزيقها وإتلافها ما إن ينتهي من قراءتها. إذن ما الشيء الأكثر خداعاً الذي يمكننا أن نفعله؟ أن نكتب عكس ما نؤمن به ونفعله. لكن من الناحية الثانية، مهما كنت ساذجاً، يا كاليغولا، حتى أنك تستطيع أن تقدّر الحقيقة بأن التعليمات المزيفة يمكن أن تُقرأ أيضاً وتُفهم حرفياً. لقد جهّز وزير دفاعنا الذكي ذو الأصل الألماني الأمور إلى درجة لم يعد أمامنا من خيار سوى أن نكتب رسائل ونقول الحقيقة.

على أقل تقدير يمكننا أن نخفي أسماءنا، كما يفعل خافيير ساراغوسا، المعروف لدى الجميع باسم «سينيكا» دائماً. حسناً، سواء كان الحذاء ملائماً أم لا، سأكون أوغسطس وستكون أنت كاليغولا. لكن دعني أحذّرك، أيها التافه النتن، لا تظنن نفسك مثل سيزر أبداً، لأنك لست سوى حصان. إن فكرتي هي تلك: لقد صعدت إلى السلطة معي، في ظلّي، ثم طعنتني في ظهري، وأشرت عليهم بذلك الأمر الفظيع، «لا تمنحوه حتى متعة إهانته. لا تدعوا أحداً يردد اسمه على الإطلاق».

«صمت في الليل، والعضلة تنام»، كما تقول أغنية التانغو القديمة. لكن الطموح لا يعرف الراحة، أليس كذلك أيها البليد؟ هل تعرف ماذا تعني كلمة mole؟ لهذه الكلمة عدة تعريفات في اللغة الإنكليزية. إنها تعني «شامة عليها شعر». وتعني حيواناً لبوناً يلتهم الحشرات ذا عينين وأذنين صغيرتين ومخالب تشبه المجارف ليحفر جحره تحت الأرض (الخلد).

وتعني حاجز الأمـواج لصدّ قوى مدّ البحـر. وتعني مرساة في ميناء آمن. وتعـني كتلة داميـة من نسيج في الرحم. وأخـيرا، فهي تستـخدم أيضاً لوصف نوع من الجواسـيس الذين يتسللون إلى منظمة عدوة ويدّعي أنه عامل مـخلص وصبور لفترة طويلة حتى، وبشكل حتـمي، وبناء على طلب سيّده الحقـيقي يخون الأشخـاص الذين وظفّوه. أوه، وبالطبع فـهي أيضاً اسم طبق مكسيكي شـهي، وكلمة تستـخدم لوصف ضرب خـصم حتى يصبح كتلة من الدماء: (Sacarle el mole).

حسناً إذن. ها أنذا أعيّنك جاسوساً لي، خلداً لي تعرف أين. اللعنة إن لم أكن كريماً معك، أيها الصرصور. فإذا فزت، فـإنك تفوز مـعي. وإذا خسـرت، فـإنك تكون قد فـزت مع أعدائي. لا يمكـنـني أن أفكر بأن أحداً عرض صـفقـة سياسـية أفــضــل من هذه، ليـس منذ أن حكـم على رودولف هـيس بالسـجن المؤبد بدلاً من الموت شنقـاً. اعتـرف بالفـضل. هل تعـرف أن جلد الإنسان يتـجـدد كلّ سبع سنوات؟ إننا أفـاعٍ، ونحن نعـرف ذلك. بالطبع عـندما يـتعلـق الأمر بالـسيـاسـة المكسيكية، فإننا نتخلى عن جلدنا كلّ ستّ سنوات.

فكّر بالموضوع، يا كـاليغولا، غيّر جلدك قـبل أن يسلخوه عنك. إذا كـان سلخ الجلد يثـيرك، تذكّـر ذلك الإله الأزتي، كسيبي توتيك، القابع في متحف الأنثروبولوجيا في بلدنا. كلّ ستّ سنوات يحـتـاج الإنسـان أن يغيـر ولاءه، زوجـاته (في

حالتك، عشيقاته) ومعتقداته. استعد يا صديقي الوفي. هيِّيء نفسك. ولا تكف عن الأمل: هذه الليلة سأنام في سرير المقهورين.

أما الجزء السيء فهو إذا ذهبت إلى ذلك السرير فيجب أن تنام تحت الفراش. لأنني سأكون أنا في الأعلى. لا تشك في ذلك للحظة واحدة.

أوغسطس.

ملاحظة: كم أني أمقت دورة الستّ سنوات. إنها تذكّرني بكعكة مقسّمة إلى شرائح - فما إن تبدأ في الاستمتاع بها حقاً، حتى لا يُسمح لك بإنهائها. وإني أحذّرك الآن - لا تفكّر حتى بأن تسلمني إلى رئيسك. فلم أحفر خنادقي معه فقط، بل أشاركه فيها أيضاً. إنه رجل طيب. إنه رجل ساذج ويصدّق كل شيء بسرعة، هذا أمر مؤكد. إنه سيعتبرك شخصاً متطفلاً، ثرثاراً. وستذهب جميع تطلّعاتك إلى الجحيم. وليكن ذلك.

22

من أندينو ألماسان
إلى «لابيبا» ألماسان

حبيبتي بيبـونا، إن الوضع الغريب هذا يجعل أحدنا بعيداً عن الآخر أكـثر من المعتاد، لكنه يجـمعنا روحياً أكـثر من أي وقت مضى. فالبعد يجعلني قريباً منك دائماً، يا عزيزتي، لأن فراقنا يؤجج الرغبة التي يشعر بها أحدنا تجاه الآخر. ألا ينتابك الشعور ذاتـه يا حبيبتي؟ فـأنتِ في ميردا، وأنا في العـاصمة. أنتِ في مدينـة هادئة، رائقة، جمـيلة؛ وأنا في هذه العاصـمة الخانقـة، الفوضـوية، المتوحشـة. أنتِ محاطة بـأناس لطفاء، ودودين، غير متكلفين؛ وأنا أشعر بالاختناق داخل السيارة التي تقلني من الشقّة إلى المكتب، ثم تعود بي إلـى الشقّة في ساعة مـتـأخـرة من الليل، دون أن أحظى بجـائزة سـوى أن أسـمع صوتكِ على الهاتف في منتصف الليل - على الأقل، منذ أيام قليلة. أما الآن فلم نـعد نحظى حتى بهـذه المتعة. لقـد نسيت صـوتك الجمـيل، ولم يعد بـوسعي إلا أن أتخـيّله. يجب أن

أتدبّر أمري بهذه الرسائل التي أرسلها إليك. ها أنا ذا محاط طوال اليوم بالأعداء، هدف للهجوم، موضوع لنكات وكاريكاتيرات لا نهاية لها في الصحف («أنديو، سفينة مهجورة»، «أنديو، اذهب إلى جزر الأنديز») هذا ما عدا جميع المؤامرات التي تحاك ضدي والفخاخ المنصوبة لي في دهاليز البيروقراطية.

كم هو غريب على طبيعتي الحقيقية ذلك القناع بالتكنوقراط البارد الكفء الذي يجب أن أرتديه صباح كلّ يوم! لقد مرّ وقت أصبحت أحتاج فيه إلى مرآة لأتدرب على رسم تعابير وجه بيروقراطي متصلّب.

لكنني لم أعد بحاجة إليه الآن يا حبيبتي بيبونا. فقد أضحى القناع وجهاً حقيقياً، وجهاً ذا قسمات قاسية: جبين مقطب، شفتان مزمومتان، أنف يشم الخراء، حاجبان يعلوهما الشكّ، أذنان مفتوحتان، جاهزتان لسماع الأكاذيب. وعينان، عينان يا حبيبتي، لا تُظهران كراهية، بل ممتلئتان بالاحتقار، والازدراء، وعدم الاهتمام... هل تعرفين أني تعلمت أن أتحدث مثل شخص أنغلو ساكسوني، بدون لام التعريف أو أي سياق؟

«تماما».

«تم الأمر».

«لا شيء».

«انتبه».

«رائع».

«حذّرت».

«واجه العواقب».

إني أردد هذه العبارات، ولا شيء سواها. عيناي تتحاشيان عيون الجميع عندما نتناقش - سواء كانت أحاديث ودية، أم غير ودية، أم وقحة، أم غامضة، أم مخلصة أم غير سارة. بالنسبة لي، فإن كلّ ما يقوله الناس يشكل خطراً محتملاً. خطر التناقض في أفضل الحالات. خطر الإقناع في أسوأها.

إني أقدم ما يُتوقع مني. خبرتي الفنية. معرفتي بالأسواق الدولية. معاييري ومقاييسي بالاقتصاد الكلي. اهتمامي الدقيق بما تساويه عملتنا مقابل الدولار، احتياطاتنا النقدية بالعملة الأجنبية، تسديد ديوننا الخارجية، مبلغ ديننا الوطني، العجز التجاري، المعونة الأوروبية والأمريكية الشمالية، الأخوّة الإجبارية مع مدراء البنوك المركزية في واشنطن وبرلين ولندن ومدريد...

ومع ذلك فإني لا أعطي ما أرغب في أن أمنحه: إنسانيتي. قد تضحكين عليّ يا جوزفينا، بتلك القهقهات الصاخبة التي يسميها الأشخاص الغيورون «سوقية»، وكأن حيويتك - الحيوية التي تجذبني كثيراً - يمكن أن تُعتبر سوقية. من يمكنه أن يصف قدرتك على الفرح، والمرح، أو خفة الدم بأنها سوقية؟ من يستطيع أن يجرؤ على انتقاد قدرتك على التلاعب بالكلمات

وتورياتك المبهجة؟ أوه، يا عزيزتي، إذا كانت هذه الأشياء تجعلك «سوقية»، فالسوقيّة هي التي أريد - كم أشعر بالحيوية عندما أسمع نكاتك النابية، اقتراحاتك الوقحة، كلّ هذه الأشياء هي التي تلهم وفائي لأنك تجعلينني أشعر (وأهمس ذلك في أذنك، يا عزيزتي) بأنه توجد لديّ عاهرتي في البيت. ولا أحتاج لأن أخرج وأبحث عن نساء كما يفعل زملائي المملّون في الوزارة، فأنا لديّ امرأتي في البيت - بذيئة اللسان، مثيرة، مهيّجة على الدوام، ومستعدة لكلّ وضعية، ولكلّ متعة معروفة تحت الشمس - موجودة عندي في بيتي...

كم أنا مشتاق إليك، يا بيبونا! الزوجة اللاهبة والحلوة المخلصة والأمّ المحبّة. كم أشعر بالأمان عندما أعرف أن «ناءاتي الثلاث» تير وتاليتا وتوتو هنّ معك، حبيباتي التوائم الثلاث اللاتي جئن إلى هذا العالم بترتيب مثالي، مانحة مجداً عذرياً لولاداتك المتعاقبة الثلاث، لكنها في الحقيقة ولادات آنية - لأنه هل يستطيع أحد أن يتذكّر من منهن جاءت أولاً؟ بالنسبة لي، فأنا أحسّ دائماً وكأن ملائكتي الثلاثة قد هبطن معاً من السماء ليباركن اتحادنا يا جوزفينا، زواج سعيد يتجاوز الفراق الجسدي، والثرثرة، والغبطة. زواج تم، مثل بناتنا الثلاث، في الجنة.

هل تتذكّرين زفافنا؟

هل تذكرين هاسيندا دي لوس لاغارتوس، كلّ شيء مزين ومزخرف من أجل عرسنا فقط؟ أتذكرين الحديقة المليئة بعشرات

طيور النحام الوردية؟ والمأدبة الضخمة المؤلفة من البابادول وبيض موتولينو، والدجاج المخلّل، والجبن المحشو؟ أتذكرين وهج شوقنا وحرارته في تلك الليلة، استسلامنا المحبّ أحدنا للآخر؟ هل تذكرين كم كانت أمّك متوترة الأعصاب وهي قابعة في غرفة النوم إلى جانب غرفتنا في أوتيل دو لا غارافون، تنصت إليك إما لتدعينها أو لتساعدك إذا ما شعرت بالألم - أوه، أوه، أوه! - أو انشدي النشيد القومي الفرنسي إذا كنت تحبينه - آه، آه، آه، هيا، يا أبناء الوطن! كم كان شيئاً رائعاً، يا حبيبتي بيبونا، لقد تركتني أقتحم قلعة الباستيل الموصدة أبوابها بإحكام، كم كان شيئاً عظيماً أنك أحببت مقصلة أنديتو!

كما ترين، إنك الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أعبّر له عن حقيقة مشاعري وأكتشف مرة أخرى أنديتو ألماسان الذي وقعت في غرامه قبل اثني عشر سنة، وتزوجته قبل أحد عشر سنة، وأنجبت توأماً من ثلاثة أطفال قبل عشر سنوات. لكن بعدها، مثل أعشار الثانية، لا يوجد أمامي خيار سوى أن أتلبس مرة أخرى شخصيتي الأخرى، شخصية وزير المالية، منهمكاً تماماً في عالم الاقتصاد، متوارياً وراء قناع الإحصائيات، أخلق شخصية خارجية لأخفي هوسي الداخلي، الذي بالطبع هو أنت، مثيرة شهوتي عندما أستيقظ في الصباح، يا جوزفينا، لن أكون الشخص الذي تعرفينه.

إني أعرف ما يقولونه عني:

«عندما يدخل أندينو غرفة فإن درجة الحرارة سرعان ما تهبط فيها».

«لقد وصل الوزير. فلينهض الجميع».

«انتبهوا. فلا يوجد لدى الوزير ألماسان إلا رأيان محتملان: رأيه والرأي الخاطيء».

إن روحي تموت، يا عزيزتي بيبا. لكنني تسلمت بعض المسؤوليات المعينة ويجب عليّ أن أنجزها للرئيس، للبلاد، ولي. فإذا لم أشرف على الخزينة، فإن السفينة ستجنح إلى مياه مجهولة. فأنا من يوّجه دفة السفينة والذي لا يمكن الاستغناء عنه. أنا من يردد العبارة المكرّرة القديمة ذاتها: النظام، النظام، النظام. تجنّب التضخم. ارفع الضرائب. خفّض الرواتب. ثبّت الأسعار. أنا رجل الجليد. قد أكون أحد مواطني يكاتان الاستوائية، لكنهم يظنونني بخيلاً من مونتيري. بخيل عندما يتعلق الأمر بالميزانية وبخيل في أحاديثي.

كما ترين، لقد قرّرت ببساطة ألا أقول شيئاً، يا بيباي. ففي كلّ مرّة أفتح فيها فمي لأوبخ الكونغرس، فإن كلّ ما أفعله هو أني أبث الخوف في نفوس المستثمرين. من الأفضل أن ألوذ بالصمت. يمكنني أن أكون الشاهد الأخرس الرائع. لا أقول شيئاً لأنه لا يوجد لديّ ما أقوله، مما أكسبني، بطريقة ما، سمعة بأني

رجل حكيم. أنظر إلى كلّ شيء بموضوعية جليدية، لكنني لا أفهم شيئاً. هذا جيد. يجب على أحدهم أن يؤدي هذا الدور الناكر للجميل. فقد اضطررت لأن أطرد من رجال الوزير ثلاثة نواب ثرثارين. النائب الذي قال: «الفقر في المكسيك أسطورة»؛ والنائب الذي قال: «إذا لم يصادق الكونغرس على قانون الضرائب الجديد فإننا سننحدر مثل الأرجنتين»؛ والنائب الذي قال: «الفقراء يمتلكون مزيّة أنهم فطنون».

لقد عينّوني لأطهّر النظام. مبيد الحشرات «دي دي تي» الحكومة.

إني أتعقّب الحشرات.

وحياتي، يا حبيبتي، بدأت تجّف - أو على الأقل ستنضب إذا لم أحظ بك وببناتي الثلاث، تير وتاليتا وتوتو. أرسلي لي صورة حديثة لكن أنتن الأربعة. تنسين دائماً أن تفعلي ذلك. أما أنا، يا عزيزتي، فلا أنساكن دقيقة واحدة. المخلص لك أ.

ملاحظة: بسبب الحرص والأمان، أرسل لك هذه الرسالة عن طريق صديقي الطيب وزميلي تاسيتو دي لاكانال. يقولون إنه إذا أردت البقاء في الوزارة فيجب أن تتصرّف كما لو كنت ميتاً. وتاسيتو هو الاستثناء لهذه القاعدة. فبفضله أستطيع أن أدخل وأخرج من مكتب الرئيس دون أيّ مشكلة. إنه رجل مفعم بالحيوية، رجل ذو مستقبل - مرن عند الضرورة، وصلب عندما يتطلب الأمر الحزم. ثقي به. الوداع. أ.أ.

23

من الجنرال سيسرو أروسا
إلى الجنرال موندراغون فون بيرتراب

أيها الجنرال، إننا على اتصال مستمر وودّي. وتعرف جيداً انني أقرّ دائماً بأنك أعلى مني مرتبة، لكن الأهم من كل ذلك، يوجد من هو أعلى مرتبة مني ومنك وهو رئيس الجمهورية، القائد العام للقوات المسلحة. حسناً، أيها الجنرال، بصراحتي المعتادة يتوجب عليّ أن أحذّرك بأنّ هذا البلد اللعين قد بدأ يخرج عن السيطرة. من حكم المؤكد أننا نفتخر بأنه يوجد في المكسيك سبعون مليون نسمة دون العشرين من العمر. بلد يعج بالأطفال. هل سبق لك أن سمعتهم؟ هل سبق أن وضعت أذنك على الأرض؟ كيف تظن أن هؤلاء الأطفال ينظرون إلى المومياءات المسنّة التي تحكمهم؟

كم عمرك؟ خمسون سنة؟ اثنتان وخمسون سنة؟ وأنا، في الرابعة والستين، أو الخامسة والستين؟ كانت السجلات ضعيفة وقليلة في القرية الصغيرة التي ولدت فيها، في ولاية هيدالغو -

أي أنك إذا استطعت أن تقول إن هيدالغو موجودة وليست مجرد اختراع لفصل مكسيكو سيتي عن الولايات المنافسة الخطيرة مثل ميتشواكان وياليسكو. إن هيدالغو هي أورغواي المكسيك، لكنها فقيرة ولا توجد فيها دائرة للتسجيل. إن ما أرمي إلى قوله أيها الجنرال أننا لا نزال شابين، كما كانت جدّتي تقول. لكننا نعتبر عجائز بالنسبة للشبان الصغار. إنهم يريدون قائداً شاباً. شبان كما كان ماديرو، وكاليس، وأوبريغون، وفيللا، وساباتا عندما ألقوا بأنفسهم في أتون الثورة - كانوا جميعهم دون الثلاثين من العمر.

كن شديد الحذر وتطلع حواليك جيداً، أيها السيد الوزير. أين هو زعيمنا ذو الوجه الشاب؟ كم عمر تاسيتو دي لا كانال، لاعق المؤخرات؟ أليس عمره اثنتان وخمسون سنة مثلك؟ ومنافسه، بيرنال هيريرا، أليس هو في مطلع الخميسنات من عمره، أو ربما كان في أواخر الأربعينات؟ هل تظن أن الأطفال في أيامنا هذه يثقون بهما تماماً؟ هل تظن أن ملايين الأطفال الذين يطوفون الشوارع على دراجاتهم النارية، كما كان هارلي - دافيد سان يمتطي حصان فيللا بانتشو، سيتي ليغاس العجوز نفسه، وحيوانات الحفلات شبه العراة الذين يمضون الليل كله في النادي، وأولئك الدي-جي الذين يتنقلون بالطائرة من لوس أنجلوس إلى مكسيكو سيتي إلى هونولولو لقاء خمسة وعشرين ألف دولار ليعزفوا موسيقى البوب على

الرواص السي دي، هل سيثق بنا أطفال المليونيرات الذين ورثوا ثرواتهم منذ 1941؟

هذا ما تقوله النخبة في الصحف، أيها الجنرال. لكن ماذا عن الطفل الذي ينتمي إلى الطبقة الوسطى الذي يرى أبواه يفقدان سيارتهما وبيتهما وغسّالتهما كلّ ستّ سنوات لأنهما لا يستطيعان تسديد أقساطها الشهرية؟ أو الطلاب الذين لا يستطيعون حتى أن يدرسوا لأن الجامعات العامة مشلولة دائماً بسبب الإضرابات ولأن الجامعات الخاصة تكلف أموالاً باهظة؟

انظر إليهم أيها الجنرال - كانوا يطمحون لأن يصبحوا مهندسين، محامين، أشخاصاً مهمين، لكن انظر إليهم الآن - فهم يقودون سيارات أجرة، ويعملون لإيصال البيتزا إلى البيوت، وأدلاء في دور السينما، ويكسبون رزقهم من القيام بصفّ سيارات الآخرين. إنهم أناس محطمون كانوا يطمحون لأن يصبحوا شيئاً أفضل، أما الآن فكلّ ما يحصلون عليه هو ركلات في مؤخراتهم. وجميع تلك الفتيات الصغيرات الجميلات اللاتي كن يحلمن بأن يصبحن ربّات بيوت من الطبقة المتوسطة ها هنّ يعملن طابعات على الآلة الكاتبة وبائعات ونادلات - هذا إذا حالفهن الحظ- وإلا فإنهن يعملن راقصات تعرٍّ وفي بيوت الدعارة. لا تجعلني أروي لك قصص القرويات الصغيرات اللاتي يعثرن على عمل في المصانع ويحلمن بأن يتزوجهن أمريكي ذات يوم، تلك البلهاوات الغبيات، ثم يغلق

المصنع أبوابه أو ينتقل إلى الصين، حيث يكسب العمال عشرة في المائة مما تكسبه العاملات المكسيكيات، فيعدن إلى الشارع ويشحذن، أو يعدن إلى قراهن ويأكلن النوباليتو ويضعن أطفالهن على ظهورهن، ويتمنين أن يجتزن الحدود وأن يصبحن أمريكيات، ويحاولن إيجاد عمل على الجانب الآخر من السياج مثل العديد من الشبان والنساء - حتى لو أدت تلك المحاولة إلى غرقهن في النهر أو اختناقهن في شاحنة تقوم بتهريبهن أو يمتن من العطش في الصحراء أو تثقبهن الرصاصات مثل منخل، الرصاصات التي يطلقها رجال دوريات الحدود الأمريكيون. قل أيها الجنرال، إلى ماذا يمكن أن يتطلّع هؤلاء الملايين السبعون من الأطفال؟ إلى من سيتطلعون؟ فكّر بالأمر فيما لا يزال أمامنا متسع من الوقت، أيها الجنرال.

وتذكّر أننا يجب أن نتصرّف بسرعة في مثل هذه الأمور.

24

من نيكولاس بالديبا
إلى ماريا دل روساريو غالبان

هكذا إذن يا سيدتي الرائعة المتطلبة، فقد أخبرتني منذ البداية أن كلّ شيء بالنسبة لك هو سياسة، لكني بدأت أشك منذ ذلك اليوم الذي طلبتِ فيه مني أن آتي إلى الغابة لأتفرج عليك في عتمة الليل وأنت تخلعين ثيابك. وكأن هذا لم يكن كافياً، فقد نافسني على ذلك (بالتأكيد بترتيب من سيدتي الجميلة) تاسيتو دي لا كانال. هل هذه سياسة أيضاً، أم أنه جنس بحت؟ يا سيدتي الطيبة ماريا دل روساريو، كم عدد الأسرار التي تحتفظين بها والتي لا علاقة لها بالسياسة؟

حسناً، لقد تعلّمت درساً آخر، ربما كان درساً إنسانياً أكثر منه درساً سياسياً. لكن هل يمكن أن تكون السياسة في بلدنا خالية من ذلك الشيء الذي ندعوه الثبات والقدرة على الاحتمال؟ كما ذكرت لك في ذلك اليوم، فقد صادقت أحد العاملين في قسم الأرشيف في مكتب الرئاسة، رجلاً عجوزاً

كنت قد وصفته لك من قبل. وكان في غاية اللطف ودعاني إلى بيته. حسناً، لم يكن بيتاً بكل معنى الكلمة، بل كانت شقّة، شقّة في الطابق الثالث فيها شرفة صغيرة، في منطقة فاليخو، قرب مونومينتو ألا راسا.

تدلفين إلى الشقّة عبر دكان صغير يقع بين الباب الأمامي وفسحة الدرج. لا يمكنني أن أصف لك البناية حتى لو حاولت ذلك. سيدتي العزيزة، إنها مكان ينزلق من الذاكرة ما إن تقع عيناك عليه. فهناك بعض الأحداث، وبعض الناس، وبعض الأماكن، التي مهما حاولت أن تتذكريها، فإنك لا تستطيعين حتى أن تتخيليها. ومن المحزن أن لا تتمكني من تذكرها، حتى أنك تدركين أنه لا يوجد ثمة مكان في الذاكرة للأشياء غير العادية. ومع ذلك، هناك بعض الناس الذين لا يمكننا أن ننساهم أبداً، يا سيدتي العزيزة، لأن كل ما يملكونه الانطباعات التي يخلّفونها في عقول الآخرين، وعيونهم ليست سوى عيون الناس الذين يرونهم فيها.

هل تفهمين قصدي؟ بالنسبة لي كانت مفاجأة غير متوقعة لأنهم لم يسألوا عني شيئاً، ومع ذلك وجدت نفسي مبهوراً، منجذباً إلى أعذار هؤلاء الناس الذين لم يكونوا يريدون شيئاً. ما هي الأعذار التي أتحدث عنها؟ قد تسألين. إن موظف الأرشيف الذي يدعى سيستولو ماغون، هو الذي أخبرني، عندما لاحظت الصلة التي تربط اسمه الأخير، بأنه على صلة

قرابة بالثائرين ريكاردو وخسوس فلوريس ماغون، الأخوين اللذين كانا يعتنقان الفوضوية وقاسيا الأمرّين أثناء فترة حكم الدكتاتور بورفيريو دياس في حصن قلعة سان خوان دي أولوا في فيراكروز، التي رأيتها عندما أرسلتني لزيارة (الرجل العجوز تحت القنطرة). حسناً، إن دون كاستولو يقارب الستين من العمر ويعمل في الأرشيف منذ قرابة أربعين سنة، منذ عهد حكومة لوبيز بورتيلو. وقد تزوّج في سن متأخرة لأنه استغرق زمناً وهو يجمع نقوداً ليقيم حفل زفاف بعد أن وجد امرأة مناسبة ترغب في أن تعمل ليتدبرا أمور معيشتهما كلّ شهر.

كانت لدى دون كاستولو تلك النظرة الكليلة، الكئيبة، التي تبدو على قسمات جميع الموظفين الكلاسيكيين الذين يعملون في الأرشيف، وكما قلت لك سابقاً، فهو يضع فوق عينيه مظلل نور أخضر، ورباط ذراع يجعلانه يبدو بيروقراطياً بسيطاً نموذجياً، وكأنه خارج مباشرة من مسلسل تلفزيوني. إن الأرشيف مكان معتم - ربما بسبب الخوف من أن يبهت لون الأوراق ولا يعود بالإمكان قراءتها إذا ما تعرضت لنور الشمس، أو ربما لكي تصبح الوثائق في طيّ النسيان وهي تقبع في مغلفاتها الصفر في قبور رمادية. ربما، يا عشيقتي المحتقرة، لكي تتطهر من جميع، إذا جاز لنا القول، محتوياتها البيّنة. نعم، إن دون كاستولو شبح الأرشيفات. ومثل الشخصية التي حلم بها غاستون ليرو الذي عاش في جوف أوبرا باريس، فإن كاستولو ماغون يعيش في جوف مكاتب رئيس الجمهورية.

إن وجهه رمادي، وتشي عيناه، عندما لا تكونان متعبتين، بإحساس بالاستسلام. أما أصابعه، يا ماريا دل روساريو، فهي رشيقة إلى درجة مدهشة، يجب أن تري السرعة والدقّة اللتين يتصفّح بهما مختلف الملفات! في تلك اللحظة، يتغيّر عمره، وهيئته المتعبة المليئة بالهموم، وجسده المنهك، ويتحول كاستولو إلى شخص أشبه بخيميائي مكتب السجلات العامة. إنه يعرف مكان جميع الأشياء، لكن الأهم من كل ذلك، فهو يعرف أيضاً أين يجد كلّ شيء يجب ألا يكون هناك، تلك الأشياء التي طُلب منه أن يتلفها. وكما ترين فقد صنّف كاستولو، لا بدافع من عدم الطاعة، بل ببساطة لأنه لم يفكّر بالأمر على الإطلاق، الوثائق التي لا تصنّف حسب نظام تصنيف مكسيكي غريب: فهو لا يصنّف حسب الاسم (غالبان، ماريا دل روساريو، أو هيريرا، بيرنال)، ولا حسب الإدارة (وزارة الداخلية، الكونغرس) بل حسب المرجع.

مراجع غامضة. أين تظنين أنه يمكن العثور على اسمي، مثلاً، في الأرشيفات في لوس بينوس؟ تحت اسمي، «بالديبا، نيكولاس»؟ تحت وظيفتي، «رئيس الوزارة، مساعد. «مكتب. . . في رئاسة الجمهورية»؟ لا، يا ماريا دل روساريو الغالية. فقد تبين لي أن اسمي موجود في ملف بعنوان (ENA). الآن قد تتساءلين ما هي (ENA)؟ «كلية الإدارة الوطنية»، باريس. بمعنى آخر، الكلية التي درست فيها. انتبهي

يا سيـدتي! إن كنت تبحثـين عن متاهات مكان مـوحش، فإن الأمـر جـديد بذلك. ويسـتطيع صـديقنا مـوظف الأرشـيف، كاستـولو ماغون، أن يجد طريقـه إلى تلك الملفات مستـخدماً يديه اللتين تشـبهان يدى عـازف بيانو أعـمى، أعمى أكـثر من هيبوليتـو في سانتا. إن القول بأن وضعه الاقـتصادي لا يعكس بأي شكل من الأشكال قدراته المهنية ما هو إلا لغو. إذ يتقاضى كاسـتولو راتباً ضئـيلاً، حوالي ٥٠٠ دولار في الشـهر، وهو راتب، إذا ما أخذنا بالاعتبـار تكاليف المعيشة هذه الأيام، فإنه لا يكاد يكفيه لتشذيب خصلات شعره البيضاء التي تؤطّر فوديه ويرفعهـا في شكل جسر بارع من اليسار إلى اليمين عـبر رأسه ليـخفي رأسـه الأصلع. (لماذا؟ لمن؟ قـولي لي - فأنت امـرأة تعرفين الكثـير عن غرور البـشر، وخاصـة المسلوبين والمهانين، مثلـي أنا، (المنحوس) ولا يزال دون كـاستولـو، صدّقي أو لا تصدّقي، يستعمل مرهم شعر محلي، مع أن موضته قد بطلت منذ قرابة مائـة سنة. أعتقد أنها الدليل الوحـيد على زهوه في الحمّام الصغـير الذي تهيمن عليه أسرته بشكل كبـير: زوجته، سيـرافينا، وابنتـه، آراسيلي، وابنه، خـسوس ريكاردو، الذي سُميّ على اسم أبطال أولوا المذكـورة أعلاه، الأخوان فلوريس ماغون.

بالحكم على السـيد كـاستـولو من تكوينه العظمي، فـهو نحـيل، لكن له تلك البطن البارزة الحـتمـية التي توجـد لدى

شخص يتناول تورتاس بالفاصوليا والفلفل ولحم الخنزير المقلي طوال حياته، ثم يغسل كل ذلك بالبيرة. أما السيدة سيرافينا فهي تصنع المعجزات يا ماريا دل روساريو. فهي تسهم في جلب دخل إلى البيت بصناعتها الكعك والمعجّنات. إن المطبخ هو مملكتها. لا يدخله أحد سواها، ويصادف أنه أكبر غرفة في الشقّة.

وهي تقول: «لهذا السبب اخترناه».

في المطبخ يوجد كلّ شيء، بما في ذلك طاولة طويلة يكسوها الطحين، وعليها كذلك فرن للخبيز. ففي هذا المكان تعدّ المرأة الطيبة حلويات المرانج، كاتو الأعراس ذي الأبراج، وكلّ ما يخطر على بال من الحلويات للحفلات، ومناسبات تناول العشاء الرباني، وحفلات الرقص، وبفضل عملها هذا، فهي تجلب إلى البيت مبلغاً قدره 1000 دولار في الشهر -كان من الممكن أن يكون 2000 دولار لو لم يكن عليها أن تنفق نصف ما تكسبه على «المواد الأولية»، التي تسميها بفخر، وهي تجفف يديها بمئزرها. تصوري أندريا بالما في الستين من عمرها. تصوري تلك المرأة الجميلة، النحيلة، الواهنة في فيلم «امرأة الميناء»، التي باعت حبيبها «إلى الرجال الذين عادوا من البحر»، لكن الآن بجسد أقل من أن يكون نحيفاً، وجسد بعيد كل البعد عن الوهن إلا في أعماق تجاويف عينيها. وإذا كانت

عينا زوجـها باهتـتين مثل واقيـة الشمس، فإن عـيني سيـرافينا كئيبتان مثل غسق هبط فجأة في منتصف النهار.

«جدّية»، كما يقول الغـرينغو، أليس كذلك؟ حسناً، هذه هي سيرافـينا، يا صديقتي - لا توجد لديها ولا دقيـقة واحدة من الراحة وهي لا تتذمر أبداً، سوى هاتين العينين اللتين تتوقان إلى شيء غير مـوجود. أكرّر. أؤكّد. شيء غيـر موجود أبداً. التعبـير الذي يتحدث عن وعد لم يتـحقق هو الذي يعطي كلاً من سيدة البيت والبيت نفسه كآبتـيهما. حنين، أحلام مفقودة، ما كان يمكن أن يكون...

تخيّلي ذلك التعبير، يا راعـيتي ونصيرتي القوية، لأني لم أره مطلقاً في عينيك. إنه كمـا لو كان لديك كله - كله ما عدا العوالم التي لم يغزهـا طموحك. فلدى السيدة سيـرافينا عينان غاب عنهما الطموح لأي شيء. وبينما كنت أراقبها وهي تعمل في مطبـخهـا، لم أر طمـوحاً، بل كنـت أرى رغبـة خالصـة وبسيطة في الحـياة. وهناك سيسـتولو، وهو يقرأ الصحـيفة في غرفة الجلوس الضيقة المزدحمـة. قال لي إن جهاز التلفزيون قد رُهن، مع أنه توجـد لدى النـاس في المكسـيك، حـتى الذين يعيشـون في الأحياء الفقـيرة الشديدة القذارة، المدن الـضائعة، أجهزة تلفزيون. لكنه يقـول إنه عاش وكبر في السن وهو يقرأ الصحف وأنه لن يتـخلّى عن عاداته البطيـئة في الأرشفـة لقاء تلك الجـرعـات الصغـيـرة من المعلومـات التي يقدمـونهـا في

التلفزيون. وبالطبع، لم يعد يستطيع الآن أن يشاهد شيئاً إذا أراد بدون إشارات القمر الصناعي لهوائيات التلفزيون. . .

كلّ شيء باسم الله، أو بالأحرى باسم ابنتهما آراسيلي ذات العشرين ربيعاً التي لا يمكن زجرها أو ردعها، والتي تمضي طوال اليوم وهي مستلقية على سريرها وتقرأ مجلة iHola وتحلم، كما أظن، بأنها شارلوت أوف موناكو أو امرأة تشبهها، ثم تمضي ساعات طويلة وهي تتجمل وتتزين لرفيقها الذي يأتي ويصطحبها بسيارته ذات الغطاء المتحرك عند التاسعة مساء ليتناولا طعام العشاء ثم يذهبان إلى أحد المراقص ليرقصا. إنها ليست خارجة عن السيطرة، كما تدّعي أمّها. إنها مجرد فتاة شابة، ولها الحقّ في أن تمضي أوقاتاً مرحة، وفي جميع الأحوال، فهي تعود دائماً وهي تحمل كيساً بلاستيكياً كبيراً مليئاً ببقايا الطعام من المطعم الذي تناولت فيه الطعام وذلك بفضل هوغو باترون، رفيقها من يوكاتان، الذي يدير وكالة سفريات بدأ عملها يقلّ منذ أن تعطلت أجهزة الكمبيوتر وبدأت تنتاب الكرينغو شكوك إزاء السفر إلى المكسيك هذه الأيام. ومع ذلك، ما زالت تغطي جدران غرفة نوم آراسيلي الملصقات التي أعطاها لها هوغو - عن البحر الكاريبي، والبحر الأبيض المتوسط، وباريس، وفينيسيا. إنه فتى ذو نوايا حسنة، كما تقول السيدة سيرافينا، رغم أنه على الموضة القديمة قليلاً. فهو لا يسمح لآراسيلي أن تعمل على الإطلاق؛ ويريد أن

يدخر نقـوداً تكفي لشراء شـقّة وقضـاء شهـر عسل، ولا يريد لصديقـته - وزوجـته في المستـقبل - أن تعـمل. النتيـجة التي خلصت إليها أنه يربط ساعات الفراغ بالعذرية.

تتمـالك سيرافـينا نفسهـا أحياناً وتنادي الـشابة المدللة من غرفتـها لتسليم الحلوى عندما لا يرسل بعض الزبائن سـائقيهم لأخـذها. يجب أن تري التـجـهم الذي يكسـو سحنة الـفتـاة الشـابة. فـقد ولدت لكي تكـون أميـرة، بذلك الرأس المفـعم بالأحـلام الغبـيـة، وبصراحـة شـديدة، فهي تغـازلني عندمـا أزورهم. نعم، فأنا صيد أفـضل من هوغو باترون، لكن ما إن أبدأ أتكلم حتى يحـمّر وجهها خجـلاً، وبينما كنت ألعب دور المحتـرف المطّلع الذي درس في باريس، وكانت تتـخلل حديثي كلمات فرنسية، كنت أستطيع أن أرى مزيجاً من الملل والاحترام وعدم الاكتراث على وجهها الجـميل بلون القمر، كما لو كنت «سحـابة قدر سـوداء»، روح رائعة هبطت من عـليائهـا لتزور البسـطاء في هذا العالم - مـثلها، فـتاة لا تتـوفر لديهـا فرص واضـحة في الحـياة سـوى الزواج من صاحب وكـالة للسفـر، هوغو باترون، وقضاء شهر عسل في ميامي.

توجد في شقـتهم غرفتـا نوم. واحدة للأبوين، والأخرى لآراسيـلي. وعلى السطح، في كوخ خـشبي إلى جـانب بيت حمام مؤقت، يعـيش الابن، ريكاردو، الذي يقوم برعاية تلك الطيور بحـدب شديد، يذكّرني بمارلو براندو وإيفا مـاري وهما

على أسطح البنايات المواجهة للنهر في نيويورك. إنه شابّ استثنائي، يا ماريا دل روساريو، وأقول لك ذلك مباشرة لأني أعرف أنك تعتبرين نفسك صائدة رؤوس غير عادية (أرجو أن تغفري لي هذا التهكم بين الحين والآخر، فليست أمامي وسيلة أخرى لأخفف من حدة الاستياء التي بثتها فيّ).

قبل كل شيء، إن ريكاردو استثنائي من الناحية الجسدية. ابن خطّط له أبواه كثيراً، ويأملان منه الشيء الكثير، لا بد أنه يقارب السادسة والعشرين من العمر، نحيف لكنه ليس نحيلاً جداً، تكسو جسده عضلات قوية، لكنها مرهفة. إنه أطول مني بحوالي خمسة أقدام وإحدى عشرة بوصة، وله رأس لا ترينه إلا في المتاحف الإيطالية: كلّ تفصيل محفور بدقة شديدة، شفتان رقيقتان، أنف حادّ، عظام الخدّ عالية وكبيرة، وعينان تكادان تكونان آسيويتين، جبهة واسعة، وشعر أسود يصل إلى كتفيه.

هل أصف لك شيئاً مشتهى؟ بإخلاص شديد، أظن ذلك. فأنتِ، يا سيدتي الجميلة والمراوغة، امرأة انغمست ولا تزال تنغمس في متع ومسرات عديدة رائعة، وبالتأكيد فإنك تفهمين ما أرمي إليه. فهذا الفتى جميل إلى حد أنه لا يوجد أحد - امرأة كان أم رجلاً - لا يمكنه إلا أن يشتهيه. فعندما خرج مرتدياً بنطال الجينز الضيّق، والقميص القطني القصير، حافي القدمين، فوجئ برؤيتي، وعندما عزمته على نفسي، إلتفت

لينثر حبات الذرة إلى الحمائم. إنه يعرف أني ساعدت أباه وهو يشعر بالامتنان تجاهي.

نظر في عينيّ مباشرة، بقليل من السخرية، بقليل من الشك، وقال: «إني لا أذهب إلى الجامعة لأنها أغلقت لمدة سنتين».

ألقى الحبوب إلى الحمائم.

«هل تدفع لتذهب إلى جامعة خاصة؟»

كانت عيناه الغامقتان تشيان بذكاء شديد إلى حد أني لم أسأل السؤال التالي.

«إني أضيّع وقتي إن قبلت واحدة من الوظائف النتنة التي تفقدك عقلك من الملل...».

«وينتهي بك الأمر أن يختنق طموحك وتموت موهبتك إلى الأبد»، قلت، منهياً جملته وهو يتطلع إليّ بإعجاب يشوبه احتقار.

ثم أشار إلى داخل «حجرته الصغيرة في السحاب»، حيث رأيت سريراً من الجنفاص القابل للطيّ، ومنضدة غير ثابتة، وكرسياً بدون ذراعين («لكي لا أغط في النوم وأنا أقرأ»)، والأهم من كل ذلك، رفوف كتب مصمّمة بطريقة فظة مليئة بالكتب، كتب قديمة من النوع الذي يباع في شارع دي

دونسيليس، ثمن كل كتاب بيزوتين اثنتين، والأغلفة مهترئة، صادرة عن دور نشر قديمة متعفّنة، منقرضة مثل حيوانات من عصور بادت وولت: إسباسا كالب، بوتاس، هيريرو، سانتياغو رويدا، إميس... مثل حصاد قمح جاف من الأرجنتين، واسبانيا، والمكسيك... انتابتني رغبة في أن أنظر إلى تلك الرفوف، أنا الذي أتمتع بامتياز القراءة في المكتبة الوطنية الفرنسية، لكنه أوقفني، وأشار إلى المجلدات الثلاثة على منضدته، ميكافيللي، وهوبز، مونتيسكيو.

لم يكن يتعين عليه أن يقول كلمة واحدة. فقد قالت النظرة المرتسمة على وجهه كلّ شيء.

«أنا شابّ تظل عيناه مفتوحتين يا سيد بالديبا».

آه، يا سيدتي وعشيقتي الخطيرة، فإذا جاء يوم ومللت فيه مني (ولا ريب أن ذلك اليوم آت) فلديّ مرشّح جديد لك هنا، فحل من غالاتيا يمكنه أن يرضي عمل بيجماليون الذي تقومين به، يا سيدتي الجميلة.

اسمه خسوس ريكاردو ماغون.

عمره ستّ وعشرون سنة.

يعيش في كوخ صغير قذر فوق سطح بناية في شارع كالزادا كيوتلسيهواك.

عجلي، يا ماريا ديل روساريو، وإلا سآخذه أنا لنفسي.

وسألته عمـا يتحدّث مع أخته ذات العقل الذي يـشبه عقل العصافير؟

«أحدّثها عن حياة جمـيع الأميرات الأوروبيات اللاتي تقرأ عنهن في مـجلة iHola وأسـاعـدها في إنهـاء الكـلمـات المتقاطعة. ستكون حياتها مملّة للغاية».

25

من أندينو ألمسان إلى الرئيس لورينزو تيران

سيادة الرئيس، لا يمكننا، أنا وأنت، أن نضلل نفسينا إزاء المشاكل التي تواجهها بلادنا الآن. فبعض هذه المشاكل تقنية: كيف يمكن السيطرة على التضخم، وجذب الاستثمارات الأجنبية، ورفع مستوى التوظيف بدون زيادة رواتب. وبعض المشاكل الأخرى دولية، ترتبط بشكل حتمي وهوسي بقربنا من الولايات المتحدة. وأخرى محلية: الطلاب، والفلاحون، وعمّال المصانع. وأخيراً، هناك المشاكل السياسية: خلافة الرئيس بعد أقل من ثلاث سنوات.

بالصدق الذي تطلبه مني، سألقي جميع أوراقي على الطاولة. لقد اكتسبت سمعة بأنك تحل المشاكل بالتهرب منها، وكما أرى فإن ذلك يحدث بسبب ثقتك الكبيرة بالمجتمع المدني، بالنظام القضائي وقراراته، وسيادة القانون. لقد تخليت عن الغطرسة التقليدية للمكتب التنفيذي.

أما أنا، من الناحية الأخرى، فإن سمعتي السيئة هي ضعف سمعتك. فهم يقولون إني «يعقوب الوزارة». وإني أتمتع بصبر لا حدود له، لكن فضيلتي هذه هي أيضاً أعظم جوانب ضعفي. واستناداً للذين ينتقصون من قدري، فإن العمل الوحيد الذي يجب أن أفعله، بسبب سلبيتي، هو أن أقدم استقالتي. ومع ذلك فإني أهزّ كتفي باستهجان، وأقول لك، يا سيادة الرئيس، بأنني الوزير الوحيد في وزارتك الذي أدار خدوده الأربعة جميعها لأعدائك. إني مانع للصواعق من أجلك. في بادىء الأمر، قد تبدو استراتيجيتي متناقضة. ستلاحظ أنني الشخص الذي ابتدع المشاكل التي يُفترض بك أن تحلّها. وأن إحدى مشاكلك أنه يتعين عليك أن تجعل المعارضة أكبر حليف لك. فكلما اختلقت المزيد من المشاكل، ازداد صياحهم عليّ. هذا صحيح. لكن المزيد من المشاكل يعني قدراً أكبر من المال أيضاً الذي يمكننا أن نعتصره من الميزانية لتحقيق أغراضنا. إنها لعبة برلمانية مؤكدة النجاح، وخاصة عندما، في حالات مثل حالتك، لا يتمتّع الرئيس بدعم الأغلبية في الكونغرس.

إذ يعارض الجميع مشاريع قوانين الضرائب التي تتقدم بها، والتي أقدمها بإخلاص إلى الكونغرس مع أني أعرف سلفاً أنها ستلاقى الرفض، بينما توجد لدي الإصلاحات التي أعرف أن الكونغرس سيوافق عليها لأنهم لا يريدون ببساطة أن يبدوا أشخاصاً بليدين، بلهاء، أو أعداء المسؤولية المالية. فحتى الآن

لم نحصل على الموافقة على ضريبة القيمة المضافة على الأدوية والأغذية - شيء نقترحه - لكن الكونغرس يفضّل نظاماً ضريبياً تصاعدياً وإعادة التوزيع، وهو شيء لم نقترحه كي لا نبعد الأغنياء، مع أننا نريد الموافقة عليه ليعزّز الأمور المالية في البلد.

إني أخبرك بكل هذا، يا سيادة الرئيس، لكي أذكّرك بما تعرفه أنت وأنا. إذ إننا نشكل فريقاً جيداً. إن المعارضة أعزّ صديق لنا، فكلما صاحوا بنا للسبب ألف، منحونا مزيداً من الميزانية للسبب باء. وفي حالتنا، فإن العكس دائماً هو الصح: إننا لا نريد الأشياء التي نقترحها، ونرغب باستماتة في الأشياء التي لا نهتمّ بها ظاهرياً.

إننا نعيش في أشد بقاع العالم خراباً وفساداً، ومن الناحية المالية، أشدها غباء: أمريكا اللاتينية. إن أمريكا اللاتينية مهمة لأنها تفتقر إلى القضايا المالية السليمة. إننا مهمّون لأننا نخلق المشاكل للآخرين. قلت لك هذا مرات عديدة. إننا لسنا، بعكس ما تقوله الحكمة التقليدية الشعبية الشائعة، ضحايا صندوق النقد الدولي، ولسنا عبيد العالم الأول. على العكس تماماً. إنهم ضحايانا. فمن أخطائنا وعيوبنا المحسوبة، تستمد أمريكا اللاتينية مصدر قوتها الوحيد: التأجيل.

تأجيل بعد آخر. الديون. انخفاض قيمة العملة. تعويم العملة. الخدمات الحكومية. التعليم. الصحة. تمكين رأس المال

البشري. إننا نرجئ كلّ شيء لأننا، ما دمنا نواصل إنتاج «الأزمات» التي يستطيع الآخرون أن ينقذونا منها، نستطيع أن نستمر في تأجيل مشاكلنا وحلولنا حتى تتجمّد جهنم.

ماذا تريدني أن أخبرك يا سيادة الرئيس؟ إن الاستراتيجية تفيدنا. إنها تجعلنا نستمر في أن نعوم، وأن نبقي رؤوسنا مرفوعة فوق سطح الماء فقط، وهذا ما يقلقني. إجمع كلّ مشاكلنا وفكّر بهدوء: هل من مصلحتنا أن نفسد الوضع الراهن؟ ليس حقاً، أليس كذلك؟ هذا ما يقلقني، وهذا ما يدفعني لأن أكتب إليك هذه الكلمات.

سيادة الرئيس: لقد بدأ صبر رئيس الشرطة الاتحادية، الجنرال سيسيرو أروسا، ينفد. لحسن الحظ، رغم إصراره ومناقشاته المتكررة، لم يتمكن من نقل مخاوفه إلى وزير الدفاع (الذي توجد لديّ معه علاقة عمل جيدة، والذي أخبرني بكلّ هذا). فكّر بالأمر بنفسك: الطلاب، عمال المصانع، تظاهرات الفلاحين، العدوان الأجنبي، الفقر المستشري - هذه أشياء نعرفها جميعنا. أما الآن فهناك عامل جديد في اللعبة. فراغ السلطة. فراغ السلطة، أؤكّد لك يا سيادة الرئيس. الغياب الكليّ للسلطة هنا، وهناك، وفي كل مكان. العمّال المكسيكيون الذين لا يستطيعون الدخول إلى الولايات المتحدة ينصبون خيامهم في الولايات الشمالية أو يعودون قلقين ومحبطين، إلى غواناجواتو وبويبلا وأواكساكا. ويتسلل العمال

الغواتيماليون عبر حدودنا الجنوبية غير المحمية ويطالبون بوظائف غير متوفرة أو يسرقون من المكسيكيين الوظائف المتاحة. وهناك مهرّبو المخدرات والذين يعبرون البلاد من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب، ومن الحدود والساحل، بدون أي حواجز، وتعززها قاعدة سلطة كبيرة: وهي قوة الزعماء المحليّين الذين عادوا للظهور، الذين تحالف بعضهم مع اتحادات المخدّرات الاحتكارية (نارسيسو «شيشو» ديلغادو في بايا كاليفورنيا، وخوزيه دي لا باز كوينترو في تاموليباس)، وآخرون ممن يتمتعون باستقلالية أكبر، لذلك فهم أشد خطورة (فيليكس إلفاس كابيزاس في سونورا)، وآخرون ممن هم على صلات وثيقة بالحركات التي تشجع عليها البطالة والفقر والاضطرابات العامة (رودولفو روكوي مالدونادو في سان لويس بوتوسي و«اليد السوداء» فيداليس في تاباسكو، الذي يتبجح بأنه إذا قُتل فإن «أبناءه الأشرار التسعة» سيخلفونه). ثم سيلفيستري باردو، ملك الاتحادات الاحتكارية، الذي يحكم حدود البحر والبر.

الحركات الناشئة عن البطالة والفقر والاضطرابات... وطموح جيل. ما متوسط أعمار وزرائك، يا سيادة الرئيس تيران؟ خمسون، ستون؟ إننا مجرد مستحاثات قديمة، مومياءات، ديناصورات تعود إلى ما قبل التاريخ، في بلد يوجد فيه سبعون مليون رجل وامرأة تقل أعمارهم عن العشرين سنة.

هذه هي الجيوش التي يريد الزعماء المحليون تعبئتها، وسيسيرو أروسا يعرف ذلك. إنه يعرف ذلك ويريد السيطرة عليها ليتمكن من إحداث اضطرابات ويستولي على السلطة قبل أن تبدأ الحملات الإنتخابية، وأمامه سنة لكي يفعل ذلك.

ماذا نريد، أنا وأنت، إذن؟ إننا نريد أن يظل الوضع الراهن بكلّ عيوبه، لكن بدون فوضى أو إراقة دماء. ماذا يريد الزعماء المحليون؟ إنهم يريدون الصيد في المياه العكرة. إنهم يريدون بلداً لا يوجد فيه قانون سوى قانونهم هم، البلقنة كما حدث في الأرجنتين، التي كانت ذات يوم جمهورية متحدة، والتي أصبحت اليوم مجرد مجموعة مروّعة من جمهوريات «مستقلة» صغيرة، تافهة، قرطبة، سان لويس، لا ريوجا، كاتاماركا، جوجي، سانتياغو دل إستيرو، لكلّ جمهورية قانونها المحليّ الخاص، رئيسها المحليّ المستبد، وعملته الورقية العديمة القيمة. الأرجنتين: لقد دمّر كوكيجن البائس عدن، بامبا البربري ثانية... يردد سينيكا أن الثقافة هي التي تنقذ البلاد دائماً. ومع ذلك فإن سيزر يرا، هو الأرجنتيني الأول الذي حصل على جائزة نوبل.

هل هذا ما نريد أن يحدث في المكسيك؟ لا تغمض عينيك على استراتيجية سيسيرو. أولاً، حطّم النظام الراسخ. وثانياً، البلقنة. ثالثاً، اتحد ثانية مع القوة العسكرية. وعندما يحدث ذلك، سينضم الجنرال المخلص موندراغون فون بيرتراب إلى نظام عسكري باسم الوطنية.

كيف أعـرف كلّ هذا؟ هل هو مجرد تخمين من ناحـيتي، توارد خواطـر؟ لا، يا سيادة الرئيـس. سامحني لأننـي صريح للغاية، لكن ولائي هو لك أنت، أولاً وأخـيراً. إني أعرف كلّ هذا لأنه خرج مـباشرة من فـم وزير الدفاع، موندراغـون فون بيـرتراب نفســه. لماذا أخبـرني؟ لكي أخبـرك. هل طلب مني صراحــة أن أخبرك؟ لا، لكنه لا بد أنه ظن أني سـأفعل ذلك. لماذا لم يخبرك هو نفسه؟

«مع الرئيس، لا أظن أني أذكر حقائق».

إذن لماذا أخبرني؟ لأحذرك بما يجري. وبهـذه الاستراتيجية يستطيع فون بيرتراب أن يحـافظ على مكانة جيدة معك - لكن مع المتمـردين أيضاً، إذا مـا نجحـوا. إنها اللعـبة الكلاسـيكية بالتوقيت مرتين التي تجدها في السياسة في كل مكان. لكن هذا لا يقلل من خطورة الأمـر، أو يجعله حـقيقـياً أقل، يا سـيادة الرئيس. إننا نسير مثل رجل أعمى يتعثر في شارع مزدحم فيما يصرخ فيه جميع الواقـفين على الرصيف أن يتحاشى السيارات المسرعة المتجـهة نحوه من كل اتجاه. هل يمكن أن يكون الرجل الأعمى أصمّ أيضاً؟

26

من «لا بابا ألمسان إلى تاسيتو دي لا كانال»

حبيبي، لا تخطيء التقدير، ليس الآن. إستيقظ. دقات الساعة توشك أن تعلن منتصف الليل، وأعداؤنا ليسوا نائمين. إن الوقت ينسل من بين أيدينا. وكما كانت جدتي العجوز المحبوبة، لترقد روحها في سلام أبدي، تقول: «يجب أن تكون رئيس الشياطين (بعل زبول) إن أردت أن تهزم الشيطان».

يجب أن نكون، أنا وأنت، شيطانين أكثر من الشيطان نفسه. وجّه بصرك نحو السماء. إذا أردت أن تغزو السماء فيجب أن تنظر إلى الأعلى، نحو الله. وضع في اعتبارك بأنك محاط من جميع الجهات بالنصابين والمنحرفين. إذ يتظاهر «ر» بأنه غبي ويريد أن يصدّقه الناس. وتحالف «ب. هـ» مع لوكريزيا بورغيا من لاس لوماس الراقية، وتلك العاهرة «م. ر». عزيزي افتح عينيك جيداً. فقد زرعوا ذلك الشاب المبتديء «ن. ف» في مكتبك، لكنني لا أثق أبداً بالذين يدعون

أنهم أبرياء. إنهم متهكمون يدّعون أنهم قديسون ليخدعوا الرب ويدخلوا الجنة. يجب علينا، أنا وأنت، أن نطبّق «قانون هيرود»(*) القديم الموثوق به. إما قاتل أو مقتول.

إن عودة زعيمنا السابق تعقّد الأمور قليلاً لأنه يلعب لعبته الخاصة به، ولا توجد لديّ ولا لديك السبل لمنافسته، يا جميلي. ففي فيراكروز، يلعب الرجل العجوز بغموض الدومينو ولا أحد يعرف متى سيظهر، ويضع أمامنا الستّة المزدوجة. بمعنى آخر، إننا محاطان بالأعداء. من الجانب الجيد، لا يتعين عليك أن تبذل جهداً كبيراً لنشر شيء من التشنيع والافتراء. إذ تقول تلك العجوز الشمطاء من لاس لوماس إنك مستعد لأن تقتل أمّك إن كان ذلك سيساعدك في الاستيلاء على السلطة. يا قديسي، أعرف أنك لن تفعل شيئاً من هذا القبيل. من الأفضل أن تقتل أمّ عدوك.

انظر إلى الفوضى التي أغرق «نظامنا» فيها. «ر» أولاً، بالطبع. من لا يتساءل ماذا يدور في رأس «ر»؟ ما هي استراتيجيته؟ ماذا يعرف؟ ماذا لا يعرف؟ ماذا يخطّط؟ ماذا يتوقّع؟ من يفضّل؟ من يحتقر؟ لا يوجد مخلوق واحد، داخل الحكومة أو خارجها، لا يسأل نفسه هذه الأسئلة طوال اليوم، ولذلك فإني لا أسألك عن رأيك بـ «ر». لا تجب عن ذلك.

(*) فيلم سياسي مكسيكي -م

تذكر فقط أنه لا يوجد لغز هناك. ولا يوجد لدى «ر» مكان يختبيء فيه.

أعيد وأكرر لا تجبني. من الأفضل أن تطرح على نفسك هذا السؤال على انفراد. وكن حذراً. إنك أقرب إليه من أي شخص آخر في «م»، ونحن نعرف أن الـ «م» الرئاسي عبارة عن سَلَطَة فواكه. بمن ستثق ياحبيبي، بالكرز أم بالعنب؟ هذا هو الشيء السيء في مشاطرة الأسرار، ومن هنا يجب أن نتقدّم بأقصى درجة من الحيطة والحذر. حسناً، على الأقل، لا يستطيع أحد أن يعرف نظام تصنيف الوثائق من رأسه إلى ذيله في لوس بينوس، وموظف الأرشيف العجوز ذاك - ماغوو، ماغون، مهما كان اسمه - حتى أنه لا يعرف اسمه، ولا يعرف أين هي الوثائق المحفوظة، وما هي الوثائق التي أُتلفت بناء على أوامرك. فكرتك العظيمة - أو فكرتنا العظيمة، إذا أردت أن تكون كريماً مع حبيبتك الصغيرة - أن تختفي جميع هذه الوثائق التي تحتوي على أسرار خطيرة دون إتلافها، فربما أفادتنا ذات يوم. فإذا بدأ شركاؤنا يتحدثون، وهذا شيء ممكن، أو غير ممكن، فإنه توجد لدينا وثائق لإسكاتهم...

لكن الخطر ماثل هناك يا عزيزي، لذلك كن حذراً باستمرار. تعرف كيف يعمل عقل «ر» عندما يشعر أن أحد وزرائه لم يعد مفيداً له. إنه لا يقول: «إن هذا الرجل عديم الفائدة»، لا، بل يقول: «لقد خانني هذا الرجل».

دعنا نستعرض الآن المشتبه فيهم العاديين. من هو منافسك الرئيسي؟ نعرف ذلك - الوزير ب.هـ. لماذا يُخشى جانبه؟ بحسب ما أعرف فهو رجل يخلو من أي جاذبية جنسية، لذلك، لا توجد لديه أدنى فرصة في أن يصبح مرشحاً يتمتع بجاذبية شخصية. لكن رغم ذلك، هل يستطيع أن يتبوأ كرسي العرش؟ إنه نسر حقيقي. الجميع يعتبرونه مرشحاً سابقاً مع أن وجهه يبدو أنه يقول دائماً: «أنا؟ لا أستطيع أن أتخيّل لماذا!»

بحق السماء، طبعاً نعرف أنا وأنت السبب: لأنه يعتقد أنه ينجو من أي لوم وتأنيب، وهي فكرة أدخلتها في رأسه تلك الثعلبة السياسية «م.ر.». أما أنا فهناك فكرة تتقافز في رأسي الصغير. كيف يمكننا أن نقنعه بأن العجوز الشمطاء تخدعه لكي تجعله يعتقد بأنه وريث «ر» الأثير؟ لن يقول له ذلك أحد على الإطلاق. يجب أن يضرب رأسه بقطعة حجر ليفكّر بالأمر. لكننا نحن الذين أتينا من يكاتان، يا عزيزي، فنانان حقيقيان في التلفيق والاختلاق، كما تعرف. وهنا نأتي، أنا وأنت لنتأكد من أن كلّ هذا العمل الهزلي ينعكس بصورة سيئة على «ب.هـ» وعلى شعبه. نريد أن يقول الجميع: «لقد رشحّه «ر» ليتخلص من سياسي غير مرغوب فيه».

لحسن الحظ، هناك عوامل كثيرة في السلطة، طموح جامح كبير، يا جميلي، تمكننا، أنا وأنت، من أن نصطاد جيداً في تلك المياه العكرة. عكرة بسبب وجود جميع الصيادين

المتناقضين - ذلك الرئيس السابق الأناني، ثم ذلك الرئيس السابق السابق السابق في فيراكروز، ثم ذلك الأحمق الذي يترأس الكونغرس (دعه يسمع!)، والمبتدئ ن.ف. وحتى م.ر. نفسها، التي خرجت عن السيطرة بتلك النصيحة العاقلة التي سيلقيها أحدهم ذات يوم عليها مرة أخرى، باستخدام الكلمات ذاتها التي تستخدمها لتحذر الناس بوجه كرويلا دي فيل الذي يرتسم عليها: «لم تعد مقنعاً يا عزيزي. مهما فعلت، سينتقدونك بسببها. إن الجميع ينتابهم شعور بالملل من كثرة نصائحك».

إحذر. لا تدعها تعرف أنك تحتقرها، وأنك ترثي لحالها لأنها ليست جميلة مثلي، أو لأنك تفضّلني عليها. يجب أن تدرك، يا عزيزي، بأنها تحتقرك وتشفق عليك، وستبتهج كثيراً عندما تعرف بأنك تشعر ذات الشعور.

لكن لنعد إلى موضوعنا، يا حبيبي ت. لا تنس أبداً، ولا لثانية واحدة، أنه توجد للبشر جميعهم عيوب ومحاسن، وأن أعداءنا قد يستغلون الأمرين كليهما. انظر إليّ يا حبيبي. هل لاحظت أبداً بأني لا أنظر مطلقاً إلى يديّ؟ هل يمكنك أن تخمّن لماذا؟ لأنني عندما كنت فتاة صغيرة تعلّمت أنني إذا نظرت إلى أحد أصابعي، فإن الرجال سيظنون إنني أطلب خاتماً، أو الأسوأ من ذلك - بأنني سأفقد خاتمي لأنني كنت في غاية الغباء لأنني أتمسك به. وإذا أضعت خاتمي، فقد أفقد كل شئ - ثروة، زوج، بكارتي، بل حتى اليانصيب!

لهذا السـبب تراني دائماً أرتدي قـفازات، حـتى في قيظ ميـردا. لكنني أرتديهمـا أيضاً لكي لا تلمس أطـراف أصابعي بشرة سـوى بشرتك، يا قطعة الحلوى الجمـيلة. إنك تسأل من حين لآخر، يا عزيزي الغيـور، إن كان هناك رجال آخرون في حيـاتي. حبـيبي، لست بحاجـة لأن تسأل ذلك. إنني جـسد يستعر شهوة، هذا كلّ ما في الأمر.

27

من الجنرال سيسيرو أروسا إلى الجنرال موندراغون فون بيرتراب

جنرالي الطيب، لقد وصلت الأمور إلى درجة الغليان ويجب علينا أن نتخذ إجراء في القريب العاجل. لكن أرجو أن يكون ذلك إجراء مشتركاً، يتخذه أخوان تربط بينهما الخدمة، مثلي ومثلك، أيها الجنرال. انظر إلى ما يحدث. إن السياسات الديمقراطية المحتفى بها التي يتبعها رئيسنا تغوص أسرع من زورق تجديف علق في وسط الخليج أثناء هبوب إعصار. إذ يقول ثقوا بالناس، فالمجتمع المدني سيلتحم من تلقاء نفسه لحلّ النزاع الداخلي. ويقول امنحوا الناس حريتهم، وسيقومون هم بتشكيل الاتحادات والتعاونيات، وجمعيات الأحياء. سيفعلون ذلك كالمضاجعة! أيها الجنرال، ارخ السلطة قليلاً، وستخلق فراغاً لعيناً. إن هذه البلاد لم تستطع أن تحكم نفسها أبداً. لا توجد لديها الخبرة الكافية. إنها لا تعرف كيف تفعل ذلك. كانت دائماً بحاجة إلى يد قوية، إلى سلطة مركزية تمنع حدوث الفوضى وتقضي على فراغ السلطة. انظر حولك: ففي جميع

البلد، ملأ فراغ السلطة الزعماء المحليون المتسللون الذين ينتظرون دائماً للانقضاض كالنمور.

يمكنني أن أتحدّث عن بلدة مثل ساهواريبا، الضائعة في الصحراء، حيث يكتسب شخص هام مثل فيليكس إلياس كابيزاس قوة حقيقية في سونورا ويمارسها، يحميها البعد والجهل، يحتكر المناجم، ويستغلّ تصدير النحاس.

ويمكنني أن أتحدّث عن ولاية كاملة مثل سان لويس بوتوسي، حيث يعد زعيم محليّ مثل رودولفو روكوي مالدونادو المستثمرين اليابانيين بالنظام والأمن ليتمكنوا من استخدام سان لويس منصّة انطلاق لغمر الولايات المتحدة بصادرات التكنولوجيا عن طريق اتفاقية التجارة الحرة. ستقول إن هيريرا قد خلق هذا الوضع في سان لازارو، لكن الشخص الذي أخذ كل الفضل (والينّات، أو أي شيء يستخدمه هؤلاء الكاميكاز الصفر لدفع الرشاوى) هو مالدونادو، رئيس وحاكم الولاية. بمعنى آخر، إنه يدع الناس يعتقدون أن وزير الداخلية هو الذي جعل النظام يستتب هناك، لكن أولئك اليابانيون بعيونهم الفو مانتشو(*) يعرفون أكثر ولا يقولون شيئاً. إن دون روكوي مالدونادو يحمي مصالحهم.

أما بالنسبة إلى محور تامبيكو ماتاموروز، أيها الجنرال، حيث يأتي تهريب المخدّرات كما هو حال أدليتا في تلك

(*) فو مانتشو: شارب طويل رفيع يتدلى من جانبي الفم إلى الذقن -م

الأغنية القديمة - إذا كان في البحر ففي سفينة حربية، وإذا كان بالبر ففي قطار عسكري - من يدير الأمور هناك؟ الرئيس؟ أنت؟ الوزير هيريرا؟ لا، إن الرجل المسؤول هناك هو زعيم مهرّبي المخدّرات، دون سيلفيستري باردو، مع الزعيم المحليّ الذي يعمل لصالحه، خوزيه دي لا باز كوينترو. فعلى طول شريط تيجوانا ميكسيكالي، تقع تجارة الدعارة تحت سيطرة نارسيسو «شيشو» ديلغادو، الزعيم الكبير الذي يتظاهر بأنه يحب الحيتان، لكنه يكسب رزقه من التجارة بلحوم القرود الحية، إذا كنت تفهم ما أقصده أيها الجنرال.

هل أتابع؟ هل أخبرك شيئاً لا تعرفه؟ هل يجب أن أقول لك إننا فقدنا السيطرة على الحدود من كلا الجانبين. فقد خسرنا الحدود في الشمال لصالح كارتلات المخدّرات والدعارة والمتجرين بالبشر؛ وخسرنا الحدود في الجنوب لصالح الراديكاليين الأوروبيين - تجارة السياحة التي ورثت تلك الأشياء تحت قناع التزلّج من المرحوم (الذي اختفى)، مساعد القائد ماركوس ليؤسس جمعية شياباس الاشتراكية، القبعات الصوفية، والسترات الصوفية التي ترتديها نساء المايا، والبنادق الخشبية، والمخطوطات التي كتبها ماركوس، والواقيات الجنسية المكتوب عليها العلامة التجارية المسجّلة «الانتفاضة»، وقبعات زاباتيستا، وتماثيل مصغّرة عن عذراء غوادالوب - إلى السيّاح الذين يبحثون عن إثارة، الذين يكرّسون أنفسهم لفتح أبواب «الإنسانية» أمام الهنود الغواتيماليين الهاربين من التعذيب

والموت وإشعال الحرائق لحماية النخبة في غواتيمالا. لماذا لا يأخذ هؤلاء الغواتيماليون البيض درساً منا ويشجعون على شيء من الاختلاط العرقي لكي لا يبقى هناك شخص تجري في عروقه دماء هندية صافية؟ بالإضافة إلى ذلك، هناك المنطقة الجنوبية الشرقية كلها، التي يهيمن عليها «اليد السوداء» الشرير فيداليس من تاباسكو.

بحق السماء، أيها الجنرال! بحق السماء! هل سندع الأمور تستمر تتقيح هكذا؟ أم أننا سنتّخذ إجراء ما في نهاية الأمر، أنا وأنت، لننقذ البلد عن طريق تطهير القوات المسلّحة، المعقل الأخير للوطنية المكسيكية؟ هل سنجلس طوال تلك العملية الانتخابية التي لن تنتهي والتي ستدوم قرابة ثلاث سنوات؟ هل سنترك كلاباً مدللة لعينة مثل دي لا كانال أو بيرنال هيريرا يدخلان إلى لوس بينوس ليزيدا الضغط علينا؟ أم أننا سنجد وسيلة، أيها الجنرال، لنستبدل الرئيس لورينزو تيران، الذي تقول عنه الصحافة وعامة الناس كلاماً سيئاً بأنه رجل بيروقراطي لا تأثير له، التصقت وسادة في مؤخرته؟ هل سنجد وسيلة، أيها الجنرال، ليكون لدينا رئيس يتمتع بيد حديدية وبشخصية قاسية، من يستطيع أن يعيد النظام إلى هذا البلد اللعين؟

أعرف أنك لا تكتب رسائل، ولا حتى بطاقات تعزية، أو بطاقات أعياد ميلاد، لكن أعطني إشارة، أيها الجنرال، يا صديقي الطيب، إشارة صغيرة واحدة - فأنا أجيد قراءتها...

28

من دولس دي لا غارسا
إلى توماس موكتيزوما مورو

حبيبي توماس، كم أتمنّى أن أبكي على قبرك. لكنني أعرف أن القبر خاو. شاهدة القبر موجودة. واسمك موجود. وتاريخ ولادتك ووفاتك موجود أيضاً:

توماس موكتيزوما مورا
2012-1973

لكنك لست موجوداً. فقد كان هناك تابوتان، واحد فوق الآخر. صندوق ذو قعر زائف فيه تمثال من الشمع في هيئتك يذوب في الجزء العلوي، ولا يوجد ثمة شيء في الأسفل. لا شيء يا حبيبي، سوى المشبك الصغير ذي النسر والثعبان الذي كنت تزين به صدرك دائماً، والذي انتهى به المقام في زاوية ذلك التابوت المزيف - إما لأن الذين دفنوك لم يكترثوا به، أو لأنك تركته أنت هناك كدليل على وجودك، لتقول لي: «دولس، كنت هنا، ابحثي عنّي. . .»

لا أملك الشيء الكثير ليمنحني الأمل! مشبك منسي! تابوت خاو! وهيئتك المصنوعة من الشمع تذوب لتصبح بركة من الوهم.

«حياة من الوهم». لقد تعلّمت ذلك منك. هذا ما كنت تقوله دائماً عن السياسة. ولكن، مع ذلك، فإن ألمي ووحدتي اليوم حقيقيان تماماً يا توماس.

لم يساعدني أحد. إني أعيش من أجل لا أحد. إني أعيش من أجلك فقط لأن هذا ما كنت تريده، وقد قبلت ذلك بامتنان.

لقد رشوت حارس المقبرة ليدعني أفتح القبر. فأنت من قال لي: «يمكن شراء كلّ شيء في المكسيك. كيف يمكننا أن نضع حداً لهذه اللعنة؟»

بعد أن قتلوك، لم ير أحد جثمانك. فقد قالوا إن الرصاصة التي اخترقت دماغك شوّهتك بالكامل. احترام الموتى! لكن لماذا لم يكن هناك ولا جرح واحد في تمثالك الشمعي المسجى في التابوت الأول؟ لماذا بقي رأسك سليماً، حتى عندما ذاب؟ احترام الموتى!

لم أكن أعرف من أنت. ولم تكن تعرف من أنا. لقد أحبّ أحدنا الآخر دون أن يعرف أحدنا الآخر، بدون أسئلة. لم يكن عهداً. لم نتحدث عنه. الطريقة التي التقينا بها كانت

شديدة الغمـوض. الغموض هو الذي جمعنا معـاً، والغموض هو الذي أبقانا معاً.

لم أكن أعرف ما هـو جسدي حتى علّمتـني أن أحبّه وأن أكتشـفه لأنك أحببته واكـتشفته، مـراراً وتكراراً، كنت تكشفه لي...

«يتغـير لون عيـنيكِ في ضوء الشمس، وفي الليـل تصبح عيناك النور الوحيد... ولا تحتاج شحمة أذنك إلى قرط، كما لا تحتـاج يداك الجميلتان النظيـفتان إلى مجـوهرات... فمك طازج ونضر على الـدوام مثل نافورة الماء... وفـرجك الجرح الذي لا يلتئم أبداً لـكي لا أسبب له الألم... وإذا كان خـالياً من الشعر، فإني سأرسمه عليه، يا دولس ماريا... إني أطوف فـوق جسـدك، ألمس بطنك وكـأنهـا حقل عـار أريد أن أُدفن فيه... ونهـداك قلقان، نزقان، يتقـافزان ويصيحـان رغبة في رعايتهـما والاعتناء بهما... وفي الأعـمق والأعمق والأعمق فيما أداعب مؤخرتك، القوية، الصلبة، والسخية، وكأنها تريد أن تعوض عـن خصرك النـحيف، مثـل شجرة بتـولا، وأدفن وجهي إلى الأبد في شعرك الأسـود الطويل، وأجعلك تقسمين بأنك لن تقصي هذا الشـعر، يا حبيـتي، ذلك الشلال الأسود الذي يقربني من الطبيعة، جوهر الطبيعة الحقيقي الذي أجده في مشـهد جـسدك الطبيـعي، الطبيـعة التي لا أستـطيع أن أعيش بدونهـا... وإذا مت، أريدهم أن يلفّـوا رأسي بشـعـرك لكي

أتنشق عبيرك حتى نهاية العالم، يا حبيبتي، يا امرأتي، يا عروستي...»

لا أذكر لحظة لم تجعلني أشعر فيها بأنني أكشف شيئاً لم أكن أعرف أني أمتلكه. الحقّ في جسدي.

«أوه، فخامة جسدك، يا دولس».

ليس ذاك هو جسدك الحقيقي في القبر. لم أعرف إلى من ألجأ.

وهذا لأنني لست أحداً يا حبيبي. حبيبة توماس موكتيزوما مورو السرية. لا أحد. إنه سرّ. كما كان في البداية. الشيء ذاته. حبيبي، تصوّر صدمتي، دماري، عندما لم أجدك في قبرك وأصبحت غامضة، مرة أخرى، الغريبة التي رأتك للمرة الأولى قبل تسع سنوات، التي نظرت إليها، أيضاً، كالغريب الذي كنته بالنسبة لي.

حبيبي، إن ذلك الشعور يقبع في روحي. لقد رأى أحدنا الآخر دون أن نعرف من نحن. كنت حبيبي الذي لا اسم له، وكنت أنا عروسك المجهولة... لأننا كنا قد أصبحنا حبيبين، إن لم يكن قبل أن نلتقي، ومنذ اللحظة التي رأى فيها أحدنا الآخر، في معرض لوحات خوزيه لويس كيوفاس في متحف الفنّ الحديث في مونتيري، حيث ضاع كلانا في ذلك العالم من الأشكال المندثرة والألوان التي لا تكاد ترى، وكأن

كيوفاس، بدلاً من أن يرسم، «ملأ الـهواء»، كما قلت. كيف أنسى كلـمـاتك الأولى في حـيــاتي: «إن كـيـوفــاس يملئ الهواء. . .»

لم أفهم تماماً ما كنت تقـصده، لكنني عـرفت، عرفت، نعم، فقـد أدركت أنك أنت فقط تـقدّر ما يهم: كـانت لديك عين على الفنّ وعين على النساء.

قلت لنفسي: «إني امـرأة»، وابتسمت. ضيّـعت قليلاً من الوقت لأصحح نفسي.

«إني امرأة»، قـلت، وتوقّفت عن الابتـسام. ثم اعتـرتني السعادة ثانية.

«إني المرأة».

حدّقت فيّ بجـرأة، بوقاحة، بشـهيّة، برقـة، ومن يعرف ماذا أيضاً. . . . . . نظرت في عينيك السوداوتين العميقتين مثل حصاتين عالقتين إلى الأبد في قعر البحـر، قدمتهما لي كما لو كنت فتاة صغيرة تلعب على الشاطئ.

«أنا امرأتك».

ثم ضحكت لكي أشعر بالقرب منك.

بين ذراعيك أصبحـت امرأة. عندما رأيتك في تلك الليلة في المتحف، لم يكن لديك اسم. ولم أكن أعرف بماذا أناديك.

«سمنّي «جزيرة»».

ضحكت.

«ليس هذا اسم»، قلت، «إنه مكان».

«لا»، قلت، وهززت رأسك ذا الضفائر، التي تغري بالمداعبة، «إنها المدينة الفاضلة».

توقّفت عن الضحك.

«إنها المكان الذي لا وجود له».

وبرزت قسمات جدية على وجهك.

«إنها المكان الذي يجب أن يكون موجوداً».

كدت تخيفني، كنت جدياً للغاية، تكاد تكون غاضباً، أسنانك تصطك.

«سأجعل المكان الذي لا وجود له المكان الذي ينبغي أن يكون موجوداً».

المدينة الفاضلة. لم أسمع هذه العبارة من قبل. لكن ما الغريب في ذلك؟ كان كلّ شيء بدايات بالنسبة لك - الكلمات، الأشياء، الأفكار، الجنس، الحبّ... من بين جميع الناس في متحف الفن الحديث لماذا انتقيت فتاة في التاسعة عشرة من عمرها، عديمة الخبرة، ومن أسرة متواضعة،

لا تعمل، متلهّفة لتتعلّم، ليست قبيحة جداً، لكنها ليست جميلة جداً أيضاً؟ ماذا رأيت فيّ؟ الرفيقة المثالية التي سترافقك إلى تلك الجزيرة السعيدة القابعة في مخيلتك؟ هل كنت مثل جزيرة بالنسبة لك؟ شيئاً يمكن اكتشافه، شيئاً يجب تحويله، شيئاً يمكن الإيمان به؟

وبين يديّ وضعت رواية مكسيكية من القرن العشرين كتبها آرماندو أيالا أنغويانو وقلت لي: «هذا أفضل عنوان لك، ولي، ولكلّ الناس، يا دولس».

«الرغبة في الإيمان»، قلت بصوت عال، وأنا أقرأ غلاف الكتاب. الرغبة في الإيمان. كانت تلك دعوتك لي، يا حبيبي، أن يكون لديك إيمان، وذات يوم قلت الشيء ذاته للبلد برمته من منصة مرتفعة كثيراً إلى درجة أن يديّ لم تتمكنا من الوصول إلى يديك.

«يجب أن يكون لدينا إيمان. يجب أن نعيد الأمل إلى المكسيك».

كان ذلك عندما رأيتك في الصحف كلها، في جميع التقارير الإخبارية على التلفزيون. في تلك الأيام كنت ما يطلقون عليه «تابادو المخفي». كنت تعيش في الظل، منتظراً أن تشرق الشمس لتعمي بصرك. كان ذلك عندما، بأبشع الطرق آذتك الحقيقة وأنقذتك، بدأت أعرف أنك كنت لي أكثر من أي

وقت مضـى لأنك لن تكون لي كلياً، لأنني رأيتك فـي صورة مع زوجتك وأطفالك الثلاثة، وقد قبلت الصمت، السرّ، بأني لست شيئـاً بالنسبة لك في حياتـك العامة، وكلّ شيء لك في حياتك الخاصة.

توماس، حبـيبي، إنك تعرف أنني لم أتذمـر أبداً، فهمت كيف يجب أن تكون الأمور، لم أطلب شيئاً منك، وكنت أكثر من سعيـدة، حضنت حبنا الذي أصبح سـراً أكثر من أي وقت مضى، بعيداً عن المنصات، عن الصور، عن الخطابات. قدّرت ثقتك لأني كنت أعرف أنك تشـاطرني إياها، ولي فقط، وربما لم أكن أفهم كلّ الأشياء التي كنت تريد أن تحـققها - فلم أكن أعرف شيئاً عن السـياسة - لكنك كنت المرشح للرئاسة، كنت تريد أن تحّسن أوضـــاع البلد، أن تعـيـد إلى الـناس إيمانهم، أملهم، ثقتهم. تلك كانت الكلمات التي كنت ترددها.

عشـيقان سرّيان. يـا لها من متعـة. لم أكن مستـعدة لأن أبدّلهـا بشيء آخـر. لم أحسـب الأمور في حـيـاتي، لم أقل لنفسي: «سأجعله يختار بيني وبين أسرته».

لم يخطر ذلك ببالي قط يا تومـاس، لأني كنت أعرف أن نكون عشيقين سريين هو أفضل شيء في العالم، وكنت أعرف أنه حتى لو لم يكن من أجل أسرتك وسياستك، كنت سأحبّك بنفس القدر - أو بالأحـرى كنت أعرف أنه بالرغم من حـياتك العائلية والسياسيـة، كنت سأحبّك بنفس القدر. إذ إن منصبك

ومسؤولياتك جعلاني أزداد حباً لك، بل وبدأت أشعر بسعادة أكبر عندما عرفت أنك لي، وأنك سيد جسدي، وأنني محظيتك. كنت أعرف ذلك بثقة وإيمان بقدر ما أؤمن بالله - أنا وأنت، عاريان ومتحدان دون أن نحتاج إلى تفسيرات، فلا يمكن تفسير كلّ شيء ممتع مثل الإحساس بجسدك داخل جسدي. . .

والآن، فإن الشيء الذي كان متعتي وسروري أصبح ألمي وعذابي، يا توماس. لا يوجد ثمة أحد أتوجه إليه. تلك المرأة، ماريا دل روساريو، التي كانت مقرّبة كثيراً منك أثناء الحملة، تلك المرأة التي فعلت الكثير من أجلها، التي ساعدتها لتصبح ما سمّيته «عربتك المزيّنة»، لا ترد على رسائلي. أستطيع أن أعرف السبب. فهي لا تعرف من أنا. فقد أكون كاذبة، محتالة، امرأة تسعى للدعاية والظهور. . . وعندما أريد أن أذهب وأتكلم مع شخص آخر، يوقفني ظلّك ويرجوني أن أكون حذرة وكتومة، تماماً كما لو كنت تحميني، يا توماس، تماماً كما لو كنت تقول، حيثما كنت: «دولس، ليكن. لا تهزّي المركب. إني أقول لك ذلك لمصلحتك. لا أريد أن تتأذى بسببي».

هل أملك الحقّ يا حبيبي في أن أكتب إليك، أن أضع رسالة الغرام واليأس على قبرك المزيف؟ هل لي أن أسأل الله أن يتوسط بيننا، أن يخبرني الحقيقة، بما أنه لا يوجد إنسان يريد

أن يخبرني شيئاً؟ أينما كنت، فكّر كم مرّة يسمعنا الله. عدّ ذلك بنفسك، وسترى الجواب. مطلقاً.

إن ذلك يجعلني أفكّر بهرطقة يا توماس، وسأقولها لك هنا، في قبرك.

«كم مرّة نتوقع أننا نستطيع أن ننقذ الله؟»

لم أعد أحتمل. لن أستسلم يا حبيبي. لن أقول لنفسي: «لقد مات توماس. اقبلي الأمر».

لا. بل سأمضي ليالي وأنا يقظة، وأقول لنفسي: «إذا لم يكن هناك أحد غير الله يستطيع أن يسمع أسئلتي، وحتى الله لا يقول شيئاً، فما الذي أستطيع أن أفعله لكي يسمعني ويرد على توسلاتي؟»

توماس، حبيبي. أعد لي حياتي. لقد جعلتني المرأة التي هي أنا. كنت شخصاً آخر قبلك. ربما لم أكن شيئاً قبلك. لقد أصبحت امرأة بين ذراعيك. والآن بعد أن لم تعد معي، يجب أن أحبس دموعي لأنني إذا بكيت، أعرف أن شيئاً أسوأ سيحدث لي. إن الدموع ستخرج الحزن، الأسى الذي لم أستطع أن أعبّر عنه.

ألن يكون هناك مكان للراحة؟

أحبّك، أحبّك، إني أفكّر بك طوال الوقت.

أسمع أغنيات راقصة تنبعث من صندوق الموسيقي في المقهى (فالراديو والتلفزيون لا يعملان، وأصبحت الصحف تباع جيداً هذه الأيام)، وأتذكّر حبّنا.

توقف عن سؤالي

دعني أتخيّل

بأن الماضي غير موجود

وأننا ولدنا

في اللحظة

التي التقينا بها...

لكن الموسيقى تتلاشى عندما أعبر بوابة المقبرة وأقرأ اللوحة المنقوشة عند المدخل:

قف: هنا يبدأ إقليم الخلود،

حيث تتحول عظمة الدنيا وبهاؤها إلى تراب.

29

من تاسيتو دي لا كانال إلى الرئيس لورينزو تيران

سيادة الرئيس، أشكر الله على الأزمة التي نجد أنفسنا فيها الآن، والتي سببها ردّ الفعل المتهور من جيراننا في الشمال، لأنها تمنحني الفرصة لأن أترك سجلاً مكتوباً عن ولائي وإخلاصي لك. إني أثني على قرارك بوضع المبادئ الدائمة فوق جميع الاعتبارات العابرة الأخرى. إني أعرف جيداً أن أهدافنا النهائية، بالنسبة لك، يجب أن تكون أخلاقية دائماً. لا يمكن أن تكون هناك وسيلة أخرى. إن كلّ ما أحتاج إليه هو أن أنظر إلى يديك، يا سيادة الرئيس، لكي أعرف أنهما قادرتان على صنع المعجزات. إن لديك نوعاً من الحاسة السادسة التي يفتقر إليها الآخرون. وكلّ ذلك الحدس سيقول لك إنني هنا لأحميك ولأمنع بعض الناس من الاقتراب منك، الناس الذين قد يزعجونك، أو، يمكنني أن أجرؤ وأضيف، الأشخاص الذين لا يتواضعون في حضورك. كما تعرف يا سيدي، إنني أطيع أوامرك حتى قبل أن تلفظها. وإلى هذه الميزة أضيف ميزة

أخرى. فالحفاظ على سرية الأشياء عادة تلازمني طوال حياتي إن ما أريد أن أقوله أنك تستطيع أن تضع كلّ ثقتك فيّ. أعرف أنني أدين لك بكلّ شيء، وإذا فعلت شيئاً يسبب لك الأذى، فإني أسبب الأذى لنفسي. إني أكرر موقفي هذا لكي تتذكر أنه في الانتخابات الرئاسية القادمة في عام 2024، ستواجه معارضين يريدون أن يظلوا في المعارضة إلى أجل غير مسمى لأنهم يخشون في الحقيقة أن يمارسوا السلطة. لكنك ستجد أشخاصاً مثلي، مقربين كثيراً من جوهر السلطة لكن لا يتملكهم أيّ طموح باستلام السلطة. لذلك، يا سيادة الرئيس، أشعر بأنني أستطيع أن أحدثك بقناعة متجردة حقاً.

ضع نصب عينيك يا سيادة الرئيس، أنك يجب أن تتمتع بملكة العناد المهيبة. دع الآخرين يكونون هم الرجال الطيبون. أما أنت فلا يحق لك أن تكون رجلاً طيباً. فالشعب في هذا البلد يركع احتراماً وإجلالاً أمام السلطة، لكنه لا يقبل الرقة والطيبة والبساطة الشديدة في صورة الرئيس. إننا نحترم الإمبراطور، إننا نحترم مونتيزوما، نحترم نائب الملك الإسباني، ونحترم الدكتاتور الوقور الذي يحترمه العالم كله، كما كان بورفيريو دياس. وأيضا، بالطبع، نحترم الرجل النزيه، الشرعي، المدافع عن الأمة والمواطن البارز في القارة الأمريكية، دون بينيتو خواريز. هل تستطيع أن تتذكر شخصاً جليلاً أكثر منه؟ هل سمعت نكتة واحدة تقال عن خواريز؟ ألم يُدّون في كتب التاريخ بأن خواريز عديم العاطفة والشعور؟ ألم

بات خواريز بتلك المقولة: «لأصدقاء المرء: العدل والنعمة. ولأعدائه: القانون»؟

لا أعني بهذا أنني ألمح إلى أن العظمة مرادف للغطرسة الملكية، بل هي مرادف للرزانة الجمهورية، لكن تنيرها هالة وهّاجة من الملكية. نعم، دعنا نكون جمهورية وراثية على الدوام، حكماً ملكياً ذا دورة تتألف من ستّ سنوات، ومن اجل هذا التقليد يجب أن نحافظ على احترام وجلال العرش الرئاسي، ونحدّد الوصول إليه بقدر المستطاع. لذلك، فإني أجازف وأقدم لك نصيحة تتعلق بعدد من الأعضاء في رئاسة الوزارة يحبون أن يتفاخروا بقدرتهم على «الوصول» إلى مكتبك، والذين ربما كانوا أصدقاء لك أيضاً. سيادة الرئيس، لا تتعامل مع من هم أدنى منك. أرهم دائماً مكانتهم الحقيقية. لا تستمع إلى نصيحتهم المتحيّزة - لأنه يوجد هناك شيء يدعى نصيحة غير متحيّزة عندما يكون الشخص الذي تقدم له النصيحة هو رئيس الأمة.

سيادة الرئيس، إني أعمل من أجلك. إني لست مختلفاً عن معظم مواطنينا. فكل مواطن مكسيكي صالح يعمل من أجلك. لأنه إذا نجح الرئيس في عمله، فإن المكسيك ستصبح بخير. اسمح لي أن أخبرك، إذن، أنه في هذه الساعة السياسية بالذات في هذا البلد، توجد ثمانية أحزاب صغيرة. ثم توجد أنت.

هذه السلطة اللزجة، عديمة المذاق التي تتـمخض عن كثرة هذه الأحزاب الصغـيرة لا يمكن تناولها إلا بملعـقة رئيس قوي يعرف كـيف يستـغلّها. ضع هذه الفكرة مـوضع الاختـبار، يا سـيادة الرئيـس، بعد أن بدأت الانتـخـابات تلوح في الأفق. فالمكسـيكيون لا يعـرفون كيف يحكمـون أنفسـهم. لقد أثبت التـاريخ ذلك. راقـبهم وهـم يرحبـون برسـالة تجـدد سلطتك بالامتنان والارتياح. إني أقـول لك هذا بروح من الديمقراطية. لا يوجد ثمة شيء يدعى دكـتاتورية خفيفة لا تتـحلّل وتتحول في النهـاية إلى استـبداد شـديد. سـتكون في حال أفـضل إذا فعلت العكس: ابدأ بقسوة وتحوّل إلى شيء أرّق.

اغفر لـي صراحتي. إني كلبك الحارس، كـما تعلم. إني أقبل دوري بخنوع. أما أنـت، فقد تتصرّف وفـقاً للإرادة الحرّة التي يمنحهـا لك منصبك. لكن مـاذا تقول عن رئيس وزارة - منصب أتشرف بأن أُمنح إياه - لا يحـدثك بصدق وإخلاص؟ وبشكل مضحك دعني أخبرك أنني مثل الوزير الذي طرح عليه الجنرال، والرئيـس، ورئيس الدولة بلوتاركـو إلـيـاس كـاليس السؤال التـالي: «كم الساعـة الآن؟» فردّ الوزير، «السـاعة هي الوقت الذي تشاء يا سيادة الرئيس».

إني رجل معـتاد على عمل أشيـاء لا يحبها. استـخدمني كما تشاء.

30

من نيكولاس بالديبا
إلى ماريا دل روساريو غالبان

سيدتي الجميلة، هناك امرأة أظن أنني ذكرتها لك من قبل: بينيلوب، السكرتيرة التي تعمل في مكتب تاسيتا دي لا كانال. واسمها الكامل بينيلوب كاساس. إنها شاحنة في هيئة أنثى. فهي تتحرّك في المكتب مثل سفينة تمخر عباب المحيط الأطلسي، تشرف على المهام الإدارية وتشجع الفتيات الأخريات على العمل (لأن عدم وجود تشجيع في ذلك المكتب قاتل مثل رائحة فم تاسيتو الكريهة)، وتتصرف أحياناً ككاتمة لأسرارهن ومستشارة لهن، وفي أحيان أخرى تصبح الكتف الذي يستندن إليه ويبكين عليه. وكما ترين فإن لبينيلوب قلبًا كبيرًا مثل صدرها الذي يستره شال بحجم راية. وتكسو وجهها الشديد السمرة نقر، آثار متبقية من الجدري الذي أصابها في طفولتها، والتي تخفيها بطبقة من المسحوق بدون حماس. وشفتاها مطليتان بأحمر شفاه فاقع، وكأنها تريد أن تصرف الانتباه عن

العينين اللتينْ يعلوهما حاجبان كثيفان يلتقيان في الوسط مثل حاجبي فريدا كاهلو الشهيرة. أما شعرها، يا ماريا دل روساريو، فإني أظن أنه يتعين على إلاهتنا الأزتية الشامخة أن تنهض في الرابعة صباحاً لتضفر شعرها بتلك الضفرات التي تشبه عظام الأضلاع، تلك الأبراج المترنحة التي تتوج رأسها، وذلك السيل من خصلات الشعر التي تخفي جبهتها المنخفضة الضيّقة.

إني أقول لك كل ذلك لأؤكد على تلك الهيئة القوية جداً التي فصّلتها إلاهتنا البيروقراطية كوتليكيو، حتى تدركين مدى صدمتي عندما وجدتها البارحة هامدة، متجمدة، تشهق وتبكي، والدموع تغرق المنديل الورقي تحت وجهها الكئيب.

«دونا بينيلوب، ماذا في الأمر؟»

لم تتمكن من أن تكف عن البكاء. رفعت قبضتها التي كانت تمسك ببعض الأوراق، ومضت دقيقة أو دقيقتان حتى تمكنت من قول: «إنها عديمة القيمة تماماً يا سيد بالديبا، مثل باتاكون أرجنتيني، ورق تواليت، هذا ما تساويه هذه الأسهم - لا شيء على الإطلاق! أقل من علبة كلينكس!»

أعطتني حفنة الأوراق. كانت أسهم شركة ميكسيكانا دي إنيرجيا، شركة المرافق العامة التي أشهرت إفلاسها البارحة، وأودعت الآلاف من حاملي الأسهم الصغار في دار الفقراء -

أصحاب الأسهم البسطاء الذين وضعوا ثقتهم في شركة الطاقة الوطنية (MEXEN) التي خصخصت أثناء رئاسة سيزار ليون، الذي حذا حذو فيدل كاسترو عندما سمح للشركات الأجنبية الاستثمار بالطاقة، ستارة الدخان التي أسكتت فعلياً أصوات القوميين المكسيكيين الصاخبين.

كما تعرفين فقد أشهرت MEXEN إفلاسها البارحة، ووضعت حاملي الأسهم من أمثال بينيلوب في الشارع. وبالطبع فقد كسب مستثمرو MEXEN الملايين نتيجة السكوت عن الإفلاس الوشيك، وباعوا أسهمهم عندما كانت لا تزال تساوي شيئاً.

إني أخبرك أشياء تعرفينها يا سيدتي العزيزة، لكي أصل إلى الجزء الذي لا تعرفينه.

دعيني آخذ الأمر خطوة خطوة.

فعندما أنشئت MEXEN كشركة خاصة خلال فترة حكم سيزار ليون، طرح المديرون عدداً من الأسهم للبيع، الطريقة المعتادة، وهي من نوع الأسهم التي اشترتها بينيلوب. لكن في الوقت نفسه، ولإغراء بعض الشركات القوية (شركات التأمين، المصارف، المصانع) للاستثمار في MEXEN، قدم مجلس الأمناء لهذه الشركات الضمانات بالحفاظ على سرية المعلومات التي تسمح لهم - في أقلّ تقدير- مضاعفة استثماراتهم الأولية

خلال أشهر. ولتحقيق هذه الغاية، أنشئت MEXEN كشركة مزدوجة. واحدة هي الشركة العامة المفتوحة لحملة الأسهم الصغار، والأخرى هي الشركة السرية التي خُصصت للمستثمرين من ذوي الجيوب الأكثر عمقاً.

ولم يكن باستطاعة حملة الأسهم الصغار مثل بينيلوب الوصول إلى الشركة التي تتمتع بمزايا أكبر. بل إنهم في حقيقة الأمر لم يكن لديهم علم بوجود مثل هذه الشركة.

كيف عرفت كلّ هذا؟ بواسطة موظف الأرشيف السيد كاستولو ماغون.

متأثراً ببحر دموع بينيلوب، قلت لكاستولو، «أعطني ملف MEXEN».

فأجاب الرجل العجوز: «أيهما؟»

دهشت من ردّه.

«كم ملف لديك؟» سألته.

«حسناً، هناك ثلاثة ملفات. فهناك الملفات الرسمية، والملفات السرّية، و«القمح المجروش»»

««القمح المجروش»؟»

«نعم. الملفات التي طلبوا مني أن أتلفها. أقطّعها، أجرشها كما تعرف».

«ولماذا لم تفعل ذلك؟»

«آه يا سيدي، إني أحترم هذه الوثائق».

بدون أي انفعال، تركته يواصل كلامه.

«هل تعرف أن السيد بنيتو خواريز، عندما هرب من قوات الاحتلال الفرنسية، ذهب من العاصمة إلى الحدود الشمالية محمّلاً بثلاث عربات تجرها الأحصنة مليئة بأوراق الجمهورية الرسمية؟»

«نعم، يا كاستولو، أعرف ذلك. لكن ما علاقة هذا بأيّ شيء؟»

تورّد وجه الرجل العجوز فخراً:

«إن الورقة التي تجد طريقها إلى يدي هي ورقة لا تختفي أبداً يا سيدي»، ونفخ صدره، وأضاف، «إني أعتبر أن الوثيقة مقدّسة. لا تضيع أبداً، أؤكد لك ذلك».

«هل يعرف الناس في الطابق العلوي بولائك هذا؟»

«إنه ليس ولاء لأحد، يا دون نيكولاس. إنه واجبي إزاء الأمة والتاريخ».

وكيف صنّفت الوثائق المشهورة؟ حسناً، حفظت الوثائق المتاحة للتشاور تحت عنوان «ميكسيكانا دي إنيرجيا»

«Mexicana de Energia (MEXEN)»، أمـا الوثائق السـرية فقد صُنِّفت تحت عنوان «نماذج الخصخصة».

أما الوثائق التي تمسّك بها دون كـاستولو فلم تُصنف تحت أي عنوان على الإطلاق، سوى اسم حبوب القمح الذي يتناول على الفطور التي ذكرتها، «القمح المجروش».

أمضـيت ليلة مـحمومـة يا ماريا دل روسـاريو، وأنا أفكر بالصفقات المشبوهة التي عقدها مجلس شركة MEXEN. وها أنا ألخصهـا لك هنا. إذ يحتفظ المديرون التنفيـذيون بمعلوماتهم السرّية لكبار المستثمرين فـقط، بينما يظل حملة الأسهم الصغار في الظلام. فمثـلاً، أُبلغ ذات يوم كبار المستثمـرين بأن الشركة تمتلك قرابة مائة شركة لن يتم إشهارها وأنهم يستطيعون الحفاظ على أرباح أسهمهم في جو من السرية، وبذلك يتجنّبون توزيع الأرباح. إن MEXEN غطاء، ستـار دخـاني للتـمـويه على الاستثمارات المترابطة التي تعطي أرباحاً متزايدة بسرعة.

ولا تظهر هذه العـمليات في ميـزانيات الشركة الفـصلية. وتكشف MEXEN أرباحها أمام المجموعة الصغيرة المتميّزة من المستثمرين، لا إلى الجموع الغـفيرة من أصحاب الأسهم الذين لا يطلعون على حقيقة الأرباح. باختصار، إن الأرباح الرئيسية للشركة تحابي فئة على أخرى.

إنّ اسم اللعبة هو السريّة التامة. لكن المديرين يلعبون لعبة

ثلاثية، لأنهم يغشّون حاملي الأسهم والمستثمرين على حد سواء، من أجل مكاسبهم الشخصية. إنها مسألة تتعلق بإخفاء تضارب معين في المصالح. فإذا كنت تستثمرين في MEXEN بطريقة شرعية، فإن أموالك قد تذهب إلى شركة لا تسمح بالاستثمارات العامة، أو إلى شركة ينحصر مجال عملها في الحكومة فقط. ولا يعرف حملة الأسهم الصغار ولا المستثمرون الكبار ذلك. إذ تكون الفئة الأولى سعيدة بالأرباح الضئيلة التي تحصل عليها، وتكون الفئة الأخرى سعيدة بالأرباح الكبيرة. لا أحد يطرح أسئلة. إلا أن مديري MEXEN قد يكونون موظفين في الشركة وشركاء رئيسيين في الوقت نفسه. إنهم يوزّعون ما نسبته 10 في المائة من الأرباح على حملة أسهم الشركة، ويحتفظون بالـ 90 في المائة لأنفسهم.

كيف؟ بمضاعفة عدد الشركات الثنائية. فعلى سبيل المثال، تكون شركة ألف الفرعية لـ MEXEN جزءاً حقيقياً من الشركة الفرعية باء، لكن المديرين في الشركة يخبرون الجميع بأنهما شركتان مختلفتان. وعندما تخفض الشركة الفرعية ألف الأرباح، بزعم أنه لم يتم التوصل إلى اتفاق مع الشركة الفرعية باء (التي هي ستار للشركة ألف)، يحتفظ المديرون في الشركة ألف بالأرباح الحقيقية ويجعلون حملة الأسهم يمتصّون الخسائر الخيالية التي تكبدتها الشركة باء، وكأنها خسائر الشركة ألف. وهذا يعني: أن ألف ليست الشريك الذي تضرر بسبب الشركة

باء. إنها نفس الشـركة مثل باء، لـكنها تجعل باء الشـركة التي تتكبد خسائرها. ويحتفظ المديرون وكـبار المستثمرين بالأرباح. وتنتقل الخسائر إلى أصحاب الأسهم من أمثال بينيلوب.

إلا أن هؤلاء الرجال المخادعين ذهبـوا شأواً أبعد من ذلك يا ماريا دل روسـاريو. فقـد أنشأوا الشـركة جيـم لكي تجذب الاستثمـارات وتقدم قروضاً للشركة ألف. وتقـدم الشركة ألف الوعود بـإصدار المزيد من الأسـهم إذا ما هبطت اسـتـثمارات الشـركة جـيم، لكي تظل جيم قـادرة على الوفاء بالتـزاماتـها المالية. وتستثمر الشـركة باء الملايين في الشركة جيم، وبدورها تستثمر الشركة جيم في الشركة ألف.

لكن هنا تبدأ تتراكم الأخطاء والكوارث. إذ ترغم الشركة ألف الشركـة باء على شراء الأسـهم بأسعار ثابـتة خلال سـتة أشهر لحماية نفسها من هبوط نهائي في السوق. وتتقدم الشركة باء وتشـتري الأسـهم عندما يكون السـعر منخـفضـاً، فتـربح الملايين. وتحمي الشركـة ألف نفسها ببيع الأسـهم إلى الشركة جيم. لكن عندما تهبط قيمـة الأسهم حقاً، تعطي الشركة ألف أسهمـاً إلى الشركة جيم لكي تظل قـادرة على الوفاء. ثم تبدأ الشركة ألف تصـدر مزيداً من الأسهم، فتخفض قـيمة الأسهم التي يملكها أشخاص من أمثال بينيلوب.

هنا يكون الكبـار قد حـققوا مـآربهم، بعد أن يكـونوا قد أخذوا الملايين على حساب أصـحاب الأسهم. وهذا يعني أنهم

أصبحوا أحراراً الآن في إشهار إفلاس الشركة بعد أن حققوا أرباحاً فلكية. وهنا، فإن أفضل شيء بالنسبة لهم جميعهم إنهاء اللعبة الصغيرة والبدء بلعبة جديدة قبل أن يقعوا في فخ من الفخاخ التي نصبوها هم أنفسهم.

إنها مثل قصة الثعلب الذي يعرف جميع فخاخ الصيادين التي نصبوها له، لكنه لا يعرف أن الفخّ الذي نصبه هو نفسه لخداع الصيادين سيكون هو الفخ الذي سيقع فيه في النهاية.

ماريا دل روساريو، إن إحدى فوائد البيروقراطيات مثل بيروقراطيتنا أن موظفي الأرشيف لا يتغيّرون أبداً، لأن لا أحد يفكّر فيهم على الإطلاق. إنهم بيادق منسية، أو حسب الظروف، هم الذين تتم التضحية بهم بسهولة على رقعة الشطرنج الضخمة. ويعرف «الفيل» السريع في اللعبة بأن البيادق لا يعرفون قيمتهم الحقيقية. إن ما أقصده هو أنهم لا يعرفون ماذا يوجد لديهم في أرشيفاتهم. ماريا دل روساريو، لقد قرر موظف الأرشيف المتواضع دون كاستولو ماغون نتيجة الرئاسة التالية في المكسيك.

«من أين أتت هذه الوثائق يا دون كاستولو؟»

«دون تاسيتو دي لا كانال سلّمها لي شخصياً».

«هل طلب منك أن تحتفظ بها على أنها سرّ؟»

«لا، لا، على الإطلاق. إنه يعرف أنه يستطيع أن يأتمنني على كل شئ. مرة واحدة فقط قال لي: «أتلف هذه الأوراق. لا أهميـــة لهـــا. إننا سنغـــرق في هذا الـكم من الأوراق السخيفة»».

مرر دون كاستولو يده عبر جسر الشعر القليل الذي يمشّطه فوق رأسه الأصلع.

كدت أقول له: «كان بإمكانه أن يتلفها هو نفسه».

ومـرة أخرى تذكـرت نيكســون. كيف أنه كـان يحب أن يحتـفظ بكلّ دليل وشـهـادة دون استـثناء، حـتى لو كـانت إجـرامـية، حـتى لو كـان ذلك لسـببين اثنين فـقط. إذ يظن السيـاسيون أن أعمـالهم جميعـها تنطوي على أهمية تاريـخية كبيرة. وتجـعلهم غطرستهم يعتقـدون أنهم فوق القانون. وربما كـانوا يخشـون أيضاً أن يكتـشف ذلك الموظف الذي سـيقـوم بإتلاف الوثائق. وهنا بالطبع، سيكون الطرف المذنب كـاستولو العجوز المسكين.

لكن عندما سلّمني دون كاستولو كومة الأوراق التي تثبت الجريمة، كـانت هناك مفاجأة أخـرى أيضاً. فقـد كانت الوثائق تحـمل اسم «تاسـيتـو دي لا كانـال»، بخط يده. وعندها، يا سيدتي العزيزة، تعيّن علـيّ أن أسأل نفسي، «لماذا يوقّع مجرم على أوراق قد تدينه بتورطه في عملية احتيال ضخمة؟»

31

من ماريا دل روساريو غالبان إلى نيكولاس بالديبا

صديقي العزيز، إن معلوماتك لا تـقدر بثمن. إنها تجعلني أرغب في أن أهرع وأخـرج إلى شرفـة القصـر، وأقرع جـرس الاستـقلال، وأعلن الحقـيقـة لكي يسمعـها العالـم كله. ففي السياسة، التوقيت كلّ شيء. في الواقع، السياسة هي أن تعرف كيف تحـسب اللحظة. من السـهل قول ذلك. إن التـوفيق بين العقل والعاطفة أمر صعب لكي يتمكن المرء من تحقيق التزاماته.

لقد اتفـقنا، أنا وأنت، على أن مهمّـتنا تكمن في أن نمنع تاسيتو دي لا كـانال من أن يصبح رئيساً للجمـهورية. وأخيراً، وبفـضلك، أصبح بحـوزتنا أوراق اللعب التي نحـتاج إليـها. يمكننا أن ننـسى إهانة تاسـيتـو. إن الناس ينسـون الإهانات. الكراهية تتأجج. الغضب يحتدم. والإحباط غير مقبول ويؤدي إلى الفوضى دون قصـد، مما يجعل الناس يتصرفـون بطريقة لا عقـلانية، وهذا يشجّع علـى القيام بأكـثر المغامـرات السياسـية

خطورة والتي تؤدي إلى نتـائج عكسـية. بمعنى آخـر، لنمض وفق طريقـة معينة. لقـد عانى بلدنا المسكين من خـلل مزمن، كما عانى من المجاعات والفوضى. آه، أيتها المكسيك المسكينة: جروح كثيرة، وفترة قصيرة حتى تبرأ.

وأقتـبس هنا عـبارة قـالها صـديقنا بيرنال هيـريرا: «يمكن تفادي كلّ هذه الشرور إذا هيـأنا بلداً تحكمه قوانين ونكون على استعداد لفرضها وإطاعتها».

هنا تكمن النقطة. لقد انتهك تاسيـتو دي لا كانال القانون على نحـو صارخ. إنك تعرفـه. لقد عـملت معـه. تعرف أنه رجل بائس فظ. ربما لا تعرف كذلك أن أكثر الأشخاص قسوة هم أيضـاً أشد الناس الذين لا يشـعرون بالأمـان. إنهم قسـاة لأنهم يخشون من أن لا يكونوا شيئاً. فالوحشية تمنحهم هوية. إنها أسهل السبل بالنسبـة لهم. لكي تحبّ، ولكي تساعد أخاك الإنسان، وتلبـي احتيـاجاته - فإن ذلك يتطلّـب، يا صديقي، وقتـاً وعاطفة. وقـلة من الناس يمتلكون هذه المزايا. ويجب أن أعتـرف لك بأني أشعر في بعـض الأحيان بأنني أفـتقر إليـها، ويجب أن أذكّر نفسي: «تحلي بالصبر يا امرأة. إلزمي الهدوء».

لكن لا تثق بالحظ إن كنت ترغب في أن تحـطم تاسيـتو. فالحظ يعتني بنفسه، لذلك، ما يجب علينا، أنا وبيرنال وأنت، أن نفـعله هو أن نسـتـخـدم إرادتنا للـتـغلب على الحظ، وأن نتصرف بطريقـة محسوبة جيـداً. لا تنس أبداً أن العواطف هي

أشكال اعتباطية من التصرّف. دع تاسيتو هو الذي يثق بالحظ، ويتصرف بشكل اعتباطي. إن السياسي الجيد يعرف كيف يحوّل كلّ شيء لصالحه. اجمع العناصر بنفسك: الأول، لقاؤك بالصدفة مع ذلك المؤرشف الذي لا أعرف اسمه. الثاني، وجود تلك الوثائق التي لم تُتلف على الإطلاق. الثالث، توقيع تاسيتو (أعترف أنني مندهشة من ذلك، ولا أزال أفكّر بالأمر). الرابع، صداقتنا، علاقتي الوثيقة ببيرنال هيريرا، إن يوم الحسم السياسي آت بسرعة، شئنا أم أبينا.

اجمع كل ذلك يا نيكولاس بالديبا، واحسب وقتك جيداً. إنك سيد السرّ الذي أفضيته لي، مما يؤكّد الثقة التي أوليتك إياها، الثقة التي يبدو أنك تشك فيها بين الحين والآخر، أو ربما لا تبادلني إياها. لا يهمّ. وكما تعرف فإن الأسرار هي أسوأ أعدائنا في السياسة. انظر إلى المكسيك، انظر إلى كولومبيا، انظر إلى أوروبا أو الولايات المتحدة. جرائم القتل، الصفقات التجارية المشبوهة، تهريب المخدّرات، معلومات سرية. إن هذه الأمور توّحد أعداءنا. والآن، فإن حظنا الجيد، نحن الثلاثة، يكمن في أننا نشترك في سرّ واحد. لا تستطيع أن تتخيّل يا نيكولاس كم مرة، عندما كنت أصغر سناً، وثقت فيها بأصدقاء كنت أظن أنهم كتومون، لأستيقظ بعد ذلك من أوهامي البريئة على حقيقة الخيانة والطيش. لقد أعدت لي ثقتي، إنك تمنحني صداقة.

أنا وأنت وبيرنال، يوّحدنا سرّ واحد.

ويقف أمامنا الآخرون جميعهم مثل ممثلين في مسرحية. الرجل الذي يخدع ويخفي عواطفه الحقيقية: تاسيتو دي لا كانال. الرجل الذي لا يلتزم على الإطلاق بادعاءاته التي يتبجح بها: أندينو ألماسان. الرجل الذي يؤدّي عمله بمهنية عالية: باتريسيو بالافوكس. الرجل الذي لا يهمه إلا أن يصبح غنياً: فيليب أغويري. الرجل الذي يكشف جميع آثامه ولا يخفي شيئاً من طموحاته: سيسيرو أروسا. الجندي المحترف الغامض الذي من الممكن أنه يلعب على أكثر من حبل: موندراغون فون بيرتراب. وأخيراً، أخطر اللاعبين من بين هؤلاء جميعهم، الرجل الذي يجمع الضحايا كما يجمع الآخرون الطوابع: رئيسنا السابق سيزار ليون.

وأنت وأنا وبيرنال هيريرا.

ورئيس جمهورية يريد فقط أن يدّون أثره في التاريخ. لنساعده.

نعم، طبعاً، فالوسط الذي نعيش فيه تافه، بل حتى حقير. وبما أنه لا توجد لدينا حقيقة أخرى إلا هذه، فإن هذا الوسط قوي جداً. والآن، لنعد إلى نقطتي الأصلية، إذا كان علينا أن نتحرّك بسهولة في هذا الوسط، في هذا العالم، فيجب أن نتذكّر أن الكتمان والسرية أمران بالغا الأهمية. ففي

بعض الأحيان، قـد تكون المعلومات التي تقدمهـا والتي تتلقاها مـفيـدة لعدوك أكـثـر مما تفيـد حليـفك. وما إن تخـرج هذه المعلومات، حـتى تدرك أنه لم يكن عليك أن تفـضي بها. في بعض الأحيـان، يخيّل إليّ أنك ساذج قـليلاً. إذ إن قلبك يرقّ عندما تتعامل مع أشخـاص بسيطين - السكرتيرة المهانة، عاملة المكتب التي خدعوها وسلبوا مـالها، موظف الأرشيف الذي لا يوجـد له أمل... تذكّر، إنـنا لم نولد لنعـيش مع الفقـراء أو لنعيش كالفقراء. يجب احترام الفقراء... لكن من بعيد.

إني جـادّة في مـا أقـول. لا تـكن شـديد الإخـلاص مع شخص فقـير، لأنك في المقابل لن تُعامل إلا باحـتقار يوازيه، وهو أمر لا يسـتطيع السياسي أن يـتحمله. لا تدعـهم، بسبب ضعف قلبك المتعاطف، يعاملونك بمثابة ندّ لهم. إنك لست نداً للأشخاص الذين هم دونك. إنك لست مساوياً لهم. احسب. تلاعب. إذا لم تـتـصـرّف بدهاء، إذا خنت، أو لـم تلق بالاً باتفاقنا، فـإننا سنضيع جـميعنا وسـتضيع أنت أيضـاً. ستكون نهايتك المهنية. وهذا ما يحبطني.

تذكّر ما وعدتك به. انتظر. احسب جيداً.

32

من ماريا دل روزاريو غالبان إلى بيرنال هيريرا

عزيزي، لقد أسدى لنا صنيعتي نيكولاس بالديبا خدمة كبيرة. فـقد وقع الذئب في الفخ وهو لا يـعرف ذلك بعـد. لقد أصـبح تاسيتو بقبضتنا. لكنه قد ينزلق من بين أيدينا إذا ترددنا في التصرف. راقب المشهد السياسي الذي أخذ يتشكّل. يحاول سيزار ليون الشرير أن يقنع رئيس الكونغرس، أونيسمو كانابال، بأنه لا يزال هناك وقت لتغـييـر الدستور وإصـلاح القوانين المتـعلقة بخلافـة الرئيس إذا لم يتمكن الرئيس من القيام بواجباته أو إذا مات.

إنه يرى أنه بدلاً من أن يُـسـتـبـدل برئيس مـؤقت خـلال السنتين الأولين من ولايته (التي أكملها الرئيس تيران) أو برئيس بالوكالة خلال السنوات الأربع الأخيرة من الولاية (كما هو حال الرئيس الحـالي)، التي يجري التـصويت على كـلا الأمرين في مجلس النواب والكونغرس، يجـب أن يتسلم رئيس الكونغرس (في حالتنا، أونيسمو كانابال) المهام التنفيذية بشكل آلي.

ماذا يريد رئيسنا السابق سيزار ليون؟ إنه لا يتبوأ منصبا انتخبه الشعب - وحسب ما يقوله أعداؤه، فإنه لم يفعل ذلك على الإطلاق. إنه يمقت تاسيتو دي لا كانال. إنه يخشاك ويحتقرك. أما أونيسمو فهو حمار يسمح لنفسه بأن يتلاعب به في هذه المرحلة الانتقالية. مرحلة انتقالية إلى أي شيء؟ قد تسأل. أظن أن سيزار ليون يعرف شيئاً لا أعرفه أنا ولا أنت. إنه يحتفظ بسرّ. إنه سياسي بالفطرة، لا ريب في ذلك. أما الشيء السيء عنه فهو أنه مثل الشمع الطري. إنه يستطيع أن يقولب نفسه في أيّ شكل، يستطيع أن يتكيّف مع أيّ وضع جديد ومع أي حاجة تظهر أمامه. يجب أن تدرك، يا بيرنال، أن هذه حرب أسرار. فلدينا، أنا وأنت (وبالضرورة بالديبا)، سرّ يمكنه أن يسقط تاسيتو ويجلب لك النصر. لكننا إذا كشفناه في وقت مبكر، فسيكون أمام تاسيتو الوقت الكافي ليعدّ دفاعاته. أظن أنه سيكون قادراً على أن يأمر بقتلك. وماذا تكسب يا بيرنال، ماذا تخسر، إذا تكلمت أو إذا لم تتكلم؟ إنها مسألة توقيت. ستفوز إذا تكلمت في الوقت المناسب. وستخسر إذا تكلمت في الوقت غير المناسب. أظن أنه لديّ الحلّ. بعد يومين سأزودك بالمعلومات اللازمة.

ملاحظة: بالنسبة للمصحة، ليس من اللائق أن أرسل لك إشعارات وفواتير. في هذه الحالة، يجب أن أكون الوحيدة التي تظهر في المراسلات. يجب ألا يساورك أي شكّ.

33

من نيكولاس بالديبا
إلى ماريا دل روساريو غالبان

أشكرك على رسالتك يا سيدتي. وإني أتساءل إن كانت ساعة حصولي على جائزتي قد أزفت. لقد أعربت لك عن حبّي بكل وضوح. لقد طلبتِ مني أن أكون جديراً، إن لم يكن بحبّك، فبسرّك. هل يفضي أحدهما إلى الآخر؟ أحياناً تجعلينني أتساءل إن كان الفراق يوّحد الأحبة أكثر مما يوحدهما وجود أحدهما إلى جانب الآخر. إني أواسي نفسي بالتفكير بأن الحبّ يأخذ أشكالاً عديدة ومختلفة، والهدايا تحتاج إلى الكثير من التحديات، مثل أيّ شعور حقيقي آخر. إني أتقبل أي شيء منك، إلا اللامبالاة. وإني أتساءل إن كنت أستحقّ جائزتي الآن: أن أرفع الكلفة في كلامي إليك.

34

من ماريا دل روساريو غالبان إلى نيكولاس بالديبا

أتريد جائزة يا حبيبي النافد الصبر؟ حسناً، ها هي. إن بيرنال هيريرا معجب بأعمالك العظيمة. بالإضافة إلى ذلك، فإنه يعتقد أن استمرارك في العمل في مكتب تاسيتو دي لا كانال ليس عديم الفائدة فحسب، بل خطر عليك. لقد كلّم الرئيس، وعُيِّنت وكيلاً لوزير الداخلية، الشخص الثاني بعد بيرنال هيريرا.

أكرّر. انتظر. احسب جيداً. وكن ممتناً.

35

من نيكولاس بالديبا
إلى خسوس ريكاردو ماغون

أريدك أن تعرف أنني عندما أختلس قليلاً من الوقت وأخرج من المكتب لكي أتحدث إليك، فإن ذلك يكون أفضل فترة في يومي. ومن حسن حظي، أن الدوائر الحكومية المكسيكية تتوقف تماماً عن العمل من الساعة الثالثة بعد الظهر إلى السادسة مساء، عندما لا يُرى موظف حكومي محترم في أي مكان إلا في مطعم فاخر، أو في غرفة خاصة إذا أمكنه ذلك. ويمسك بيده دائماً هاتفاً خليوياً ليرّد على المكالمات وهو متجّهم الوجه. ومن الغريب أن رقاب الناس لا تنكسر وهم يهزون رؤوسهم هكذا! أما الآن، وبعد أن حرموا من جميع الاتصالات، فلم يعد بإمكانهم عمل ذلك. وأصبح الآن المتطفلون الذين لا يكفون عن إزعاجنا يخرجون ويقولون أشياء مثل: «سيدي، لديك رسالة هامة عند الباب».

وبالطبع لا توجد رسائل. ففي غالب الأحيان، سيتبادل

الرجل المحترم المميّز بضع كلمات مع أحد باعة اليانصيب الذين يقفون عند أبواب المطاعم الأنيـقة. «مثل بنت الكوبة (في ورق اللعب)، بلادي، على أرضـيـة معـدنية، إنـك تعيش لليـوم، بالصدفة، مثل الياناصيب». احفظ قصيدة لوبيز بيلارد عن ظهر قلب، يا خـسوس ريكاردو: نحن المكـسيكيين، لم يعـد لدينا مرشد «معصوم من الخطأ ومتألق».

أقول لا توجـد رسائل اليوم، لكن لم تـكن هناك رسائل من قبل أيضاً. كانت المكالمات الهاتفية فصلاً مسرحياً لعرض قوة المرء.

إني أقول لك كلّ هذا بصدق شديد لأنني، مثلك تماماً، لا توجد لدي أوهام عـن طبقتنا السـياسـية. Plus ca change, oui.. مثلك تماماً، لقد مرضت وسئمت عندما يدعونني الجميع «مستشار» بمن فيهم الزبالون.

لقد سئمت جميع المستشارين المكسيكيين الذين يجرون في كل مكان. هل تصدق أن بعض من يأتي إلى مكتـبنا يخاطبون بينيلوب، السكرتيرة فـي المكتب، بالمستشارة من باب الاحـترام المزيف، ذلك التودّد، تلك المجاملة المبالغ فـيها؟ ومثلك، فإني أتمنى أن يتلاشوا جمـيعهم ويصبحوا مثل المستـشار فيدريرا في قصـة سيـرفانتس، لا لكي أتمكن من الرؤية من خـلالهم، بل لكي أسـتطيع أن أفعل لـهم ما كـان يُفعل لـتلك الشخـصيـة الشهيرة، التي كانت تظن أنها مصنوعـة من الزجاج: تهشيمها إلى ألف قطعة.

لذلك، لأني أعرفك، ولأني أعرف مثالياتك التي أشاطرك الكثير منها، لماذا أدعوك الآن للعمل معي في مكتب الرئيس، في لبّ ثمرة الأرضي شوكي؟

لا أجرؤ أن أخبرك هذا شخصياً مرة أخرى لأنني عندما ذكرتها أول مرة منذ بضع أسابيع، هاجمتني بوحشية شديدة، انقضضت عليّ، وأمسكتني من عنقي بإحكام، وأحسست بقوتك الشابة العنيفة، وشممت رائحة عرقك الذكورية، وكنت خائفاً منك، يا خسوس ريكاردو. لا أعرف أن قولي لك ذلك يطريك أم يرعبك. لا يهمّ. لقد شممت رائحة عرقك المفعمة بالشباب. لقد أعمتني خصلة شعرك الحرونة المتمردة المراهقة الطويلة.

قلت لك: «إلى متى سيدوم شبابك برأيك؟ ألا تعرف أن الرجل العجوز ذا الشعر الطويل يدعو إلى الضحك أو الشفقة؟ ألم تر أولئك الهبيين الذين كانوا يجرون أجسادهم الضامرة بتحدٍ في أحياء الطبقة الوسطى التي انتهى بهم الأمر فيها في نهاية المطاف، وهم يبحثون عن سان فرانسيسكو في الستينيات من القرن العشرين التي لم يكن لها وجود، وقد تشابكت وتدلت قلائد الخرز المتعددة الألوان حول رقابهم، ويسحبون أقدامهم في صنادلهم القديمة إلى السوبر ماركت؟»

كان ينبغي للكتاب المقدس أن يضيف في سفر «الجامعة» أنه لا يوجد وقت للحياة ووقت للموت فقط، بل هناك كذلك وقت يكون فيه المرء ثائراً ووقت يكون فيه محافظاً. هل قرأت كتاب

«آهتي الأخيرة»، السيرة الذاتية للويس بوفيويل؟ إني أوصيك بقوة أن تقرأ ذلك الكتاب. ففي ذلك الكتاب، يدرك الفنان السينمائي الرائع - من بين عظماء العالم - ويكتشف ميوله الفوضوية كما فعلت أنت، ما عدا أنه يعتبرها أفكاراً رائعة لكن يستحيل تطبيقها. فجّر متحف اللوفر! من الناحية النظرية فهو شيء رائع، أما من الناحية العملية، فهو شيء أحمق.

إنك لا تزال تؤمن بأن الأفكار الثورية والممارسة أمران مترابطان. بأن الأفكار عديمة المعنى إذا لم نحوّلها إلى حقيقة. «لنكن واقعيين، لنطلب المستحيل»، قال المتمردون في باريس في أيار 1968 قبل أن يصبحوا جميعهم رجال أعمال، مهنيين محترفين، ووزراء حكوميين. . .

إنك تثير مخاوفي، يا خسوس ريكاردو. لا محالة أن الفوضوي المتعصب سيصبح إرهابياً. أقترح عليك أن تعيد قراءة كلّ تلك النظريات التي كنت قد ألقيتها عليّ خلال فترات بعد الظهر «السقراطية» فوق سطح بيتك الذي يطلّ على أقبح مدينة في العالم، مدينة الرمل، عاصمة المكسيك المليئة بالغبار، أكبر مكبّ للنفايات في العالم، ذلك المشهد البانورامي الرمادي البائس: الهواء الرمادي، الخرسانة الرمادية، الناس الرماديون. . . مملكة جامعي القمامة. عاصمة التخلف.

إن أفكارك المثالية نبيلة. مثل بطلك باكيونين، الأرستقراطي الروسي، الذي كان يتوقّع في كلّ مرّة يدخل فيها

بيته، بأنه سيفاجأ... من فوق سطح بيتك، الذي تحيطه الحمائم، تؤمن بقوة بأنّ المجتمع المثالي هو المجتمع الذي لا توجد فيه حكومة، ولا قوانين، ولا عقوبات.

«ماذا سيكون فيه إذن؟» أسألك بقلق واهتمام شديدين.

«مديرون، واجبات، وتصويبات»، كنت تردّ بذكاء.

«وكيف يمكن لذلك المجتمع الذي لا يوجد فيه أيّ هيكل مرئي من السلطة، أن يضع قيوداً على نفسه؟ كيف يمكن لمثل هذا المجتمع أن يدير نفسه، أن يؤدي واجباته والتزاماته، ويصحّح نفسه؟» كنت أسألك ذلك بنبرة كنت تعرف تماماً أنها لم تكن سوى نبرة حنونة مفعمة بالمحبة.

«بإلغاء الملكية»، تلقي ذلك في وجهي، مثل افتتاحية في صحيفة، شعار، راية، صفعة على الوجه.

«إن كل ما يفيض عن الحاجة هو من حقّ الناس الذين لا يملكون شيئاً»، أقول، ولا أحاول أن أتشاوف - ربما كنت تحبّ ذلك فيّ، لكوني صريحاً، مباشراً، وأن كلّ ما أريده هو أن أكون صادقاً معك...

«تماماً يا نيكولاس. إذا وزعت الثروة بالعدل والإنصاف وأعطيت كلّ شخص حقّه، عندها ستسود المساواة والسلام».

أنظر في عينيك الحادتين الاستفزازيتين. أشكّ في أنك

تسعى إلى السلام. ربما كنت تسعى إلى تحقيق المساواة، لا إلى استتباب السلام.

«ومن سيقوم بالإدارة؟» أكرّر.

«الجميع. كلّ شخص يحكم نفسه. ملكية جماعية».

«هل هذا ممكن في مجتمع ولد من العنف والجريمة؟» يقول نيكولاس بالديبا متحدياً، نصيرك الشيطاني.

«إنها ليست جريمة إذا كانت تؤدي إلى إقامة مجتمع لا توجد فيه جريمة، جمهورية من الأنداد».

كيف يمكنني أن أفوّت الفرصة بأن لا أبهرك باقتباس عظيم؟.

«اقطع حناجر المستبدين بدون رحمة، والأرستقراطيين، وأصحاب الملايين، وجميع اللا أخلاقيين الذين قد يعارضون سعادتنا المشتركة»

«إنك كتاب متنقّل من الاقتباسات، يا نيكولاس!» تقول بروح من الفكاهة.

«إنها جزء من طريقتي السقراطية فوق السطح، يا صديقي الشاب»، كم لطيف منك أن تبتسم لي.

«حسناً، شكراً لأنك اقتبست من بطلي، غراكوس بابيوف. لقد أنقذتني من الورطة».

أقسم لـك بأنك ابتسمـت، أنت الجدّي دائماً، يـا عزيزي خسوس ريكاردو ماغون.

«أخبرني يا ماغون. لقد ولدت الفوضوية في القرن التاسع عشر لمحاربة الآلة الصناعية. ماذا ستحارب أنت؟ الكمبيوترات؟ ألم يشنّ ماركوس ثورة صغيرة على الإنترنت؟»

هنا صدرت منك ضحكة مكتومة.

«يمكنك أن تسـتعيـر حمائمي يا نـيكولاس. أعرف أنه لا يوجد لديك شكل آخر من السعاة».

«هذا صحيح. يجب أن أكون ساعي ذاتي. يجب أن أسلّم رسائلـي باليد، لكنني لا أسـتطيع أن أتلقى منك رسالـة- تماماً كما لو كنت سياسـياً من أيام الحزب المؤسسي الثوري: لا شيء مدوّن».

لقد سألت بعينيّ قـبل أن أقول: «وهل تعرف الرسالة التي أنوي أن أرسلها بواسطة حمائمك الصغيرة؟» أجبت عن سؤالي بشدة في اللحظة التي سألتك فيهـا: «أنه لا يوجد ثمة فوضوي لا يصـبح إرهابياً في نهـاية الأمـر. إن رفض السلطة، والإيمان بقيام مجـتمع مثالي عن طريق الثورة أفكار جمـيلة للغاية حتى تبدأ العمل فيها».

أشرق وجهك، أضاء، أنت المؤمن بالتغيير الثوري.

«لا يمكنك أن تنكر جمال الثورة»، قلت بجدية مرة أخرى.

«حتى لو كانت النتائج مروّعة؟» أجبت بذلك القول المناقض الذي تضطرني لأن ألوّح به كلما تجادلنا.

«هل تجد المساواة مرعبة؟» سألت على نحو ثقيل الظلّ.

«لا. أستطيع أن أكرّر أن مشكلة المساواة لا علاقة لها بالتغلب على كبرياء الأغنياء، بل بالتغلب على أنانية الفقراء».

«هل تعرف ماذا يعجبني فيك؟ إنك تغضب دون أن تشتم وتسبّ. إنك تكظم غضبك في داخلك. لذلك أجد أنك أخطر من شخص ينفجر غضباً وعنفاً، سواء كان لفظياً أو جسدياً».

تتطلع إليّ وتعرف أنني أعرف. إني أفهمك. وإن كنت أكرّر حديثنا لك، فإن ذلك لأنه يوجد لدينا، رغم اختلافاتنا السياسية، أنا وأنت، إيمان مشترك بالكلمة.

أسألك أين تكمن العظمة في حوارات أفلاطون الذي يُعتبر أساس الخطاب الإنساني في عالم غربي متحرر من الاستبداد الشرقي؟ في الحقيقة أنها تجعلنا، أنا وأنت، نتحدث فوق سطح بيت في مكسيكو سيتي في عام 2020. إن الثنائي سقراط وأفلاطون الذي يحوّل متحدثين عشوائيين إلى رفيقين في زمان ومكان آخر - بدون الكلمة - لا وجود له على الإطلاق. وإذا لم يكن لدينا هذا الزمان والمكان الذي نشترك فيه، لما عرف

أحدنا شيئاً عن الآخر. بل ما كنا عرفنا أن لأحدنا وجودًا. كان أحدنا سيكون غريباً عن الآخر، مثل سفينتين تمخران عباب البحر في الليل، غريبين يتجاوز أحدهما الآخر في جادة الصامتين العظيمة.

ما الذي يوحّد هذا الزمان والمكان الذي نشترك بهما، يا خسوس ريكاردو؟

الكلمة، إن الكلمة هي التي تجمعنا معاً لدقيقة ثم تفصلنا وتمزّقنا في الدقيقة التالية، تلك الكلمة، سواء كنا صديقين أو عدوين، تكتسب في نهاية الأمر معنى مستقلاً. وإن ذلك اللقاء العابر هو الذي يحركنا، يا صديقي الشاب والمحبوب، في هذا الرواق الملوّث على نحو يائس، المغطى بزرق الحمام، لنلفظ الكلمة التالية، عارفين أنها ستنزلق أيضاً من قبضتنا وتدخل إلى دنيا العقل العظيمة الذي يغمرنا.

«لا تتوقف عن الكلام أبداً. لا تقل الكلمة الأخيرة أبداً».

قال أفلاطون إن الكتابة هي قتل الأب لأنها تدل على غياب المتحدّث. وهكذا إذن، فما دمت أكتب لك، فإن ذلك سيكون قتلاً للأخ. وفي اليوم - الذي سيكون بعيداً إن لم يكن مستحيلاً - الذي تكتب لي فيه، يمكننا أن نبدأ الحديث عن قتل الأب. قتل الأب: تكاد سنوات تسع تفصل بيننا. وأنا ألعب حالياً دور ميفيستوفيليس المنحرف، الذي يقدم لفاوست الشاب فرصته في أن يصبح عجوزاً.

هل قرأت رواية «فـرديدورك» رائعة غومـبرويتش، الرواية البولونية العظيمة في القرن العشرين؟ إنه يقول إن الإنسان كلما تقدم في السن، ازداد فساداً. إننا نقتل مزايا المراهقة عندما نكبر في السن. إننا نقتل الشـباب بإفساده عندمـا يكبر. لكن بما أننا لسنا، حتماً، وحدنا في شبابنا، ينتهي بنا الأمر أن يخلق أحدنا الآخر، نجـازف بأن نخلق أنفسنا من الخـارج، مشوهين وغـير حقيقيين. «أن تكون رجلاً يعني أن لا تكون نفسك». إن كنت تريد أن تنظر إلى علاقتنا بهذا الشكل، فليكن ذلك. دع نفسك تصبح فاسداً بعض الشيء.

إنك تقول: «أن تكون فاسداً جزئـياً أشبه بأن تكون عذراء جزئيا». إني أعيد وأكرر عليك هذا الشيء.

لا تسـتطيع أن ترفض ما لا تعـرفه. ضع أفكارك مـوضع الاختبار.

هذا هو القياس الوحيد للنزاهة الثقافية التي تعظ بها. ليس من الضروري أن تلتزم بأيّ شيء. تعال واعمل معي في مكتب الرئيس - حيث سترى «بطن الوحش»، كما قال خوزيه مارتي عندما كان يعيش في الولايات المتحدة. وليس من الضروري أن تضحّي بأفكارك. في الحقيقة، سترى كم ستكون مرنة وطيعة. كلّ ما عليك أن تضـحّي به هو مظهرك. فـلا يمكنك أن تعمل في لوس بينوس بشعرك الطرزاني. يجب أن تقصه. لا تستطيع أن تذهب إلى العـــمل ببنطال الجـينز الأزرق. لـكن لا يتـعين

عليك أن تكون مفرطاً أيضا. فلا تلبس ثياباً مثل ثياب العاملين في المكاتب من الطبقة المتوسطة السوقية مثل هوغو باترون، صديق أختك الصغرى. ليكن أرماني أعز أصدقائك. سأتولى أمر ذلك. احزم أمرك، يا وريث المدينة الفاضلة. ابق معي. دعني أنقذك من لغتك العاجزة التي لا يمكن أن تؤدّي إلا إلى ارتكاب عمل إجرامي عندما يحلّ اليأس.

إني أطلب منك هذا كاختبار مزدوج.

الأول، اختبار لأفكارك. إذا لم تضع أفكارك موضع التحدي فإنك جبان أيديولوجي.

والثاني، اختبار لصداقتي التي تزداد عمقاً كل يوم يمر. إني أحبك وأشتهيك كما أنت - إنك تعرف ذلك. لكن أيضاً لأنني أرى نفسي فيك. لا نسخة مطابقة من نفسي بل كائناً منفصلاً مشابهاً. إني أعترف أن حبي لك يعني أن أحبّ نفسي. وأحبّ نفسي كما أرغب في أن أكون. إني أحبّ النساء. أحبهن بقوة كما أحبّك. ففي النساء أُصدم دائماً برؤية الشخص الذي ليس هو أنا. إني أرى الآخر وهذا ما يذهلني. لهذا أعشق النساء وأسقط، مرة تلو المرّة، في هاوية عشق النساء. إن عشق الجميع شيء مختلف. معك، يا خسوس ريكاردو، أشعر بأني أستطيع أن أحبّ نفسي كما أريد أن أكون محبوباً من نفسي.

ادرس عرضي. فإن هذه البوابة، ليست ضيقة كالبوابة في الكتاب المقدس.

36

من ماريا دل روساريو غالبان إلى الرئيس لورينزو تيران

صديقي العـزيز والقديم، لقـد آن الأوان لكي نطلق كلاب الحـرب. لم يعـد بالإمكان تأجـيل اخـتـيـار الشـخص الذي سيخلفك في رئاسـة الجمهورية. إن عودة رئيسنا السـابق سيزار ليـون ما هي إلا جـزء في الآلية المزيّتـة جيـداً في ديمقراطيـتنا الانتخابيـة. لكنها ليست الآلية الوحيدة. إذ إن ليـون يتآمر مع رئيس الكونغـرس ليعلن أنك غـير كفء كي يتـمكن أونيسـمو كـانابال نفـسـه من أخذ مكانـك، وليدفع بـعمليـة الإصـلاح الدستوري التي تسمح بإعادة انتخاب، إحزر من، سيزار ليون. ومن الناحية الأخرى، فإن تعديل الدستور يحتاج إلى وقت: إن الحصول على أغلبـية الأصوات يستغـرق ما لا يقل عن سنة في جمـيع ولايات الفيـدرالية. ولا يمكن حـدوث ذلك إلا بعد أن يصادق ثلثا أعضاء الكونغرس على التعديل.

إذن لا بد أن سيزار ليون يخـبيء ورقة أخرى. ما هي، لا نعرف. وهنا تكمن، يا صديقي، نقطة ضعـفنا. يعتريني شعور

بأن ثمة شيئاً يكمن وراء تعديل الدستور. سنتلقى الضربة الحقيقية من اتجاه آخر. لا شك في ذلك. وكن على أهبة الاستعداد.

إن إنفاق وقت طويل، يا سيادة الرئيس، يعني الكثير من الهدر. تأكد أنه ما دام البيدق في هذه اللعبة، أونيسمو كانابال، يتبع نصيحة سيزار ليون، فإن ليون هذا سيخيفنا وسيحصل على كل شيء. ما هي هذه الأشياء؟ لا أعرف، لا أعرف، يا سيادة الرئيس. النصيحة الوحيدة التي يمكنني أن أقدمها لك، من رأسي ومن قلبي، هي أنك يجب أن تتصرّف. الآن. امض شوطاً يسبق اللعبة. اعقد اجتماعات منفصلة مع الشخصين الطموحين اللذين سيخلفانك، تاسيتو دي لا كانال وبيرنال هيريرا. اطلب منهما أن يقدما استقالتيهما، أن يعلنا ترشيحهما، وأن يبدا حملتيهما.

لن يكون أمامهما خيار آخر سوى أن يفعلا ما تقوله لهما. وإذا ترددا، اعزلهما من منصبيهما. سترى كيف سيستمعون إليك، يا سيادة الرئيس. يقول لي حدسي الأنثوي إن هذا كلّ ما يجب أن تفعله إن أردت أن تفوز في هذه الجولة على رئيسنا السابق الحاذق.

ماذا كنت أقول لك دائماً، يا سيادة الرئيس؟ إن عدم اتخاذ القرارات هو أسوأ من ارتكاب الأخطاء. اتخذ قرارا. تذكّر، لا توجد بدايات في السياسة. لحظات فقط. والقدرة على الإمساك بها قبل أن تفلت منك. بمعنى آخر، يجب أن تكون

مخادعاً. مخادعاً بأي معنى؟ قد تسأل. حسناً، لقد أظهرها وزير الداخلية في وزارتك في جميع الظروف التي تمر بنا حالياً. إما أن تعالج المشكلة أو أن تدفنها. إن ما لا تستطيع أن تفعله هو أن تترك طلباً دون أن ترفضه أو تقبله. ربما قلت، بحق، إن عدم البت بحزم في مسألة إضراب طلاب الجامعة يعني أن المشكلة عصية على الحل. لكن عدم البت في الأمر، كما ترى، هو الحلّ تماماً: لا تتوصل إلى أي حلّ، حتى تجعل جميع الأطراف يشعرون بالتعب والملل. ومن الناحية الأخرى، تكون قد أبقيت المستثمرين سعيدين بسياساتك، بعد أن تكون قد هدأت اضطرابات العمال بسبب الحاجة - حاجتهم إلى الأكل- وفي الوقت نفسه، فإن السماح للفلاحين بنصر لا معنى له سيكون هزيمة للزعماء المحليين الذين يعتمدون دائماً على علف المدفع، الفلاحين العبيد الذين تقيدهم عقود كثيرة. حسناً. إن ما نواجهه الآن، يا سيادة الرئيس، هو اختبار سياسي محض.

من سيخلفك في انتخابات عام 2024؟

ما القوى التي سيعتمد عليها؟

من سيتحدّاه؟

ولا تدع نفسك تتساءل مطلقاً، من سيكون الأكثر ولاء لي؟

الجميع، يا سيادة الرئيس، سيخونونك. حتى - وإني أقول لك ذلك لكي ترى مدى صراحتي وصداقتي - الرجل المفضل لدي للخلافة...

37

من بيرنال هيريرا
إلى الرئيس لورينزو تيران

سـيـادة الرئيس، صـديقي العـزيز، أكـتب إليك في هذه الظروف الجديدة وغير المتوقّعـة، التي يجب أن تبدو لك طبيعية نوعاً ما، بما أنك لا تجيب على الرسائل أبداً، بل تتلقاها فقط. أظن أنك لا تسمح لأي شـخص آخر بقراءتها، لذلك سـأكون صادقاً للغاية معك. إذ لا يستطيع أي من مساعديك أن يتحدث أبدًا عن الرسـائل المرسلة إليـك، لأنها تـكشف قلة فطنتـهم، وتثبت أنهم غير جديرين بثقتك.

أقول لك ذلك لكي لا تفـاجأ بصـدقي وإخلاصي. دعني أكـون مرآتك، عـزيزي الرئيس. إنك تعـرف ما يقـوله الناس عنك. إن السلطة تجعل أكثر البشـر قباحة يبدون جذابين. لكن توجد لدينا مرآة داخلية من السلـطة نستطيع أن نرى من خلالها أنفسنا ونحن خائفون، متعبون، قلقون. وعندما ترتد هذه المرآة من الداخل إلى الخارج، نجازف بأن يفكّر الناس، باللا مبالاة،

والإعياء، والحيرة، والخوف - بل وحتى أسوأ، هذا ما يريده الرئيس، هذه هي صيغته في التمسك بعرش النسر. إنه رئيس خامد يحكم بواسطة العطالة.

أقول لك دائماً إنه يجب على المرء ألا يجعل شكوكه الداخلية مرئية. ستقول إني أتبجّح وأرسم لوحة عن الفضائل والمزايا التي تتيح لي أن أخلفك في تبوأ عرش النسر.

قد يكون الأمر كذلك، يا لورينزو. قد تكون محقّاً.

ومع ذلك فإني أنقل لك حقيقة مفيدة، لا تتعلق فقط بالخلافة والحملات الوشيكة على الرئاسة، بل كذلك فيما يتعلق بالسنوات الثلاث التي لا تزال لديك في منصبك. إنك لست استثناء للحقيقة التي تقول بأن كلّ رئيس دولة يجب أن يختار من بين الدروب العديدة الممكنة، وأنه دائماً موجود عند مفترق طرق، تدفعه قوى مختلفة من هنا ومن هناك.

«امض في هذا الطريق».

«لا، من الأفضل أن تمضي في ذاك الطريق».

لا توجد قوة أقوى من القوة الداخلية للرئيس نفسه. ومع ذلك، ليس من السهل تحديد هذه القوة، وتعريفها، والتصرف بناء عليها لأن الشيء الذي لا يطاق عندما يكون المرء رئيساً هو أن الجميع ينظرون إليك وكأنهم يستطيعون أن يروا مصيرهم في

وجهك. وخاصة الوزراء! ولسوء الحظ، يعتقد معظمهم بأن الرئيس يكافيء على الولاء أكثر مما يكافيء على القدرات.

أعيد وأكرّر: لا أتحدث هنا لكي أتفاخر بنفسي. أنا لا أتكلّم pro domo sua. إني أعبّر عن نفسي بشكل افتراضي. إذ يميل المكسيكيون لأن ينحوا باللائمة في كلّ شيء على «النظام»، مهما كان ذلك «النظام». إنهم لا يلومون أنفسهم أبداً، لا كشعب ولا كمواطنين. لا، إنه دائماً عيب «النظام»، ورئيس ذلك النظام هو الرئيس. إحدى القواعد غير المدونة في نظامنا المبارك - منذ زمن سحيق، منذ زمن المستعمرات - هي أن تكديس الثروة مسموح به عندما يكون المرء في السلطة لسبب واحد وتحت شرطين اثنين.

السبب - وهو سبب خفيّ، لا يتحدث عنه أحد - وهو أن الجميع يعرفون أن الرشوة «تشحّم»، أو إن كنت تفضّل، «تزيّت» النظام. إن الرشوة تجعل النظام سلساً وفعالاً، دون الاكتراث بالآمال الطوباوية المتعلقة بوجود العدالة أو عدم وجودها. وفي جميع الأحوال، ليست المكسيك هي البلد الوحيد الذي يحتكر الفساد. لا أعرف إن كنت تتذكّر عملية «الأيدي النظيفة» في إيطاليا، وفضائح بانيستو وماتيسا في إسبانيا، والفساد المزعوم للمستشار هيلموت كول في ألمانيا، أو أصدقاء مارغريت تاتشر العذراء في إنكلترا، هذا إذا لم نتحدث عن فساد الشركات في الولايات المتحدة - قضية إينرون، التي

أعقبتها قضية شركة ورلد كوم، ثم هاليبورتون، وإلى ما هنالك، التي لم تكشف جميعها الرئيس بوش (الابن، الرجل الجاهل بكل معنى الكلمة، الدمية التي تتكلم من بطنها)، لكنها بالتأكيد كشفت دائرته الداخلية وصلاتها بعالم المال والبترول . . .

هل هناك حاجة لكي أواصل كلامي؟ لكن يوجد فرق في المكسيك. فبينما يُعاقب مرتكبو الفساد في أوروبا أو في الولايات المتحدة، تتم مكافأتهم أو تجاهلهم في أمريكا اللاتينية. دعني أقدم لك مثالاً كلاسيكياً آخر، يا رئيسي وصديقي العزيز. لنفترض أن السيد سين فاسد وقد قبض عليه متلبساً. هل من الحكمة معاقبته؟ أيهما يجب أن يأتي أولاً، العدالة أم المصلحة؟

يجب على أي نظام سياسي، مهما كان، أن يحمي أصحاب الامتيازات، والأكثر أهميّة، أن يحمي المجتمع نفسه. فبما أنه لا توجد سياسة بدون أوغاد، لا يوجد مجتمع بدون شياطين. ففي بعض الأحيان، إما التسامح إزاء الخطايا أو التستر عليها، لا لحماية الدولة بقدر ما هو لحماية المجتمع من سلطاته الشيطانية.

يقولون إنك منعزل تماماً، وإن عزلتك جعلتك تتخيّل أفضل وأسوأ ما يوجد في الآخرين. وكما تعرف، فإن النتيجة

السياسية الصافيـة، هي أن كل مرؤس من مرؤسيك يفسر عدم القـدرة على النفوذ إلى الرئيس بطريـقته الخـاصة، لذلك فـهم يتقاتلون فيما بينهم. ففي حين تسـتمع إلى ما تشير إليه بصوت منخـفض «إني أحـتاج إلى الانعـزال لكي أتمكن من الـتفكيـر والتـصـرف بشكل صـحـيح»، فـإن المقـربين منك يتـقـاتلون ويتشاجرون مع بعضهم البـعض. ألا ترى الفرصة العظيمة التي تتاح لك عندمـا تحين فترة الخلافة الرئاسـية؟ فجمـيع الخلافات والتنافس بين أتباعك، التي تشجعها سلبيـتك المفترضة، ستتيح لك أن تصبح الحكم.

لا تخـدع نفـسك، يا سـيـادة الرئـيس: إذ يرى البلد أن سلبيتك عيب. لنكن صريحين، فقد فقدت سلطتك. أما الآن، إذا عقدت العـزم وركزت على الأمر فإنك تستطيع أن تسـتـعيد بعض النفـوذ والقـوة. اربح مـعـركـة الخـلافـة على الرئاسـة الجموحـة. إن الشيء الذي يعتبره الجميع أعظم عـيب فيك قد يصبح أعظم ميزة لديك: اقتحم القلعة دون أن توقظ الكلاب.

اعذرني لقولي ذلك، لكن لا تكتـرث بما يقوله لك سينيكا عندمـا ينصحك بأن تسـير بـين الناس مثل ملك يرتدي ثيـاب شحاذ.

تذكّر أنك إذا فـتحـت نوافذ القـصـر فإنـــك ستُدخل شمـساً مضيـئة وريحاً شـديدة. سينبهـر الناس، لكن الحكومة

ستصاب بالزكام فقط. أبق حبة الأسبيرين ودواء الزكام بالقرب منك.

أضف كذلك حقنة شرجية - ليس لك، بل لمساعديك غير المخلصين. وإذا لم تكن تعرف من هم بعـد، فإنك ستعـرفهم في القريب العاجل.

38

من تاسيتو دي لا كانال
إلى ماريا دل روساريو غالبان

رسالة قصيرة جداً يا سيدتي العزيزة. فكلّ ما يقال أو يكتب، أو أي مؤامرة، أو أي همهمة تجري في هذا البلد تمر عبر مكتبي. فأنا الشخص الذي، مثل المنخل، يعرف ماذا يدع يمر وماذا يمنع من وصوله إلى مكتب الرئيس. إني أعرف ما اكتشفتيه، أنت وعشيقك القديم بيرنال، وحبيبك الشاب بالديبا مؤخراً. أسرار كثيرة، علاقات حبّ كثيرة، كلّ ذلك عقّد السير على أطراف الأصابع. انتبهي. لن أدعك تفلتين دون أن تنالي عقاباً على ما تخطّطين له، بفضل أحلام يهذي بها موظف هرم في الأرشيف قابع في سرداب لوس بينوس. فلتسقط الأقنعة يا سيدتي. أو كما تقولين، يا من تعلمت على يد الضفادع: هكذا هي الحرب. لا تنسى نقطة ضعفك الصغيرة. إنك أكثر من مجرد امرأة سياسية. إنك أمّ. هل تريدين أن يخرج ذلك إلى العلن؟ بل الأسوأ، من ذلك، هل تريدين أن يعاني الفتى؟ فكّري في الأمر. إني مستعد دائماً لعقد صفقة.

39

من ماريا ديل روساريو غالبان إلى تاسيتو دي لاكانال

إنك محقّ يا تاسيتو. فلتسقط الأقنعة ولترتفع الستارة. أنت وبيرنال متنافسان سياسيان ويمكنكما أن تتحدثا بحرية إلى أحدكما الآخر. في جميع الأحوال، لن أفقد أعصابي كما فعلت أنت. بل سأستغلّ هذه اللحظة، لكي أطهّر نفسي، لأخبرك ببضع حقائق...

إنك تؤمن دائماً بالوصول إلى القمة مهما كلف الأمر، لكنك لم تحسب ثمن المعركة عندما كانت المعركة عديمة الجدوى. لقد نفدت ذخيرتنا الآن، وكان الرئيس جولتك الأخيرة.

كنت تعتمد على تزلّفك ومداهنتك لشراء تذكرة مجانية إلى عرش النسر. فقد شاهدتك البلاد برمتها وأنت تعامل الرئيس كما لو كان ميكادو ياباني لا يمكن لمسه. ماهي الصورة التي يمكنك أن تقدّمها إلى الناخبين، يا صديقي غير اللائق؟ من

لا يعرف أنك تزيح كرسي الرئيس كلما أراد الجلوس ليتناول طعامه، ثم تلعق الفتات المتبقي في صحنه؟ من لم يرك تقف خلف الرئيس وكأن واجبك الوحيد هو أن تحرس الإمبراطور، تحرص على ألا يلمسه أو ينصت إليه أحد؟ «دع شعر الرئيس وأظافره ينموان، وسأقلمهما لك سراً، دون أن يعرف، وهو نائم، ثم سأحفظهما في صندوق صغير...».

نعم، يا تاسيتو، مثل جميع الأشياء التي تحتفظ بها. مثل السلع المسروقة. تاسيتو، إنك متخصص في الكشف عن ماضي الناس القبيح. إني أعرف جيداً أنك جعلتني ضحية إفترائك ذات مرة، وها أنت الآن تهددني بأن تعيد الكرة. لكن ماضيك هو الذي سيطاردك الآن في منتصف الليل ويسرق النوم من أجفانك. لقد نقبّت في جميع الأسرار ماعدا سرّ واحد: وهو سرّك أنت. والآن، سينكشف سرّك الآثم، وأقسم لك يا تاسيتو، بأنه سيدخل الرعب إلى نفسك، وبضربة واحدة سنتخلّص منك إلى الأبد.

«لن يردعني شيء. تذكّر كلماتي. إن ما ستحاول أن تفعله لبيرنال ولي سيرتد عليك. أعرف ما تنوي عمله، فإذا لمست شعرة واحدة في رأسي، فإن العالم كله سيعرف ذلك. وحتى لو قطعت رأسي، فإن الدليل ضدك سيظهر إلى العلن، بتهمة أخرى - جريمة قتل».

هناك أناس وضيعــون وأشرار يعرفون الكثير، يا تاسـيتو. لكن هناك أيضاً أناس عظماء وطيبون يعرفون ما يكفي لإسكات صوتك العـالي النبرة الذي لا يطـاق والذي يجعلك تبـدو مثل كاهن رُسِّم حديثـاً. هل تعرف بمن تذكّرني بهذا الـصوت وبنية جسـدك تلك؟ بفرانكو، يـا عزيزي تاسيـتو، جـينيراليـسيـمو فرانسـيسكو فرانكو. لكن هذه ليـست إسبانيـا، ولسنا في عام 1936. لقد سقطت بسـبب الحيلة التي استخـدمها لورينزو تيران في إدارة وزارته. لقد جعل الجميع يعتقد: «أنت الشخص الذي اخترته. أنت خليفتي الطبيعي».

هل سبق ودخلت إلى رأس الرئيس؟ هل تمكنت من تخيّل ما يتصوره؟

تاسيـتو المسكين. لقد قـرأت جميع الرسـائل التي يتلقاها الرئيس من وزرائه، وقد بدأت تلمح إلى أنها جميعها تدل على خيانتـهم - إلى أن بدأ الرئيس نفسه يتسـاءل هل يمكن حقاً أن يكون جميع المقـربين إليه غير مخلصين له، إلا تاسـيتو دي لا كانال؟

أيها المسكين تاسيـتو. إنك لم تدرك أبداً أنك كلما تودّدت إلى الرئيس أكثر، ازداد احتقار الشعب لك - وقلّت ثقة الرئيس بك، علمـاً، أنه في هذه البـلاد، فإن الحـصان الذي تسـميـه الإمبراطور سيركلك حتى الموت.

تاسيتـو المسكين. لا أضمر لك في أعماقي أيّ نية سـيئة. بل إني لا أحبّـك. وبدقة أكبـر، أريد أن أراك ذليلاً، مـهاناً. منفياً، غنياً، لكن ذليلاً.

سأضرك يا تاسيتـو، أقسم بذلك، ولن ينتابني أدنى شعور بوخز الضـمير، أو أي إحسـاس بالذنب لأني أحتقـرك. ومرة أخـرى، ربما يجب ألا أكـون حـرة كثـيـراً بازدرائك. فـهناك الكثيرون الذين يستحقونها أيضاً. الوداع.

ملاحظة: عندمـا تسرق في المرة القـادمة، كن أكثـر ذكاء قليلاً.

40

من الرئيس السابق سيزار ليون إلى أونيسمو كانابال (رئيس الكونغرس)

مرة أخرى، أقف موقف المهاجم، يا صديقي المبجل. وأنا هنا لكي أذكّرك بتلك الأيام التي كنت فيها - مجازاً طبعاً - في الحمّام السياسي ومنشفة على ذراعك ويدك ممدودة، تأمل أن ينفحك أحد بقشيشاً. من الذي أخرجك من هناك، وجعلك خادماً في اجتماعات الحزب، ومن ثم «الرجل الذي يحمل الميكروفون» في الاجتماعات، الشخص الذي يطلب الالتزام بالنظام، انتباه...؟

«إنه لمن دواعي سروري العظيم أن أقدم لكم حامل الشهادة الجامعية سيزار ليون المحترم، المرشّح للرئاسة.»

ومن هناك ارتقيت إلى اللجنة التنفيذية للحزب، ومن ثم إلى المنفى الذهبي لتصبح سفيراً في لوكسمبورغ، حيث توجد لدينا مصالح كثيرة (لا تضحك - فلا أحد يسخر من تلك الحسابات المصرفية في لوكسمبورغ) وقد أنجزت التزاماتك مثل

الوصي الصغيـر الوفي كدأبك. أما الآن، فقد أصبـحت عضواً في الكونغرس للمرة الثالثة علـى التوالي ورئيساً للكونغرس. يا إلهي، يا دون أونيســمو، كم ابتعدنا عن أيام حـوض المرحاض تلك. يجب أن يكون المرء ممتناً، ألا تظن ذلك؟ وقد أثبتّ أنك تساوي أكثر مما تساوي مدينتـك الأصلية كامبيتش - لماذا، إنك ما يدعـونه كامبيشـانو حقيقـيًا، لطيفًا، وبـالتأكيد فإن الجـميع يحبونك.

لكن لا زال عليك أن تتعـامل مع عدوك اللدود أومبـيرتو فـيـداليس، الذي يسـمّى «اليـد السـوداء في ولاية تاباسكو». بالطبع، قد تكون تسميته «رأس أفعى الهيدرا» أكثر دقة - اقطع رأساً من رؤوسـها لينمو مكانه مـائة رأس. وهو يدعو الرؤوس المائة هذه بفخـر شديد «أبنائي الأشـرار التسعـة». بمعنى آخر، سلالة حاكمة شريرة. إن تاباسكو أفضل في ذلك من أيّ ولاية أخـرى، إذ توجد خطط لليـد السـوداء ومؤامـرات حتى عـام 3000.

كما أنك تتحمل، يا أونيسمو، مسؤولية أن اسمك الأخير يشبه اسم رجل قوي آخـر في تاباسكو، الحاكم المتصلّب الذي يناهض رجال الدين، توماس غاريدو كانابال. قد تتذكّر ما قاله عنه غونزالو ن. سانتوس، الاسم الآخر في قائمتنا الطويلة من أسماء الرجال الأقوياء: «لديه بيضتا ثور».

وكانت البيضتان هما كل ما كان يحتاجه عندما طرد جميع القساوسة عن بكرة أبيهم خارج تاباسكو، وأغلق جميع الكنائس، بل وحتى منع الصلبان في المقابر. وكان دون توماس يكره القساوسة إلى حد أنه منع أهالي تاباسكو من القول أديوس «وداعاً» وجعلهم يقولون عوضاً عن ذلك «أراك لاحقاً» (Hasta luego).

إن سرّك محفوظ في بئر عميقة لديّ يا أونيسمو. أعرف أنك انتقلت من تاباسكو إلى كامبيتش هرباً من قبضة اليد السوداء وأبنائه الأشرار التسعة، لكي تتمكن من إنشاء قاعدتك الخاصة بك، لأن أحداً لا يستطيع أن ينافس اليد السوداء. ذهبت إلى كامبيتش لتخلق جحيماً لمنافسك فيداليس، ولتهرب من طيف غاريدو كانابال.

نعم، يا عزيزي أونيسمو، لقد بذلت ما بوسعك حتى تهرب. لكن، لسوء الحظ، لا يستطيع المرء أن يتوارى عن قدره، لأنه يقبع في روحه - القضية لا لعلاقة بها بالجغرافيا، وقدرك يا أونيسمو هو أن تخدم الرجل الذي حماك والذي ما زال يحميك من كراهية وبطش فيداليس اليد السوداء الحقودة. الشخص الذي حماك في الماضي، والذي يستطيع أن يحميك في المستقبل، صديقك سيزار ليون.

لنر كم أعرف عنك. إنك رجل محايد سياسياً. إنك تفضّل الطاعة على المجادلة. إنك تفضل دائماً أن تُخضع نفسك

للسلطة الحقيقية على أن تخضعها للقاعدة الشعبية. وإنك تتمتع بفضيلة هائلة، يا أونيسمو. إنك سياسي من عهد ما قبل التاريخ، وقد أصبحت الحياة العامة بالنسبة لك أشباحاً متعاقبة كانت ذات أهمية ذات يوم، أما الآن فقد أصبحت مجرّد ظل في كهف كاكاهواملبا الأفلاطوني الذي هو ذاكرتك. لقد أصبحت جميعها من ضرب «الماضي» أليس كذلك؟ ويبدو أنك تظن أنها تبخرت، وأنك بقيت أنت فقط، لأنه لا يراقبك أحد بينما تراقب أنت جميع المرشحين للرئاسة وهم يتحوّلون إلى أشباح. لنر من هو مارتينيز ماناتو، وكورونو دل روسال، وغاردا بانياغوا، وفلوريس مونوز، وسانتشيز تابيا، وروجو غوميز؟ إنهم أشباح يا عزيزي أونيسمو، أطياف عالم السياسة المكسيكية الضبابي. تضيئ يوماً، وتظلم في اليوم التالي - وتعتم إلى الأبد.

الآن انظر في عينيّ يا أونيسمو. إني أرفض أن أصبح شبحاً. لقد سددت ديوني مع الماضي، إن كنت تريد أن تنظر إلى الأمور بهذه الطريقة. منفياً، مضروباً، مستهزءأ به، مشهّراً به - لكن ليس مهزوماً.

لا تخف. لقد عاد شبحك وسيجعلك تسدد ما عليك من ديون. إني أراقبك يا أونيسمو - إنك تشعر بالأمان، لذلك تواصل لعب الدور القديم ذاته وتكرر العبارات القديمة ذاتها دون أن تدرك أن المرحلة قد تغيرت الآن، كما هو الكاتب

المسرحي. لقد أصبحنا على مسرح جديد، وأريد أن أكون نجم العرض مرة أخرى. وستكون أنت، يا صديقي الأثير، الرجل الذي يعيد اسمي إلى بقعة الضوء.

إعادة الانتخاب؟ الكلمة التي يُحرم ذكرها على مسرحنا السياسي. ومع أنه لا يمنع ذكرها على الإطلاق، فماذا عن تعديل المادة 59 من الدستور وانبعاث روح الكونغرس الدستوري لعام 1917: إن إمكانية إعادة إنتخاب أعضاء البرلمان وأعضاء الكونغرس هي التي سمحت لك، يا حكيم الحكماء صولون، أن تمكث في الكونغرس سنوات عشر. حسناً، يجب أن نمضي الآن شأواً أبعد من ذلك: اسمح بإعادة انتخاب الرئيس. أصلح تلك المادة اللعينة، المادة 83 ومهّد الطريق لعودتي.

أستقول إن إصلاح الدستور يستغرق وقتاً؟ أعرف ذلك. لذلك يجب أن نبدأ من الآن، قبل قرابة ثلاث سنوات من بدء الانتخابات الجديدة. ابدأ بطرح المسألة برصانة لدى القاعدة الشعبية، مع الرجال الأقوياء، الحكّام، المشرّعين المحليّين، رجال الأعمال، العمال وقادة العمل الزراعي، والمثقّفين. يجب أن نحدّث خلافة الرئاسة ونجعلها عصرية كما حدّثنا مركز المشرّعين. عاشت إعادة الإنتخاب.

لا تظنن أني أضيّع وقتي باللعب في الكلمات المتقاطعة. لقد تكلّمت مع خصمك، فيداليس اليد السوداء (وليس أبناءه الأشرار التسعة)، وبدا أنه متعاطف جداً مع أفكاري. إنه يأخذ

وجهة النظر الطويلة، لأنه أبّ سلالة حاكمة. لكني يجب أن أعترف أن فيداليس هو رجل من رجاله. إنه لا يحبّ أن يكون مديناً لأحد وإني أخشى - للأسف - أنه يريد أن يستغلني، وهو يعرف كيف يستغلني، أكثر مما أعرف كيف أستغله.

ومن الناحية الأخرى، فإنك معجونتي المحبوبة. إنك تستطيع أن تفعل، وستفعل ما أريد لأنك تدين لي بكلّ شيء. لديك ميزة سياسية واحدة ستمنحك سلطة باقية، يا أونيسمو. إنك قبيح، لكنك لست بتلك الدرجة من الشناعة. إنك قبيح، بدين، داكن السمرة، وقصير جداً. حتى أن نُقْر الجدري لا تملأ وجهك ولا تكسوه الندوب. قد يظن البعض أنك سائق شاحنة، أو خادم عند باب المراحيض، وهذا ما كنته عندما التقيت بك. لكن بما أنك محجوب، غير مرئي فإنك لست خطراً، وبما أنك لست خطراً، فإنك تعرف كيف تسترضي وتعامل مجموعات كبيرة من الرجال غير الواثقين من أنفسهم الذين لا يشعرون بالأمان. ومن يمكن أن يشعر بعدم الأمان أكثر من مشرّعينا الصاخبين؟

أونيسمو. لنعمل معاً. تذكّر، يمكنك أن تستمر في التظاهر بأنك تعمل لخدمة الرئيس الحالي بينما تبدأ في وضع القواعد التي ستمهّد الطريق لي - ولك، بالطبع. إن المشكلة الحقيقية لخلافة الرئيس ليست مَنْ بل كيف. استمر في طمأنة رئيس الدولة المنتهية ولايته، لورينزو تيران، بأنك ستحمي أملاكه،

امتيـازاته، عائلته. هذا أكـثر من اللازم. الأمن من ذهب. في الحقـيقة، إنه لا يـقدر بثمن. جـميعنا نحـلم به. دع صاحب المنصب وشعبه يحلمون به أيضاً.

هل تعـرف مأدبة الثأر الـهائلة التي سـتحدث بـعد ثلاث سنوات؟ من هو المستثنى؟ تاسيتـونا قليل الحياء، السافل، الذي تمتليء خزانتـه بالهياكل العـظمية؟ أندينو النزيه، الذي لا غـبار عليه، وزوجته التي تخـونه طوال النهار مع أي بنطال تصادفه؟ ماريا دل روساريو المحصّنة، التي لا يدانيـها شيء، الباردة مثل جبل جليدي لكنها، مثل أيّ جبـل جليدي جدير باسمه، يبقى ثلاثة أرباعـه مغـمـور، فهي لا تكشف إلا طرفـاً من نفـسهـا الحقـيقـية، ولا تـكشف شيـئاً من أسـرارها؟ بيرنال النشـيط، المستقيـم، الذي ليست علاقة حبه مع المذكـورة أعلاه إلا ستاراً يقبع وراءه سرّ أكـبر سيظهر إلى العلن قريبـاً؟ وسلفي العجوز تحت أقـواس القنطرة في فـيـراكروز، الـذي يحفظ سـراً آخـر يتـمسّك به كـما يتمـسك لاعب دوميـنو بحجـرة فيهـا أبيض مزدوج؟ ثم هـناك الورقة الغـامضة المـتوحشـة في هذه اللعـبة العظيمة، وهو نيكولاس بالديبا الساذج، الذي رفع إلى منصب وكيل وزير الداخلية، بفضل جهود وأفضال ماريا دل روساريو، والذي، نتيـجة لذلك، وضع عـينيه ليصـبح وزيراً لكي يرشح نفســه للرئاسة عندما يغادر تيـران منصبه. لا يوجد ثـمة واحد منهم، يا أونيـســمـو، ولا واحد، كـمـا أقـول لك، لا يمكن

الاستغناء عنه. لكن دعني أقدم لك ثلاث قواعد في السلوك السياسي الجيد.

الأولى، اقتل عدوك السياسي وأعلن الحداد عليه لمدة شهر.

والثانية، إن كنت ستصبح جلاداً، فاحرص على ألا تكون مرئياً.

والثالثة، احذر شبح العدو السياسي الذي قتلته.

بمعنى آخر، يا أونيسمو شبه الأمّي، تحسن صنعاً إذا قرأت مسرحية صغيرة عنوانها ماكبث، وانتظر اليوم عندما تبدأ غابة جرائمك تتحرك باتجاه قلعة سلطتك.

ولا تستبعد الحظ الأرعن المحض. مثل الحظ الذي اعترض طريقي في ذلك اليوم الذي اندلعت فيه ثلاثة إضرابات منفصلة في وقت واحد وقد سحقتها جميعها، التي مات خلالها ثلاثة عشر مشاركاً في الإضراب، لكن لم يدرك أحد ذلك لأن أكساياكاتل بيريز الذي يدعى سلطان تشا تشا، والموسيقار الأكثر شعبية في زمانه كان قد مات في ذلك اليوم. فقد ذهب الجميع لتقديم فروض الاحترام والعزاء لمعبودهم العظيم في قاعة رقص غران ليون ثم ساروا وراء النعش حتى المقبرة، ونسي الجميع كل شيء عن الموتى الذين هم بلا اسم. الموتى الذين كنت مسؤولاً عن موتهم.

أكتب إليك بصراحة، يا أونيسمو. أعرف أنك روح التعقل والتـقديـر، ببسـاطة لأن أحـداً لن يصـدق ما قـد تبـوح به، وبإمكانك أن تخـتبئ جـيداً وراء حـجاب الصـمت. ثابر على عمل ذلك وأطلعني باستمرار على المستجدات.

ملاحظة: لا تقلق بشـأن الاحتفاظ بهذه الرسـالة. فما إن تنتهي من قراءتها، حتى ستحترق من تلقاء نفسها كيميائياً. إنك لا تستـطيع أن تنسخـها أو أن تريها لأحـد، أيها اللقـيط. ألم تشاهد فيلم «المهمـة المستحيلة»؟ إنّ الماضي مليء بالدروس عن وضعنا الراهن. فـقط اسأل نفسك، في هـذه الأيام المظلمة من جمهوريتنا، كم رسالة، وكم شريط، وكم شريط كاسيت أُتلف على يد الذين تلقوها الخائفون ما إن يقرأوها أو يـستمعوا إليها؟ فقط تصوّر. ولا تحرق أصابعك الصغيرة الجميلة برسالتي.

41

من تاسيتو دي لا كانال
إلى ماريا دل روساريو غالبان

أيتها السيدة الوقـورة، هل يمكن ابتزاز المُبتَزّون؟ لا أريد أن أحقّر نفسي في عينيك، لأنني محـتقر بشدة من قبلك إلى حد أنك لا تتنازلين وتنظرين إلـيّ. أما أنا، من الناحـية الأخـرى، فإني أنظر إلى الأعلى: الأعلى، الأعلى، وبعـيداً. إلى الأعلى كثيراً، وإلى البـعيد كثيراً، كما يمكنني أن أتجـاسر وأقول، أكثر منكما أنتما الاثنان - وأعني «أنتما الاثنان» بيرنال هيريرا، وزير الداخلية، وأنت، يا مـاريا دل روساريو غالبـان، عشيقـته وأمّ طفله. نعم، أنت.

اسمحي لي أن أقتبس من أحـد الأعمال الكلاسيكية: «في وسط المساحات الشاسعة التي تحيط بيـرشتيسغادن، المعزولة عن العالم اليومي، تنتـج عبقريتي المبدعة الأفـكار التي تهزّ العالم. في هذه اللحظات، لم أعد أشعر بفنائي، إذ إن أفكاري تتجاوز حدود العقل وتتحوّل إلى حقائق ذات بعد هائل».

لا تظني أنني متعجرف وجريء لكي استشهد بكلمات أدولف هتلر. فمهما كان رأيك بالفوهرر الألماني، فقد صعد إلى الأعلى وذهب إلى أبعد شأو كان يطمح إليه. كان سقوطه فظيعاً، هذا أمر حقيقي، لكن السقوط من ذاك العلو، هو في حد ذاته، انتصار.

بكلمات أخرى، إن كنت لا أعرف حدود طموحي، فكيف يمكن للآخرين أن يعرفوه؟ إن المسألة تتعلق بالتوقيت الصحيح، تماماً كما تقولين أنتِ نفسك في رسائلك إلى بيرنال هيريرا، الذي أجد متعة في قراءتها قبل أن آوي إلى الفراش، كما لو كانت عمود النصائح الرومانسية في إحدى الصحف. صدقيني يا سيدتي العزيزة، إني أعرف كيف أوقّت الأشياء. لا تنسي - أني أمتلك قوّة لأنني، أكثر من أي شخص آخر، أمتلك القدرة على الوصول. هل هناك حاجة لأن أقول المزيد؟ هناك أناس آخرون يمتلكون القدرة على الوصول أيضاً. لكني أمتلك القدرة على الوصول قبل أي شخص آخر. لا تظني أنني أخدع نفسي. فأنت وهيريرا يقول أحدكما للآخر: «لتاسيتو القدرة على الوصول، لكنه مكروه شعبياً».

أنتما، أيها الثنائي الشيطاني الصغير، تنصبان الفخاخ لي. فخاخًا مسلّية للغاية، بالمناسبة. إني أعرف أنكما وراء كلّ هذه الثناءات والإشادات على شرفي التي تقوم بها مجموعات المصالح القوية - النقابات والجمعيات التجارية، حيث يقوم

شخص تدفعون له نقوداً بامتداحي ويرفعني إلى السماء قبل أن يقوم آخر بتشويه سمعتي ويمزقني إرباً. إنك تظنين، أليس كذلك، أنكما كلاكما تمتدحان وتتملقان غروري وزهوي، وتهزآن باعتدادي بنفسي. لقد زعزعتما ثقتي بنفسي.

إنك مخطئة. فلم يؤد ذلك إلا إلى تقويتي. إن كلّ تصرف مهين، كلّ طلقة رخيصة تطلقينها باتجاهي تزيدني قوّة، تذكي شجاعتي، تعزز روحي. هل تريدين أن تعرفي كم أجيد مقاومة الإهانة؟ لقد زارني منذ عدة أيام سيزار ليون، الرئيس السابق الذي عملت مساعداً له عندما كنت شاباً، قبل عشر سنوات تقريباً. كان يشتكي من الطريقة التي يعامله بها الناس منذ أن غادر عرش النسر، واتهمني بشنّ حملة تشهير ضده.

«إني أزعجك لأن الرئيس يريد ذلك فقط»، أجبت.

«إنهم لا يزعجونني - إنهم يتعقبونني»، قال الرئيس السابق، بصوت آمر، مهيب، لا بصوت حزين، ينم عن الشكوى.

«إني أعمل ببساطة من أجل الرئيس».

«هل هذه أوامره؟»

«لا، لكنني أستطيع أن أتوقّع ما يفكر به الرئيس».

سيدتي، أريدك أنتِ وهيريرا أن تريا الأخطار التي أريد أن

أجازف بها، لكي تفهما لماذا لا أهان بسهولة. إنني أكاد أكون فتاة رومانسية حسّاسة في الخامسة عشرة من عمرها.

ولكي تريا قدرتي على التحمّل، ووداعتي، وتصميمي، سأروي لكما قصة صغيرة.

لقد أوضح الرئيس تيران أنه لم يأذن بما اعتبره طريقة تعاملي غير اللائقة واللبقة مع الرئيس السابق ليون.

«لكن، يا سيادة الرئيس، لقد فعلت ذلك من أجلك».

«لم أطلب منك أبداً أن تفعل ذلك، يا تاسيتو».

«حسناً، ظننت أن الأمر كان واضحاً...».

«إذن تظن أنك تستطيع أن تقرأ أفكاري، أليس كذلك؟ وهل تقرأ أفكاري عندما أفكّر وحدي، إذا فعل ذلك تاسيتو ثانية، فهو مطرود؟»

لم يكن عليّ أن أقرأ أفكار أحد، يا صديقتي العزيزة. كنت أعرف أن الرئيس سيوبّخني بشكل صوري، لكنه في أعماقه سيكون سعيداً لأنني فعلت شيئاً لا يستطيع هو نفسه أن يفعله، أو يأمرني بأن أفعله بوضوح شديد. إنهم لا يطلقون عليّ اسم تاسيتو هكذا، مجاناً، مقابل لا شيء كما تعرفين...

صديقتي المبجلة: إني أعرف كيف أجازف. أعرف كيف أتحمل المهانة دون أن يرف لي جفن. هنا تكمن قوتي. هل تظنين أنني لا أعرف ماذا تقولين للرئيس؟

«إن تاسيتو علامة من علامات ضعفك، يا لورينزو. إنك لست بحاجة إليه. الزعماء الضعفاء فقط يحتاجون إلى محظيّ».

أوه، محظيّ البلاط! مستشار يمارس سلطة حقيقية بالنيابة عن ملك ضعيف أو طائش. نيكولاس بيرينوت دي غرانفيل لتشارلز الخامس؛ وأنطونيو بيريز لفيليب الثاني، والدوق ليرما لفيليب الثالث، وفيليب الرابع، والكونت دوق أوليفاريس. بعضهم محظوظ أكثر من الآخرين، يعود بعضهم من عهود سابقة، ويخون آخرون ويهربون للالتحاق بصفوف العدو متنكرين بزي نساء (بيريز، الذي وضع رقعة واقية للعين ليقلد عشيقته العوراء، أميرة إبولي)، بينما يغرق الآخرون في عجزهم، حتى أسوأ من عجز الملك الحقيقي (ليرما)، ولا يزال آخرون يحتفون بنجاحهم في حكم الإمبراطورية.

نماذج تاريخية، يا سيدتي. أي منها سأشبه في نهاية الأمر؟ يكون المحظيّ جيداً مثل حاميه - لكنه يكون أيضاً جيداً مثل أعدائه. والحقّ أقول، إنكما، أنت وبيرنال عديما الفائدة بالنسبة لي.

«إنك لست سوى قصبة ضعيفة متنكرة في شكل سيف»، قال لي ذات يوم وزير الداخلية المحبوب.

فأجبته: «وأنت لست سوى سمكة سردين تظن نفسها سمكة قرش».

«وأنا؟» تجرأتِ وسألتِ، بصفاقة.

«مغفلّة، لا شيء سوى مغفلّة».

تقولين إنني شخص مازوكي يستمد متعته من رواية قصص الإذلال والإهانات التي أضطر إلى تحملها أثناء خدمتي للرئيس. إن الحقيقة المجرّدة هي أنني أمشي في دهاليز وممرات القصر الجمهوري وأنا أفكّر بهذه الأمور، وأوبّخ نفسي على دناءة تصرفاتي، لكنني أهنّيء نفسي لأن طبيعتي الحقيرة لا تبقيني على قيد الحياة فقط، بل تبقيني في القمة أيضاً. وقد قال صديقك، المدعو سينيكا، هذا عنيّ: «يستطيع تاسيتو أن يفسد الشيطان».

وعندما أمرّ بجانبه، يهمهم: «ها هو صاحب السعادة الشرير».

(لقد استعار هذه العبارة من تاليراند، كما يمكن أن تعرفي بما أنك درست على يد الضفادع).

أما أنا فإني أضع مادة رصاصية في حذائي لكي لا ترفعني رياح تهب فجأة وتحملني في الأثير. إني أتحمّل كلّ شيء،

يا سيدتي، لأن الرجل الذي يتحمل أكثر هو الرجل الذي يضحك في النهاية. وكما تقولين بعدم مبالاة في رسالتك، يمكنني أيضاً أن أسقط في أي لحظة. لكنني أحذّركما كليكما بأنني سأجرّكما معي إلى الهاوية.

قلتِ لي ذات يوم: «إنك خفاش يا تاسيتو، لا ترى وجهك أثناء النهار».

لم أجرؤ على الاعتراف بأنني أبدي إعجابي بك في الليل، يا سيدتي، وأنت تنزعين عنك ثيابك والأضواء منارة. كنت رجلاً محترماً.

«بالتأكيد لا، فأنا لست سوى حمامة صغيرة غير ضارة».

«سيجعلك ذلك أول صقر يتحول إلى حمامة».

«هراء، أنتِ وأنا طيران من النوع ذاته».

إن مقارناتك ليست دقيقة جداً، يا ماريا دل روساريو. ستكونين في حال أفضل بكثير لو فكرت بي بأنني «الرجل في الضباب». سترين أنه لا يسهل الإمساك بي، وإنني أستطيع أن أدخل من تحت الأبواب غير المحروسة. مثل بابك، وباب عشيقك بيرنال هيريرا. دون الحاجة إلى ذكر ذلك اللقيط التعس الذي ولد من علاقة حبكما، وألقيتما به في مصحة للمجاذيب.

42

من بيرنال هيريرا
إلى ماريا دل روساريو غالبان

ماروشا، عزيزتي ماروشا، ماذا حدث لك؟ إني لا أكاد أتعرف عليك، لا أكاد أتعرف على نفسي. لماذا تركت دوافع الحقد التي تتوق للانتقام تهيمن عليك؟ لماذا لم تتمكني من السيطرة على عواطفك؟ لماذا تركت هورموناتك تعجّل الخطة التي وافقنا عليها أنا وأنتِ، كلانا، كما هو دأبنا، متزامنان دائماً؟ لم نشوش، أنا وأنت، ولاءاتنا. . . فقد نتجت رابطتنا السياسية عن رابطة جسدية وثيقة، والآن فقط دُهشت كم كنا مختلفين عندما التقينا، ووقع أحدنا في حبّ الآخر، قبل أن ندفع الثمن الحتمي لكلّ البدايات الرومانسية. فمن طبيعتنا، النفسية والسياسية، أن نشكّ في كلّ شيء. لقد التقينا. انجذب أحدنا إلى الآخر. لكنك كنت ترتابين بي، تماماً كما كنت أرتاب بك. حتى أزفت تلك الليلة التي شربنا فيها معاً طوال الليل زجاجة من نبيذ بيتروس، وأدركنا عندها أن أحدنا يحبّ

الآخر رغم أن أحدنا لم يستطع أن يثق بالآخر. ضحكنا (هل كان ذلك بسبب النبيذ، أم بسبب الشهوة الجنسية، أم بسبب الرغبة في المجازفة، التي بدونها لا يمكن أن يحدث أيّ لقاء جنسي؟) وقال أحدنا للآخر: «إن كنا نشكّ بكلّ شيء، فإن أحدنا سيفهم الآخر تماماً».

قلت لك إنه لا يجب على الشخصية العامة أن تتوقّف عن الشكّ لحظة واحدة، حتى لو كان ذلك يعني أن يعيش في عذاب دائم وفي حال من عدم الإحساس بالأمان دون أن يكشف ذلك لأحد. هذه هي القاعدة الأخرى، يا حبيبتي ماروشا. إن الشكّ والعذاب يقويان قدرتنا على وضوح رؤيتنا وصفائنا. لقد أصبحنا سياسيين محترفين لأننا لا نقمع عدم إحساسنا بالأمان - أي قدرتنا على الشكّ. المهنة: سياسي. الحزب: مرتاب. بمعنى آخر، نستفيد من عذابنا إلى أبعد درجة لكي تتغذى واجهتنا الهادئة بمادة إنسانية. لقد أنجبنا طفلاً، يا ماريا دل روساريو. طفلاً منغولياً، أو بلغة علمية، طفلاً مصاباً بمتلازمة داون. كان علينا أن نختار. كان من الممكن أن نعيش معاً، ونرعى طفلنا، ونضحّي بطموحاتنا السياسية. أو كان بإمكانك أن تحتفظي بالطفل وتطلقين حريتي، وعندها أكون مداناً مرتين لأني أحبطت طموحاتك وتخلينا عن طفلنا؟ أو كان بوسعنا أن نفعل ما فعلناه: وضعناه في مصحة، ونزوره بين الحين والآخر - وبدأت زيارتنا له تقل مع مرور الزمن؟

لنكن صادقين، إن انخفاض عدد زيارتنا له بشكل متزايد يرتبط بذلك القدر الذي لا مصير له، والقلق المتزايد إلى حد أنّ ذلك المخلوق الضعيف، ذا الوجه الغض، السعيد لكنه ساهم ولا مبال، ذلك الطفل الذي لا يخبيء مستقبله سوى الموت قبل أوانه، سيباعد بين حياة كل منا لقاء لا شيء.

كان ذلك في إسبانيا، وقد كتمنا السرّ أربع عشرة سنة. لقد حذرتك يا ماريا دل روساريو، بأنه يجب ألا ترسلي الفواتير الواردة من المصحة إلى مكتبي. فأنا مراقب ومحاصر، محاط بجواسيس يعملون لصالح أعدائي (لا تنسي أنهم أعداؤك أيضاً) وإن أدنى سهو أو غلطة ستستخدم ضدي وضدك.

وهذا ما حدث. إحزري من رأى الفاتورة الواردة من المصحة واشتمّ الحقيقة. أتظنين أني لا أعرف؟ إن أصدقائي يدّعون أنهم يكرهون تاسيتو - لكنني أتوقّع أنهم يقولون الشيء ذاته له: «إننا أصدقاؤك. إننا نحتقر هيريرا. إننا معك على طول الطريق».

إن الخطط التي يجب علينا، أنا وأنت، أن نستخدمها لاختبار الناس من حولنا مفيدة أحياناً، لكنها غير مفيدة عادة، وتزعج دائماً راحة بال المرء. إذ تكتشفين في نهاية الأمر أن الأصدقاء والأعداء قد يكونون أصدقاء فيما بينهم، وسواء رغبتي أم لم ترغبي، سينتهي بك الأمر وأنتِ ترددين تلك

الجملة التي قالها ستيندال التي علمتني إياها: «كم من الصعب تحمّل هذا السيل من النفاق الذي لا يتوقف!»

كم مرّة فكّرنا معاً، أنا وأنت، في إحدى القضايا الأساسية في الحياة السياسية: كيف ينبغي للمرء أن يتعامل مع العدو؟

أن يسترضيه؟

أن يهاجمه هجوماً كاسحاً؟

أن يستخدم معه العنف ويقطع رأسه؟

أن يلحق به الهزيمة أولاً، ثم يكرمه بعد ذلك مباشرة؟ أن يخدعه، دون أن يحوّل نصره لينهار فوق رأسك؟

أن يقطع رأسه أولاً، دون أن ينسى أنه «قد يكون ذلك رأسي»؟

أن تحوّل عدوك المهزوم إلى صديق لك ليحميك، وأن تنصب له التماثيل وتقيم له اللوحات على شرفه - ما دام أصبح ميتاً؟

ينتابني قلق شديد، يا ماريا دل روساريو. إن سلوكك الطائش ينتهك قانون العدالة السياسية. فالجلاد السياسي يجب ألا يكون مرئياً. إنك باستجابتك لعواطفك الأمومية الأنثوية انتهكت قوانينك.

لقد لوى تاسيتو ذراعنا. إنه يجبرنا على أن نكشف لعبتنا، لكي ندين علناً معاملاته المريبة مع شركة MEXEN. يجب علينا الآن، أكثر من أي وقت مضى، أن نكون حذرين إلى أقصى درجة ونحن ندرس فرصنا للهجوم. إن تاسيتو يعرف أننا نعرف لأنك، يا صديقتي النافدة الصبر، أخبرته بذلك دون أن تفكري بالعواقب. لقد تذوقت رحيق النصر قبل أن تنتصري. الخطأ رقم واحد. وتاسيتو، في ردّه، أثبت بمهارة شديدة أنه جدير بقاعدتنا: في السياسة، لا تكشفي عن نواياك مطلقاً. افعلي ما أقوله لك.

كما تعرفين يا ماروشا، فأنا رجل يعقد داخل رأسه محكمة على الدوام. والقاضي هو «نحن» وفي بعض الأحيان «أنتم». واليوم، فإن القاضي الذي يحكم في قضيتنا هو «أنا - أنت» وهو يقول لي: «لقد ائتمنت هذه المرأة بسرّ هو مفتاح نجاحي لكي ألحق الهزيمة بمنافسي. لكن إذا كشفت هذه المرأة - حليفتي - السرّ، فإن منافسي سيحطمنا نحن الاثنين».

وهذا ما فعله تماماً بأن توجه إلى الصحافة وأخبرهم عن ابننا المتخلّف عقلياً. واجهي الأمر، افهميه: أنا، المرشّح للرئاسة وأنت، أشهر امرأة سياسية في البلاد، تحوّلنا إلى مجرد أبوين ذوي قلبين متحجرين، غولين حقيرين وقاسيين، وحشين خاليين من الرحمة. . .

تستطيعين أن تتنفّسي بسهولة، يا ماريا دل روساريو.

لقد اتصل الرئيس برؤساء المؤسسات الإعلامية الرئيسية الخمس أو الست شخصياً وقال لهم: «اعلموا جيداً أن هذا الطفل هو طفلي أنا. وكان ثمرة علاقة حبّ قديمة مع ماريا دل روساريو غالبان. فلينظر كل واحد منكم في المرآة، وليخبرني بأنه لا توجد لديه علاقة حبّ سرية في ماضيه. اقتلوا الخبر. لم أطلب مسبقاً من أيّ واحد منكم معروفاً شخصياً. لكني أفعل ذلك الآن لأنه يورّط سيدة، وبالطبع، كما تعرفون جيداً، منصب الرئيس».

«لكن يا سيادة الرئيس، إن الشخص الذي سرّب الخبر هو السيد دي لا كانال، مدير الديوان في مكتبكم...».

«مدير الديوان السابق. لقد قدم السيد دي لا كانال استقالته بعد ظهر اليوم».

«سيادة الرئيس، لقد أعلن وزير الداخلية، بيرنال هيريرا، استقالته أيضاً».

«هذا صحيح، أيها السادة المحترمون. لقد استقال تاسيتو دي لا كانال وبيرنال هيريرا من منصبيهما الحكوميين ليتمكنا من تكريس نفسيهما لحملتيهما الرئاسية. وأودّ أن أشكرهما كليهما على الخدمات الجليلة التي قدماها إلى بلدهما ولي. أظن أن هذا الخبر أهم من التطفل على حياتي الشخصية».

«إنك محقّ تماماً يا سيادة الرئيس».

«دعوني أكـرّر احتـرامي للنزاهة والعمل الشـاقّ الذي بذله هذان المساعـدان القريبان مني واللذان يغادراننا الآن. لقـد كانا مسـتشارين مؤتمنين ومـواليين وتمكنا من الصمود حـتى النهاية. هذه هي الأخبار الحقيقية هذا اليوم».

«سنتعامل مع هذا بأقصى درجات التقدير. لا تقل المزيد».

«شكراً لكم، أيها السادة المحترمون».

لذلك تابعي عـملك بقلب بارد، يا مـاريا دل روسـاريو. تذكّري من لـدينا كرئيس، ودعي تاسـيتو يبـدأ حملتـه قبل أن نكشف فـضـيحـة MEXEN. تمالكي نفـسك بضع دقـائق، أرجوك، وتذكّري ما قلته لي اليـوم الذي قرّرنا فيه أن نكتم سرّ الصبي: «لا. إذا اعتـرفت بعاري، فإني سأفقـد كلّ الاحترام، بل وحتى الحـبّ». وأجبتك: «لا تعـاقبي نفـسك أبداً لكونك سعـيدة. لا تنسي، لقد وصلنا إلى مـا وصلنا إليه لأننا لم ندع مشاعرنا تجرنا إلى الأسفل».

ملاحظة: سيسـلمك هذا الشريط شخصياً السـيد خسوس ريكاردو ماغـون، الشابّ الذي بدأ يعـمل مؤخراً مع صنيـعتك الصغير، وكـيل وزير الداخلية، نيكولاس بالديبا، الذي يثق به كثـيراً. بعد أن تـستمـعي إلى الشريط، أتلفـيه، كمـا أعرف، أتلفت جميع الرسائل المسجّلة الأخرى التي أرسلتها لك. وماريا دل روساريو، أرجوك لا تجعليني أشكّ به كما شككت في المرة الأولى التي التقيت فيها بك...

ملاحظة ثانية: لقد تناول طعام الغداء في مكتبه مع رئيس تحرير صحيفة En Contra، رينالدو رانغيل. ظننت أن الرئيس استدعى الصحف وأقطاب التلفزيون (مع أن التلفزيونات أصبحت عديمة الفائدة الآن) إلى مكتبه ليتحدث إليهم شخصياً. لكن الاجتماع الذي وصفه لي رانغيل بدا غريباً للغاية. فقد كانت تفصل المضيف عن مدعويه ستارة كبيرة مقامة في وسط الغرفة. إذ لم يسمح الرئيس أن يراه زائروه. لقد تحدث من الجانب الآخر من الستارة، لكنهم بما أنهم يعرفون صوت لورينزو تيران، ودار الحديث بشكل طبيعي، فلم يساور أحداً منهم الشكّ بأنه هو. في جميع الأحوال، حتى لو ساورتهم الشكوك، فقد انصب اهتمامهم على تلبية طلب الرئيس... لكن من المؤكد ثمة لغز هنا. أتلفي هذا الشريط، أرجوك. أكرّر، تذكري من أنت، من نحن، لا تدعي هورموناتك تسيطر عليك، ولا تخرقي قواعدك أنت. ليتحكم عقل بارد على مشاعر الغضب.

43

من عضو الكونغرس أونيسمو كانابال إلى عضوة الكونغرس بولينا تارديغاردا

زميلتي الموّقرة وصديقتي الوفـية، إنك تعرفين كيف أتعامل مع هذه الأمور. أظن أن العلماء يطلقون عليها «محاكاة» الحرباء التي تغيّر لونها ليمتزج بالبـيئة التي تعيش فيها. بمعنى آخر، إن كانت تقـبع فوق صخرة، سـيصبح لونها بلون الصـخرة، وإن جثـمت على جذع شـجرة، فـإن لونها سـيتـغيّر حـسب لون الشجرة. حسناً، يا عـزيزتي بولينا الموّقرة، إني أجد نفسي أقف عند مـفترق طرق. درب غـير مـعبّد، مـوحل، وسخ، وادي الوحل، كما يدعوه البعض.

لن أشغل نفسي بأن أخبرك بالأشـياء التي تعرفينها. أو ربما أخبرتك بها مرة أخرى لكي تري الصورة الكاملة.

إن الأحزاب منقـسمة. فـقد انشق حـزب الرئيس، حزب العـمل الوطني، إلى فئـة رجعـية مطلقـة ودينية، وهـو حزب

الديمقراطيين المسيحيين الوسط، وإلى فئة يسارية تربط نفسها «بلاهوت التحرير». وقد انشق حزبنا، الحزب المؤسسي الثوري، إلى ثمان مجموعات. أقصى اليمين، الذي يريد فرض النظام والقمع. الديناصورات التي تجمع الغبار في متحف التاريخ السياسي الوطني. التكنوقراطيون من الليبراليين الجدد الذين يؤججون لهيب آلهتهم «الاقتصاد الكلي». القوميون الذين يعتقدون بأن إعادة تأكيد السيادة هو سبب وجود الحزب الثوري الدستوري. وهناك معتنقو المذهب الشعبي الذين يعدون بكل شيء ولا ينفذون شيئاً. هذا دون الحاجة إلى ذكر الفئات الزراعية والاتحاديين والبيروقراطيين القدماء الذين يعود تاريخهم إلى ثقافة الشركات من عصر كارديناس.

ألق نظرة حولك. فبدلاً من المدحلة الضخمة التي كانت ذات يوم الحزب الثوري الدستوري «المنيع»، أصبحنا نواجه الآن ثمانية أحزاب صغيرة جداً بحثاً عن وحدة ضائعة.

وإلى اليسار نجد، أحزاب الخضر، لكنهم خضر مثل لون ورقة الدولار، ويتبع الديموقراطيون الاجتماعيون النموذج الأوروبي؛ الكاردينيستا الجدد الذين يريدون أن يعودوا بالزمن إلى عام 1938. الماركسيون الذين يتبعون مذهب لينين وتروتسكي، والماركسيون الذين قرأوا كارل ماركس الشاب، ويعلنون أن الماركسية هي شكل من أشكال الإنسانية.

ولا تظني أني نسيت فصائل الشعوب الأصلية، أو المتطرفين من كلا الجانبين، والفوضويين والفاشيين.

إن طريقتي في السيطرة على هذا السيرك الذي يدعى الكونغرس، كما تعرفين، هي أن أتظاهر بأني لا ألاحظ شيئاً، وأعتمر قبعة الغباء بقدر ما أستطيع. أجعل نفسي غير مرئي، لكي لا ينتبه أحد لوجودي.

أما الوسائل التي يتبعها رئيسنا ووزير ماليته أندينو ألمسان، فإني أعرفها كما أعرف ظاهر يدي. ففي البداية، يقدمان التدابير التي يعرفان أن «الكونغرس المؤلف من قصاصات ملونة» سيرفضها لأنها تسيء إلى المشاعر الشعبية أو القومية، ويمكن شجبها باعتبارها رجعية نيوليبرالية، أو قوانين مناهضة للقومية: ضرائب على الكتب والمخدرات والغذاء والخصخصة... ومن ثم، بغية تفادي اعتبارهم سذّجاً كسالى (لو لم تكوني سيدة لاستعملت كلمة أخرى)، فإن الكونغرس يمضي ويصدّق على مشاريع القرارات التنفيذية التي لا تطرحها الجهات التنفيذية لكي لا تسيء إلى الأثرياء - الضرائب التصاعدية، الضرائب على الدخل الأعلى، وعلى أرباح رؤوس الأموال، وما إلى ذلك. كما تعرفين، الأشياء التي تدر أموالاً على الحكومة، لا الضريبة المفروضة على الأسبيرين أو على كتب إيزابيل الليندي التي أعرف أنك تلتهمينها التهاماً.

هكذا إذن، كيف أدير هذا الكونغرس الموقر الذي تستحيل إدارته. لقد أصبحت تلك قاعدتنا، وأنت أكبر حليف لي لأنك امرأة، لأنك متقشفة بشدة (اغفري لي، فأنا أعرف أنك تحبين أن ترتدي ثياباً كراهبة، وأنا لا أنتقدك على ذلك)، ولأنك من هيدالغو، الولاية التي لا تحتمل، إن كانت هذه الولاية موجودة أصلاً، لأن الناس، كما يبدو، قد نسوا أنها موجودة.

والآن، سيدتي المتقشفة وغير المحتملة، فإني بحاجة إليك أكثر من أي وقت مضى لتنظيم الفوضى التشريعية ولمواجهة الضغوط التي سنواجهها سريعاً.

فأولاً هناك تهديد باندلاع انتفاضة مسلحة. ولديّ سبب وجيه للاعتقاد (كما تقول الأغنية: «كفّ عن طرح أسئلة عليّ، اتركني أتخيّل....») بأن سيسيرو أروسا ينشر الرعب في صفوف المسؤولين، والرجال الأقوياء المحليين، بالإضافة إلى الجنرال الأعلى نفسه، بون بيلتران، أو مهما كان اسمه. لا أستطيع أن أتهجأ ذلك الاسم إذا لم يكن مدوناً أمامي - فلم يكن لديّ ميل للغات الأجنبية طوال عمري. على أي حال، يا بولينا، فإن أروسا يريد أن يعلن أن الرئيس لورينزو تيران غير كفء للحكم استناداً إلى «عيوب جسيمة»، على النحو المنصوص عليه في المادة 86 من الدستور. وبما أن أغلبية أعضاء الكونغرس يعتبرون أن تيران غير كفء، فقد تنجح الخطة. إن النقطة الوحيدة تكمن في أنه يتعين على الكونغرس أن يختار

عندئذ الرئيس بالوكالة، الملائم لإكمال فترة ولاية تيران التي مدتها ست سنوات.

لا أعرف ماذا يدور في رأس سيسيرو وحلفائه في هذا الأمر. لكن من هم حلفاؤه؟ بولينا، يجب أن تكتشفي إن كان الرجال الأقوياء ووزير الدفاع الذي لا أستطيع أن ألفظ اسمه الألماني، سيتحدون مع الجنرال أروسا في محاولته لتنظيم انقلاب عسكري، لأن هذا هو هدفه الأخير.

أما الشخص الآخر الذي يضايقني كثيراً فهو رئيسنا السابق سيزار ليون، الشخصية المريبة. وهو يحاول أيضاً أن يستخدم الكونغرس ليعلن أن الرئيس غير كفء، لكنه يرفض أن يكشف بمن يريد أن يستبدل تيران، وينهي ما تبقى من فترة حكمه، ويدعو إلى انتخابات - أي بعد تعديل المادة 83 لكي يصبح بالإمكان إعادة انتخاب الرؤساء السابقين (مثل سيزار ليون) عندما يحين موعد انتخابات عام 2024.

كوني حذرة للغاية يا بولينا، لأن الرئيس السابق أفعى ماكرة تنسل بين الأعشاب. وهو يعرف جميع الخدع المدوّنة في الكتب، ولديه طموح لا يعرف حدوداً. اذهبي إلى الرئيس السابق العجوز، الذي يجلس طوال النهار وهو يلعب الدومينو تحت القنطرة في فيراكروز - زوريه، وانظري إن كان بوسعك أن تحصلي منه على أيّ معلومات. لا تحاولي حتى أن تغوي

سيزار لـيون، لأنه يمكن أغواؤه بسهـولة. مع أنه، من يعرف، فاسق مـاجن إلى درجة أنـه قد يراك مثل فـينوس القـادمة من هيـدالغو. أقـول لك ذلك بكل الاحـترام الذي تستـحقـينه يا بولينا.

لكن لنعـد إلى الرجل العـجوز في فـيـراكروز، فكل مـا أمكنني الحصول عليه منه - حتى الآن، لكنك تعرفين أكثر من أي شخص آخر أنني عـنيد كالبغل (يصفني أعـدائي بأني عنيد مثل رأس الخنزير، ويصفني حلفائي بأني مثابر) - هو:

«يوجد للمكسيك رئيس شرعي»، قال الرجل العجوز.

«بالطبع، لورينزو تيران»، أجبت.

«لا، شخص آخر، في حال استقال تيران أو مات».

«استقالة؟ موت؟ عما تتحدّث، يا سيادة الرئيس؟»

«إني أتحدّث عن الشرعية المنيوكة».

(اعذريني يا بولينا، مع كلّ الإحترام الذي تستحقينه).

«هذا كلّ شيء؟»

«هذا كلّ شيء، يا أونيسمو».

تعـرفين أن الرجل العـجـوز نصف مـومـيـاء، نصف أبو الهول، وبما أنني لا أحـصل على شيء منه سوى ألغـاز، فإني

أضع على وجـهي قناع البراءة المـقدّسـة الصغـير، وأتّجـه إلى الوزارة بحثاً عن نصيحة. ويقول لي جميعهم الشيء ذاته، إذا، وأو ولكن:

«إن الدسـتور واضح في هذا الأمـر»، يقول هيـريرا وزير الداخلية، «إذا بقينا بدون رئيس خـلال السنوات الأربع الأخيرة من فترة ولايته (كما سيكون الحال الآن)، فإن الكونغرس يرشح رئيساً بالوكالة حتى انتهاء فـترة حكمه، ثم يدعو إلى انتخابات جديدة. هذا هو القانون، وهو واضح للغاية».

«يمكن تغـيـيـر الدسـتور، ويمـكن أن يصـبح لدينا رئيس بالوكـالة»، يقـول تاسيـتـو دي لا كانـال. «لكن ذلك يتطلّب تصويت ثـلثي أعضاء الكـونغرس الحاضـرين وموافـقة أغلبـية المجلس التشريعي. كم تظن أن ذلك سيستغرق؟»

يحك صلعته ويجيب عن سؤاله هو:

«سنة، سنتين، ثلاث سنوات. لا علاقة لهذا بوضعنا».

«لماذا لا يكون لديـكم نائب رئيس كـمـا يـوجـد لدينا؟» يسألني السفير الأمريكي، كوتون ماديسون. «قُتل كندي، فحلّ محله جونسون. استقال نيكسون، فأخذ فورد مكانه. لا توجد مشكلة».

أحاول أن أشرح له أنه، خلال القرن الـتاسع عشر، عندما كان لدينا نواب للرئيس في المكسـيك، كانوا يتمتـعون بأخلاق

حميدة. كانوا في غاية اللطف ويمضون معظم أوقاتهم في تهديد الرؤساء الذين يقومون على خدمتهم، ثم يطيحون بهم، بدءاً من ثورة نيكولاس برافو ضد غوادالوب فيكتوريا في عام 1827. إلى سانتا آنا، «الزعيم الخالد من سيمبوالا»، كما يقول نشيدنا الوطني، الذي هاجم نائبه، فالانتاين غوميز فارياس، مع أن «الخمسة عشرة مسماراً» (أي سانتا آنا بولينا ذو الساق الواحدة) استطاع حقاً أن يسقط حكومته في النهاية، وهي مناورة قلدها هوغو شافيز الشرير، المعجب ببولفار، قبل عشرين سنة.

يمكنني أن أقدم لك قائمة بنواب الرؤساء الخونة - أناستاسيو بوستامانتي ضد فايسينت غويريرو، كمثال عنهم. ويمكنني أيضاً أن أحدثك عن الجنرالات الذين كانوا يفضّلون الإطاحة بزعمائهم بدلاً من الدفاع عن البلاد من المحتلين الأجانب، كما حدث مع الخائن باريدز آريلاغا أثناء الحرب ضد الأمريكيين. لا شكّ أنها قصة تدعو إلى الكآبة لكنها قصة جديرة بالتذكير، ياصديقتي الموقرة، إن كنت تريدين الاحتفاظ بجميع أوراق اللعب في يدك ولا ترغبين في أن يفاجئك أحد وأنت في منتصف قيلولتك، كما فاجأ الأمريكيون سانتا آنا في معركة سان ياسينتو، التي كلفتنا تكساس.

كما قلتِ من قبل، تريدين أن تعرفي آراء الزعماء المحليين مثل كابيزاس في سونورا، وديلغادو في بايا كاليفورنيا،

ومالدونادو في ســان لويس، وفيداليس المـفزع في تاباسكو. لا ريب أنهم سيكذبون عليك.

سونورا: «إن مشكلتنا تكمن في إقامة مصانع التجميع، لا في حياكة المؤامرات»، سيقول كابيزاس.

بايا كـاليفـورنيا: «لدينا مـا يكفي من المشاكـل بشأن مـياه كولورادو والتـعامل مع تهريب المخـدرات في تيوانا»، سيـقول ديلغادو.

سان لويس بوتوسي: «إن الشيء الوحيد الذي نهتم به هنا هو حماية الاستثمارات الأجنبية»، سيقول مالدونادو.

تاباسكو: «في هذه الولاية، يقف الدولار معي»، سـيقول فـيـــداليس. هـكذا يقـــولون، هكذا يـقـــولون، هـكذا يقولون. . . أكـاذيب، كلّها. لكـنّهم لن (اغفري لـي) يحاولوا إغواءك. لا. دعينا إذن نفسر الأكاذيب بعكس ما تقال لاكتشاف الحقيقة. لن يتم الإغراء لأنه، في المقام الأول، دعينا نقول إنك تلهمين الاحـترام أكثـر من زوجة القاضي تلك، دونا جـوزيفا أورتيز دي دومنغـويز، بطلة استقلالـنا، وثانياً (سأقولهـا ثانية) لأنك من هيدالغو، وهيدالـغو ولاية لا تدخل في مجال الرادار السياسي في المكسيك.

اطلعـيني باسـتمـرار عمـا يحـدث، يا صديـقتي العـزيزة والمحترمة.

44

من نيكولاس بالديبا
إلى ماريا دل روساريو غالبان

عــدت لأنك طرحت علـيّ سـؤالاً. لقــد عــدت إلى فيراكروز، إلى ميدان الميناء الرئيسي تحت أقواس القنطرة. عدت إلى مقهى دي لا باروكويا لألتقي بالرجل العجوز مرة أخرى.

المشــهد الشــهيـر. كان البـبغــاء يجثم على كـتف الرجل العجوز. وفي هذه المرة لم يكن الرجل العــجوز يضع بابيونته. بل كان يرتدي اليوم سترة ذات أكمــام قصيرة. بدا ذلك ملائماً بسبب الحرارة الخــانقة، الرطبة، الدبقة، تحت مظـلّة من الغيوم السوداء التي تنذر بهبوب عاصفة ترفض أن تكسر أو تنقي ذلك الجوّ الاسـتوائي الكئـيب. كان الرجل العــجوز لا يزال هناك، وقهوته أمامه، وأحجار الدومينو العاجية تجثم فوق الطاولة بغير انتظام.

أظن أنه كان يأخذ قيلولة بعد الظهر. كنت مخطئاً. فما إن وقفت أمامه، حتى فـتح عينه. عين واحدة تحيطها هالة داكنة.

بينما ظلت العين الأخرى مغمضة. كان البغاء يصيح، أو يزقزق، أو،أي صوت تصدرها الببغاوات: «لا لإعادة الانتخاب! كلّ صوت مهم!»

فتح الرجل العجوز العين الأخرى ورمقني بنظرة قاتمة. لم يخفها. لم يشأ أن يخفيها. كان يريدني أن أعرف بأنه يعرف. كان يريدني أن أعرف بأنه يعرف أنني لم أعد ذلك المبتديء الذي جاء لزيارته في كانون الثاني الماضي. كان يريدني أن أعرف أنه يعرف أنني أصبحت وكيل الوزير السابق الذي أصبح مسؤولاً الآن عن وزارة الداخلية لأن بيرنال هيريرا استقال كوزير للداخلية ليترشح للانتخابات الرئاسية. كان يريدني أن أعرف أنه يعرف أنني أصبحت الآن رئيس الشؤون الداخلية في بلدنا.

ورغم ذلك، أحسست بأنني أقابل شخصاً يتصرّف وكأن شيئاً لم يحدث على الإطلاق في المكسيك منذ 1950. إنه يتصرّف ويتحدث كما لو كنا نعيش في الماضي. كما لو كانت نيران الثورة لا تزال مشتعلة. كما لو كان بانتشو فيللا لا يزال ممتطياً حصانه. كما لو كان جميع الجنرالات في البلد لا يطوفون في الشوارع وهم يقودون سيارات كاديلاك. كما لو كانت الثورة المكسيكية (كما أُعترف بذلك منذ نصف قرن) لم تنته في ضاحية لوماس دي تشابولتيبيك.

وعلى الرغم من ذلك (هذا العدد اللانهائي من عبارة «مع

أن» التي ألتقطها من أذنيك الجميلتين، يا سيدتي الحكيمة)، فإني لا أستطيع ألا ألاحظ أن الرجل العجوز يدرك حداثة عهدي في السياسة - وزير للداخلية في الخامسة والثلاثين من عمره - وأنه يريد أن يحذرني، بحكمته الفيراكروزية المستمدة من كتاب النمر للامبيدوسا، بأنه plus ca change, plus c'est la meme chose، بأني يجب ألا أحلم بالتغيير الجذري، بإحداث تحويل بشكل إعجوبي، وما إلى ذلك. بأنه توجد صخرة دائمة، تحت الأرض، ليس فقط في السياسة المكسيكية بل في السياسة Tiens tout court.

لسبب ما (حليفنا السري الذي يتحدث اللغة الفرنسية؟ لبعث ذكريات عالم دراساتنا المشترك؟ شكل من الرمز، بعد أن لم تعد اللغة الفرنسية مستخدمة؟) إني أستخدم كلمات باللغة الفرنسية غير بعيدة عن عالم الرجل العجوز تحت القنطرة.

«إذن هل هذا ما وصلت إليه عملية التحول الديمقراطية التي يتم التفاخر بها في المكسيك؟» سألني دون أن تتحرك عضلة في وجهه الموميائي الشهير.

«ماذا تعني يا سيادة الرئيس؟»

«آه»، قال وقد تكسّرت ابتسامته مثل قناع مصنوع من رمل، «لقد نسيت أنك درست مع الضفادع. موسيو لو بريسيدا!»

توقّف ليرشف قهوته.

«كما تعرف، أحياناً، في محاولة لمواصلة تعليمي (لأنهم يقولون إن التعليم لا ينتهي أبداً)، فإني ألعب الدومينو هنا في البلازا مع مجموعة من المثقفين المكسيكيين الذين درسوا في ألمانيا. فمثلاً يلتقي بي تشيما بيريز غاي هنا، وأقول له: «حدثني باللغة الألمانية، حتى لو لم أكن أفهم أي شيء مما تقوله. أحبّ هذه الجعجعة الحلقية. ففيها نبرة آمرة. وهي تجعلني أشعر وكأني فيلسوف». حسناً، في آخر مرّة كان فيها بيريز غاي هنا قال: «عندما فتح دستور فيمار الباب أمام الديمقراطية في ألمانيا للمرة الأولى في عام 1919، بعد قرون من الحكم الاستبدادي، وقف الألمان محملقين في البداية، مثل فلاحين تمت دعوتهم إلى قلعة...»»

لم تكن هناك محاكاة في كلمات الرجل العجوز. حافظ على نظرته الثاقبة المتجهّمة، الدوائر تحت عينيه عميقة وداكنة.

«حسناً، دعني فقط أقول إن الشيء ذاته حدث في المكسيك. وقفنا هنا نحملق بعيوننا، لا نعرف ماذا نصنع بالديمقراطية. من الأزتيك إلى الحزب الثوري الدستوري، لم نلعب هذه اللعبة هنا مطلقاً».

«هل فعلوا أشياء أفضل من قبل - أقصد في أيامك؟»

«مُنح الشعب نوعاً من الأمن. كانت هناك قواعد يعرفها الجميع. كان كلّ شيء متوقعاً. لقد وفرنا على الشعب معاناة

اتخاذ قراراتهم غير الواثقين منها. لقد استنبطت مؤسسة «المغلف المختوم». كان كلّ ما في الأمر ظرفًا مختومًا يضم تعليمات موقّعة مني. وعندما كان الحاكم، أو عضو الكونغرس، أو الزعيم المحليّ يستلم المغلف المختوم كان يفعل ما أقوله له تماماً».

توقّف عن الكلام، وبدا مثل قرصان على وشك أن يهاجم سفينة شراعية قادمة من الجزر الهندية مملوءة بالذهب الإسباني:

« «أقترح ترشيح سين من الناس»، والباقي سهل. المرشّح الذي اخترته أنا، المرشّح الموجود اسمه في المغلف المختوم، احشد دعماً واسعاً وعاماً. ويل للرجل القوي الذي يتجرأ ويعارض. الويل للحاكم الذي يعصيني. الويل لعضو الكونغرس الذي يمتلك روحاً مستقلة».

لعق أسنانه المعوّجة:

«تتم إزالتهم من السياسة إلى الأبد. وإذا تجاسر أحدهم واعترض على قراري، فإني أذكّره فقط، «هل استمتعت. عد الآن زحفاً إلى الجحر الذي خرجت منه. إني أقول لك ذلك حرصاً على صحتك»»

هل يستطيع أحد أن يقدم هذه التهديدات الفظيعة بهذا اللطف؟ بوضوح، بعزيمة من فولاذ، وهدوء معاً. لقد تعلمت الدرس، يا ماريا دل روساريو.

كزّ العجوز على طاقم أسنانه.

«أغلفة مختومة، صناديق اقتراع تُملأ سلفاً، وحفلة التصويت الصاخبة، وسبل أخرى لإرسال الناخبين من إدارة انتخابية إلى إدارة انتخابية أخرى، وحيوانات الراكون تقوم بتزوير الانتخابات كلها - لقد فعلنا ما تيسر لنا من الخيمياء الضرورية لكي نفوز سلفاً بالانتخابات بضعف الأصوات، بل حتى بثلاثة أضعاف الأصوات. وفي النهاية حصل الحزب الثوري الدستوري على عدد من الأصوات يفوق عدد أصوات الناخبين المسجلين، مع جميع المواطنين الذين أخرجناهم من القبور، جميع مقصورات الاقتراع التي سرقناها، وجميع أصوات المعارضة التي حُطّمت - بالطبع، إذا ومتى استدعى الأمر ذلك. وكان يرأس كلّ ذلك، يا سيد بالديبيا، صاحب الفخامة الرئيس الذي أعلن، من عرش النسر، إلى خليفته المعيّن، «ستكون رئيساً»»

قال الببغاء: «أقسم بأن أتمسك بالقوانين...» ثم ساد صمت وكأنه يتوقّع أن يحدّق فيه الرجل العجوز بمودّة، جثم الطائر الأخضر والأصفر والأحمر والأزرق فوق كتفه، كتف قرصان سياسي.

«... قوانين الجمهورية»، ردد العجوز بجدية. «القوانين المدوّنة؟»

«الأشياء غير المدوّنة، يا سيد بالديبا. فكّر بالأمر كم كان سهلاً. إن قواعد الاستبدادية غير المدوّنة واضحة. انظر فقط إلى الغموض الحالي والفوضى التي سبّبتها. كيف لا أشعر بالحنين (أو بأيام دكتاتورية الحزب الدستوري الثوري السابقة الهادئة؟»

حتى قبل أن أتمكن من الرد عليه، قاطع نفسه، ورفع إصبعاً متصلّباً في الهواء لإسكاتي:

«في الواقع، كانت آثامنا فضائل. لكن دعنا نقول فقط إنني استسلمت للتغيير. كنت أعرف دائماً بأنّ النظام سينتهي ذات يوم. فلا يزال السؤال يبقى: بماذا سنستبدله؟»

«كان كلّ شيء أفضل في الماضي»، قلت بكآبة.

«نعم، على الرغم من بعض السياسيين الأغبياء التافهين».

«إذن من هم الحكماء؟»

«ليس من هم يا صديقي، بل كيف».

«كيف إذن؟»

«كلّ شخص يقتل البراغيث بطريقته، يا بالديبا. إن الطموح الزائد إما أن يفشل، أو أن يأتي بثمن باهظ جداً. لقد وصل بعض الرجال إلى سدة الرئاسة وهم يشعرون بأن المكسيك تدين لهم بذلك ثم تركوا منصبهم وهم يشعرون بأن

المكسيك لا تستحقّهم، لذلك فهم يشعرون بأنّهم يستحقّون العودة إلى السلطة ذات يوم».

«هل تفكّر بشخص معين؟»

«أفكّر بنفسي. فأنا لم أفعل شيئاً لكي أصل إلى عرش النسر. كانت تلك نقطة قوتي. لقد وصلت إليه دون فضل من أحد لكي أردّه له».

«عملية إزالة الأنواع؟» تجرأت على سؤاله، بتلميحة من الوقاحة. لكنه لم ينتبه إليها.

«لقد وصلت إلى هناك مثل المسيح»، قال، لابثاً في مكانه على نحو غير اعتيادي، مثل أيقونة، وأضاف، «كم عدد الأنبياء وكم مسيح مزيّف كانوا طليقين في يهودا مثل ابن مريم؟»

ثم، وفجأة، بدأ يغني شطراً من أغنية إسبانية قديمة:
"Va, va, ay va, ay vamonos para judea. . . ."

عند ذاك، التقط الببغاء اللحن بصوته الحاد. "Ay ba,ay ba, ay Babilonia que marea . . . "

تجاهلت هذه الأشياء الغريبة.

«نعم، لكن تلك ليست القاعدة، يا سيادة الرئيس».

«اخرس! إن دلّ رئيس يخلق الحقيـقة الخاصة به، لكن بما أن القـانون يعارض إعـادة الانتخـاب، فـإن ذلك يرغمـه على التقاعد، وتتلاشى هذه الحقيقة وتحل محلها أسطورة تاريخية».

بدا وكـأنه يبتلع غـضبـه. حـتى الدوائر تحت عينيـه بدت وكأنها أصبحت خضراء اللون.

«مـاذا يحدث؟ يصـبح الرئيس السـابق بدون سلطة، لكن يبقى محـاطاً بلاعقي المؤخرات. لم يعد يتـعين عليه أن يخدع الناس. الآن يريد مـعاونوه أن يخـدعـوه. يغـروه بالانتقـام. يسـمّمـو آراءه بأنه شـخص لا مثـيل له، صليب بين نابليـون وديزرايلي».

"Donde vas con manton de Manila?"

بدأ الببغـاء يغني، فضربه الرجل العجـوز بقوة إلى حد أن الطير المسكين وقع على الأرض.

«إنها تشبه القصة القديمة عن الحوت والفيل. والخلاصة أن الأمر ينتهي بأن يعـامل الساذج المسكين حلفاءه كمـا كان يعامل أعداءه. إنه تضـييع للوقت. إن تحطيمهم لا يسـتحق بذل ذلك الجهد. بذل طاقة كبيرة بدون جدوى».

ندت عنه تنهيدة لم يجرؤ الببغاء على الرد عليها.

«من الأفضل أن تكون وحيداً ومحترماً، حتى لو ظنوا أني قد مت».

سادت لحظة حبلى بالتوتر، كما يقول الأنغلو ساكسون.

«انظر إليّ هنا، أشرب القهوة وألعب الدومينو. لقد نجوت من المصير المحزن الذي واجه معظم الرؤساء السابقين. لقد نجوت من الدائرة المفرغة. وهل تعرف يا بالديبا؟ لأنني لم أصبح رئيساً وأنا أعتقد أنني سآوي إلى فراشي مع تمثالي».

ابتسم فيما جلس الببغاء، بعد أن أخذ عقابه، مرة أخرى على كتفه.

«لا تدع ذلك يخرج. إنها الحقيقة».

«سيادة الرئيس، كان معروفاً عنك أنك كنت تغلف نفسك بالصمت، بأن تجيب دون أن تتكلم، أن تحول الإيماءة إلى إشارة للتواصل السياسي، أن تحوّل الردّ الإهليليجي إلى شكل فني، وسلطة نظرتك المحدقة إلى إنجيل».

نظرت إليه مباشرة.

«لا أريد أن أضيّع الوقت يا سيادة الرئيس. لقد أتيت إلى هنا لأحصل على توجيهاتك عبر متاهة الخلافة الرئاسية».

هل رأيت مودّة في تعبيره؟ هل كان ممتناً لإصغائي، احترامي، اهتمامي؟ بدا أن النظرة في عينيه تقول، لقد عرفت أعماق التعاسة والكارثة، وأنا الوحيد الذي غادر القصر بدون أوهام... لأنه لم تكن لديّ أية أوهام في المقام الأول.

«لم أُخذل لأنه لم تكن لديّ أية أوهام في المقام الأول»، قال مردداً أفكاري على نحو غريب.

في تلك اللحظة يا ماريا دل روساريو، برقت ببالي كلماتك مثل وميض البرق: «ستكون رئيساً، يا نيكولاس بالديبا».

اعتراني دوار، كما لو كنت على حافة منحدر، أرى صورة نفسي منعكسة في الرجل العجوز. هل سينتهي بي الأمر هكذا أيضاً، في مقهى في فيراكروز، ألعب الدومينو وببغاء فضولي جاثم فوق كتفي؟

هذه الرؤية جعلت العرق البارد يتصبب مني في وسط هذه الحرارة الخانقة، الدبقة التي تسود خليج المكسيك.

أعادني الرجل العجوز إلى أرض الواقع.

«هل تظن أنني لم أكن أعرف ما نوعية الناس الذين يتعين عليّ أن أتعامل معهم بصفتي رئيساً؟ اللعنة يا بالديبا، إن علاج الأحدب الوحيد هو الموت، وفي السياسة هناك جحافل منهم، جميعهم محدودبون، جميعهم مصابون بمرض عضال لا يمكن الشفاء منه. لن يصبحوا مستقيمين في حياتهم، حتى عندما يموتون».

أحسست بالضيق الآن. حككت ظهري. لم أستطع ألا

أفعل ذلك - كانت نبرة صوت الرجل العجوز تشي برصانة شديدة، بكآبة شديدة، بل حتى قاتلة.

وتابع كلامه: «بالنسبة لي، يجب على السياسي أن يكون مثل الطيار الياباني: يجب أن يحمل مسدسات، لا مظلة».

قام بحركة غير عادية - حركة سينمائية خارجة مباشرة من أفلام تيرون باور القديمة.

«من بين الكواسمودو والكاميكاز المتطرفين، اخترت أن أكون زورو. الرجل المقنّع الذي يعتقد الجميع بأنه مثالي».

هل ندت عنه تنهيدة؟ أسندت يديّ كلتيهما على ظهر الكرسي الذي أجلس عليه.

لاحظ الرجل العجوز، وقال بصوت حنون: «لا تستعجل. لم ألفظ تنهيدتي الأخيرة بعد. أوه، لو تعرف كم مرّة اعتبروني ميتاً!»

انحنيت إلى الأمام. انتهزت فرصتي.

«لا تمت فوقي قبل أن تخبرني أولاً، يا سيادة الرئيس».

«أخبرك بماذا؟» قال الببغاء، وكأنه كان يتهيأ لطرح هذا السؤال طوال حياته.

كان عليّ أن أضحك.

«السرّ الذي تحتفظ به».

لم يتحرّك قيد أنملة. سواء كان متوقّعاً أم لا، لم يزعجه سؤالي.

«لا يجب على أحد أن يعرف كلّ شيء»، قال بعد برهة طويلة من السكوت، «إن ذلك ليس جيداً للصحة».

«ألا تعني «لا يمكن لأحد أن يعرف كلّ شيء؟» أليس هذا أكثر دقة؟»

«كم أنك مباشر يا سيد بالديبا. كن واقعياً. لا، إنها ليست مسألة يستطيع. بل إنها مسألة يجب».

«لكن الوقت يمر. أناشدك الآن، كالشابّ الذي كنته ذات يوم. لا تجعلني أعود إلى المكسيك خاوي الوفاض».

«لم أكن شاباً على الإطلاق»، أجاب بنبرة تشي بالمرارة، «كان عليّ أن أعاني وأتعلّم الكثير قبل أن أصبح رئيساً. وإلا لكنت عانيت وتعلمت خلال فترة رئاستي، وكان ذلك سيكون على حساب البلد».

رمقني بازدراء ظاهر.

«من تظن نفسك؟»

لاذ بالصمت.

«لا بد أنك فقدت الكثير لكي تكون شخصاً قبل وبعد أن امتلكت السلطة».

«لكن في بعض الأحيان فإن البلد - وليس الزعيم القوي - هو الذي يخسر نتيجة كلّ تلك الأسرار، والدسائس، والطموح الشخصي. وهذا ما أدعوه كارثة»، قلت بصوت ممتلىء وقاراً بقدر ما أمكنني.

«إن الكوارث جيدة»، قال الرجل العجوز، وهو يلعق شفتيه مثل قطة تشاير، «إنها تقوي عزيمة الناس».

«ألا يتحملون ما فيه الكفاية؟» سألت، وقد اعتراني شعور بالسخط الآن.

نظر إليّ الرجل العجوز بمزيج من الشفقة، والعطف، ونفاد صبر.

«انظر: يظن الجميع أنهم يستطيعون أن يسجنوني في دار للمسنين. إنهم يستخفون ببراعتي وحيلتي. لكن حيلتي هي التي تجعلني شخصاً هاماً لا يمكن الاستغناء عنه. أترك القيل والقال للببغاء. إنك هنا لأني أعرف شيئاً يريد الجميع أن يعرفوه، معلومات قد تكون في غاية الأهمية عن خلافة الرئيس».

ضيّق عينيه بشكل شيطاني، يا ماريا دل روساريو.

«هل تظن أني سأبوح بالسرّ وأدعهم يلقون بي في القمامة؟ هل أنت أحمق أم أنك تتظاهر بأنك أبله، أبله؟»

«إني أحترمك يا سيادة الرئيس».

«إن ما أقوله نافذ، لذلك أغلق فمي».

«صدقني، إن استقامتك وصدقك لا يمكن أن يقلل من الاحترام الذي أكنّه لك».

ضحك. تجرأ على الضحك.

«الرفيق بالديبا، إني أؤمن بقانون التعويض السياسي. إن ما أعطيه بيد، آخذه باليد الأخرى. إذا أعطيتك ما تريد، ماذا سآخذ مقابل ذلك؟»

قلقاً، قلت: «هل تطلب ما تستطيع أن تتوقّعه مني؟»

كان ردّه السريع بسرعة البرق: «أو من الناس الذين أرسلوك إلى هنا».

«حمايتي»، دمدمت، مدركاً خطأي الغبي ما إن خرجت الكلمات من فمي.

الرجل العجوز الذي لم يضحك قط توقّف عن الضحك لكنه لم يتوقّف عن الابتسام.

«لا تؤمن أبداً بالشيء الذي لا يصدق. لا تؤمن إلا بالشيء الذي يصدق».

«لكنك لا تقدم لي الشيء الذي لا يصدق ولا الشيء الذي يصدق، الشيء غير المحتمل وغير المدهش. إنك لا تقدم لي شيئاً».

«يا إلهي. ماذا لو قلت لك إن المكسيك بحاجة إلى الأمل؟ شخص يخلق نماذج مثالية مطلقة وحقائق نسبية؟ لتأجيج الخيال؟»

«أظن أنك تخدعني».

«انظر؟ ورغم ذلك فإني أقول لك الحقيقة، الحقيقة كلها. كما إني أعطيك أيضاً مفتاحًا سرّيا، في حالة أنك تريد حقاً أن تعرف ما هو».

«إنك تعطيني حصاة، وأنا أريد الصخرة كلها يا سيادة الرئيس».

«إذا ألقيت حصاة في الماء فإنها تحدث موجة صغيرة، لكن الموجة الصغيرة تحدث موجات عديدة».

توقف برهة: تنهيدة. استسلام.

«وفي النهاية، تصبح جميع الموجات ذاتها».

وفي لحظة استعاد الطاقة التي استنفدت منه، وكأن خليج المكسيك بالوعة ضخمة. في عصر ذلك اليوم، ربما كان كذلك. في زيارتي الأولى، كان الرجل العجوز قد تكلّم عن مدّ الغزاة الذين دخلوا إلى المكسيك عبر فيراكروز. لكن المدّ

يجب أن ينحسر، ويأخذ معه قليلاً من الأرض، الأرض التي استهلكت، لم تعد مرغوبة أو أنه توجد حاجة إليها. ماذا سيجرف مدّ الخليج معه الآن؟ كلّ شيء، قلت لنفسي، إذا تركها الرجل العجوز. لا شيء إذا كان عنيداً بما يكفي لإيقاف الجزر وتدفق البحر.

قال: «إن غيوم المؤامرة تحوم فوق المكسيك ولا يوجد رأس رجل أعلى من الهواء الذي يتنفّسه»، وللمرة الأولى لاحظت نبرة حالمة في صوته - ربما كان متنافراً وغير مبرّر، لكنه مع ذلك حالم. ثم نظر بعيداً باتجاه أحواض السفن، القلعة، الماء...

«هواء ملوّث يا سيدي».

«سأخبرك شيئاً»، قال الرجل العجوز، وقد عاد وجهه ونبرة صوته إلى وضعهما الطبيعي الآن، «إذا أردت أن تتنفّس بسهولة، إذا أردت أن تقطع ذلك الضباب وتضع حداً لكلّ هذه المؤامرات، يجب أن تعيد الأمل إلى البلد».

«مرة أخرى؟» سألته، مستسلماً.

«إني أتحدّث عن رمز»، قال الرئيس السابق، صوته يزداد قوة، «مخدوع، ضائع، مفسد، لا لا يمكن لهذا البلد أن يُنقذ إلا إذا وجد الرمز الذي يمنحه وعداً بأمل جديد».

«لكننا نمنح الناس منذ فترة طويلة أملاً جديداً - كلّ ست سنوات، في الواقع - ثم يفقدونه. هل لديك المفتاح إلى الأمل الأبدي؟»

لاذ بالصمت لوهلة لأنه كان يفكر. ومن باب المجاملة، حاولت ألا أنظر إليه. كان ذلك عندما لاحظت أن العقبان لم تعد تحلّق فوق أولوا، وتساءلت إن كنت قد لاحظتها في كانون الثاني عندما قمت بزيارتي الأولى إلى الرجل العجوز. ربما كان الإحساس بأن العقبان لم تكن تحوم فوقنا قد انتابني من قبل وإنني الآن، وكأن الحياة كانت حلماً، بدأت أشعر للمرة الأولى، بأنني حلمت بذلك من قبل. أم العكس؟ هل شعرت بها أولاً ثم حلمت بها؟

«في يوم من الأيام، كان هناك قط أقدامه مصنوعة من خرق.» قال الببغاء مقاطعاً، مغرداً.

«رمز يعطي أملاً جديداً».

«مرة أخرى؟»

ساد صمت.

تجاسرت على الكلام عنه.

«لقد قلتها للتو. إن المكسيك بحاجة إلى رمز. هل لديك واحد؟»

هزّ رأسه ذا الشعر الأشيب. لقد أعطت خصلة شعره المنحسرة هيبة ونبلاً على قسماته. نظر إلى الأعلى.

«ألم تتساءل لماذا لا تحلّق العقبان فوق أولوا اليوم؟»

الآن، كنت أنا من أجاب بدون كلمات. هززت رأسي.

«كان يعمل في حكومتي وزير أحمق وعديم اللباقة. كانت نصيحتي له على الشكل التالي: «انتبه. إنك متهم»»

«بماذا يا سيادة الرئيس؟»

«بقول الحقيقة».

لاذ بالصمت، يا ماريا دل روساريو.

أظن أنني فهمت يا ماريا دل روساريو.

«ألم تحن اللحظة بعد؟»

«لا. ليس بعد».

«ما الرسالة التي سأنقلها إلى العاصمة؟»

«عندما تعوي ذئاب البراري، اعوي معها. إذ إنك لا تريد أن يظن الناس أنك قط».

«هل تريدني أن أخبرك ثانية؟» هتف الببغاء.

«شكراً يا سيادة الرئيس. هل هذا كلّ شيء؟»

«لا. هناك شيء آخر. لكنه لأذنيك فقط يا بالديبا».

«كلي آذان صاغية».

«إن أسفي الوحيد هو أنني أعرف كلّ شيء، ومع ذلك فإني لن أعرف القصة بكاملها أبداً».

التفت لينظر إلى سان خوان دي ألوا.

«سأستدعيك مرة أخرى لزيارتي، أيها الشابّ. عندما تحين اللحظة».

لم تكن أشجار النخيل التي تغمرها الشمس مرئية في دوائر عينيه العميقة.

«في الوقت ذاته، يمكنني أن أعطيك عنوان الرواية التي لم تكتب بعد».

انتظرته حتى يتكلم.

«الرجل الذي يضع قناع نوبال».

45

من الجنرال سيسيرو أروسا
إلى الجنرال موندراغون فون بيتراب

أيها الجنرال، إن كان هناك أحد يحترم التراتبية العسكرية، فهو أنا، خادمك الوفي سيسيرو أروسا. سامحني إن كنت لجوجاً. وهذه المرة، أبعث إليك مساعدي المخلص ماوسير ليقدم لك شريطاً بصوتي لكي تستمع جيداً إلى إخلاصي وألمي. لقد حان وقت ذلك الآن، يا جنرالي. إن الأحوال في غليان وهذه هي فرصتنا للعمل، لتنفيذ الأشياء التي كنت أنا وأنت نريدها أن تحدث. إن الشيء الوحيد الذي لا يمكننا أن نحتمله هو فراغ السلطة، لكننا نتجه مباشرة إلى ذلك المنحدر. اطرح على نفسك هذا السؤال: متى شوهد الرئيس على الملأ آخر مرة؟ أستطيع أن أقول لك، فأنا أتابع الأمر بدقة. في بداية كانون الثاني، عندما ألقى خطابه وأوقعنا في هذه المشكلة مع الأمريكيين. ومنذ ثلاثة أشهر لم نر ما يدعى وجه رئيس الدولة! فإذا لم يكن ذلك فراغ السلطة المعروف الذي تحدّثنا عنه

جميعنا، فهو حفـرة في قاع جهنم. حفر، حفر، كلّ شيء في الحياة حفـر. تخرج زاحفاً من حفرة، وتقـع في حفرة أخرى، إخرا في حـفرة، إما أن تحشـرها في مؤخرة أحـد، أو تدعهم يحشرونها في مؤخرتنا . سـأكون صريحاً معك، أيها الجنرال. إمّا أن نتصـرّف الآن أو أنهم سيحشرونها فـي مؤخرتينا كلينا. إنك متردد، يمكنني أن أعرف ذلك. يمكنني أن أقول إنك نأيت بنفسك قليلاً عن تابعك الوفي سيسيرو أروسا. ماذا في الأمر؟ ألم يتأخـر الوقت لكي تكتشف فجـأة أي نوع من الرجال أنا؟ سامـحني على صراحتي. لـقد عدت حـيث كنت، في حانة، أيها الجنرال - إنك تعـرف ماذا يقولون، إننا لا ننتـصر إلا في معاركنا التي تدور في الحـانة أو في السرير. أتذكر ذلك الرجل من تاباسكو، غونزاليس بيدريرو، الذي حوّل حياتنا إلى جحيم «بسهم الحقيقـة»؟ ألم يكن غونزاليس بيدريرو هو الذي قال إن الثورة المكسيكية قد تكون قـد خلّفت مليون قتيل، لكنهم قُتلوا في الحانات أثناء عـمليات إطلاق نار وليس في ساحة المـعركة؟ إني أخبرك ذلك لكي أذكّرك فـقط: إنك تعرف من أنا، تعرف من أين أتيت، وتعرف ما أسـتطيع أن أفعله. وإني أذكّرك لأني أريدك أن تكون واثقـاً بشيء واحـد: الصق الـعنف بي. ضع الأموات في عنقي. . . . لن أخـفي شيئـاً عنك، أيها الجنرال، أريدك أن تعرف مع من تتـعامل لكي لا تُخـدع مثل الزوج في الأغنيـة الذي يسأل: «لمن هذا المسـدس؟ لمن هذه الساعـة، لمن

هذا الحصان الذي يصهل في الإسطبل؟»... إني متأسف على صوتي. فعندما أشرب أشعر دائماً برغبة ملحّة في الغناء... تذكّر من يقف إلى جانبك... لقد أخبرتك ذات مرة، أليس كذلك؟ كم أشتاق إلى العنف الحقيقي - ليس تلك التمارين الصغيرة التي نفرّق فيها الاجتماعات بإطلاق الفئران أو بصبّ البول من الشرفات. دعني أذكّرك بأوراق اعتمادي، من أجل راحة بالك. وبصفتي قائداً إقليمياً في ولايات مختلفة من اتحادنا، أيها الجنرال، فقد وضعت حداً للاضطرابات والمتمردين بضربة واحدة من العبقرية المحضة. فقد تخلّصت من زعماء المعارضة في ناياريت بوضع بنزيدرين في شراب الروم والكوكاكولا الذي كانوا يشربونه فيما كانوا يحتفلون بنصر انتخاب أحدهم. لم يعد لديهم شيء يحتفلون به الآن. فقد اختفى مرشّح المعارضة في غوادالايارا بهدوء في موقع بناء للمترو. موقع بناء، مؤخرتي، أيها الجنرال. أشبه بمقبرة... لقد تخلصت من الطلبة الجامعيين المزعجين قبل عشر سنوات بحبسهم في مختبر مليء بالأرانب الموبوءة. والناس لا يعبأون بشيء عندما يتعلق الأمر بالجوع، كما تعرف... أما أولئك الثوّار في تشيباس، فقد أمرت بإطلاق النار عليهم في محل للغسيل في تاكستلا غوتيريز لأني كنت أعرف أن الدمّ يمنح لوناً مغايراً للون تلك الشراشف البيضاء... وعندما حاولت يكاتان أن تنفصل ثانية عن الاتحاد، بدعم من المسؤولين ومن الشعب،

جعلت البيروقراطية بكاملهـا تختفي من الوجود (لا تسألني في أي مكان انتهى بهم الأمـر)، ثم دعوت سكان المدينة إلى زيارة المكاتب الحكومية الفارغة. لم يكن فيها مخلوق.

«خـذوا أمـاكنكم وراء طاولاتكـم»، أمـرتهم، «اجلسـوا وابدأوا عملكم. ألا تفهمون؟ إن الناس الذين كانوا يعملون هنا لن يعودوا».

عندما اندلعت انتـفاضة زاباتيستـا للمرة الألف، هذه المرّة في غويريرو، أمرت عساكـري بأن يرسموا إشارة الصليب على كل بابين من بين ثلاثة أبواب في شـيلبانسيـنغو، ولافتـة كتب عليـهـا «مات هنا كلّ مـن عارض الجنرال سـيـسـيرو أروسـا والحكومة».

هل تعـرف كلّ هذا، أيهـا الجنرال؟ ربما نعم، ربما لا. لا يهمّ. الآن وبعـــد أن أطلق الكحـول لســـاني، أريد أن أقـول بوضوح شديد مع من تتعـامل، أريدك أن تعرف بأني لا أحاول أن أخـدعك. بإمكانك أن تعتـمد عـليّ في تنفيـذ عمليـات محلات الـغسيل مثل تلك التي وقـعت في تاكستلا غـوتيريز، ويمكنك أن تظل مـرتدياً قـفـازاتك البـيـضـاء ولن أدع أحـداً يوسخـها. فـترة صمت طويل، أعـقبـتها صـرخة من فـرقة موسيـقى الشوارع أي-أي-أي، هنا سيـسيـرو أروسا، الجنرال الذي يعرف كـيف يمنح أعداءه قطعـة من الخراء ويوزعـها على

أنهـا حلوى صلبة. أعـداء، أنا؟ لا بد أنك تمزح. إمحِ ذلك، ماوسـير، إن الجنرال بونبون رجل محـترم، ولا نريد أن نسيء إليه... ماوسـير، يجب أن تتعلّم الفرق بين حقيـرين سوقيين مثلي ومثلك، وشاذين مثل الجنرال بونبون.

«اغفر لأعدائك،» قال لي أسقف هوامانتلا ذات يوم، «لا أستطيع» قلت له بجدّية شديدة «لم يبق منهم أحد. لقد قتلتهم عن بكرة أبيهم».

هل رأيت صـور الرجال الذين أطلقت النار عليـهم؟ هناك واحدة معلقة فوق سريري. إنها شهيرة. رئيس عصابة ثائر قبل التقاطها مباشرة. كان يعتمر قبعة راعي البقر. والسيكارة تتدلى من بين شفـتيه. وساق أمام الأخـرى. وإبهاماه مدسـوسان في حلقات حـزامه. ويبـتسم من الأذن إلى الأذن. ينتظر حـاصد الأرواح بأكبر ابتسامة رأيتها في حياتك. هكذا أريد أن أموت يا جنرال، الآن إني سكران لأني أقول لك ذلك لأنك مثل أخي، أخ روحي، ورفيقي في السلاح، هكذا يريد سيسيرو أروسا أن يموت، أن يضحك بشدّة أمام فرقة إعدام الخونة وأبناء الكلاب. «فتـرة توقف طويلة أخرى في التسـجيل». أوه، يا جنرال، لم أحظ بأي قدر من الحظّ في الحياة، متـى سيتحسّن الوضع؟ هذا يتوقف عليك. أصدر الأمر بنفـسك وسأنفّذه أنا. إنه أمر سهل مثل أيّ شيء آخر. الشرطة تتحـمّل وزر الجرائم المرتكبة وبهذه الطريقة نبقي الجـيش بريئاً ونظيفاً. أقـسم لك أني أعرف كيف

أنفّذ الأوامر إلى حدودها القصوى. فليس من فراغ، أن يقول الناس إنه يوجد لدي وجه رجل بدون أصدقاء. لا يوجد لديّ أصدقاء. ليس أنت أيضاً، أيها الجنرال. إني أطيعك. فأنت رئيسي. لكنك لست صديقي. ولن يكون هذا مفيداً لك. إني أؤكد لك. إذ إن صداقتي لك ستكون خطرة على صحتك. من الناحية الأخرى، يمكنك الاعتماد عليّ في ولائي وفي معرفتي الممتازة للمنطقة التي أتوجّه إليها. أعرف أن الأشخاص الذين يمكن الاعتماد عليهم يدعمونني. الحكّام والزعماء المحليون الأقوياء الذين يمارسون السلطة التي يرفض رئيسنا الديمقراطي أن يمارسها لأنه يخيّل له أن المجتمع يستطيع أن يحكم نفسه. نعم، هذا صحيح. يمكن أن يحدث هذا إذا خمدت نار جهنم أولاً. فالمكسيكيون لا يفهمون إلا استخدام القوة العنيفة. كابيزاس في سونورا. كوينترو في تامولبياس. ديلغادو في بايا كاليفورنيا. مالدونادو في سان لويس. لقد سئموا جميعهم من حكومة ديمقراطية غبية، وهم على استعداد للانضمام إلينا... لا أستطيع أن أتحدث باسم الرجل الكبير في تاباسكو لأنك لا تستطيع أن تعرف ماذا سيكون ردّ فعله. ففي يوم يعد بأنه سيقدم دعمه الكامل، وفي اليوم التالي يتراجع عن كلمته. أقول لك ذلك لكي تتأكد من أنني لا أخفي عنك شيئاً، أيها الجنرال. أما المرشّحون الآخرون الذين يتسابقون لخلافة الرئاسة، فإن الذعر سينتابهم عندما يرون أن الموالين لهم، الأشخاص الذين يقودهم الجيش، قد هزموهم في لعبتهم وهم

مستعدون للأخذ بزمام الأمور لمصلحة الأمن القومي. لقد أعددت جنازة عامة للرئيس السابق سيزار ليون. لا، لا، لن أقتله؛ إنك لا تعلن عن الجرائم، بل ترتكبها فقط. وبغية الإيقاع بسيزار ليون، سأنظّم موكباً جنائزياً يمرّ من أمام نافذته ظهراً، لرؤية إن كان قد فهم الإشارة، كما تعرف. أما بيرنال هيريرا، فإننا نستطيع أن ندعه يكون. إنه مثل الرئيس تيران مضاعفاً، ولا يريد أحد فصلاً ثانياً في هذه المسرحية. أما تاسيتو دي لا كانال، فلا يوجد أمامنا من خيار سوى أن نزيله. فهذا اللقيط الأصلع يعرف أسراراً كثيرة قد تلحق الضرر بعدد كبير من الناس. أما الفتى الجديد في وزارة الداخلية، بالديبا، فهو لا يزال غراً، عديم الخبرة. أشكّ في أن يكون قد نما له شعر تحت إبطه. أنا سأعالجه. أما بالنسبة لتلك الثرثارة ماريا دل روساريو غالبان، فإني أعدّ لها مفاجأة صغيرة. يقولون إنها تحبّ المضاجعة، أليس كذلك؟ حسناً، إنها ستجد متعة حقيقية عندما يقتحم بيتها عشرون من رجالي، يحطّمون كلّ شيء، ثم يضاجعونها، جميعهم. لنر، من بقي، أيها الجنرال؟ آه نعم، وزير المالية. سيكون مرشحنا كرئيس مؤقت، وأنا أعني حقاً كلمة مؤقت، لأنه لن يجلس على عرش النسر أكثر من يومين اثنين قبل أن يسلّم كلّ شيء إلى القوات المسلحة - أعني المجلس العسكري، الذي ترأسه أنت أيها الجنرال، بدعمي الوطني لإعادة إرساء النظام، وإعادة الإحساس بالأمن إلى الشعب، وإعادة تنفيذ عقوبة الإعدام. وسنقطع أيدي

اللصوص، وأيور المغتصبين، وسيقان المعتدين، وسنفقأ عيون المختطفين إذا تعين علينا ذلك، لأن هذه أولى الأولويات في هذا البلد - الأمن والجريمة، وهذا هو الشيء الذي يقود وطنيتنا، سلامة شعبنا، لا الطموح الشخصي، ولهذا السبب فإننا سنحصل على الدعم الشعبي. لقد انتهت أيام الإفلات من العقاب. لا أعمال سطو بعد الآن، لا عمليات اختطاف، لا جرائم قتل - إلا تلك التي نعتبرها أنا وأنت ضرورية. النظام، النظام، النظام، النظام. إن أمنيتي... هي... الموت الطبيعي... لكي لا يبقى له وجود. «صوت خافت، كلمات متقطعة» أيها الجنرال، الأغبياء فقط هم الذين يلعبونها بحذر... آه، أعرف أنني مكسيكي متحمّس لأنني أخبرك، لأن كلّ ليلة بالنسبة لي هي يوم استقلال. «صوت تجشؤ مرتفع» ولا تسيء الظن بي لأنني كنت صريحاً معك. أجبني بسرعة، أليس كذلك؟ يجب أن نتحرّك الآن. لقد سرنا على درب طويل واحد معاً، أيها الجنرال. أجبني. إنك تجلس هناك دائماً وتنصت ولا تقول شيئاً على الإطلاق. إني أفهم أن صمتك يعني التحالف والموافقة. شش، لن تدخل أي ذبابة في فمي... تاكيلا فقط. سامحني، أيها الجنرال. لا تجعلني أظن أنك تعيد النظر في خطتنا. لا تجعلني أشعر مثل نبتة صبار قديمة ذات أشواك مهملة إلا إذا أصبحت تثمر... وهل تعرف شيئاً؟ هل قتلت رجلاً من قبل؟ فبعد الرجل الأول، يصبح قتل الآخرين سهلاً...

46

من نيكولاس بالديبا إلى خسوس ريكاردو ماغون

حبيبي، أبعث إليك هذه الرسالة بدون توقيع مع أنك تعرف إلى من هي موجّهة ومن أين جاءت... يا له من عمل رائع، «جاءت». إذ يمكن تصريف هذا الفعل في جميع الأشكال التي يمكن تخيّلها... سأغادر فيراكروز اليوم وسأنتظرك في فندق موكامبو. لا تدع ذلك يزعجك.

إنه نوع من مارينباد على الخليج. فندق يخلّف وراءه مائة عام من العزلة، تسكنه أشباح أيامه الذهبية منذ حوالي عام 1940. تخيّله. قبل ثمانية عقود. إنه مثل متاهة بيضاء. تدخل وتخرج منه دون أن تعرف إلى أين أنت ذاهب. مجرد الدخول إلى غرفة نومك مغامرة لذيذة - أو أنها ستكون كذلك إذا كنت تنتظرني هناك- لقد حجزت غرفتين منفصلتين، لكنني لا أستطيع أن أتحمل الزمن والمسافة التي تفصل بيني وبين جسدك بلون القرفة، مثل تمثال إستوائي ينبض بالحياة، يغصّ بالغابات

والأزهار والسواد والشمس، وبالأماكن السرية والحقول الواسعة المفتوحة.

لا أظن أنني بحاجة لتذكيرك بأنني أحبّ الجنس الآخر بنفس القدر، لأنني أرى وأشتهي في النساء الشيء الذي لا يوجد لديّ. لكنني أحبّك أيضاً، دون أن أنكر طبيعتي بأنني أحبّ الجنس الآخر، لأنني أرى نفسي فيك. وفي النساء أرى الآخر، وأجد ذلك مغرياً للغاية. فيك أرى نفسي وعاطفتي تزداد كآبة. نعم، إننا رجلان، شابان، لكنني سأصبح عجوزاً قبلك، لذلك فإني أعرف أنني عندما أمارس الجنس معك، فإني أمنحك ما تبقّى لديّ من شباب. إني أئتمنك على شبابي. إني أحبّك كما قال القديس خوان الصليب كيف ينبغي للمرء أن يحبّ، أن يكرّر دائماً كلمة «جميل».

من خلال ممارسة الجنس الذي صرّحت به لك، دع أحدنا يرى الآخر في جمالك، لأنه بما أننا واحد والشيء ذاته في الجمال، فإننا نرى كلينا في جمالك، نمتلك جمالك الفريد؛ لذلك، عندما ينظر أحدنا إلى الآخر، فقد يرى كل منا في الآخر جماله هو، بما أن الواحد والآخر هما جمالك أنت، وإن جمالك يغمرني، وبتلك الطريقة، سأراك في جمالك، وستراني أنت في جمالك، وبعدها سأظهر أنا مثلك في جمالك، وستظهر أنت مثلي في جمالك، وسيكون جمالي جمالك، وسيكون جمالك جمالي؛ وبهذه الطريقة سأكون أنت

في جـمالك، وسـتكون أنت أنا في جـمـالك؛ لأن جمـالك سـيكون جمـالي، هكذا سيـرى، أنا وأنت، أحدنا الآخـر في جمالك. . .

إنك لست مرآة نرجسية. إنك البركـة التي نسبح فيها نحن الاثنان عـاريين. إنـك تجـعل جـرحي يلتـئم. إنك جـرحي الرهيف. لم أحبّ في حياتي سوى رجل واحد، وهو أنت.

مـلاحظة: لا تفكّر أن تلج المـاء في موكـامـبـو. فـعلى الساحل توجـد أسماك القرش، وفي أحـيان كثيـرة توجد في الشبكات التي تبعد بضـعة أمتار عن الشاطئ فتحـات. قد تثير فزعك! تذكّر أن الأمر الجيد في أسماك القرش هو أنها لا تظل ثابتة. فإذا توقـفت سمكة قرش عن الحركة، فـإنها تغوص إلى القـاع وتموت هـناك. هل تظن أن سـمك القــرش يحلم وهو يتحـرّك بسهـولة هكذا؟ آه، يا له من سـؤال، يا حبـيبي. ولا تتمشِ عـلى الشاطئ- فلا تـوجد هناك رمال. بل طـين فقط. انتظرني بقـدمين نظيـفـتين. والقِ بهـذه الرسالة إلـى أسمـاك القرش. فإذا أكلوها، فلعلها تتعلم شيـئاً. ستتعلم كيف تحبّ. هل تعرف أن أسماك القـرش تمارس الجنس مرة واحدة فقط في حياتها الحزينة؟

47

من خافيير «سينيكا» ساراغوسا إلى الرئيس لورينزو تيران

بمزيد من الألم، يا سيادة الرئيس، أراجع مسـيرة علاقتنا، لأنني بينما أفعل ذلك، أدرك طوال الوقت أنني ذبابة خيل تنتقد خمولك. ملك جالس على عـرش، بدون حراك، سـاكن، معتقـد أنه يضمن سلام المملكة وسلامتـها. فإذا حرّكت رأسك إلى اليسار، فهذا يعني الحرب والموت. وإذا حرّكته إلى اليمين، فإن ذلك يعني الحرية والرفاه، مشتهاة لكنها طوباوية.

والآن، عندما رأيتك، بعـد أن سـمحت لي بأن أراك، مـستلقـياً في سـريرك، ذاوياً، ضامـراً، يا صـديقي، الآن يا صديقي فقط، أيها الرجل الطيب والصادق، رئيـساً يلهمه حبّه لوطنه.

... الآن إني أراك وأنت فـي سكرة الموت، الآن أفـهم حقاً أن الرئيس لا يصبح رئيساً بالفطرة ولا بالتربية. إنه محصلة

وهم وطني - أو ربما هذيان جماعي. ذات مرة، قلت لك: «القليل من المجد يا سيدي، والمزيد من الحرية».

كم تكون السياسة فظيعة وقاسية: فما إن تختفي، حتى تصبح مسألة أيام معدودة قبل أن يضيع مجدك وحريتنا إلى الأبد. يا سيادة الرئيس، لقد تركت مسألة خلافتك معلقة وبدون حلّ. كيف يمكننا أن نتأكد من أن الرئيس القادم هو شخص مثلك، سياسي وشخص محترم مثل بيرنال هيريرا، لا أفعى مثل تاسيتو دي لا كانال؟

كم تبدو نصيحتي السابقة لك فارغة وكئيبة اليوم، يا رئيسي ويا صديقي المحبوب: «استغل فترة السماح في بداية الرئاسة. إن شهر العسل قصير. والروابط الديمقراطية تقل قيمتها من يوم إلى يوم».

«إن القاعدة الأولى لممارسة السلطة، يا سيادة الرئيس، هي أن تتجاهل عظمة منصبك».

«إن الرئاسة مثل النظام الشمسي: أنت الشمس، ووزراؤك الأقمار التي تدور في فلكك. لكنك لست الله، ولا هم ملائكة».

وقلت لك آنذاك: «إن فن السياسة ليس فن الممكن. إنها رسوم غير متوقعة. إنها خربشة الحظ».

«رئيسي المسكين! يا من أزعجتك سنوات ثلاث من براغماتية هيريرا، وتملّق تاسيتو، ومثالية سينيكا! ماذا كنت

سأقول لك لو كان هذا هو اليـوم الأول لك على عرش النسر؟ سأذكّـرك بأفضل جـوانب دكتـاتوريتنا التقلـيدية الخيّـرة، لكي تؤيّدها أو تتـحـاشاها كـمـا تراه مناسبـاً»: «يجب ألا تخـشى الرئيس السلبي بل الرئيس النشيط إلى حد لا يتوقف»:

بالنسـبة لك كـان العكس صـحيـحاً دائمـاً. فقـد أثارت سلبيـتك شكوكاً أكثـر مما أثاره تصرفك. ولعلك الآن، تشـعر بإغواء السلـطة الهائل. لكي تكون زعـيماً يسـتنفر طاقـة الأمة ويخضعنا جميعنا إلى الاستسلام الشهواني للطاعة التامة.

هذا هو أسهل شيء.

الشيء الأكثر راحة.

لكنه أيضـا الشـيء الأكـثـر خطورة. وقـد تفـاديت ذلك الخطر، يا عزيزي الرئيس المحبوب.

ذات يوم قلت لي: «إنهم يعتقدون أنهم يخدعونني بتقديم تلك التقارير اللانهائية لي لأقـرأها. يعتقدون إنني خامل وكأن ذبابة النوم قـد لدغتني. إنهـم مخطئـون. فأنا أقـرأ في الليل، وأعرف كلّ شيء. لقد خدعتهم. أستطيع أن أنام نوماً هانئاً في الليل».

نعم، لكن الصورة السلبـية التي أحدثتهـا قد يُساء فهـمها الآن. قد يبدأ الناس يطالبـون برئيس نشيط لأن السلطة تستطيع

أن تغيّر وجهها من يوم لآخر (تذكر تعاقب الرؤساء السابقين، من مادرو إلى فوكس). إن عامّة الناس يغذّون التناقض ويعشقون التضاد والتناقض.

شكراً لك، يا صديقي العزيز، الرئيس لورينزو تيران، لأنك سمحت لي أن أدخل إلى غرفة نومك، حيث ترقد طريح الفراش، محاطاً بالممرضات، والأطباء، والأنابيب الوريدية، والمسكّنات. أشكرك لأنك منحتني الفرصة لأن أرى حياتك بالكامل.

لا أعرف إن كان أحدنا سيرى الآخر مرة أخرى. أعرف أنك لم تسمح لأحد سوى بعوضتك المخلصة سينيكا أن يدخل هذه الغرفة حيث تدنو السلطة من نهايتها.

الوداع، يا سيادة الرئيس...

48

من عضوة الكونغرس بولينا تارديغاردا إلى عضو الكونغرس أونيسمو كانابال

سيسلمك هذه الرسالة، السيد خسوس ريكاردو ماغون، أحد مساعدي وزير الداخلية الجديد، نيكولاس بالديبا. إنني أضحك. أستطيع أن أراك الآن، وقد أحمرّ وجهك وأصبح بلون الشوندر لمجرد الفكرة بأني أبيح أسراراً إلى موظف حكومي، مهما كانت درجته الوظيفية متدنية. أنا وأنت، يا أونيسمو، بتصميمنا وخدعنا السياسية، يمكننا أن نعيد الكونغرس كما كان، وأن نضع بضع عقبات في طريق الحكومة... أنا وأنت، يا أونيسمو، لدينا العقل الذي نحتاجه لاستغلال السلطة المتصاعدة لحكومة حزبنا ولأن نجعل الحياة جحيماً للورينزو تيران...

لقد طلبت الحذر والتعقل. سأمنحك ذلك يا أونيسمو، بالإضافة إلى هدية. إن الوسيط هو الرسالة، كما قالوا منذ خمسين سنة، لذلك إذا كان مساعد بالديبا الصغير ماغون هو الوسيط، فلتكن هذه الرسالة أيضاً.

هكذا إذن. إن الساحل خال لنا لكي نقوم بعملنا. سأكون صريحة معك واتجه مباشرة إلى الموضوع. إن قراءة سيسيرو أروسا عن الأوضاع الداخلية المحلية للبلد غير صحيحة. إن أروسا ما هو إلا أثر متبق من عصر آخر، لقد انتهى زمنه. إنه يؤمن بأن القوة العنيفة هي الرد الوحيد على المشاكل، وأن القوة العنيفة لا يمكن أن ينفذها إلا الجيش. إنه خيال متطرف نوعاً ما: إنه يريد أن يوحد جميع الحكّام والرؤساء المحليّين ثم يقوم بانقلاب عسكري لكي يتمكن من ملء ما يدعوه «فراغ السلطة» (من أين يمكن أن يكون قد تعلّم ذلك؟) الذي أحدثته سلبية الرئيس لورينزو تيران.

لقد تكلمت مع زعماء كل قاعدة من قواعد السلطة المحلية، وها أنذا أخبرك، إنهم مسرورون بسلبية الرئيس. إنهم سعيدون لأن ذلك يصب في مصلحتهم. كيف لا يمكنهم أن يكونوا سعداء بغياب سلطة مركزية؟ فهم يستطيعون الآن أن يفعلوا ما يحلوا لهم. قل لي إن لم يكن كابيزاس في سونورا سعيداً لأنه أصبح يحكم ولايته بدون أي تدخل من الحكومة. أو انظر إلى «شيشو» ديلغادو في تيوانا، وهو يعقد الصفقات مع ذئب البراري الذي يقوم بتهريب الأشخاص غير الشرعيين عبر الحدود ودوريات الهجرة الأمريكية التي لا تسمح لهم بالدخول - إلى أن يبتزّ الحاكم ديلغادو واحداً ويدفع للآخر. إنه شيء مخجل، يا عزيزي أونيسمو، شيء يثير الغضب أن ترى قوات حفظ القانون والنظام في الولايات المتحدة قد

أصبحت فاسدة للغاية. إني أشعر بالخجل. ألم أقل دائماً إن الأمريكيين يعرفون كيف يستطيعون مضاعفة أيّ رذيلة من رذائل المكسيك بالآلاف؟

دعني أحكي لك نكتة صغيرة بين الحين والآخر، يا عضو الكونغرس. أنت الذي تعاملني وكأنني راهبة... إني أتكلم بجدّية مرة أخرى الآن. تخبرني إن كان روكي مالدونادو في سان لويس بوتوسي غير سعيد لأنه يتعامل مع مستثمريه اليابانيين مباشرة؛ يعقد صفقات في إل غارغاليوت، ذلك المأوى الغامض في بوتوسي الذي كان يملكه ذات يوم الرجل القوي الأسطوري غونزالو ن. سانتوس، ويمتلك ثروة لا يحلم بها حتى سانتوس الثوري المجد طوال حياته، بما إن مالدونادو يحصل على عمولة كبيرة دون تدّخل من الحكومة المركزية.

تقول لي إن كان capo di tutti capi سيلفيستري باردو يريد حكومة متطفّلة تحدث موجات في امبراطوريته ناكروميكس. هل هناك حاجة لأن أقول المزيد؟ لا يوجد هناك حاكم واحد، ولا زعيم محليّ، أو مهرّب مخدرات يريد حكومة عسكرية على رأسها سيسيرو أروسا، الذي سيحصل على حصة الأسد عندما يتعلق الأمر بما يسمّى توزيع الأرباح. إما أن يكون جنرالنا أعمى أو مجنونًا، أو غبيًا تماماً. لقد أحبطته حساباته إلى حد يثير الشفقة. سيجد نفسه وحيداً تماماً في هذا الانقلاب.

الآن هل ترى أهمية أن تعرف الحكومة، ولماذا يجب أن يكون الحبيب الصغير خسوس ريكاردو ماغون، بوجهه الملائكي الذي لا يقاوم، هو مبعوثي؟

إني أضحك يا أونيسمو، لكن انظر إليّ. الشخص الوحيد الذي نسيناه هو الرجل القوي الطموح الماكر من تاباسكو، هومبيرتو بيداليس، «اليد السوداء». إنه لا يرفع عينيه عن عرش النسر، لكن بما أن ذلك خارج قدرته (لكي تكون الوغد في مسلسل تلفزيوني، يجب أن تعرف كيف تكون كتوماً؛ لا يمكنك أن تسير زاماً شفتيك، رافعاً حاجبيك، ومرتدياً قبعة كروز ديابلو). فإنه على قناعة بأن أحد أبنائه التسعة الأشرار الذين يصفهم هكذا بمودّة شديدة، سيجلس، آجلاً أم عاجلاً، على كرسي العرش ويستردّ حقّه الذي منحه إياه الله - أو هكذا يظن - في الرئاسة.

أما المرشّح الذي ندعمه يا أونيسمو، فلنطلب منه أن يستمر في التزام الهدوء وأن الشيء الوحيد الذي يجب أن نقلق منه (قليلاً فقط) هو ذلك الشرّير من تاباسكو. أما الزعماء المحليون الآخرون، فإذا ابتعدنا عن شؤونهم، فإنهم سيفعلون ما نريده، وهو ألا نهزّ القارب وألا نمس مصالحهم.

ومن نحن، يا صديقي الموقر؟ ماذا نريد؟ إن ما نريده أن نكون العامل الحاسم في خلافة الرئاسة في 2024. اجرِ إحصاء عددياً بالرأس يا أونيسمو. وعلى عكس ما يظنه المرء، لا توجد

لأروسا علاقة بهذا للأسباب التي أوضحتها للتو، وهي أفضل نتيجة ممكنة للمهمّة التي تراها مناسبة لكي تأتمنني عليها.

لا توجد لسيزار ليون فرصة مباشرة في إعادة انتخابه. إذ إن ذلك يعني تغيير الدستور ولا يعلم إلا الله كم سيستغرق ذلك. على أية حال، يمكننا أنا وأنت أن نطيل هذه المدة إلى أجل غير محدد.

اسمع: للكونغرس ثلاث مهام: الأولى، إقرار القوانين. والثانية، الحيلولة دون إقرار القوانين. لكن المهمة الأكثر أهمية تتمثل في تأجيل القضايا إلى أجل غير محدد، في أن لا يُحلّ شيء على الإطلاق، وأن يبقى جدول الأعمال مليئاً بالأعمال غير المنتهية... وإذا لم يكن الأمر كذلك، يا صديقي العزيز، فماذا سنفعل أنا وأنت هنا؟ ما الهدف من هذه العملية إذا لم نستخدم قدرتنا على تأجيل كلّ شيء بقدر ما نستطيع؟

«كوني حذرة»، قلت لي، «فلا تريدين أن ينتهي بك الأمر أن تصبحي عضواً مؤسّساً لجمعية منتصف آذار».

كم ازدادت ثقافتك يا أونيسمو. لا عجب أنك كنت وزيراً للزراعة في عهد سيزار ليون. يجب أن نؤسس أنا وأنت جمعية كاليندس الإغريقي...

دعني أواصل. أندينو ألماسان، ببساطة شديدة، لا يقدّره الناس. وباستثناء لوبيز بورتيلو، لم يصبح وزير للمالية رئيساً

على الإطلاق. إنه حقاً الوغد في هذا المسلسل التلفزيوني الصغير، الذي أمضى ستّ سنوات وهو يقول لا لكلّ شخص يطلب منه مالاً. يبدو أنه مكروه من مهنته، وما يريده الناخبون أن يحبّوا، حتى لفترة قصيرة قبل أن يشعروا بالخذلان.

إذن لم يبق أمامنا سوى مرشّحين جدّيين. هما بيرنال هيريرا وتاسيتو دي لا كانال.

لا تخف إذا قلت إنه يجب التخلص من تاسيتو.

فقد أرسل لي نيكولاس بالديبا، عن طريق ماغون الشاب، نسخاً من الوثائق التي تثبت سلوك تاسيتو الإجرامي في المفاوضات مع شركة MEXEN. لا أعرف كيف سمح هذا المحتال لموظف في الأرشيف أن يصنّف هذه الأوراق التي تثبت تورطه في الجريمة. ماغون، ابن موظف الأرشيف، يقول إن أباه لا يدع ورقة واحدة تختفي. قد يكون ذلك صحيحاً. لكن مع ذلك، لماذا ترك تاسيتو الوثائق تذهب إلى الأرشيف بدلاً من أن يرسلها مباشرة إلى آلة تقطيع الأوراق؟ إن الشيء الوحيد الذي يخطر ببالي أن ذلك ربما كان جزءاً من أرض الفخر الموحلة المرتبطة بكبرياء السلطة، يا أونيسمو (كلمة فسرتها لك مرتين ولن أفسرها مرة ثالثة). الكبرياء هو الذي جعل الرئيس نيكسون، مثلاً، ينقذ جميع الأشرطة بحماس شديد، الأشرطة التي تثبت أنه مجرم مقزز للنفس والتي أدت إلى طرده نهائياً من البيت الأبيض. ستجدهم في جميع المستويات، يا أونيسمو

- حكّامًا يحتفظون بأشرطة تصــور جرائم القتل التي اقترفوها، قادة عسكريون يصوّرون عمليات إطلاق النار، معذّبين يعشقون إعادة مــشاهدة أعمــالهم الوحشيــة على الشاشــة. هل يختلف تاسيتــو عنهم؟ لا أظن ذلك، فقد كان لدى نيكــسون، بالعودة إلى أفضل مثال لنا، أرشيف بعنوان «ملفات البيت الأبيض» كان يضم سجلاً كامــلاً عن جميع تصرفاته اللا أخلاقــية وجرائمه، لكنه كان جــاهزاً للتخلص منه من البـيت الأبيض إذا ما خــسر الانتخابات.

من المؤكد أن ثمة شيئًا مريبًا يجري مع تاسيتا. توقيعه على الوثائق. لكن يمكن تزوير التــواقيع بســهولة. إني أسـأل نفسي الآن هذا السؤال: من سلّم هذه الأوراق إلى كاســتولو ماغون، مــوظف الأرشيف؟ لا أظن أنه دي لا كــانال. لو اســتطعنا أن نعرف من قــال له، «دون كاستــولو، لا تنس أن تضع هذه في الملف.» عندها سيُحَلّ لغزنا.

أكرّر. يجب إقصاء تاسيتو. يوجد لدى ماريا دل روساريو جــميع الوثائــق الأصلية وقــد أفــضت بهذا الســرّ إلى عــزيزها نيكولاس بالديبا الذي رفعته إلى القمة، وبالطبع أفضت به أيضاً إلى بيرنال هيريرا، عشيقها السابق والمرشّح الآخر لعرش النسر.

نيكولاس بالــديبــا، أكــرّر، أرسل لي (بواســطة مــاغــون الشاب) نسخاً عن الوثائق التي تثبت سلوك تاسيتو الإجرامي في قضية MEXEN. ومرة أخرى، كـيف يمكن لهذا الكلب الماكر

أن يهمل الحقيقة بأن موظف الأرشيف يحتفظ بهذا الدليل التجريمي؟ لا أستطيع أن أعرف. لكنني أرى الآن السبب الذي جعل الرئيس تيران يفعل كلّ ما بوسعه أن يفعله للتعجيل باستقالة تاسيتو.

وهيريرا أيضاً. فقد ظهر هيريرا على أنه الشخص المفضل. لقد أخبرني ماغون أن الرئيس نفسه هو الذي خنق القصة التي اختلقها تاسيتو ضد ماريا دل روساريو وهيريرا، وأوضح خلال ذلك أن هيريرا هو الشخص الذي اختاره.

هذه أفضل صورة عن الأشياء المتاحة لدينا الآن. حسناً يا أونيسمو، إن الصورة الحقيقية تحيط بجميع هذه الاحتمالات، باستثناء شيء صغير واحد: أن القضية الخفية هنا لن تكون قضية المرشّح للرئاسة، كما أصبحنا نظن، بل قضية الرئيس بالوكالة في حالة استقالة الرئيس أو غيابه عن منصبه.

أستطيع أن أرى وجهك. لا تبدِ دهشتك. ولا تظنّ أن تخطيطات سيزار ليون السرية أو تهديدات سيسيرو أروسا قد تدفع الرئيس إلى الاستقالة. ثمة شيء أكبر بكثير يجري هنا. شيء كبير جداً. فقد أخبرني ماغون الشاب أن بالديبا أخبره أن مستشار الرئيس المؤتمن سينيكا رأى تيران في حالة من الوهن الجسدي الشديد.

كيف عرف بالديبا ذلك؟ لأن سينيكا أخبر ماريا دل روساريو، التي يعشقها سراً، ثم أخبرت إيفا بيرون الصغيرة

صنيعها بالديبا بذلك. هكذا هو الأمر، يا أونيسمو. كل شخص يتجسّس على الآخر، ويسرق الوثائق من أحدهما الآخر، وبل ربّما يتجسّسون على أنفسهم عندما لا ينظر أحد... إنه الشيء الذي يؤكّد الفكرة القائلة بأن الأسرار في السياسة مفتوحة والأصوات الأعلى فقط هي التي تفشي الأسرار. حاول أن تكشف اللغز الكامن في ما تعرف، يا أونيسمو، وانس الأسرار: إنها أوعية فارغة. حيرة. من الأفضل أن تفكر - وأن تمعن في التفكير - بما تعرفه. هنا يكمن اللغز.

49

من ماريا دل روساريو غالبان إلى بيرنال هيريرا

مات الرئيس لورينزو تيران. إن ذلك أشبه بفقدان أب طيب، يا بيرنال. لقد عشت طوال حياتي مع صورة أبي البغيضة، الذي كان استبدادياً وفاسداً، والذي أراه أحياناً في كوابيسي. أستيقظ، وأنا أصرخ به، «ابتعد! اختف! إن كونك ميتًا أسوأ بكثير مما كنت على قيد الحياة!» عندما مات فرانكو خوان غويتيزولو، الذي كان مناهضاً لفرانكو (يبلغ من العمر الآن تسعة وثمانين عاماً ويعيش حالياً في مكان ما في «المدينة» في مراكش)، لم يتمكن من أن يصلي على روح زوج أمه الذي أخضع الإسبان مدة أربعين سنة.

ومن الناحية الأخرى، كان لورينزو تيران، أباً طيباً. ربما كان في غاية الطيبة. كنت أدعوه «أبي»، لكنه كان حقاً ابننا. ابنك وابني، يا بيرنال. لقد صنعناه نحن. لقد أقنعناه بأن يتخلى عن أعماله التجارية في كوهويلا ويصبح رئيساً في وسط

كارثتنا المتعددة الأحزاب، التي لم يخرج منها ولا فريق سياسي واحد بدون انتقاد حاد، وكأنهم أطفال مدللون مصابون بمرض الحصبة محبوسون في غرفة واحدة.

من الناحية الأخرى، كان لورينزو تيران، نظيفاً، حراً، ومجداً. ولم يكن ذلك كافياً، يا بيرنال، فقد كان رجلنا. ومع ذلك، فقد اتخذنا أنا وأنت القرار. بأن لا نؤثر عليه. أن نكون وفيين وموالين له وأن نحترم منصبه واستقلاله الذاتي. أن نخدمه. أن ننصحه. لكننا لن نعامله وكأنه دمية. هل كنا مخطئين؟ هل كان ينبغي أن نضغط عليه أكثر؟ هل كان علينا أن نكون أكثر من مجرد مستشارين وخادمين وفيين؟ هل أدرك الرئيس أنه يجب أن يشكرك على جميع مظاهر القوة تلك: الإضرابات، الطلاب، الفلاحون؟ كنت أنت من يتصرّف. كنت تقدم للرئيس دائماً سياسة الأمر الواقع. ولأن لورينزو تيران كان مماحكاً في حملته، فقد قرّر أن يصبح قدّيساً في منصبه. لقد تسلّق إلى أعلى العمود لكي يتمكن من خدمة الله، وقد اختار أن يدع المجتمع يحكم نفسه.

كان علينا، أنا وأنت أن نتصرّف نيابة عنه. كانت تلك طريقتنا في أن نكون وفيين له. لم نؤثر عليه. احترمنا استقلاله الذاتي. لكننا ملأنا له الفجوات. وبما أنه لم يكلفنا بأي مهمّة، فقد فعلنا كل ما بوسعنا. كان بإمكانك أن تفعل الكثير في وزارة الداخلية، لكن ليس كلّ شيء. أظن أنه كانت هناك

طوباوية مفقودة في مكان ما في قلب لورينزو تيران. وكان الشخص الوحيد الذي كان يستمع له -لسوء الحظ، بالنسبة لنا- سينيكا، وقد أدى ذلك إلى استجابة شريرة من الأمريكيين. كان يجب توقع ذلك.

كان دوري محدوداً لأنني امرأة. فرغم كل التقدم الذي أحرزناه، فإن القانون غير المكتوب لا يزال هو الذي يسود في هذا البلد: يمكن أن تُغفر للرجل جميع آثامه. لكن للمرأة لا.

يمكنني أن أرى أنك تبتسم، يا بيرنال. إنك رجل طيب. إنك كريم. مرة واحدة فقط وجهت لي اللوم لأنني لم أكن حذرة، عندما دخلت في ذلك الجدال مع تاسيتو دي لا كانال. كنت محقّاً. لقد هيمنت عليّ هورموناتي. مرة أخرى، أطلب منك أن تسامحني. فلم أخرق ميثاقنا السياسي. الحذر، الحذر، الحذر. إن الشيء السيء المتعلق بالسلطة أنها تمنح المرء إحساساً بالحصانة. وكلما تعوّدت عليها أكثر، ازددت طيشاً.

أقسم بأني لن أرتكب ذلك الخطأ ثانية. لذلك فإني أسجل كلّ شيء كتابة، لكي يكون لدينا سجلّ هذه المرة بما اقترحته عليّ البارحة أثناء جنازة الرئيس تيران، فيما كنا نصلي أنا وأنت جنباً إلى جنب في كاتدرائية العاصمة.

إنك تفكّر بمستقبلك، كما أفكر أنا. إن موت الرئيس لا يحرّك التقويم السياسي إلى الأمام فقط، بل يغيّره. كم تتغيّر

الأشيـاء بسرعـة في السيـاسة! هناك عـدد أكبر مـن الصدوع، الممرات الملتوية، شلالات، خلجان، دروب ضـيقة، جزر غير مرئية، اختناقات، مـضائق ووديان بطول الأمازون! عندما قلت لنيكولاس بالديبـا: «سـتكون رئيس المكسـيك»، كنت أريد أن أجس نبـضـه. كنت أظن أن الأمر سـيكون هذا أو ذاك. إمـا سيعـتبر أن ذلك تحدياً إروتيكياً، وعـداً جنسياً لا أزال أؤجله، نزوة امرأة: «تعـال أضمك بين ذراعي، يا حلوي الصغـير. . . كن رئيس جمهـورية سريري. ألم تفهم ما أقـصد؟ إن سريري هو الرئاسة المكسيكية الحقيقية، سخيف. . .».

أم أن ما يدفعك هو الطمـوح. لم يكن يعيش في أوهام. كنت أعمل من أجلك. لكن السيـاسة هي «ما يفعله المرء لكي يتمكن من إخفاء حقيقة ما هو وما لا يعرف». وكان نيكولاس بالديبا ذكياً، جريئاً، وجمـيلاً بما يكفي لفهم هذا الاقتراح. إما كل شيء أو لا شيء.

تبين أنه يريد كلّ شيء. سيكون نائباً للرئيس. لا تنظر إليّ هكذا يا حـبيـبي. يجب أن أكـون قادرة علـى كتـمان سـرّ أو سرّين. لا يمكن إنكار هذا الحق على امرأة. هل لاحظت كيف يمكننا أن نحصل على الأسـرار بسهولة من الرجـال؟ من القول القديم «إذا لم تخبرني، فإني سأغضب» إلى «احتفظ بأسرارك، فإني سأغادر». بيرنال، لقد علمت بعلاقتي مع لورينزو تيران، فهو الذي حمى ابننا المسكين. أردت أن أشكره. أمـضينا بضعة

أسابيع من الحبّ عندما ذهبت إلى الولايات المتحدة. التقينا في هيوستن. أراني صور الأشعة. بيرنال، كنت أعرف أن الرئيس سيموت. لم أكن أعرف متى أو كيف، لكن كان علينا أن نكون مستعدين. لقد فعلت ذلك من أجلك يا حبيبي. فإذا عاش الرئيس حتى انتخابات 2024، فإن بالديبا سيحمينا في لوس بينوس. لكنه إذا مات وهو في منصبه، فمن سيكون أكثر مرونة من بالديبا، الذي خلقناه نحن، لكي يكون نائباً للرئيس بينما نستعد لانتخابك؟ كانت تلك خطتي. نعم، إن السياسة هي «ما يفعله المرء بحيث يستطيع أن يخفي ما هو وما لا يعرف». وكان الأمر مع بالديبا حالة من الفوز كلها. فمن مكتب الرئيس إلى أن أصبح وكيلاً لوزير الداخلية حتى أصبح في موقع المسؤولية اليوم. سامحني إن أخطأت. لنشترك في نجاحنا. سيرشح الكونغرس نائباً للرئيس. لدينا رجلنا. بالديبا. لقد هيأناه لهذا الأمر. سيدعو إلى إجراء انتخابات في تموز 2024، وستكون أنت مرشّح الشعب مرة أخرى. فمن ينتخب رئيس جمهورية المكسيك؟ إذ يدعي سبعون في المائة من السكان بأنهم لا ينتسبون إلى أحزاب. من يمكنه أن يتحداك؟ لقد أزيح تاسيتو. وأندينو لا يصلح لشغل هذا المنصب. لا يوجد لدى أحد في «وزارة الأبطال» تلك، كما كانوا يسمونها في بداية القرن، القدرة على شغله.

هناك إغراءات: الجيش. هناك لغز أولوا والرجل العجوز تحت القنطرة الذي لن يكشف عنه، حتى لو أُخضع للتعذيب.

إنه سيأخذ ذلك السرّ معه إلى قبره. فقد يقتل التعذيب رجلاً عجوزاً مثله، وسيكون ذلك في جميع الأحوال عملاً وحشياً مقززاً. وهناك مسألة الآنسة التعيسة دي لا غارسا، التي لا تزال تكتب رسائل غرامية إلى مرشّح الرئاسة الميت، توماس موكتيزوما مورو.

باختصار، يا بيرنال، يجب أن تجد لنفسك منافساً. فقد كان لوبيز بورتيلو آخر رئيس رشح للرئاسة بدون منافسة، وتذكّر كيف أصبح عليه الحال. لقد دمره زهوه وغطرسته.

من سيكون منافسك في انتخابات 2024 يا بيرنال؟

هذا هو الشيء الذي يجب أن يشغلنا، لا أغاني الحبّ المجنونة التي تغنيها. فأنت في الثانية والخمسين من العمر يا بيرنال، وأنا في التاسعة والأربعين، لنواجه الأمر.

عندما بدأت ترتل الصلوات الجنائزية في الكاتدرائية، همست في أذني، «ماريا دل روساريو، لقد أجّلنا زواجنا إلى ربع قرن. إننا نعرف السبب. أما الآن... فكّري كم من المهم أن يكون مرشّح الرئاسة متزوجاً».

«كان الرئيس تيران عازباً...»

«لكنه عاش كراهب، الجميع يعرفون ذلك. كان نزيهاً. لكن رئيسين متتاليين، يا ماريا دل روساريو، رئيسين متتاليين، هيا، إنهم سيظنون أنني شاذ جنسياً».

أخفيت ضحكتي وراء حجابي الأسود.

«إذن ابحث عن امرأة أخرى، يا بيرنال».

«ماروشا، أنت المرأة الوحيدة التي أحبها».

سامحني. لم أكن أنوي أن أكسر المسبحة التي كانت في يدي. فقد تبعثرت حبات الخرز مصدرة صوتاً عالياً في المكان.

«لنتحدّث عن هذا الأمر في وقت لاحق».

«لا، الآن».

«في الرتل أثناء تناول القربان المقدس إذن سنتهامس».

ماذا قلت لك يا بيرنال، بينما كنا ننتظر في الرتل الطويل البطيء لتناول القربان المقدس؟ ماذا قلت لك؟ لندّون ذلك:

«جميع الرجال يخافون المرأة التي تستطيع أن تفكر وتتصرف من تلقاء نفسها. جميع الرجال يخشون المرأة القوية التي تستطيع أن تعتمد على نفسها. إني أريد أن أتصرف من تلقاء نفسي وألا أثير الخوف في زوجي. إني أقول لك هذا لصالحك. ولهذا السبب لم أتزوجك عندما كنا شابين. لا تشفق عليّ أبداً. هل تطلبين من رجل أن يتخلى عن أصدقائه؟ مطاعمه، عاداته؟ أنا لا أقبل ذلك. لماذا أُجبر شخصاً آخر لكي يكون ما لا أريد أن أكون؟ دعني أكون المرأة التي هي أنا. لا تنس، فأنا ابنة رجل كان يبث الخوف، وأشعر بأنه من المبرر أن

أتصرف في عالم السياسة كما كان يتصرف في عالم التجارة. إني أبرر لنفسي، يا بيرنال، بالقول إن لديه طاقة شرّيرة - فلم يكن يريد أن يجمع أموالاً فقط، بل كان يريد أن يكون هو المال - بينما يلهمني أنا الصالح العام، بطريقة ملتوية، يمكنك أن تقول. اضحك إذا أردت، لكن من الأفضل أن تفعل ذلك بصمت لأننا في وسط «مبارك أنت أيها الرب». فكّر بالموضوع، مع ذلك، وتذكّر أنه يوجد لديّ عيب كبير واحد. فأنا لا أعرف كيف أكون زوجة جيدة. لا أعرف كيف أشارك، أضحك، أجامل. لكن الشيء الوحيد الذي أعرفه هو كيف أضع المكائد، لكني - آمل - أني أفعل ذلك بأسلوب معين جدير بحلفائي. قد أكون لا أعرف كيف أحبّ رجلاً. لكنني أعرف كيف أحترم صديقاً، مثلك...».

جاثيين، جنباً إلى جنب أمام المذبح: تلقينا جسد المسيح من يدي رئيس أساقفة المكسيك، بيلايو كاردينال مونغويا.

وعندما انتهت الصلاة، عرضت عليّ أن توصلني بسيارتك. وبينما كنت تقود السيارة قلت لي إني لم أساعد في حلّ مشكلتك. فالرجل يحتاج إلى السيدة الأولى إلى جانبه في لوس بينوس. يجب على الرئيس أن يتمكن من القول: «عندي حياتي الخاصة».

كان عليّ أن أسخر من هذا.

«لدينا جميعنا الحق في أن نعيش حياتنا الخاصة. من منا يستطيع أن يدفع لقاء ذلك. ولو تزوجتك، لا تستطيع أي كمية من المال أن تعوّض عن عدم سعادتنا».

«إنك الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أحكي له عن الأمور خارج السياسة، هل تعرفين ذلك؟»

«ينتابني الإحساس ذاته تجاهك. لنترك الأمور كما هي. سيكون زواجنا أكذوبة».

«أليست الحياة السياسية أكذوبة؟»

«نعم، ولهذا السبب فهي كثيرة المطالب».

«ماذا تعني؟»

«أن تكذب بنجاح يحتاج قدراً كبيراً من الزمن والانتباه. إن بث الأكاذيب بنجاح عمل لا يتوقف. وهذا تماماً ما تتيحه الحياة السياسية».

«هل لا تزالين تمتلكين الطاقة؟»

«انظر إلى نفسك في المرآة الخلفية يا بيرنال. لننظر كلانا. هل تظن أننا الشخصان ذاتهما كما كنّا قبل عشرين سنة؟ ماذا تقول لك تلك المرآة الصغيرة يا بيرنال؟»

بدا صوتك حزيناً للغاية يا حبيبي.

«إننا لا نستطيع أن نعيد عقارب الساعة إلى الوراء».

أصبحت شابولتيبيك مزاراً لموسيقى الروك، ترتعش من جميع الحفلات الموسيقية الخيرية، صاخبة جداً إلى حد أن بعض الناس يدّعون أنهم رأوا الأشباح التي لا تنام، ماكسيمليان وكارلوتا والصبية الجنود الذين لقوا حتفهم هناك وهم يقومون من بين الموتى ويتجولون بين حشود أنصار مايك جاغر. مايك جاغر هنا ليحتفل بعيد ميلاده السابع والسبعين إنه عجوز خرف مصاب بالإمساك أكثر من كونه نجم روك، مثل جميع الهبيين العجائز.

وأخيراً لوس بينوس، مقر الرئاسة والمكتب الذي جاء إليه جميع رؤساء الدول والسفراء الأجانب، والمجموعات السياسية ليعربوا عن حزنهم. من كان هناك في استقبالهم؟ بشكل طبيعي، رئيس الكونغرس، أونيسمو كانابال، ورئيس المحكمة العليا، خافيير ويمير سامبرانو، ووزير الداخلية، نيكولاس بالديبا. ولن يتم انتخاب الرئيس بالوكالة حتى تنتهي المراسم تكريماً للرئيس لورينزو تيران ويعود السياسيون الأجانب - مع أن فيديل كاسترو يقول إنه يزمع أن يزور شياباس «لإعلان شيء مهم للغاية».

وجدنا، أنا وأنت نفسينا وقد عدنا لنقف في الرتل. لم نعد جزءاً من الحكومة. لا نستطيع إلا أن نعجب برباطة جأش سلطاتنا الثلاث. وابحث عبثاً عن المرأة، يا بيرنال.

لأنه كـان للرئيس لورينزو تيـران امـرأة في لوس بينوس. امرأة مخفية، وهي هناك تنظر خلسـة إلى غرفة لوبيز ماتيوس. تبكي. ومنديل على فـمها. سـمراء داكنة. على وجـهـهـا نقر الجدري. ذات شكل مربع مثل خزنة أموال. محبّة. حزينة.

تلك المرأة هي بينيلوب كاساس.

إنهـا تبكي، لكنهـا تنظـر من خلال دمـوعـهـا برقـة إلى نيكولاس بالديبا.

إنها تعرف أنه سيكون الرئيس. وهي ممتنة، لأنه حاميها.

أراقب المشـهد معك، يـا بيرنال، وأكـرّر أن السياسـة هي شغفي وهواي. كم أننا محظوظان، أنا وأنت، لأننا لم نتزوج. كان بإمـكاني أن أقدم الجـزء الأكثر إظلامـاً في نفسـي، الجزء الأول الذي ورثته من أبي، إلى السياسة دون إيذائك.

«نيكولاس بالديبا، سأجعلك الرئيس».

إن الشيء الذي لم أخـبـره إياه هـو أنني كنت أعـرف أن الرئيس لورينزو تيران كان مصاباً بمرض عضال.

50

من خافيير «سينيكا» ساراغوسا
إلى ماريا دل روساريو غالبان

لقد مـات لورينزو تيران. لقد مـات الرئيس. هل ما زلنا، أنا وأنت، على قيد الحيـاة، يا ماريا دل روساريو؟ لا، لا، لن أجـرّك إلى جنازة الفايكنغ، السـفـينة المحتـرقة التي لن ينجـو شراعها الناري في ليلة الموت. لا. إن كلّ مـا أفعله يا صديقتي هو أنني أقدم تقييماً، الذي ربما كان أيضاً صلاة جنائزية.

هل كان لورينزو تيران رجلاً عظيـماً؟ ربما كان كذلك لكنه أخفق؟ أم كان فقط كما كان دائماً: رجلاً محترماً ذا نوايا حسنة de mortuis nil nisi bonum (لا يسـتطيع أحـد أن يتكلم بالسوء عن الأموات) بدون ذكاء حقيقي؟ إن رئاسته لن يسجلها التاريخ. كان تيران يترك الأشيـاء تحدث لأن تلك كانت عقيدته في الديمقـراطيـة. لكن مـا حـدث ليس هو مـا كـان يريد أن يحدث. ادرسي الوضع جيداً. فراغ السلطة، إقطاعيون محليون راسـخون، دسـائس في القصـر لا يمكن السـيطرة عليهـا...

ومجتمع مدني عاجز عن حكم نفسه في جوّ من التسامح والاحترام والمبادرات الأخلاقية. فأنا وأنت وبيرنال، نعرف أكثر من أي شخص آخر أن الرجل الذي مات كان صادقاً ومحترماً. لكن يجب أن أطرح عليك هذا السؤال: هل يمكن لأحد أن يحدث تغييراً بالكلمات؟ الكلمات التي يحبها العالم المتحضّر - القانون، الأمن، الديمقراطية، التقدّم - تبدو خالية من أي نكهة، كذبة، هنا في المكسيك، وفي أي مكان آخر من أمريكا اللاتينية، الأرض التي دمرها الألم.

وأنا، الرجل الذي يسميه الجميع «سينيكا» ما الذي بوسعي أن أفعله إلا أن أقترح أفكاراً طوباوية متطرفة، علماً بأن هذا الأمر في حد ذاته، شيئاً مطلقاً في عالم السياسة؟ وفي مواجهة حدة وتطرف السياسة الواقعية المتأصلة، فقد دافعت عن الفكرة المتطرّفة الأخرى وهي السياسة المثالية بأمل أن نتوصل، في مكان ما. إلى حل وسط يقع بين هذين الحدين. «في الوسط تكمن الفضيلة» كما يقولون.

بهذه الفلسفة، قبلت المنصب الذي عرضه عليّ الرئيس تيران، قريباً جداً من عرش النسر. كنت أعرف أن الحياة قد تكون تعيسة حتى لو كانت الأفكار تحلّق عالياً. لقد قبلت منصبي بهدوء معتقداً أنه حتى لو لم يؤخذ بنصيحتي دائماً، فعلى الأقل سيتردد دائماً صدى أخلاقياً، حتى لو كان ضعيفاً، في أذنيّ الرئيس. نعم، أنا طوباوي. سأموت وأنا أحلم

بمجتمع يحكمه أناس يتمتعون بالمعرفة والنزاهة والذوق الجيد. لكن بما أن هذا مستحيل، أليس من الأفضل أن نأخذ هذه القناعة معنا إلى القبر، حيث لا يستطيع شيء أن يوقفها أو يناقضها؟

كنت أسعى إلى الفضيلة لكي نتمكن من ممارسة حريتنا على نحو أفضل. كنت أؤمن ببلد يخص الجميع، يضم الجميع، مهما كان جنسهم أو عرقهم أو دينهم أو عقيدتهم.

إنه أمر صعب، لكنني حاولت، يا ماريا دل روساريو، أن أمدّ جسور حبّي إلى الذين يضمرون الشرّ، واعتبرتهم أناساً «مريضين برغبات حبيسة»، كما سماهم سينيكا الأصلي، المواطن القرطبي.

لكنني تبعت النصيحة الرواقية، أكثر من أي شيء آخر: عندما يتعلق الأمر بالعدوان، لا تدع شيئاً يسيطر عليك سوى روحك.

ماريا دل روساريو، أريد أن تفهمي هذه الرسالة الوداعية من صديقك خافيير ساراغوسا، الرجل الذي يسميه الجميع سينيكا. أريدك أن تشعري بأن يأسي هو أيضا سلامي. بأنني لا أزال أشعر بالرغبة. إن ما فقدته هو الأمل. أعرف، ستقولين لي الآن أنه كان عليّ أن أدرك أكثر الحقائق التي كان الرئيس يواجهها، وأنه كان عليّ أن أعتبر مثالياتي - حكومة عادلة

مستنيرة- كعلاج تصحيحي فقط، دعوة إلى ملاذ الحياة الداخلية في الأوقـات العاصفـة. وقد اسـتسلمت أنا نـفسي إلى فـتات اليـوتوبيـا. نعم، يا مـاريـا دل روساريـو، أنت نفسك كنت تعتـقدين أن وجودي كان مـفيداً، مثل التـوابل التي لا يلحظها أحد إذا كـان الحساء لذيـذاً، لكنه يعتبـر ضرورياً عندمـا يسأل أحدهم: «أين الملح؟»

إن الملح على الموائد المليئة بالأطبـاق ذات النكهات الطيبة، كم مرّة أُخذ بنصائحي؟ لماذا خدعت نفسي وظننت أن نصائحي تساوي شيئاً؟ ألم أدرك أنه لا يمكـن الإحساس بالوزن السياسي لأي مثقّف إلا عندما يكون خـارج قاعدة السلطة، مع أنه حتى عندما يكون في المعارضـة، قلما يستطيع مثـقف أن يمارس أكثر من ضغط نسـبي؟ وضمن قـاعدة السلطة لا يكون تأثيـره حتى نسبياً. إنه لا شيء.

بمعنى آخر، إنك تتغوطـين في جانب، وفي الجانب الآخر تأكلين الخراء. إن الأمر بهذه الدرجة من الكآبة.

كما إني أنظر إلى تلك السنوات الثلاث التي أمـضيتها في غرف انتظار السلطة. إن كلّ ما رأيته كـان تعاسة وكلّ ما كنت أشعر به يثير الاشـمئزاز. نعم، لقد رأيت الرئيس يعاني. كنت أقول له أحياناً: «لا تفكّر كثيراً. فأنا هنا لأفعل ذلك».

«لكنني عندما فعلت ذلك، أنقذه شخص آخر من معاناته. تاسيتو، لمصلحة الشـرّ. وهيريرا، لمصلحة طيبة القلب. وكنت

دائمـاً أسمع» : «إنك عـلى حق يا سينيـكا. لكن هناك طريق آخر. ربما سآخذه في المرة القادمة».

ثم يبتسم إليّ.

«أيها اللقيط، كفّ عن جعلي أستيقظ طوال الليل».

كانت الدائرة الداخلية من المتملقين والديماغوجيين ومدبّري المكائد هي التي تبقيه يقظاً طوال الليل.

مـاريا دل روسـاريو، هذا صـديقك خـافيـر «سـينيكا» ساراغوسـا، الرجل الذي يصغى إليه - أصـغى إليه الرئيس - بحماس لكن دون اقتناع.

إن هؤلاء البلهاء يظنون أن النجاح سيجعلهم سعداء. إنهم لا يعرفون ما الذي سيحّل بهم. لقد عُزلت وشوهت سمعتي. فلم أبق في منصبي إلا بفضل الرئيس. كنت ذبابة الخيل. كنت الشخص الذي يقول الأشـياء التي يجب أن تقال، مهـما كانت غير سارة.

«لا شيء سيقنعني بأن الحكمـة تكمن في الإحصائيات، يا أندينو».

«عندمـــا أنظر إليك، أيـهـــا الجنرال أروســـا، يمـلؤني الاشمئزاز».

«يستطيع الناس أن يناموا في السرير نفسه ويحلموا أحلاماً مختلفة، يا سيد هيريرا».

«توّج نفسك بأكاليل الغار، أيها الرئيس ليون، لكي تصيبك صاعقة وتقتلك».

«إن جبنك أشبه برائحة كريهة تخلّفها وراءك في كل مكان تذهب إليه، يا تاسيتا».

وأنت يا ماريا دل روساريو، تقولين لي هذا: «سينيكا، لا تتجرع السمّ لتروي عطشك. إن الأمر لا يستحق ذلك».

أليس كذلك يا صديقتي العزيزة؟ هل تظنين أنني أريد أن أموت لأن العالم يخذلني؟ هل تظنين أن الشيء الوحيد الذي تبقى لي، الشخص المثالي بدون قناعات، هو الموت؟ هل تظنين أنني أخون الاعتقاد الرواقي في إبقاء عواطف الروح بعيدة؟ أخبريني، أليس من الممكن أنر يكون الموت عاطفة أخرى من عواطف الروح؟ وبما أنه نهايتنا الحتمية، فلم لا نعجلّ قدومه؟

لا. لقد وضعت قناعاتي على المحكّ وأعرف أن ثمن الذكاء هو التحرر من الوهم. لا شيء يماثل استخدامنا للعقل. لقد كنت قريباً جداً من الشمس لفترة طويلة، وبما أنني لست سوى تمثال مصنوع من الثلج، فإني أذوب عندما تشتد حرارة الشمس. لو تعرفين المشاعر التي تعتريني منذ وفاة صديقي الرائع لورينزو تيران. أصبحت مثل قطة: لا أستطيع أن أعرف صورتي المنعكسة في المرآة. أحاول أن أتذكر اسمي. إني أمر بوقت عصيب. يجب أن لا أتذكّره، لأني فقدته إلى الأبد،

أعرف ذلك. وأشعر أنه لا يوجد شيء يستحق هذا الجهد، لا شيء يرضيني. لقد أصبح كلّ شيء مراً. هل هذا دليل على عظمة أخلاقية؟ هل يشعر الكلب بالملل؟ الأبله فقط الذي لا تساوره شكوك. الغبي فقط الذي لا يعاني.

عندما مات الرئيس، نظرت في مرآة روحي وارتعشت. كانت عواطفي جياشة. كانت روحي تتأرجح بين الحياة والموت.

كان حبي العظيم الذي لم يتحقق، فراغًا بين الحياة والموت. حبّي لك، يا ماريا دل روساريو. كانت رغبتي في امتلاكك، التي لم أعرب عنها قط، ظلت صامتة إلى الأبد، حبيسة أحلامي. وإني واثق أن ذلك لم يخطر ببالك.

في النهاية، توصلت إلى الحقيقة المطلقة بأن حياتي الداخلية هي الحقيقة الوحيدة. القلعة المحصّنة لنفسي الداخلية. حريتي في أن أقرر إن كان ذلك يجب أن يبقى في العالم أو أن أتركه. كنت أقصد - إنها تعني يا ماريا دل روساريو - أن الفكر العقلاني لن يترسخ في المكسيك. لقد فعلنا ذلك مرات ومرات، وسنواصل القيام بذلك، نقتل الدجاجة التي تبيض بيضاً من ذهب - بعد أن نسرق البيض. إن ذلك يعني - مع أن هومبولدت كان قد قال ذلك في عام 1800، فقد كان محقاً:- «المكسيك شحاذ يجلس فوق قمة جبل من ذهب».

في الرواية البوليسية، لا نكتشف المجرم إلا في نهاية الرواية. أما في المكسيك، فإن الجميع يعرفون من هو المجرم سلفاً. والضحية هي دائماً البلد نفسها. أوه، يا صديقتي العزيزة، انسِ الديماغوجيين الذين يعدون بالإنقاذ، المهاتما بروباجانديس لدينا. لكن احذري الكوميديين الذين يقمعوننا مثل روبيسبيروتس لدينا.

استمعي إلى البائسين المتسميتين.

استمعي إلى الإشاعات في مكسيكو سيتي، حيث يعرف الجميع ما لا يقال. دوّني ذلك كله. لن يصدقك أحد.

اصمت. إنهم سيكتشفون.

نعم، يا صديقتي المبجلة. لو كنت سياسياً لخنتهم جميعهم. لأني مجرد مثقّف وأعرف أن السياسيين سيخونونني.

نعم، يا سيدتي الجميلة والمستنيرة، لا يوجد لشيء قيمة خارج الحياة الداخلية، النفس الصامتة. لا تحدثي أحداً عنها. فلن يفهموا.

بدأت أعرف أن حياتنا تكمن في أحلامنا. لا شيء حقيقي أكثر من مثاليتنا. لا توجد حقيقة أخرى، كما ترين. الرجل الانتحاري فقط هو الذي ستواتيه الجرأة ويقول هذا. إنها ليست كلماتي الأخيرة. لا أطلب أن تكتب على شاهدة قبري:

هنا يرقد خافيير ساراغوسا

المعروف لدي الجميع بسينيكا

202-1982

في المكسيك، جميع الأفكار محظورة

سأفضي لك بسر بأنه لا يوجـد لغز بعد الموت. فالميت لا يعرف أننا أحياء. إن مـا يحدث هو أننا قبل الولادة وبعد الموت نختبر عوالمنا التي لا يدانيها شيء.

إن جملة الوداع، يا ماريا دل روساريو، أبسط بكثير.

«سأغادر قبل أن تختـفي السماء فوق المكسيك إلى الأبد». وإني أنتقـد نفسي لأني أغادر غـاضباً، دون أن أشعـر بالهدوء والصفاء. . . أن أشـعر بالغضب الشديد لأنني سـمحت لنفسي أن تغويني السيـاسة. اكتشفت أن فنّ السياسـة هو أكثر أشكال الفن انحطاطاً.

إني غـاضب لأننـي لم أتمكن من إقناع الرئـيس بأن رئيس الدولة ليس أكثر أهمية من الشعب أو من الزمن.

إني غـاضب لأنـني لم أتمكن من إيـقـاف دورة الجنون السياسي التي دامت ست سنوات كاملة تسـتأثر بتاريخ المكسيك وتعيد اختراعه كلّ ستّ سنوات. يا له من جنون.

إني غاضب لأنه ذنبي أن الرئيس استمع إليّ عندما قدمت له نصيحة جيدة. إنه عيبي أنا، لا عيبه هو.

إني غـاضب لأن عـقلـي ومنطقي لم يتـمكـنا من هزيمة «البروباغندا» التي هي غذاء المتعصّبين.

إني غاضب لأنني لم أتعلم قط كيف أزرع نبات الماغوي.

إني غـاضب لأنني عندمـا استـبقت الأحـداث ذات يوم، شعرت بالحنق.

إني غاضب لأنني كنت أعظ مباديء أخلاقية من قمة جبل مصنوع من الرمال.

إني غاضب لأنني لم أتمكن من أن أقول لك إني أحبك.

إني غاضب لأنني لا أحسد إلا الموتى.

51

من نيكولاس بالديبا
إلى خسوس ريكاردو ماغون

عزيزي، يصعب كثيراً أن تثق بأي شخص آخر. فمن يعرف ما هي العواقب التي ستنجم عن المعلومات التي قدمتها إلى ماريا دل روساريو؟ كانت رسائلي منتظمة، لكنني لم أعد أثق بها الآن. أسلاك متشابكة كثيرة. قصص كثيرة محبوكة ومتداخلة. هل يجب عليّ أن أظل صامتاً؟ سيكون هذا الشيء الأكثر أماناً، لكني أخشى أن أنقل السرّ معي إلى قبري. إن ثقتي بك تجعلني أفضي به إليك. لقد تعمقت مشاعري تجاهك منذ أن رأيتك على السطح أول مرة وبدأنا نعمل معاً. لقد وجدت أخيراً روحاً تتسم بالطبائع ذاتها، شخصاً يقرأ الكتب ذاتها، ويفكّر كما أفكر أنا. أشعر بأنك شديد القرب مني وأريد أن أبقيك قريباً.

إن سرّي هو سرّك، لكننا، أنا وأنت، الشيء نفسه.

إني أحذّرك بأن الإطلاع على ما أعرفه خطير - عليّ وعلى من يسمعني. أرجو أن تتلف الشريط فور سماعك له.

سيسلمك إياه أبوك دون كاستولو، الرسول الأكثر أماناً الذي يمكن أن يخطر ببالي.

لقد عدت إلى فيراكروز لأتحدث إلى الرجل العجوز لأنه طلب مني ذلك. كان هناك كدأبه، يرتدي بدلته ذات الصدرية والبابيونة، والببغاء الصغير جاثم على كتفه، وأحجار الدومينو متناثرة على الطاولة، والنادل، البارع والمتقن كبهلوان، يصبّ له القهوة التي يتصاعد منها البخار.

«اجلس يا بالديبا»، قال الرجل العجوز.

كان بإمكانه أن يعرف من عينيّ، من الطريقة التي أحرّك فيها رأسي، من يديّ المفتوحتين بتضرع، بأنني أريد أن ألتقي به في مكان خاص، لا في ساحة فيراكروز أمام الملأ.

«اجلس، يا بالديبا. عندما تفعل أشياء على الملأ فإنك لا تثير الشكوك. إن السرّية هي التي توقظ الذئاب. إننا لا نجلب الانتباه لنفسينا هنا تحت القنطرة. انظر: عادت العقبان تحلّق فوق قلعة أولوا. هذا ما سيلاحظه الناس، ولن يلاحظوننا جالسين معاً نحتسي القهوة».

لم أقل شيئاً. لم أسأله شيئاً. كنت أعرف أن الرجل العجوز سيتكلم. من النظرة المرتسمة على وجهه استطعت أن أعرف أن كلّ شيء كان سيحدث قد حدث. هدأت بعد أن أدركت ذلك. كنت أعرف أن الرجل العجوز مشعوذ، وقد فهم

هو، يا خسوس ريكاردو، تلك التغيرات الدقيقة، لكن الهامة في الزمان والمكان التي تؤثر علينا جميعنا. تلك هي الحكمة التي اكتسبها من العيش عمراً مديداً. الزمان والمكان. كيف يمكن أن نقرأهما، أن نتحملهما، وأن نجد أنفسنا فيهما. إن شئنا أم أبينا، فإن المكان يرتبط بترتيب الأشياء التي تتعايش معاً، بينما يرتبط الزمن بعالم الأشياء التي تحدث. إن ما يوحّد الاثنين هو تأثيرهما على الشيء الموجود حالياً وعلى الشيء المحتمل، الشيء الذي يمكن أن يحدث. إنهما فكرتان مجردتان، تحتاجان إلى شيء متماسك هنا وهناك ليصبح لهما فحوى وجوهر.

ألم تقل سوزان سونتاغ هذا منذ سنوات؟ «الزمن موجود لكي لا يحدث كلّ شيء دفعة واحدة. المكان موجود لكي لا يحدث لك شيء».

في الحياة السياسية على وجه التحديد، نستطيع أن نقول إن الفرصة والتسلسل والتكرار تعود إلى عالم كلّ يوم، تماماً كما أن حدة وتزامن واتساق الزمن الداخلي الشخصي، زمنك وزمني، يا عزيزي، هي خصائص الروح؟

الآن، إنك تعرف مدى البهجة التي تتملكني لوجود رفيق يفكّر كما أفكّر أنا. من غيرك يمكنني أن أحدثه عن أشياء كهذه؟ من غيرك يمكنه أن يفهمني عندما أقول إن الزمن الذي نعيشه الآن ليس فكرة مجرّدة فقط، بل وسيلة مفيدة لفهم الحياة وأن السياسة وسيلة لجعل الزمن حقيقة واقعة؟

أعتقد أن الرجل العجوز قد قرأ أفكاري. ليس حرفيا بالطبع، بل بحدسه، مع أنك في حالته ستدعوها شيئاً آخر، خبثاً، بل عناداً وانحرافاً... إنه كلب عجوز ماكر.

على كل حال، هذا ما قاله لي: «إن أسفي الوحيد هو أنني أعرف القصص كلها، لكنني لن أعرف القصة كاملة».

«ولا أنا»، قلت مجازفاً.

«لا أحد، بالتأكيد»، قال وهو يهزّ رأسه الذي وخطه الشيب.

لم أشأ أن أضيف شيئاً. فهو الرئيس.

قال: «مثل الشخص الذي يضع كمية معينة من السكّر في قهوته، يجب أن يعرف ماذا يجب أن يقول، ومتى يقولها، ولمن...».

«وعندما يأخذ سراً معه إلى القبر؟»

لا أعرف لماذا وجد ذلك مضحكاً للغاية. فقد كشف عن أسنانه. كانت تلك المرة الوحيدة التي أراه فيها يبدو جائعاً.

«أحياناً على مضض، أو من باب الحذر، أو بسبب الكبرياء - كم سراً لم نفضِ به لأحد، وعندما نموت نشعر بالأسف عليه؟ لو كنت قد قلت هذا في الوقت المناسب، لاختلف كل شيء. أو لكان الحال أفضل».

لم أكن أريد أن أدفع الرجل العجوز إلى الكلام، بل قررت أن أحافظ على مسافة رسمية من الاحترام كنت آمل أن أخدعه من خلالها أكثر من خداعي بسرّه. لأنه كان هناك سرّ يا خسوس ريكاردو. لو جمعت جميع زياراتي إلى المقهى في فيراكروز، لظننت أني آتي إلى هنا لأن ماريا دل روساريو طلبت مني ذلك، كجزء من تثقيفي في أمور السياسة. لكني شيئاً فشيئاً، فهمت أن الرجل العجوز يكتم سراً، وكان ينتظر الوقت المناسب للبوح به. في البداية، ربما كانت صدفة، نزوة، أو حظّاً. لكن في النهاية أصبح أمراً حتمياً، ضرورياً.

كنت وزيراً للداخلية عندما توفي الرئيس. وكان الكونغرس يختار رئيساً بالوكالة ليكمل فترة ولاية لورينزو تيران ويدعو للانتخابات. إن تثقيفي السياسي الذي كان الدافع لجميع رحلاتي إلى فيراكروز (كم تبدو الآن بعيدة!)، أصبح الآن قراري السياسي. من سيكون الرئيس بالوكالة؟ ومن هم المرشحون للرئاسة في 2024؟

كنت أعرف ذلك للتو لأن تصريح الرجل العجوز عن قناعاته جاء مثل مقبلات، قبل تناول الوجبة الرئيسية.

«أتعرف يا بالديبيا؟ لقد سئمت من الاحتفاظ بالأسرار التي نسيها معظم الناس أو لأنهم لك يبدون اهتماماً بها. فقد دبّر مثلا أخو الرئيس مقتل عشيق زوجته ثم دسّ لها السمّ وماتت!

لغز! راقصة تعرٍ ضربت رئيساً سابقاً غيوراً بالغيتار على وجهه وفقأت عينه؟ لغز! رئيس سابق دمرته حفنة من النساء اللاتي اتفقن على أن يتركنه تحت الشمس على شاطيء مهجور حتى احترق وأصبح هشاً؟ لغز! حكايات من الكوميديا السياسية الوطنية في بلدنا. قل لي إن كان هناك أحد يهتم بهذه الأشياء الآن».

بسبابته رفع الببغاء الصامت ومسّد ريشه المتعدد الألوان.

«على كل حال هناك أسرار أخرى يمكنها أن تغيّر مسار التاريخ إذا خرجت للعلن».

أغلق فمه. عاد الببغاء إلى مكانه فوق كتف الرجل. كان وجهي خالياً من أي قسمات.

«في السياسة»، تابع كلامه، «يجب على المرء ألا يدع القطار يوجّه السائق. لقد أرسلتك ماريا دل روساريو إلى هنا لتكون تجربتك الأولى. هذا ما قالته، تلك الكلبة العجوز. حقا لقد أرسلتك إلى هنا لكي تعرف سرّي. ولم تكتشف شيئاً. كنت تعود في كل مرة محملاً بكومة من النصائح. كيسًا مملوءًا بالبطاطا».

ثم فعل شيئاً غير عادي. رمى عكازه جانباً، فوقعت على الأرض. الآن، قلت لنفسي، سيلتفت الجميع وينظرون إلينا. لكن لا. لم يرف لأحد جفن. كان العهد بين الرجل العجوز

وزبائن المقهى النظاميين تحت القنطرة راسخاً. أمسك قبضتي وأحكم قبضته بقوة رياضي حتى أحسست بألم في يدي. وعلى نحو غريب، بدأت أتخيّله عارياً، وأتساءل كيف تبدو عضلاته، لأن اللحم في عمره يتهدل ويرتخي، كلّ شيء يضعف، لكن ذلك الرجل العجوز ضغط بقبضته الحديدية حول يدي بقوة بدا أنها تخرج من رأسه وبيضته.

«ليس هذه المرة، بالديبا. ليس هذه المرة».

ماذا كان يعني؟ ظل الببغاء صامتاً على نحو غامض، وكأن الرجل العجوز ملأه بمادة النيمبوتال، أو لعل الببغاء كان يعرف متى يتظاهر بالحماقة ويصرف انتباه الناس، ومتى يتصرف جيداً مع ما يسميه أعداء الرجل العجوز، الفرنسيين، الحكمة - الحكمة التي هي معرفة، خبرة، ضبط نفس، ومجاملة.

«كما تعرف يجمع القذرين والقديسين شيء مشترك. وكذلك لا يلمس أحدنا الآخر»، قال، محدقاً في الببغاء بدلاً من أن ينظر إليّ. وبدا أن الدوائر تحت عينيه قد ازدادتا اسوداداً.

«هل تتذكّر توماس موكتيزوما مورو؟»

شعرت بشيء من الإهانة من هذا السؤال. فقد كان مورو المرشّح الذي فاز في انتخابات الرئاسة في عام 2012 ثم اغتيل قبل أن يتولي منصبه. وأُجريت انتخابات جديدة بينما كانت

البلاد لا تزال تعيش في الصدمة، وفي عام 2013، أدى رئيس تحالف الطواريء الذي لا لون له اليمين الدستورية ليصبح رئيساً - رئيساً كئيباً، مملاً، منسياً، منهكاً، معروفاً فقط بعدم كفاءته، مستسلماً، ضعيفاً، سريع الزوال. لقد حكم الكونغرس خلال تلك الفترة، وكان حكمه سيئاً. متّحداً في البداية لرفع السيد «نكرة» إلى سدة الرئاسة، ثم عاد بسرعة ليبدأ حرب عصابات، إذا جاز القول. لقد فرض الكونغرس سياسة وفق معرفته واعتقاده، أما الرئيس - ماذا كان اسمه، بحق الله؟ - فقد أطاع ببساطة، وأصابعه متشابكة.

لهذا السبب أثار لورينزو تيران حماساً كبيراً في عام 2017، عندما حملته قوته وشخصيته - البارزتان إلى كرسي الرئاسة على موجة الانتصار والأمل. وفاز بنسبة 75 في المائة من الأصوات، وانقسمت الأصوات الـ25 في المائة الباقية بين الأحزاب الصغيرة التي لم تتمكن طوال ذلك الوقت من جذب أصوات الناخبين.

توماس موكتيزوما مورو. لحظة منسية. شبح سياسي آخر. كان موجوداً في الأمس، وأضحى خيالاً اليوم.

«إنه رجل شريف»، قال الرجل العجوز، «يمكنني أن أجزم بذلك. كان يظن نفسه هرقل سينظّف إسطبلات السياسة المكسيكية. وقد حذّرته، «من الخطر أن تكون شريفاً وصادقاً في هذا البلد. قد تكون الاستقامة جديرة بالإعجاب لكن ينتهي بها

الأمر بأن تصبح رذيلة. يجب أن تكون مرناً أمام الفساد. أعرف أنك صادق يا توماس، لكن أغمض عينيك - مثل العدالة الإلهية - عن الفساد من حولك. تذكّر أولاً أن الفساد يزيّت النظام.

لن تتاح لمعظم السياسيين، والموظفين الحكوميين، والمتعهدين وغيرهم فرصة أخرى لكي يصبحوا أغنياء بعد أن تنتهي فترة الرئاسة التي تدوم ست سنوات. إنهم سيصبحون في طي النسيان. لكنهم يريدون أن يطويهم النسيان، لكي لا يتّهمهم أحد بشيء، ويصبحون أغنياء، لكي لا يزعجهم أحد. ثم تأتي عصابة أخرى من الأوغاد. لكن منعهم من فرصة وضع شيء في جيوبهم سيكون خطأً.

قلت لتوماس: «إن ما تحتاج إليه هو أن تحيط نفسك بالانتهازيين لأنك تستطيع أن تسيطر على الفاسدين. لكن المشكلة تكمن في الرجل النقي؛ فهو الذي يعيق طريقك. في المكسيك يجب أن يكون هناك رجل مستقيم واحد فقط، وهو الرئيس، محاطاً بالكثير من الأشخاص المطيعين، الذين لا يقولون لا، والذين يمكن تحملهم واحتمالهم، والذين سيختفون بعد ستّ سنوات من وجه الخريطة السياسية.

« «إن الشيء السيء عنك» قلت لتوماس موكتيزوما مورو، «أنك تريد أن تجعل الخريطة والأرض تتطابقان معاً. انظر، عش بسلام وسط الخريطة واترك سماسرة الفساد يحرثون الأرض»»

تنهّد الرجل العجوز وكدت أشعر برعشة في اليد التي كانت لا تزال تضغط على يدي بقوة مدهشة.

«لم ينصت إليّ، يا بالديبا. لقد أعلن عن نواياه عن الخلاص، واليمين، واليسار، والوسط. بالطريقة التي كان يظن بها أنه سيحظى بأكبر دعم شعبي. ومما لا ريب فيه أنه كان يتصرف عن قناعة. بأنه سيضع حداً للفساد. فقد كان يقول إن الفساد أحطّ أشكال السرقة من جيوب الفقراء، هذا ما كان يقوله. وإن اللصوص سيدخلون السجن، وأنه سيوفر للفقراء الحماية من هذه الإساءات.

«تمهل يا توماس» قلت له، «إنهم سيصلبونك إذا أردت أن تقوم بدور المخلّص. لا تعلن عما تنوي أن تفعله. افعل هذه الأشياء بعد أن تجلس على العرش، تماماً كما فعل كارديناس. لا تدمّر النظام. إنك جزء منه. سواء كان جيداً أم سيئاً، فهو النظام الوحيد لدينا. بماذا ستستبدله؟ لا يمكنك أن تخترع شيئاً بين عشية وضحاها. اقنع الناس بأن الأمور تسير على ما يرام وخذ حفنة من الفاسدين ككبش فداء في بداية ولايتك. أدلِ ببيان أخلاقي في البداية، ثم يمكنك أن ترتاح»، لكنه لم يصغ إليّ. كان المسيح المنتظر. كان يؤمن بما يقول».

تملكني الذهول. رسم شارة الصليب.

«من قتله يا بالديبا؟ إن قائمة القتلة المحتملين طويلة بعدد ممثلي «الوصايا العشر». هل تتذكر؟ مهرّبو المخدّرات. الزعماء

المحليّــون. حكّام الولايات. الرؤســاء المحليّـون. القــضـاة الفاسدون. رجال الشرطة المنحـرفون. أصحاب المصارف الذين يخشــون أن يأخذ مورو الإعـانات المالية العامـة التي تموّل عدم كفاءتهم. زعماء نقابات يخـشون أن يرغمهم مورو على إجراء اقتراعات لكي يوافق عليهم أعضاء اتحاداتهم. سائقو الشاحنات الذين يرفـعـون أسعـار بضـائعهم. أصـحـاب المطاحن الذين يسـتـغلون المزارعين المحلـيّين الذين يزرعـون الذرة. قـاطعـو الأشجار الذين يحولون الغـابات إلى صحارى. ملاّك الأراضي الجدد الذين يسيطرون على الأراضي والبـذور والجرارات، بينما لا يزال المزارعون الفقراء يستخدمون الثور والمحراث الخشبي».

هل الرجل العجوز هو الذي تنهّد، أم الببغاء؟

«القائمة طويلة لا تنتـهي، أقول لك. ثم أضف الباطنيين، جـميع أولئك المجـانين الذين يرغـبـون في إنقاذ الـبلاد بقـتل الرؤساء. ثم نظريات المؤامرة الدولية. لقد خشي الأمريكيون أن تخرج المكسـيك عن السيطرة لأنهم كانوا يعـرفون أنه لن يكون من السهل تسيير مورو والتـلاعب به. وكما هم الكوبيون دائماً - فـإن الذين يعيـشون في ميامي يخـافون أن يسـاعد مـورو كاستـرو، والذين يعيشون في هافانا يخشـون أن يسبب مورو، رسول حـقوق الإنسان، مشـاكل لكاسترو. إن قائمـة المشاكل تستمر وتستمر.».

نظر في عينيّ.

«لم ألتق بسياسي في حياتي خلق أعداء بالسرعة التي خلقهم فيها مورو. كان شوكة في خاصرة الجميع. قلت له إن لديه الكثير من الأعداء، بأنه يقف عقبة أمام الجميع، بأنه في خطر...»

ظل ممسكاً بيدي. لكن عيناه لم تكونا عينيه. كانتا عيني الليل، عيني خفاش، عيني سجن.

«لقد أمرت بقتل توماس موكتيزوما مورو».

هل يجب أن أخبرك لماذا يجب أن تتلف هذا الشريط؟ ولماذا كان عليّ أن أتّصل بك بهذه السرعة؟

أحبّك. ن.

52

من نيكولاس بالديبا إلى تاسيتو دي لا كانال

سيدي: سأكون شديد الإيجاز. سيسلمك هذه الرسالة خسوس ريكاردو ماغون، الذي أثق به كثيراً. لن أضيّع الوقت في الحديث عن الأمور التي نعرفها أنا وأنت. بكل بساطة أريد أن أحذّرك بأنه توجد لديّ وثائق تجريمية، وهي محمية جيداً.

إن شخصاً لا يُشك في ذكائه مثلك سيفهم السبب الذي لن يجعلني أنشرها على الملأ. فإذا عرف بها عامة الناس، فإنها ستكون نهاية أية طموحات سياسية بالنسبة لك، لأن هذه الفضيحة ستحول دون ترشيحك. كان الرئيس تيران يدرك ذلك. ومنافسك، وزير الداخلية السابق، بيرنال هيريرا، الذي كان لي الشرف أن أحلّ مكانه، يعرف أيضاً. وماريا دل روساريو غالبان، التي عاملتها بطريقة تخلو من اللياقة والنبل، تعرف كذلك، والتي بتفكيرها السياسي الرفيع، تدرك أنه من الأفضل أن تخسرك، يا سيد دي لا كانال، وأن تراك وقد

تقاعـدت من الحياة العامـة. وفي المقابل، فإن الأشـخاص من طرفنا، ممن يعـرفون صـفـقاتك الحـقيـرة، سـيحـافظون على صمتهم.

وستظل الصحف مغلقة لسبب بسيط واحد، لأن أصحاب المصارف والمـديرين ورجال الأعـمال يفيـدون البلاد في الـنمو الاقتصادي أكـثر مما نجعلهم يقبعـون في سجن ألمولويا ليطهّروا ذنوبهم. ففـي جميع الأحـوال، ماذا يعني عدم قـدرتهم على كتمان السر في تعاملهم في صفقة MEXEN؟ جداول في نهر هائل من الاستثـمارات، روافد أنهار من الرأسـمال والمدّخرات السياسية التي تحتاج البلاد إليها لكي تمضي قدماً.

ثمة شـيئـان يجب أن تزنهمـا جيـداً: تقدّم المكسـيك من ناحية، وذنبك من الناحـية الأخرى، أيهما أثقل؟ سـتقول إنك لست الطرف المذنب الوحيد. هل يوجد فـيك من الحقد والشر ما يكفي لكي تكشف عن أسماء المتـواطئين معك؟ بالنسبة لي، فإني أظن أنه من الأفضل أن يحافظ كلّ منا على هدوئه والتزام الصمت. وأعتقد أيضاً أنها ستكون فكرة جيدة لو أخذت عطلة طويلة. بل إنـي أقـتـرح عليك عطلة دائـمـة. من المؤكـد أن أكابولكو أكـثر إغراء من ألمولويا. ولن نقـول شيئاً لأصـدقائك الصغار الأشرار، لا أنت ولا أنا. لماذا لا نتركهم في سلام؟ ما سأفلعه هو أني سأشجع على إصدار قوانين صارمة أكثر تتحكم بإدارة الشـركـات التي تدار بالسـر وبالعلن، لكي نقـضي على

الاحتيال والتجارة السرية، ونضمن الدخول إلى بيانات حسابات الشركات ومعاقبة المديرين العامين بشدة الذين يبيعون الأسهم بأسعار مرتفعة قبل أن تهبط بسرعة، مع العلم أن الذين يستغلون تضخم الأسعار، مثل بوش الابن المقيت، وتشيني، الذين ينسحبون في الوقت المناسب، ويتركون المستثمرين الصغار لتلقي الضربة. مثل تلك المرأة بينيلوب كاساس التي كانت تعمل في مكتبك. هل تتذكّرها؟

إني أقترح إنشاء محكمة قانونية لمقاضاة شركات القراصنة تلك، التي يقع عبء الإثبات عليها لإثبات براءتها في المحكمة. أعيد وأكرّر: سأحمي المستثمر الصغير الذي خُدع بسبب عدم وجود المعلومات، المعلومات السرّية التي توجد بحوزة رؤساء الشركات والمحاسبين فيها. لكنني سأتطلع إلى المستقبل، ولن أنظر إلى الماضي. إذ إن معاقبة الماضي تثبت عدم القدرة على الإدارة في الحاضر، أو التخطيط للمستقبل. لن أرتكب هذا الخطأ. لكن ملفك لا يزال موجوداً، يا دي لا كانال، وهو يضم أدلة على جريمة قد نضطر إلى الكشف عنها، لا لندين الماضي، بل من أجل المستقبل.

اعتبر أنك قد حُذِّرت. لن أشرع باتخاذ أيّ إجراءات ضدك أو ضد أيّ من شركائك في الاحتيال. لكنك إذا بدأت تتخذ أي تحركات، لتنقذ روحك (سيكون أمراً في غاية الحماقة) لتدفن مع المتواطئين معك، أو أن تمارس متعتك المازوخية وتجرّ

آخرين معك وأنت تقتل نفسك. . . في هذه الحالة، يا سيد دي لا كانال، فإن ثقل القانون كله سينهار فوق صلعتك.

إذن اعتبر نفسك، أنك تحت سيف داموكليس.

أظل خادمك الوفي والثابت.

نيكولاس بالديبا.

نائب وزارة الداخلية

53

من تاسيتو دي لاكانال إلى أندينو الماسان

سعادة الوزير، صديقي المبجل، أتوجه إليك من قعر الحفرة التي رماني فيها أعدائي السياسيون. هذا هو الحال. البعض يفوز، والبعض يخسر. لكن في السياسة، هناك إلتواءات وانعطافات كثيرة. ربما كانت فضيحتي الحالية وانزوائي وعدم ظهوري إلى العلن التي أرغمت عليها هي حقاً أفضل قناع يمكنني أن أستخدمه، وأنا أعدّ لعودتي المفاجئة.

يقولون إن كلّ شيء مسموح به في الحبّ والحرب. إني أقول إن الشيء ذاته ينطبق على السياسة والتجارة. أعرف أن وكيل وزارة الداخلية الذي كان مرؤوساً لي، قد أرسل لك سلسلة من الوثائق التي تورّطني في قضية MEXEN. وقد قال لي هو نفسه إنه لن يلاحقني لأنني سأجرّ ورائي الكثير من الأشخاص الأقوياء الآخرين. ادعيت أنني أنفذّ أوامر الرئيس سيزار ليون.

نظر نيكولاس بالديبا إليّ ببرود.

«الرئيس يتمتع بحصانة ولا يمكن المساس به. أما الوزير فليس كذلك».

«إن المباديء خدم جيدون للسادة السيئين».

«هذا صحيح، يا سيد دي لا كانال. لا تقلق، من الان وصاعداً ستكون يداك نظيفتين. لأنه لن تكون لديك يدان...».

إني لا أستسلم، أيها الوزير الماسان. حتى لو قطعوا يدي، لأنه ستظل لدي قدمان أركل بهما. وقد كلّمت الآخرين المتورطين ممن ذكرهم بالديبا، لأذكّرهم بأننا سنقع جميعنا في الورطة نفسها. بأنني وقّعت تلك الأوراق بأوامر من الرئيس سيزار ليون.

سخروا مني. وأقدم لك هنا نسخة من المحضر الحرفي للحديث الذي دار بيني وبين معظم المتورطين في مؤامرة MEXEN المعقّدة.

«لقد أتيت لمناقشة قضية MEXEN»، قلت له.

«لا أعرف عما تتحدّث».

«أسهم MEXEN».

«لكنك لا تعرف شيئاً عن ذلك، أليس كذلك؟»

«أعذرنـي؟» أعتـرف أنني صُدمت، لكني كنت أعـرف بماذا يلعب، وقلت، «لا. لهذا السبب أتيت إلى هنا. لأعرف الأمر».

«لو كنت مكانك، لبقيت في الظلام. ستكون في حال أفضل».

«لماذا؟» تابعت.

«لأنه سري»، اعترف للحظة، مثل صيّاد سمك يعلّق دودة أمام سمـكة، ثم أنهى كلامه بقوله: «ومن الأفـضل ترك الأمر عند هذه النقطة».

«سرّ؟» قلت، مـبدياً صدمتي، «سـرّ عليّ، أنا الذي جعل كلّ ذلك ممكناً بتوقيعي؟»

«لم تكن سوى أداة»، ردّ، يكـاد يخفي احتـقاره. . «لأي غرض؟»

«للحفاظ على سرية الصفقة».

نظر مباشرة إليّ، كما لو كنت نافذة.

«لا تفقد قبضتك، ياسيد دي لا كانال».

«لكنني. . .».

«شكراً. إلى اللقاء».

لم أسـتسلـم، يا سيـد الماسـان. لقد تحـدثت إلى أحـد بارونات الصحافة.

إنه رجل يدين لي، فـقد كـان يجـد أبواب مكتب الرئيس لورينزو تيران مفتوحة أمامه باستمرار، بفضلي.

سأوجز.

عندما طلبت أن يدافع عني، على الأقل بنشر مقال لصالحي، بل وربما بأن يبدأ حملة لتصحيح صورتي الشخصية، قال: «إن الصحفي الجيد يجب ألا يزعج قراءه بالمديح. بل يجب أن يهاجم فقط. إن المديح شيء مملّ».

أعترف أنني كنت غاضباً، يا أندينو.

«إنك تدين لي بالكثير».

«صحيح. الأقوياء بحاجة دائمة إلى محسنين».

«كل ما تحتاجه أن تطلب من أحد خدمك...».

«سيد دي لا كانال! لم أفعل ذلك في حياتي قط. إن المساهمين في صحيفتي مستقلون».

«هل تريدني أن أثبت العكس؟» صحت، ساخطاً، «هل تريدني أن أرشو أحد الصحفيين لديك؟»

توقّعت منه أن ينظر إليّ ببرود رجل أعمال، لكنه نظر إليّ نظرة محسن التي ذكرها للتو.

«سيد دي لا كانال. إن الصحفيين الذين يعملون في صحيفتي شرفاء. لا يستطيعون أن يكتبوا أشياء غير صادقة».

أعرف أن ما أدوّنه قد يضرّ بي ويلوّث صورتي. لكن لم يبق لديّ الكثير من الذخيرة، يا سيد الماسان.

في الحقيقة لديّ واحدة فقط.

دعني أكون صريحاً. إنني أحترمك وأبدي إعجابي بك - وبأسرتك - إنك محظوظ لأن لديك زوجة مخلصة، جوزيفينا، وثلاث فتيات صغيرات جميلات، تيت، وتاليتا، وتوتو. لكن الشيء الذي لا تملكه هو حساب مصرفي كبير. إنك تعيش على راتبك وميراث زوجتك بقايا إحدى ثروات الصبار القديمة من يكاتان «طائفة مقدسة»...

لديّ اقتراح. إن فشل صفقة MEXEN لا يستبعد إمكانية مشاريع مربحة أخرى. ربما كان مصيري السياسي يكمن في بيت الكلب الآن، لكن الصفقة الجيدة هي دائماً صفقة جيدة. ومع أنني لم أعد في السلطة، فما زلت - مسؤولاً عن الشؤون المالية العامة، لا أقل من ذلك - مما يعني أنك تستطيع أن تولّد نوعاً من المال اللازم لشيء يمكن أن يدعوه المرء فرصة استثمار.

هذه هي خطتي.

من خلال شركة عامة نستطيع أنا وأنت أن نقدم للمستثمرين الذين توجد لديهم نقاط إئتمانات جيدة، الفرصة للحصول على قروض عقارية كانت السلطات قد صادقت عليها مسبقاً (وهو أنت، يا سيادة الوزير) مع الوعد بأنها، اعتباراً من تاريخ محدد، قد تباع إلى أيّ مصرف بربح اثنين في المائة. بمعنى آخر، أرباح مضمونة ومجازفة قليلة جداً. لن يكون هناك أيّ نقص في أسماك القرش أو السردين لهذه

العملية لأننا قبل أن تنتهي الفترة الأولى للاستثمار، سنأتي، أنا وأنت بمستثمرين جدد، وبالمال الذي نأخذه منهم، سندفع الأرباح إلى المجموعة الأولى التي ستكون سعيدة جداً - وينطلي عليها الأمر.

ستكون المجموعة الأولى من المستثمرين ممتنة لهذه الأرباح وستساعدنا في ضم شركاء جدد. وسيدفع الشركاء الجدد المال اللازم لدفع الأرباح إلى المجموعة السابقة من المستثمرين.

بهذه الطريقة، يا أندينو، سنكفل هرماً من المال نجذب إليه استثمارات جديدة بسبب أرباح المستثمرين الحاليين، ونكوّن رأسمالاً بسرعة.

لسوء الحظ، فإن عدد المستثمرين ليس غير محدود، وعندما يتوقّف الناس عن الاستثمار في الهرم فإنه سيتحطم مثل بيت من الكرتون.

لكننا نكون، أنا وأنت، قد جمعنا كومتنا بالحصول على الأرباح في كلّ مرحلة من العملية. ثم ستعلن الشركة إفلاسها، وستخضع لقوانين الإفلاس، وسيصدر بحق الشركة أمر قضائي، بدلاً من تعرضها للتصفية.

بمعنى آخر، لا يمكننا أنا وأنت أن نخسر. بل نربح في كلّ خطوة نمشيها. علاوة على ذلك لا يتعين علينا أن نري وجهينا. إن فيليب أغوير، وزير الاتصالات، وأنطونيو بيغارانو، وزير الأشغال العامة، سيعملان معنا. إنهما مستعدان لكي يكونا

واجهة لنا. وبما أن بالديبا سيتخلص منهما، سيكونان متشوقين للانتقام ويريدان أن يبدأ رئيسنا بالوكالة بفضيحة. سيأخذان حصتهما، وإذا خطر لبالديبا أن يتهمهما بالاختلاس عندما كانا يعملان في الحكومة، فلا يمكن الحكم على أحد مرّتين للجريمة ذاتها. إنها مسألة زنة المخاطر، يا أندينو، وبما أنني مستعد لقضاء فترة قصيرة في سجن ألمولويا مقابل الملايين التي تنتظرنا في الحسابات المصرفية في جزر كايمان.

أنا وأنت، حذران كما نحن، سيكون بإمكاننا أن ننقذ مكاسبنا وننقلها إلى خارج البلاد، ويُحكم علينا بالإفلاس في المكسيك ويُحتجز قدر قليل من مال الشركة.

أرجو أن تدرس اقتراحي. ولا تنس أن تناقشه مع زوجتك العزيزة. يجب ألا نقدم على عمل أيّ شيء، أنا وأنت، دون أن نشرك جوزيفينا معنا. إننا نتحدّث عن وضعك في المستقبل، ومستقبل تيت، وتاليتا، وتوتو. لا أظن أن بالديبا سيضمك إلى وزارته الجديدة، يا سيادة الوزير. وليس من الصحيح أنك وأسرتك وعائلتك يجب أن تراقبوا الاستعراض العامّ للفوائد والثروة من وراء النافذة.

وتذكّر: إنك رجل مبجل، ويجب أن تكون المبادئ دائماً خدماً جيدين للأسياد السيئين.

المخلص لك دوماً، ت

54

من الرجل العجوز تحت القنطرة إلى عضوة الكونغرس بولينا تارغاردا

تلميذتي المحبوبة وصديقتي الأثيرة، أتوجه إليك بطلب ملح، نعم، لكن أيضاً بالتفكير والتدبير اللذين تعرفينهما عني. «فالبطيئون والثابتون هم الذين يفوزون في السباق» شعاري منذ أن أزهرت شجرة التين ومنذ أن رسّم فيليبيلو قديساً - قديساً مكسيكياً حقيقياً، الذي صلبه اليابانيون القساة في القرن السادس عشر، لا مثل خوان دييغو من لوس نوبال الذي يأتي في المرتبة الثالثة.

حسناً الآن، فكّري فقط، فقد كانت شجرة التين على وشك أن تلقي بثمراتها الناضجة وبدأت شجرة الصبار الوحيدة تزهر أخيراً. آه، شجرة الصبار، يا عزيزتي بولينا. رمز وقوّة أمتنا، لأنه إذا كان النسر في شعارنا هو الذي يحكم والثعبان هو الذي يتألم في منقاره، فإن النسر لا يزال يحتاج إلى شيء يقف عليه كي لا يسقط في مياه البحيرة.

أظن أنه من الأفـضل أن أكون رجلاً عـجوزاً مـاكراً لكن جاهلاً، لأن السياسي المثقف والجـيد التعليم لا يدخل الثقة إلى نفس الإنسان العـادي. ففي الولايات المتحـدة، لم يُقبل أدلاي سـتـيفينسون لأنه كـان على درجة عاليـة من الثقافـة والتعليم. وكانـوا يدعونه «المثـقف الأصلع». وكان على بيل كلينـتون أن يخفي درجة تعليـمه عن الجمهور بيـنما أظهر بوش الابن، من الناحية الأخرى، جهله بالفعل. كما تعرفين فإنني بجلوسي هنا في فيراكروز أريد أن أستغل الرهاب الذي ينتابني تجاه الفرنسيين إلى أقـصى درجة، لكنني في الواقع، شـأني شأن الآخـرين، تربيت على قراءة الروايات الفـرنسية. دوماس وهوغـو وفيرن- وأهمها روايتان لدومـاس، واحدة عن الرجل الذي يضع قناعاً حديدياً، وأخـو الملك التوأم الذي زجّـه في السجن ليـبدد أيّ شكوك عن المسؤول عن ذلك. فالعروش يجب أن يعتليها رجل واحد فـقط (أو امرأة: آسف يا بولينا) لأن السلطة تعتـمد على الشـرعيـة لكي تحـتفظ بسلطتـها. بالـطبع «الرجل في القناع الحديـدي»، و«الكونت مونت كـريستـو»، نعم، سُجنا ظلـماً لسنوات طويلة في قلعة تشـبه إلى حد كبيـر قلعة أولوا عندنا، هنا في فيراكروز...

حـسناً، يا عـزيزتي بولينا. إن صـديقك القـديم، الرجل العجوز تحت القنطرة، سـيعرّفك على الرجل الذي يرتدي قناع نوبال.

إنه سجين.

إنه يعيش في زنزانات قلعة سان خوان دي أولوا.

إنه يضع قناعاً حديدياً لكي يظل مجهولاً لدى الجميع - طبعاً - حتى هو، ولكي أجعله مكسيكياً صرفاً لوّنته باللون الأخضر.

إن أحداً لا يعرف. وأستطيع أن أعتمد على صمت الحراس المطلق لأن كلمتي في فيراكروز تسري كالقانون. وأي فم ثرثار ينتهي به الأمر كوجبة خفيفة لسمك القرش. لهذا السبب فقد أُلقي بدولس دي لا غارزا في الأقبية الجنائزية. لأنني أصدرت أوامر بإلقائها هناك. كان ذلك جزءاً من الخطة.

وقد كتمت هذا السرّ ثماني سنوات طوال.

كنت صبوراً. إني أكثر صبراً من تلك السيدات العجائز اللاتي يخلطن أوراق اللعب. يقال إن امرأة عجوز ماتت وهي تخلط أوراق اللعب. وقد بقي خادمك حياً يرزق لأنه يخلط أوراق اللعب بالطريقة التي يريدها. بهدوء وفي الخفاء، إني أحكم ميناء فيراكروز هذا. في بلد «مبلقن»، كما يقول هكتور أغويلار كامين، مقسّم إلى إقطاعيات أكثر من الأرجنتين، فمن سينكر عليّ رقعتي الصغيرة؟ ألا يحكم بيداليس في تاباسكو، وكوينترو في تامولیباس، وكابيزاس في سونورا؟ لقد احترموا جمهوريتي الصغيرة في فيراكروز، التي لا تمتدّ أبعد من بوكا

ديل ريو من ناحيــة، وبيت هيرنان كورتيس المتداعي مــن الجهة الأخرى، والطريق إلى تونونوكابان ما وراء ذلك. . .

هنا، أحلّ وأربط. وأي شــخص يقف في طريقي يُلقى به في حوض السمك ليتعلّم كـيف يتصارع مع سمك القرش. . . ها أنا هنا، لا أزال، محصّناً، مبتسماً، لا بل محصّناً، مبتسماً وصبوراً. كــما تعرفين لم أتوقف عن تثقـيف نفسي، لكنني لا أتبجــح بما أعرفه. لــقد قرأتِ لي كــتاب «الأمــير» لميكافــيللي بصوت عال عندما كنتِ فتاة شــابة. لقد أتيتِ لتواسيني بعد أن أصبحت أرملاً. الفــضيلة، الضرورة، الحظ. لم أنس ذلك في حياتي. صفات الحاكم. في المكسيك، اعتمد خواريز في القرن التاسع عشــر على الفضيلة، واعتمد ســانتا آنا على الضرورة، واعتمــد إتوربيد على الحظ. وفي القرن العشــرين، كان مادرو الذي تمتع بالفضــيلة، وكاليس بالضــرورة، وأوبريغون بالحظ. كما ترين فإن الرئيس الذي كان يتــمتع بصفة الضرورة فقط لم يُقــتل. الفــضــيلة، الضــرورة، الحظ؟ أظــن أن الجنرال الطيب كارديناس فقط هو الذي جمع الصفــات الثلاثة معاً. أما أنا، يا عزيزتي بولينا، فقد استخدمت الثلاث صفات جميعها، لكنني لم أمتلكها. فكيف يمكنني أن أحظى بالفضيلة والضرورة والحظ إن كنت طوال الوقت مشكوكاً فيّ؟

لقد كُررت أقــوالي السياســة الحيوية حتى الغــثيان. لكن هناك أقوال أخرى أحتفظ بها لنفسي.

«في المعارك العظيمة، بعد الأبطال يأتي الأوغاد».

«في السياسة، فراشة الظهيرة، تصبح مصّاصة الدماء في منتصف الليل».

«في المكسيك، فإن اللصّ يسبق الشريف الذي سيكون بدوره اللصّ القادم».

«إن حرس السياسة المكسيكية في المؤخرة هم لصوص يلعقون المؤخرات، سعاة سود، وأوغاد، وعشّاق معطّرون».

«انظر إلى الحمائم وهي تطير. إن العقبان تتعقبها وتطير وراءها مباشرة».

بولينا، في بعض الأحيان، تسود فترات من الرعب الوطني، وفي أحيان أخرى، تسود فترات من الحمّى الوطنية. أما اليوم فإنه يتهددنا خوف محموم. إن موت الرئيس تيران قد يفتح الأبواب على مصراعيها. فها هو أروسا يراهن على انقلاب عسكري، وسيزار ليون يراهن على إعادة الانتخاب. وهيريرا يراهن على أن يصبح ابن الرئيس الراحل الأثير. وكما أرى فقد أصبح تاسيتو خارج اللعبة، فهو فاسد إلى درجة مفضوحة، خادم متزلف وأحمق.

لقد قلت له ذات مرة: «إنك جرذ يتسلق سفينة غارقة. إنك لست سوى أحمق».

«إني أخدم الرئيس، السيد الرئيس»، تجاسر وقال لي، «إن ما تفعله جيداً يا تاسيتو هو أنك تطيع أوامر الرئيس قبل أن يصدرها».

«سيدي، أنا الرجل الذي يدعونه رجل حاشية مستقلاً» قال لي هذا المتسلق المتزلف، «لا يمكن أن يوجد هناك عبد أفضل لسيد أسوأ»، تنهدت.

تعليق جانبي مسلّ يا بولينا: بما أنني أعرف أن غرور تاسيتو هو أكبر نقطة ضعف فيه، ويظن نفسه أنه رجل شعبي جداً، فقد أقمت له حفل تقدير، ودعوت إليه ما يسمّى بالجماعات ذات الاهتمامات الخاصة هنا في فيراكروز. وفي هذا المكان بالتحديد، وعندما حان وقت تبادل الأنخاب، اتهمته بأنه طموح. لم يقم أحد ليدافع عنه.

ابتسم تاسيتو، وقال بشكل يبدو استثنائياً تماماً، «ماذا تريد مني بحقّ الجحيم؟ أنا نكرة. فلا تضيّع وقتك بمهاجمتي».

«إني لا أهاجمك»، قلت بصوت عال، «إني أعرّفك. إنك رجل طفيلي».

«منذ متى يعتبر عدم عمل شيء جريمة؟» قال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة واسعة.

وبما أن جميع الحاضرين عرفوا أنه كان يشير إليهم، انفجر الاجتماع الصغير بالضحك وتبادل القبلات.

«لحظة صمت قصيرة في الشريط، صوت ضحكات قصيرة من الرجل العجوز، ثم تنهيدة»

إن أندينو ألماسان ليس سوى دمية في يد زوجته الطموحة. إن الشخص الذي أخشاه هو نيكولاس بالديبا. إنه شاب، بريء، ذكي، وأنا أحبّه، وأراهن عليه. إن السؤال يا بولينا هو: هل هو من أتباعنا؟ لا أظن. إنه شاب، نقي، ومستقل. بمعنى آخر إنه طموح ويبحث عن مصالحه، ومصالحه فقط. إن ماريا ديل روساريو تدعمه. لكن هل يدعم هو ماريا ديل روساريو؟ هذا ما يجب أن ننتظر ونراه. أعرف أنك لا تحتملين السيدة التنين في لاس لوماس، كما تسمينها. فكّري في الأمر بموضوعية، قلبيّه على جميع وجوهه، قيسي مدى قدرتك على التأثير. وأخيراً، رئيس الكونغرس، أونيسمو كانابال، فهو مجرد معجونة يمكن اللعب بها وتشكيلها. بيني وبينك، يمكننا أن نشكّله كما نريد، ما دام سيزار ليون، الذي يمتلك قوّة أكبر عليه، لا يصل إلى هناك أولاً.

«فترة توقف طويلة في الشريط».

بولينا. قد يكون الحاكم جيداً وقد يكون سيئاً، لكنه يجب أن يكون دائماً شرعياً. أو على الأقل يجب أن يبدو شرعياً. فبعد أيام، بل ربما ساعات، سيمنح الكونغرس شرعية للشخص الذي سيجعله رئيساً بالوكالة. تعرفين كم أتحلى بالصبر. لقد وصلت إلى سن الشيخوخة لأنني أتمعن في الأمور طويلاً على

الدوام. لم أنغمس في متع آنية، بخلاف الكثير من الناس في أيامنا هذه. أعرف أن الأوقات تتغيّر. فهناك وقت للعيش، ووقت للموت، ووقت للحرب، ووقت للسلام... لقد قرأت لي ذلك قبل سنوات، يا فتاتي العزيزة، وقد جعلني ذلك أكثر إعجابا من واق جنسي تحت المطر.

وقت للحرب، وقت للسلام. كيف يمكننا أن نفصلهما عن بعضهما بعضاً، أن نميزهما؟ دعيني أخبرك. قبل ثماني سنوات، بدأ توماس موكتيزوما مورو ترشيحه ببرنامج حرب مثالي أثار الكثير من العداء - وهناك الكثير من ذلك في هذا البلد. كانت حكومته مستحيلة. كانوا يهاجمونه من كلّ جانب. كانوا سيشلّونه ويدفعون البلد إلى حوض من العسل الأسود. كانوا سيجعلونه يتجمّد في الجليد، بدون أدنى نفس للريح. لأن الريح مطرقة، أما الجليد فهو قبر. وهذا كل ما في الأمر.

بولينا، كنتِ أنتِ من منحني الفكرة عندما قلت لي إن البرد هو «الوزارة السرية». بولينا، هل هناك مكان أكثر برودة، أكثر ظلاماً، أكثر رطوبة، أكثر مقاومة من الريح، إلا المطرقة والجليد في الوقت نفسه، من زنزانة سجن في قلعة سان خوان دي ألوا؟

الرجل الذي يرتدي قناع نوبال. إنه رمز، يا بولينا، رمز في عالم لا يستطيع أن يعيش بدونه. رمز. القناع الحديدي، لكنه مصبوغ باللون الأخضر كالصبار لكي يشعر السجين

المسكين بالراحة، ليشعر أنه في بيته، بأنه غير مشرد. كان يعتقد لثماني سنوات بأنه ميت. تمثال من الشمع تحت شاهدة قبره كتب عليها:

توماس موكتيزوما مورا

2012-1973

ورجل يضع قناعاً حديدياً أخضر يقبع في أقبية أولوا لمصلحته هو، يا بولينا، يجب أن تفهمي ذلك، لمصلحته هو، لإنقاذه من الموت الذي كان سيتحقق بسبب مثاليته الطائشة، لإنقاذه من الرصاصة الحتمية من القناص، من الزعيم المحلي، من مهرّبي المخدّرات، لإنقاذه من العقبان المستعدة لنهشه وهو حيّ يرزق، لقد قتلته يا بولينا، لقد أمرت باختطافه لمصلحته هو ولمصلحتي أنا، بسلطة أب عجوز من فيراكروز، أعلنت اغتياله أمام البلد الذي أصيب بالصدمة، وأمرت بإلقاء القبض على القاتل وقتله على الفور، شخص أرجنتيني مجنون يدعى مارتن كاباروس، مناضل من حزب «الرعاع إلى المسلخ السري» كان كلّ ذلك محض قصة مختلقة، لكنها أفضل قصة، يستحيل تأكيدها. . .

نظمت الجنازة هنا في فيراكروز، بما أن مسقط رأس توماس من ألبارادو، حيث يصبح المشهد الطبيعي في أيار من كل سنة غابة من الصلبان تطلب المغفرة لتلك اللغة البذيئة التي

يستخدمونها. وفي ألبارادو، فإن ذلك يعني صلباناً كثيرة. ستظنين أني بدأت أستطرد في الحديث، بدأت أسترسل عن المكان الذي أتيت منه. لا، يا بولينا، فقد كان توماس موكتيزوما مورو الإبن المفضّل لهذه الولاية، وكان يستحق جميع الصلبان في ألبارادو.

لقد جعلت جميع من شارك في تلك الجنازة الهزلية يختفي (لا تسأليني كيف وأين). المحنّطون المزيفون، الأشخاص الذين شكلوا قالب الشمع، الشهود الذين لا بد منهم (قليلون جداً، اثنان أو ثلاثة فقط) على الجريمة المختلقة... ثم، وفي ليلة ظلماء، دخل توماس موكتيزوما مورو قلعة أولوا بدون هوية سوى «الرجل الذي يضع قناع نوبال». وهو هناك منذ السنوات الثماني الماضية، وجوده مجهول، قناعه جزء من وجهه، ملتصق بجلده...

لماذا، ما السبب، يا طفلتي العزيزة؟ لكي أنقذه من نفسه، من مثاليته القاتلة، من أسراب الأعداء الحتميين الذين أثارهم. كان من الممكن أن يقتله أي شخص. لم يشكل تهديداً للكثيرين، لكنه كان تهديداً لجميع من لديهم مصالح شخصية. تلميذي وتابعي المثالي، المخلص، المتفاني، العاطفي، كان بمثابة ابني: إن توماس موكتيزوما مورو، حبيس في القلعة منذ ثماني سنوات، ثماني سنوات مرتدياً قناعاً من الصبار، ثماني سنوات ينتظر إطلاق سراحه ليعود إلى النور، عندما لا تعود فضائله

تشكل تهديداً بل ضماناً للشرعية، زبدة بدلاً من الخردل للسندويتش الوطني، يا عزيزتي بولينا.

دعهم لا يبحثون عن خمس أرجل عندما تكون للقطة أربع أرجل فقط، دعينا لا نخدع أنفسنا، لأنه يوجد للمكسيك الآن رئيس منتخب حسب الدستور.

اسمه توماس موكتيزوما مورو.

إنه قطتنا - لكنه سيصبح غداً نمراً يستطيع القضاء على جميع المدعين التافهين الذين يتطلّعون لخلافة لورينزو تيران.

بولينا. حرّكي عجلات الكونغرس لكي يعيد توماس موكتيزوما مورو تنصيبه رئيساً شرعياً منتخباً - فنحن لسنا بحاجة إلى رئيس مؤقت، رئيس بالوكالة، أو انتخابات جديدة. أوقفي سيزار ليون عند حده. ابعدي أونيسمو كانابال الجبان. لدينا رئيسنا. إنها ساعة مورو. لقد قُتل قبل ثماني سنوات. واليوم فإن مثاليته القلقة أفضل دواء يمكننا أن نقدمها لهذا البلد بعد لورينزو تيران الضعيف الشخصية، المثير للحنق.

انظري إليّ في عينيّ يا بولينا. انظري إليّ وشاهدي كلّ ما سيحدث. بل من الأفضل، أن تتخيلي أن كلّ ما سيحدث قد حدث فعلاً.

وعندما تنظرين إليّ ثانية، لا تخافي. يجب أن يجري دمي بارداً لكي يجمّد الآخرين جميعهم.

55

من «لابيبا» ألماسان إلى تاسيتو دي لاكانال

وهكذا يا بطيختي الصغيرة الغالية، ستصبح الرئيس بمساعدتي، لذلك يجب أن تصبح أولاً ستاراً دخانياً رائعاً لتخدع العالم، وسنشكل أنا وأنت تحالفاً نجعل فيه زوجي أندينو ألماسان نائباً للرئيس لكي يرفعك حتى تعتلي عرش النسر، ولهذا السبب، كنت أخدع زوجي لكي يعتقد بأنني أعمل لأجعله رئيساً، هل من الممكن أنني وثقت بك حقاً وبسخريتك كي أصل إلى المكان الذي كنت أرغب في الوصول إليه؟

«إن أخلاقي أدنى من عبقريتي»، همست لي ذات مرة عندما هبت أنفاسك النتنة في أذني.

دعني أضحك عالياً على غرورك، أيها الأحمق المثير للقرف. لقد كنت ممسحة أرجل السياسة المكسيكية. إنهم يقولون إنك اخترت المهنة الخطأ. وكان يجب أن تكون قساً، لا سياسياً.

«إنك مخطئة. إنه كلاهما».

هذا ما قاله لي زوجي عندما أخبرني أن وزير الداخلية، بالديبا، يمسكك من خصيتيك في عملية MEXEN تلك، وأنه اضطر لمناشدة أندينو لكي يكتم وزير الخزانة هذا الأمر ويبقيه في طي الكتمان... وكأن ذلك لم يكن كافياً، فها أنت تحاول أن تجرّ زوجي إلى فسادك بفضيحة مالية جديدة.

إنك قس. إنك سياسي. لكنك أحمق أيضاً.

بكلمات أخرى أنت قطعة خراء، وعزاؤك الوحيد أن الخراء في هذا البلد اللعين يجذب لاعقي المؤخرات، الذين هم مثل الذباب. كيف سيدّون اسمك في كتب التاريخ، يا تاسيتو المسكين؟

«تاسيتو دي لا كانال؟ إنه يعاني من مشاكل في الهضم. عمّة راهبة. أب خرف. رأس أصلع. أظافر أصبحت تمتد إلى مسافة تتجاوز ما تستطيع عيناه أن تراها. كوابيس مبرمجة».

«هل كان لوطياً؟»

«لا أعرف».

«لكنه كان عزباً».

«هذا لا يثبت شيئاً».

«مع من ينام؟»

أوه، أيهــا اللقــيط، يمكنهم أن يـربطوك مع كلّ سكرتيـرة ونادلة بدون استثناء، لكنــني لا أريد أن يربط أحد اسمي بك. إني أحذّرك. لا أريد أن اسمع أحداً يقول: «طبعاً، كان ينام مع جوزيفينا ألماسان، «لا بيبا» كما تعرف.

هل تظن أنني سأدافع عنك، أيها الخــاسر؟ ما الشيء الذي لم تفعله لـكي ترتقي إلى الأعلى؟ هل تظن أنني لم أرك وأنت تتحــدث على الهاتف مع الرئيس الراحل (عندما كــانت توجد لدينا هواتف، أيها اللقيط)، وأنت تقف باستعداد وأنت تتكلم، تنقــر كعب حــذائك في كلّ مرّة تقــول له: «نعم يا ســيدي»؟ هل تظن أنني لم أرك وأنت تــخبيء أعــقــاب السكائر التي قــتلت الرئيس تيــران في النهايــة؟ هل تظن أنني لم أرك وأنت تقف أمام المرآة وتقول: «لا شيء يعرّفني أكثر من رغباتي. إنها فريدة من نوعها. رغباتي ورغباتي وحدي!»

أوه، وعندمــا أتذكر كــيف تحمّلت ســخافــاتك، ذرائعك العــقــيمــة. كنت أتصــرف مــعك كــمــا يفــعلون في يكاتان، إســتخــدمك لمساعــدة زوجي - فقــد كنت دوماً زوجــة أندينو ألماسان الوفــية، حتى عندمــا كنت أدعك تلعق مؤخــرتي، أيها الدودة. انظر إلى نفــسك فــي المرآة. هل تظن حــقــاً أنه يمكن لامرأة أن تقع في غرامك، يا عزيزي الجميل؟ هل تظن أنني لم أكن أرغب في أن أبول من الضحك عندمــا كنت تقول بعد أن تبلغ رعشة الجماع التافهة المثيرة للشفقة: «إن الطموح يلتهمني.

أريد أن أترك أثري على جدار الزمن، وكلّ ما لديّ، مثل أسد، مخالب؟»

كم أنت مثير للشفقة، ياعزيزي! يا إلهي، كيف تحملتك! وكل ذلك من أجل أندينو، لأساعده كي يشق طريقه إلى سدة الرئاسة، لأن أقيم حلفاً بينه وبين نقيضه، الجنرال أروسا، ومن ثم أضرب ضربتي. الرئيس ألماسان - لا نائب الرئيس، بل رئيساً لستّ سنوات، بواسطة انقلاب يقوم به أروسا. تلك كانت الخطة الحقيقية، لا خطتك، أيها الخراء البائس. حتى أنني نمت مع أروسا واستعملتك كغطاء لكي تظن أن كل المؤامرات والخطط كانت لمصلحتك. أوه، كم سخرت أنا وأروسا منك! يا جنرالي - يوجد الآن رجل يعرف حقاً كيف ينيك. لا مثلك، أيها الدودة...

«احذري» قال لي الجنرال، «قد يكون دودة. لكن تذكري أنك عندما تقطعين الديدان من الوسط فهي تظل تتحرك».

كما تعرف، فإن أفضل شيء في كلّ هذا أن أحداً لن يصدق أن امرأة لذيذة، مثيرة جنسياً مثلي من ياكتان، يمكن أن تشتهي جلفاً قذراً مثلك في سريرها.

وهل تعرف شيئاً آخر؟ إنني صريحة معك لأنني لا أبالي إن أريت هذه الرسالة إلى جميع البشر في العالم. فلم تعد لك مصداقية. إذ يعتبر الناس أن كلّ ما تقوله أو تفعله، احتيال،

خــداع، دجل. . . وقد كـتب على جـبهـة رأسك الذي يشبـه البطيخة: كذاب ولص.

«لديّ قسمات رجل زاهد وأساليب شخص فاسق خليع».

كـان ذلك أول شيء قلته لي، أيهـا اليرقـة. هذا ما يميّـز شخـصيـتك. كان عليّ أن أمـسك نفسي عن الضـحك. كنت مستعدة لأن ألعب جميع أوراقي مع الجنرال ليعلن أن تيران غير كفء، ويطرده من منصـبه، وليرشح أندينو رئيـساً مؤقـتاً. ثم نتركه هناك ونلعب به كدميـة بينما نحكم أنا وأروسا البلد معاً. أما أنت فكنـت الخيار الثـاني في حال تمكنت من الصـعود إلى سدة الـرئاسة «بإمكانيـاتك الخاصـة» (فكل شيء ممكن في هذه الحياة) أو إذا عيّنك الـكونغرس رئيساً وعيّن أندينو رئيسـاً مؤقتاً فقط. إلى متى ستدوم؟ كما أشاء أنا ويشاء الجنرال، لا أكثر من ذلك.

أو في أسـوأ الأحوال، كنت، إذا عُـينت رئيـساً مـؤقتـاً، ستدعم أندينو ليـصبح رئيـسـاً، بينما يحكم أروسـا من وراء العرش.

كما ترى، كانت لعبة شطرنج كنت فيها أنا الملكة، وأروسا هو الملك، والفيل هو أندينو، أما أنت فالبيدق اللعين.

إلى اللقاء يا تاسيتو المسكين. لقد خرجت زاحفاً من جحر وستعـود الآن مباشرة من حيث أتيت. وقل لنيـوكولاس بالديبا

إن المثاليات ليست مهمة، وإن القناعات والمعتقدات لا تساوي شيئاً. قل لنا مع من أنت. هذا ما يهم.

أوه - بالمناسبة، لقد منعك بالديبا من دخول جميع المكاتب الحكومية. هذا لمعلوماتك فقط.

56

من دولس دي لا غراسا إلى الرجل العجوز تحت القنطرة

سيدي الرئيس، إن عدم قدرتي على تحمل بهجتي وحزني، هو الذي دفعني لأن أكتب إليك. لا أعرف إن كنت سأجرؤ على النظر في عينيك مباشرة، أنت الذي سببت لي هذا القدر الكبير من الألم، وها أنت تعيد لي الآن سعادة مستحيلة لم أعد أحلم بها منذ عهد بعيد. لذلك استدعيتني إلى المقهى بالقرب من الميناء. أعرف أن توماس يكنّ لك احتراماً كبيراً. كم مرّة قال لي إنك كنت أكثر من معلّم له، وإنه يعتبرك مثل أبيه؛ ومثل أب كنت تنصحه دائماً بألا يكون طيباً كثيراً، وبأن يكون أشد قسوة.

«إن أسوأ أعداء السلطة هم الأبرياء»، قلت لتوماس، وهذه الكلمات محفورة في قلبي، مثل كلّ شيء يخبرني به حبيبي. «حتى الآن، فإنك المرشح المذعن، وهو ما يجب أن تكون. الآن تريد أن تكون مصلحاً. انتظر. لا تكن شديد الحماس

واللهفة. لا تبدأ يومك في منتصف الليل. ابدأ إصلاحاتك عندما تعتلي عرش النسر، كما فعلت أنا. استفد من خبرتي».

نعم، أعرف أن توماس شجاع، وأنه لا يتراجع أبداً، وأنه يرمي نفسه إلى الحلبة. نعم، أعرف أن جميع الأقوياء في المكسيك رأوا أنه تهديد لهم. ولهذا السبب قتلوه.

لقد عانيت ذلك لمدة ثماني سنوات - كنت في الحادية والعشرين من العمر آنذاك، وقد بلغت الآن التاسعة والعشرين، بل وأقترب من الثلاثين من العمر، «في زهرة شبابي»، ألا يقولون ذلك؟ ثماني سنوات من المعاناة، يا سيادة الرئيس. على الأقل كان ألمي شديداً، حقيقياً. والآن، تظهر على حين غرة وتدفعني إلى حفرة اليأس والتعاسة على نحو أسوأ من قبل.

نعم، إن توماس حيّ يرزق. وتبلغ بك الجرأة لأن تقول لي ما قلته لحبيبي عندما - وأنت الملام وحدك فقط - أخذته مني...

«توماسيتو، اعتبر نفسك سجيناً يتمتع بامتيازات. اعتبر أن الحياة قبيحة وخطرة وقاسية النظرة، انظر يا ولدي، أغلق الباب أمام العالم قليلاً، وعد وجدد شبابك. انتظر لحظتك: لم تأت بعد. إنها ستأتي. أقسم لك».

لم تتملكك الشجاعة لتذهب إلى تلك الزنزانة البارحة. وعوضاً عن ذلك أرسلت إلى توماس رسالة مكتوبة عن طريقي. وها هي:

لقد أردت أن أمنحك السلطة. أردت أن أمنحك الفرصة لتفعل الأشياء التي لم أستطع أن أفعلها أنا، لأن النظام في أيامي كان مختلفاً. إنني في غاية الأسف، آسف حقاً، يا توماسيتو. إنك لم تفهم. لم تعرف كيف تحكم تلك اللحظات. إن ما فعلته، فعلته من أجلك. وهي ليست المرة الأولى ولا الأخيرة التي أقدم لك فيها مشورتي ونصيحتي وأحاول أن أحميك من دوافعك المثالية. لقد حان وقتك الآن. الآن يريد البلد شرعية، رموزاً، دراما، أملاً. منذ قيام المسيح لم يحدث بعث مثلك، يا بني. أنا الذي يتحاشى الشهرة والظهور سيكون هناك جيش من المصورين والمراسلين بانتظارك عندما تخرج. من ألوا، يا إلهي، إني أفضل من ذلك يا توماس: إنك لم تكن في أولوا على الإطلاق. لقد ضللت طريقك في الغابة، اُختطفت، تهت في الغابة الملعونة. ساحرة من كاتيماكو دفنت أظافرك وشعرك تحت شجرة نخيل كبيرة. كنت تحت تأثير سحر منذ ثماني سنوات، يا توماس، لقد ضعت في عالم الطبيعة، أنت نفسك جزء من الغابة، لا تختلف عن نبات الفانيلا الزاحفة، نبات الفلفل، الصبار، الزعرور، شجرة الجونوت، قصب السكر، عالم الطبيعة الشاسع الوفير في فيراكروز الذي كان موجوداً قبل أن نولد يا توماس، والذي كان يغلفك مثل عباءة رائعة، ابتلعك وجعلك جزءاً منه. ولا تنس يا تاسيتو أنك واقع تحت سحر. وأنك تنام

وأنت جالس لأنك إذا استلقيت فإن نسيم البحر لن يهب عليك. تنام والنوافذ مفتوحة لكي يغمر المطر القادم من خليج المكسيك جلدك. وإذا مت، يمكنهم أن يقولوا فقط إن «ريح الشمال» كانت متواطئة في الجريمة. كنت تظن أنك ميت يا توماس. وها هي فتاتك دولس تظهر الآن لتنقذك، لتقول لك: «لقد وجدناك أخيراً! لقد تهت في الغابة».

سيادة الرئيس. بماذا كنت تفكر؟ هل تصدق حقاً ما قلته لي؟

«إن كلّ شيء في المكسيك بحاجة إلى رمز. فإذا كان باستطاعتهم أن يجعلوا هندياً فاقد الذاكرة، شديد الحساسية، جاهلاً مثل خوان دييغو قديساً، فلم لا يجعلون مورو رئيساً في اللحظة المناسبة، ونحن في عام 2020 لا عام 2012! إنها معجزة، معجزة! المعجزات، الإيمان، الثقة، أي شيء آخر يمكن أن يحفّز المكسيك أكثر من هذا؟ رئيس منتخب تاه في الغابة، فقد ذاكرته مثل قدّيس، يعود ويظهر، لا ليسترد شيئاً إلا عرش النسر! إنه أمر مثير للأحاسيس يا آنسة دي لا غارسا! ويا لها من أحاسيس عظيمة إذا كنتِ أنت، صديقته الورعة، التي تنقذه وتعيده إلى مكانه الحقيقي. قصة حبّ! حبّ ومعجزات، يا عزيزتي! من يستطيع أن يعارض ذلك؟ إنها عملي الرائع. الآن أستطيع أن أموت بسلام، يمكنني أن أخلّف ورائي المغلفات المختومة، «المخفية» الحيل الانتخابية، حفلات التصويت الصاخبة، مكائد الاقتراع، جميع أصوات أولئك

الموتى، كلّ شيء آخر كان يجري عندما كنت رئيساً. هذه ذروة عملي في السياسة: لقد منحت المكسيك الرئيس المناسب في الوقت المناسب، لقد أحييته كما أحيا الرب ابنه المسيح. لقد أعدته محاطاً بالألغاز إلى العالم. فيها جميع العناصر: مغامرات مثيرة، صعود غامض، ألم محتوم، أحداث عاطفية مأساوية مثيرة، عاشقان يلتقيان ثانية... آنسة دولس، سيدتي الجميلة، ألا تشعرين بالأحاسيس في صوتي، قوتي المستعادة، تحفتي المكتملة؟»

نعم، يا سيادة الرئيس، إني أشعر به وبالحزن عليك، وأشعر بالكراهية نحوك أيضاً. يا للعار. أظن أنك جننت. أصبحت مختل العقل، شيخاً خرفاً متوحشاً يتلاعب بحياة وعواطف الآخرين بدون أيّ مشاعر إنسانية... كنت محقاً في أن ترسلني إلى توماس، وقد ذهبت بسعادة، لكن الذعر تملكني حتى الموت أيضاً؛ كان قلبي يخفق بقوة لأنني لم أكن أعرف ماذا سأجد.

قادوني عبر تلك الأنفاق والدهاليز المعتمة التي تفوح منها رائحة الموتى المنسيين. أخذ جرذ قذر ينظر إليّ وكأنه يريد أن يغويني. وكانت قطرات الماء المالح تتساقط من السقف، وبدأت القلعة كلها تصدر صريراً وكأن خطواتي أهانتها. إني أقول لك ذلك لكي ترى الفصاحة التي تملكت رأسي ولساني وهي تهيّئني لأكثر الأحاسيس حدّة في حياتي...

كان يضع قناعه عندما دخلت الزنزانة.

«توماس، حبيبي، هذه أنا...».

لم يكن ثمة شيء سوى الصمت. أطول صمت في حياتي، صمت طويل يكفي لأن يجعلني أتذكر كيف التقينا أنا وتوماس لأول مرة، في المتحف في مونتيري، ومن ثم لأتذكر كلّ لحظة من لحظات حبّنا.

«توماس، حبيبي، هذه أنا...».

أدار ظهره لي.

ثم خربش شيئاً على الحائط بقطعة طباشير، شيئاً كان قد كتبه ألف مرة من قبل، لأن الزنزانة كانت مليئة بتلك الإشارات البيضاء، التي بهت لونها في الهواء الرطب:

الخبز. الزمن. الصبر.

ضممته إليّ. ابتعد عني بحركة عنيفة من كتفيه. رماني وكأن صاعقة ضربتني. جثوت على ركبتيّ وأمسكت ساقيه.

«توماس، لقد عدت إليك، هذه أنا...». نظرت إليه، متوسلة. لبث صامتاً.

داعبته، وأنا لا أزال جاثية على ركبتيّ، ثم رفعت عينيّ، أتوسل إليه.

«انزع قناعك. دعني أراك ثانية».

ضحك، يا سيادة الرئيس. لم أسمع في حياتي ضحكة كهذه، وأرجو ألا أسمعها مرة أخرى. كانت وكأن في حنجرته سلاسل حديد بدل كلمات. بدأ صوتي يرتعش، وكأن الموت حبيبي، كما لو أنني خرجت من القبر الذي كنت أزوره طوال ثماني سنوات، أحمل أزهاراً له، وأبكي أحياناً، وأرفض أحياناً أن أدع دموعي تسقط على شاهدة القبر. ارتعش صوتي، كما لو كنت حبيبة استسلمت للاختفاء ثم عادت تتودد إلى الموت الآن، لأن ذلك الرجل الذي خدعته بوحشية، وسجنته، وعاملته بانحراف، نعم، نتيجة انحرافك لم يعد حبيبي نفسه.

إنه رجل آخر، ولا أعرف ماذا أدعوه أو كيف أكلمه.

لم يرد على كلماتي. مددت يدي إلى قناعه، حاولت أن أفتحه مثل علبة. ضحك. ثم أفلت منه صوت، مخنوق، غير واضح، صوت لم أعرفه، يسألني من أنا، وماذا أفعل هنا، وكيف تجرأت ودخلت المكان الذي يخصه هو ولا أحد غيره.

«وجهك... دعني أرى وجهك يا توماس...»

قال لي ألا أكون حمقاء، وإنني لا أريد أن أرى الوجه تحت القناع وإلا ما الذي يجعله يضعه، إن لم يكن ليخفي شيئاً فظيعاً، وجه وحش، رأس نسر، عيني أفعى، وفم كلب؟ هل هذا ما أريد أن أراه، أنا البلهاء، رجلاً له وجه مجنون تغمره لحية ولا يستطيع أن يتحدث جيداً، حتى الحرّاس لا يحتملون

النظر إليه عندما يزيلون القناع عن وجهه لكي يتناول طعامه؟ وكانوا يعيدون القناع إلى وجهه وكان يدعهم يفعلون ذلك، حتى أنه لم يكن مستعداً لمشاجرتهم. لقد تعوّد على القناع «الخبز، الزمن، الصبر»، وكان يجنّ تماماً عندما يرى نور الشمس. لم يكن الواقع في الخارج، بل هنا في الداخل، وسيؤمن بذلك حتى يموت. لقد كان سجيناً، نعم، لكنه متحرر من الزيف، الأكاذيب، الأوهام، وأحلام العالم في الخارج.

«هذا بيتي: الحقيقة، السلام، الزمن، الصبر».

لقد جرحني كلامه. كان يتكلم دون أن يعرفني، أو أنه تظاهر بأنه لا يعرفني، لا أعرف، لكنه رفض أن ينظر في وجهي، وقد كتمت صوته تلك الكتلة الضخمة من الشعر، السميكة والكثيفة كالغابة التي اخترعتها أنت بقسوة، الصوت المكتوم وراء القناع، ثم تلك الكلمات الغريبة: «أيقظوا الموتى، لأن الأحياء نائمون...»

لم يعرفني. لكنني أقول لك إنني عرفت توماس موكتيزوما مورو أكثر من أي شخص آخر: لقد وجد بيته داخل تلك الجدران الأربعة الشديدة البرودة. حتى أنه لا يستطيع أن يرى الماء أو يشعر برذاذ البحر من تلك الفتحة في أسفل خليج المكسيك. إن سان خوان دي ألوا هي الواقع الوحيد الذي يعرفه، أو يريد أن يعرفه. وهو، أيها الرجل العجوز، إنجازك القاسي الشرّير.

كيف عرفت أنه هو؟

لم يكن ذلك الصوت واضحاً، بل كان مشوهاً.

كيف كان بإمكاني أن أعرف أنه حيّ؟

من الخوف في عينيه اللتين كانتا تبدوان من خلال الشقين في القناع.

من الخوف في عينيه يا سيادة الرئيس. خوف لا أستطيع أن أتخيّله، ليس حتى في أسوأ كوابيسي، خوف من كلّ شيء، هل تفهم؟ الخوف من التذكر، من الحب، من الرغبة، من العيش، من الموت... الخوف الذي زرعته هناك، يا سيادة الرئيس، وأدعو أن يدفنك الشيطان في أعمق حفرة في الجحيم عندما تسلم روحك إلى بارئها. وأنا أتضرع بأن يأتي ذلك اليوم بسرعة، لكني أعرف أن حياتك الآن أصبحت جحيماً حقيقياً.

كان كلّ ذلك دون جدوى. لقد ضحّيت بالرجل الذي أحبه بلا مقابل. إن توماس موكتيزوما مورو لن يغادر أولوا أبداً. لا حياً ولا ميتاً. إن تلك الزنزانة منيعة، لا يمكن اختراقها. إنها الرحم الذي يقيم فيه. ولن يعرف أيّ بيت آخر.

إن بيتك هو بيت العار. أو ربما - بل حتى سيكون ذلك أسوأ من وجهة نظرك - بيت الفرصة الضائعة. أظن أن هذه

هي المرة الأولى التي لم تأت الأمور بالنتائج التي كنت تأملها. إنك تثير اشمئزازي. لكن أكثر من أي شيء آخر، إني أشفق عليك.

لديّ شيء واحد فقط أريد أن أسألك إياه. استمر في رشوة حراس المقبرة لكي أتمكن من فتح قبر توماس موكتيزوما مورو المزيف، كما فعلت من قبل.

57

من تاسيتو دي لاكانال إلى لا بيبا الماسان

لا تقلقي عليّ، يا حبيبتي. فقد خسرت كلّ شيء، لكني لم أخسر الملاذ الأكثر عمقاً وحميمية من روحي، الذي هو حبّي لك. لا يهمني إن هزأت بي، أو أهنتني، أو أبعدتني عنك إلى الأبد لا يهمني. لقد عدت إلى الميناء الأكثر أماناً. أريدك أن تعرفي ذلك. إنه ليس انتصاراً ولا هزيمة. إنك توبخينني على خنوعي وغروري. إنك تذلينني وأنا أستحقّ ذلك. إن كل ما كنت أظن أنه حظي الجيد قد تغيّر فجأة، فوراً.

نعم، أنا الرجل الذي كان يمكن للرئيس أن يقول له: «تاسيتو، اقفز من النافذة»، وأجيب، «بعد إذنك يا سيدي، يسرني أن أقفز من السطح».

كما تعرفين، فقد اعتراني شعور داخلي عندما قدم رئيس دولة أجنبي إلى لوس بينوس لزيارة الرئيس. كنت أنتظره عند الباب، وأعطاني معطفه المطري كما لو كنت خادماً. هكذا ظن

أنني كنت. كان يجب أن أشبك يديّ وراء ظهري، كما يفعل أفراد العائلة المالكة البريطانية، للدلالة بتهذيب أني لست واحداً من خدم القصر. لكن بما أن هذا ما كنته تماماً في الواقع، فقد أخذت معطف الرجل، خافضاً رأسي، وقدته إلى المكتب. حتى أنه لم ينظر إليّ. وهكذا كنت أمسك معطف رئيس البرغواي، وقال وهو يبتعد عني: «إن الجو بارد جداً هنا في المكسيك!»

بالتأكيد كنت الخادم. وسألت نفسي مرة أخرى عندما بدأت أعمل مع الرئيس لورينزو تيران: «بحقّ الجحيم ماذا يريدون مني؟ أنا شخص نكرة».

ستقولين: «بالتأكيد، بما أنك نكرة فإنك تستطيع أن تؤدي دور المتواضع الكاذب. صدقيني. لا تصدقيني. ماذا يهمّ؟ إني أكتب إليك هذه الرسالة للمرة الأخيرة، يا بيبونا. لن أكتب لك ثانية على الإطلاق، أقسم لك على ذلك. أريدك أن تعرفي فقط أين انتهى بي الحال، وأريدك أن تعرفي بأني أقبل ذلك بتواضع حقيقي.

يعيش أبي في بيت منعزل صغير في ديسيرتو دي لوس ليونس. إنه بيت صغير أبيض متواضع، بعيد ومخفيّ. وكان السبيل الوحيد للوصول إليه أن تسلكي تلك الطرق الملتوية الوعرة، الشديدة الانحدار، حيث يمكنك أن تري Ajusco. إن أبي عجوز. أدعوه «أبي العجوز»، كنت قد قرأتها في إحدى روايات ديكينز عندما كنت شاباً. نعم، كنت شاباً ذات يوم، يا

حبيبتي بيبا، وهو أمر يصعب أن تصدقيه، أنتِ والعالم كله. كنت شاباً، كنت أدرس، كنت أقرأ، أعدّ نفسي للمستقبل. كان يدفعني الطموح وشيء آخر إلى قدر أبي. لكي لا أكرّره، لكي أكون دقيقاً. لا أستطيع أن أتحمل أن أكون مثله.

كان لأبي تأثير هامّ على السياسة المكسيكية طوال ثلاث دورات رئاسية مدة كل منها ست سنوات متتالية. كان ينتقل من وزارة في حكومة إلى أخرى، يستمد قوته دائماً من الظل، كان يعمل دائماً وسيطاً سياسياً للرجل الكبير، يساهم في إدراج اسم وزير الحزب الثوري الدستوري في قائمة الرئاسة، ثم يدفعه إلى الوزارة. لم يستطع أن يفعل ذلك، لذلك كان دائماً يكسب ثقة المنتصر. لا شيء يُكسب ثقة الناس كالخسارة. دائماً في الظّل. دائماً وسيطاً سرياً. لم يكن يتمنّى شيئاً أكثر من ذلك، لأنه ولد في إيطاليا من أبوين إيطاليين، كاناليس من نابولي. لهذا السبب لم يكن الناس يثقون به لقد أحبط القانون طموحاته. هو نفسه لم يكن بوسعه أن يكون رئيساً. ثلاث دورات، مدة كل منها ست سنوات. لكن جاء يوم أصبح يحمل فيه الكثير من الأسرار. كانت تلك هي المشكلة. أسرار كثيرة في الحقيقة، إلى درجة أن أحداً لم يصدق أنه يمكن أن تكون كلها صحيحة، لأن الأسرار بطبيعتها متناقضة وغامضة، وأن الشيء الحتمي لألف يعتبر هراء بالنسبة لباء، وما يعتبره عين فضيلة، يعتبره سين رذيلة وهكذا. بمعنى آخر، كلّ شيء

كان أبي يعرفه، كلّ شيء كان يعــرف عنه الكثير، انقلبوا ضده في نهاية الأمر.

«ألف» لامه لأنه كتم سراً عندما كان من المفيد أن يفشيه.

«باء» انقض عليه لأنه لم يفهم أن صمت أبي حماه، بينما كان «باء» يريد أن يذيع سره ويصبح تهديداً سياسياً.

«سين» أراد أن يُضحى بأبي بسبب سـريته: فالأسرار التي كان يحتفظ بها جرائم دولة.

ومن الناحية الأخرى، فـقد انتقده «عين» على سلسلة من تصرفاته غير المسؤولة...

نعم، كان يتلاعب بخـيوط دمى كثيرة وكان مـسرح حياته بيتاً من الأوراق.

كـان أبي ذكيـاً. ذكيـاً إلى حـد كبـير. وقـد فاق ذكـاؤه مصلحـته. لقد بالغ في الأمـر. نسي أن يطهّر الذين يقـومون بحمـلات التطهير. نسي أن أفـضل وسيلة تضمن فـيها حـياة عـــدوك هي أن تقـــتله. نســي الدروس الخـــالـدة لأطول الدكتاتوريات: أن الخدمة التي تقدم في الخفاء للأقوياء قد تجلب مكافأة، لكنها قد تجلب العقاب أيضاً. بعد فترة من الزمن كان أبي يعرف أسراراً كـثيرة حتى بدأ الناس يخـافون منه، وأصبح مشـهوراً. لم ينقذه صمـته. بل على العكس، فقـد قرّروا أن يدفنوه قبل أن يتمكن من فتح فمه.

كيف دمروه؟ بالتملّق والمداهنة، يا عزيزتي بيبا. فقد أخذوا يكيلون له المديح. أخرجوه من الظل الذي كان موئله الطبيعي. أخرجوه إلى العلن وراحوا يصفقون له في السيرك السياسي، جعلوه يجري حول الحلبة. لقد عاني أبي المسكين، لم يستطع أن يقرّر إن كان يجب عليه أن يبقى في الظل أو أن يستمتع بتملقه على الملأ. لقد نسي صيحة أحد أعوان ستالين المقربين منه: «أرجوك! لا تتملقني! لا ترسلني إلى سيبيريا!»

نعم، كان أبي العجوز يحظى بالكثير من التصفيق. لا تصفيق العامة، الذي لا يهمّ، بل تصفيق الخاصة: تصفيق الرئيس، الذي يبث في قلوب الناس شعوراً بالحسد والحنق على الشخص المقرّب من الرئيس والأثير لديه...

باختصار: لقد أمضى وقتاً طويلاً جداً وهو ضوء البيت وظلام الشوارع في الوقت نفسه.

يقولون إنه كُتب على الشخصيات العامة أن تعيش في عذاب دائم لكنها يجب ألا تظهره على الملأ على الإطلاق. ومع ذلك يجب أن تترجم المعاناة أحياناً إلى أفعال. كان ستالين يخشى أطباء الأسنان. فقد فضّل أن يترك أسنانه تنخر لكي لا يجازف بالذهاب إلى طبيب الأسنان. بمعنى آخر، يعتقد المرء أن الولاء، لا القدرة، هي التي تُكافأ في النهاية. اسخري مني إذا أردت، تذكري كلّ تصرفاتي الحقيرة، اسخري مني على

غروري. أشفـقي على هزيمتي. إنها ببساطة الفـصل الثاني من سقوط أبي.

لقد مرت سنوات طويلة منذ أن رأيته آخر مرة. إني أرسل له نقـوداً على الدوام، لكنني كنت أخـشى أن أقتـرب منه. إن الفشل مُعْدٍ، ولم أكن أريد أن تكون نهـايتي مثل نهايته. كنت أريد أن أنجح حيث فشل. كنت أخطط لأن أعتلي عرش النسر. بيرنال هيريرا، ومـاريا دل روساريو، ألدّ أعدائي، وأنتِ، المرأة التي خانتنـي، الأعداء الصغـار الذين يجب على المرء ألا يقلل من شأنهم، الأفاعي الصغيرة داخل مكتبي: دوريتا ذات أشرطة الزينة الزرقاء الـسماوية؛ بينيلوب ذات النظارة بـإطارها الضخم وبشـرتهـا الداكنة؛ والمهندس الحـقيـقي لسـقـوطي، نيكولاس بالديبـا، الذي أصبح الآن وزير الداخليـة، الرجل الذي وضع الخطة التي كلّـفـتني سلطتي، تلك الوثائـق اللعـينة التي كـان يحتفظ بهـا موظف الأرشيف الأحمق سيستـولو ماغون، تلك الوثائق التي وقعتّها لأن الرئيس سـيزار ليون كان قد طلب مني أن أفعل ذلك، طلب كان بمثابة أمر وعزاء:

«لا تقلق يا تاسيتو. عندي أرشيف جاهز من أجل اللحظة التي أغادر فـيها منصبي. إنـي أحتاج إليه من أجل مـذكراتي. سأكـون انتقـائياً، أعـدك بذلك. لكنني لا أستطيـع أن أضحي بوثيـقة واحـدة من إدارتي. هل تفـهم. إن رئيس المكسـيك لا يحكم ستّ سنوات فقط. إنه يحكم من أجل الأجيال القادمة.

يجب إنقاذ كلّ شيء، الجيد منها والسيء. من يعرف، يا تاسيتو الطيب، فقد يثبت الزمن أنك محقّ حول تلك الهفوات القانونية الضرورية. ما سيهمّ أكثر في النهاية، الحقيقة أننا خدعنا مجموعة من حاملي الأسهم الصغار أو أننا أنقذنا الشركات الكبيرة التي تُعتبر القوة الدافعة والتي تقف وراء اقتصاد التصدير مثل اقتصادنا؟»

ابتسم بخبث.

«بالإضافة إلى ذلك، كان لدى موظف الأرشيف أوامر بأن يضع الوثائق الأصلية في جهاز إتلاف الورق. سأحتفظ بنسخ مصدّقة».

كان ثمة تهديد صارخ في عينيه الصغيرتين كالذبابة. أوه نعم، يا عزيزتي بيبا، إن ذاك الرجل مثل ذبابة، إذ تستطيع عيناه أن تنظرا في جميع الاتجاهات في وقت واحد. على رأسه هوائيان طويلان. لديه جناحان، واحد ليطير به والآخر ليحافظ على توازنه. إنه يحط دائماً فوق أكوام الزبالة. إنه ذبابة عجوز، رمادي ذو بطن صفراء. احذري منه. إنه يستطيع أن يتعلق بالجدران ويزحف عبر الأسقف. إنه يستخدم الديدان كطعم، والجميع يعرفون أن الديدان تتغذى على اللحم الميت. إنك تحتقرينني. أما أنا فلا أحتقرك، ولهذا أحذّرك الآن: لا تثقي تماماً بأروسا. لا تبهرك قوة الجنرال العنيفة الخالصة. ابقِ عينيك على سيزار ليون. فلديه دائماً ما يخبئه.

لقد أخبرت بالديبا بكلّ هذا والآن أخبرك أنتِ، وخاصة وأنك الآن تستلقين في السرير مع ذئب. اجعلي أروسا الذئب يخاف من ليون الذبابة. إن من يظن أن الرئيس السابق يريد أن يتقاعد فهو مخطيء تماماً. إنه سيبقى مصدر إزعاج حتى اليوم الذي يموت فيه.

لكنني أريد أن أعود إلى والدي العجوز. كان العالم مصدر سقوطه، يا عزيزتي بيبا، كما كان سقوطي، لكن السقوط كان أسوأ بالنسبة له لأنه لم يكن يتطلّع إلى عرش النسر؛ كان كلّ ما يريده أن يظل يعمل في الظل. نعم، وبما أن طموحه كان أقل، فقد آلمته الخسارة أكثر. كان ذلك بمثابة إهانة لقانونه الأخلاقي في السرّية، كما ترين. فبفضل تواضعه، كان هناك أفق واسع ممتد أمامه، ما دامت مهنته كمستشار سياسي مؤتمن - مثل تاليراند وفوتشه والأب جوزيف لو كليرك دي تريمبلاي - الذين كانوا يمارسون نفوذهم إلى جانب ريتشيليو. انظري كيف تعود ذاكرتي بسرعة - أنا تلميذ التاريخ المتحمس ثانية-. أوه، لكن هذا يُظهر كم تغيّرت، يا جوزفينا. - لقد أصبحت شخصاً آخر - هل ترين ذلك؟ أشعر أنني أصبحت نقياً من العواطف في هذه اللحظة. إن أعظم هدية قدمها لي أبي، كانت قوته في أن يظل في الخفاء. لقد أكسبه ذلك ثقة الرجال الأقوياء. لكن ذلك جعله عرضة للتخلص منه عندما أصبح يعرف أخيراً كلّ شيء، مع أنه كان لا يزال لا شيء.

لقد دلفت إلى البيت الصغير في ديسيرتو دي لوس ليونس.

كانت الفتاة التي تعتني بوالدي العجوز ترتدي الزيّ التقليدي لكاترينا دي سان خوان.

«ما اسمك؟» سألتها، لأني رغم أنني أدفع راتبها، لم أرها من قبل.

«غلوريا مارين، في خدمتك».

ابتسمت.

«أوه، تماماً مثل الممثلة».

«لا يا سيدي. أنا الممثلة غلوريا مارين».

كان ذلك صحيحاً، كانت تشبه تماماً إحدى الحسناوات الجميلات في السينما المكسيكية. غلوريا مارين: شعر أسود فاحم، عينان حزينتان مفعمتان بالشك لكنهما حسيتان تقبعان وراء الدفاع الحتمي للمرأة المكسيكية المرهقة. كانت صورتها الجانبية رائعة، وجهها البيضوي، سمراء قليلاً. وتلك الشفتان، دائماً على حافة ابتسامة مرّة. من حيث المظهر، كانت تبدو مطيعة، منقادة. أما في الواقع، فكانت متمردة.

«أين أبي؟»

«حيث يوجد دائماً. يشاهد التلفزيون. ليلاً ونهاراً».

لفّت شالها بلطف فوق ثدييها. لم أعبأ بأن أقول لها إن هوائيات التلفزيون لا تعمل منذ كانون الثاني. «أوه. ليلا ونهارا؟»

«نعم. إنه ينام هناك، يأكل هناك، يقول إنه لا يستطيع أن يفوّت لحظة واحدة من التلفزيون. يقول إن أولئك الناس قد يأتون ويقتلونه في أي لحظة، لذلك يجب أن يكون مستعداً للدفاع عن نفسه».

«من يريد أن يقتله؟»

«أشخاص أشرار».

«ما هي أسماؤهم؟»

«أوه. سوتي كيوبيرا. الآخر كولو باريما. أصبحت أحلم بهما يا سيدي. يقول إنهما من فنزويلا ويعيشان في غابة تدعى كانيما».

حدّقت فيها، وقد اعترتني حيرة شديدة.

«حسناً. اسمك غلوريا مارين. وما اسم الرجل الذي تعملين لحسابه؟»

«جورج نيغريت».

«لا. اسمه إنريكو كانال. من أين أتيت باسم جورج نيغريت أيتها الكلبة؟ كان نيغريت نجماً سينمائياً، معبود النساء اللاتي، مثلك، كنّ يحلمن به. لقد مات منذ حوالي قرن».

بدأت غلوريا مارين تبكي.

«أوه، يا سيدي. لا تقل له. لا تقتله. إنه جورج نيغريت. إنه حقاً يصدّق ذلك. لا تأخذ ذلك منه. أقسم أن ذلك سيقتله».

أطرقت بعينيها.

«سمنّي ما شئت. أنا في خدمتك».

تنهّدت كما اعتدت أن أتنهّد عندما كنت شاباً. ثم دخلت إلى غرفة الجلوس الصغيرة، التي تنفتح على باحة مهملة حيث كان العشب ينمو في الشقوق بين البلاطات، وحيث توجد شجرة منعزلة. وهناك، على كرسي صغير في مواجهة التلفزيون كان يجلس والدي العجوز، عيناه مثبتتان على الشاشة. كان يتكلّم مع نفسه في حلم يقظة.

«أدخل الآن إلى الحانة وأنظر إلى الجميع شذراً. «يوجد مدفع رشاش هنا!» أصرخ، وشعري على وجهي، ويعمّ المكان السكون، كانوا خائفين، وأمسك أجمل فتاة من خصرها - أنا آسف يا غلوريا، ليس أنتِ، لم تكوني في هذا الفيلم - وأغني «أوه، ياليسكو، لا تتراجع»».

أحسّ بوجودي، واستقرت يده الباردة التي يملؤها النمش والتي بدت مثل قطعة رخام فوق يدي ووجهّتها إلى كتفه، وكأنه يشكرني على وجودي هناك دون أن يعرف من أنا. غيّر

الصورة بواسطة جهاز التحكّم عن بعـد. كان يشاهد توليفة من المشاهد من باقة من الأفلام القديمة المختلفة. وفجأة، كان هناك جورج نيغريت يرقص فـوق خشبة مسرح فـيراكروز على أنغام أغنية يغنيـها نينو أباريسدو، وغلوريا مارين الرائعـة ترتدي ثياباً مثل سـيدة أرستقـراطية من القرن التـاسع عشر، عـباءة وتنورة حريرية تصل إلى كاحل قدميها، ونيـغريت متأنق مثل شيناكو. يحـدّق أحدهمـا في الآخر بشـغف جـريء حتى يأتي الشـرير الوغد، صيدلاني يدعى فيتـريولو، أفقدته الغيرة عقله، ويطعن غلوريا بسكين. . . والدي العـجوز يسرّع الشـريط إلى الأمام، يده ترتعش تحسّباً لإثارة مشـاهدة جورج وهو يقبّل غلوريا قبلة بطيئة طويلة في فيلم «رسالة حب».

أوقف أبي الفيلم فيـما كان البطلان يقبّل أحـدهما الآخر، وجلس هناك مفتوناً، منتشياً يستمتع باللحظة.

ثم، استدار نحوي بعد فترة طويلة.

«شكراً لأنك أتيت لرؤيتي. إني أنتظر مرافقي».

حدّق فيّ ساهماً.

«من أنت، أيها الشاب؟ مانتيكويلا أم تشيكوته؟»

«تشيكوته، يا أبتي».

«ماذا؟»

«أنا آسف. تشيكوته. أنا تشيكوته، رفيقك الوفي».

«هذا ما أريد أن أسمعه. هيا لنشرب تاكيلا وليمون هنا في الزاوية، على حسابي، سنشرب حتى نسقط من الإعياء، وسنحلم بجميع النساء اللاتي خيّبن ظننا، أنا وأنت، توأم روحي...».

أخذ نيغريت يغني على الشاشة، وراح أبي يغني وهو جالس على كرسيه، ورحت أغني أيضاً، ممسكاً بيد أبي، ونحن نشاهد مشاهد من فيلم Me he de comer esa tuna.

النسر، لأنه حيوان

حُفرت صورته على العملة المعدنية.

قبل أن يتسلّق شجرة الصبار

طلب الإذن أولاً.

في الباحة، كانت غلوريا مارين، التي لم تكن تعيرنا أيّ انتباه، تسقي زهورها وتدندن أغنيتها: «إني عذراء صغيرة، أسقي الأزهار...»

وجّهت نظرتها، خجولة ومغناجة، نحوي.

نظرت إليها.

يمكنك أن تقولي ما تفكري به يا جوزفينا: «طبعاً سينتهي الأمر بأن تضاجعها...».

كم أسفت بـأن زوجك المبجل، الذي أخبـرك عن خطتي لاستعادة المال، يدعوني تافهاً ومجرماً. لنر كيف ستبحران أنت وهو في المياه السيـاسية الهائجة هذه. لقد عـرضت عليه باخرة عبر الأطلسي. إنه قانع بزورق. إن الأمر في يدي الله الآن.

مهما قرأتِ، مهما أخبـروك، تذكّري هذا: سأكون سياسيا على الدوام، والسيـاسـة عمـل فيـه الكثيـر من المنعطفـات والمنحنيات. في السياسة تتحملين مسؤولياتك وتحصلين على ما تضعينه من جهد في العمل. هكذا هو الأمر، هذه هي الحقيقة البسيطة.

المخلص

ت

58

من نيكولاس بالديبا
إلى الرئيس السابق سيزار ليون

الرئيس المحترم والصديق المبجل: أعرف أن أحداً لا يعرف قواعد السياسة الوطنية مثلك. فكلّ رئيس يخلّف وراءه مسبحة من الأقوال المشهورة التي تصبح جزءاً من فولكلورنا السياسي.

«في السياسة، يجب أن تبتلع ضفادع دون أن يرف لك جفن».

«السياسي الفقير هو سياسي مسكين».

«من لا يخدع، لا يُنجز».

«إلى الأمام وإلى الأعلى».

«جميعنا الحلّ».

«إذا كانت الأمور تسير على ما يرام مع الرئيس، فهي تسير على ما يرام مع المكسيك».

لا أتذكّر سوى قولين من أقوالك.

«لكي نحافظ على العادات، يجب أن نخرق القوانين».

«أن تصبح رئيساً أشبه بالوصول إلى جزيرة الكنز. حتى لو طردوك من الجزيرة، فلن تكفّ عن الاشتياق إليها. إنك تريد أن تعود، مع أن الجميع - بمن فيهم أنت - يقولون لك لا».

حسناً، يا سيادة الرئيس، لقد حانت اللحظة. لقد آن الأوان لمغادرة جزيرة الكنز. إني أتفهم مشاعرك. تريد واسطة مصالحة في زمن صعب بالنسبة للجمهورية.

لقد أعلنت على الملأ «إن الصراع على السلطة يدمر الشيء الذي يمنح السلطة أيّ معنى، وهو أن تخلق ثروة للبلد في إطار السلام والشرعية».

لا أستطيع أن أوافقك أكثر. وإني أتفهم فزعك، يا سيادة الرئيس. إنك تستبق الصراع سلفاً. إنك تخشى أن ينحدر الأمر ويتحول إلى اضطرابات، وحرب أهلية، وبلقنة، والكلب يأكل كلباً، وكلّ ذلك. وترى نفسك عاملاً من عوامل الوحدة، والتجربة، والسلطة، والاستمرارية.

سيادة الرئيس: أرى كيف تتصرّف وأظن أن السياسي الذي يظن نفسه أنه أكثر مما هو فلن يعرف من هو على الإطلاق.

هذه الحيرة والتشويش، هذا الافتقار إلى الوعي الذاتي،

قد تكون مادة مثيرة للتحليل النفسي، لكنه شيء قاتل للشخص المعني، والأهم من ذلك، لصحة البلد السياسية.

أعرف ما الذي يدور في عقلك، سيموت بعض مصارعي الثيران وسيحتمي بعضهم الآخر وراء الحواجز، لكن الثور الهائج لا يغادر البقعة التي يفضلها في حلبة المصارعة.

نعم، أريد أن أزيلها جميعها حتى لو لم يبق أحد سوانا، أنا وأنت. لذلك فإن السؤال المطروح هو: من «هو»؟ ومن «أنا»؟

نعم، يا سيادة الرئيس، إن القوة تتكلم عن قصتها الخاصة بها، كما قال الفيلسوف التشيلي المعروف مارتن هوبينهاين في إشارة إلى كافكا. وقبل خمسين سنة، قال مويا بالينسيا، وزير الداخلية كما هو حالي الآن، إن كافكا في المكسيك سيُعتبر مؤرخاً للعادات المحلية.

أجد أنه من المسلي أن المكسيكيين يدعون «العادات» ما يدعوه بقيّة العالم، العالم الجدّي، السياسة الواقعية، وهو شيء لا يقل عن سياسة صديقي ميكافيللي: «بما أن جميع الرجال أشرار ولا يحافظون على إيمانهم بك، فليس من الضروري أيضاً أن تحتفظ بإيمانك بهم». تكمن مهارة الأمير في قدرته على استخدام هذه الحقيقة الشريرة في اهتمامه، بينما يبدو أنه يتصرّف لمصلحة الناس.

إنّ الصدع في نظام ميكافيللي، يا سيادة الرئيس، هو الاعتقاد بأن أعداء الأمير قد أعماهم توهجه وأخافتهم قوته. ويعتقد الرجل القوي إنه يمكن تصحيح الأخطاء بإمطار وابل من الهدايا.

«إنه يخدع نفسه»، يقول ذلك الشخص الذي يشبه اسمه اسمي.

سيكون الأمير في حال أفضل إذا ما قطع رأس أعدائه جميعهم على الفور وبضربة واحدة. وإذا ما فعلها شيئاً فشيئاً، فإنه يجازف في أن يترك أحداً.

«إن الجروح يجب أن تتم دفعة واحدة... والفوائد يجب أن تحدث بالتدريج، لكي يتم تذوقها على نحو أفضل».

كان ذلك خطأك، أيها الرئيس ليون. في حماسك لتوطيد السلطة التي أنجزتها من خلال الانتخابات (انتخابات مشكوك فيها، دعنا نواجه الأمر)، لقد أغدقت المزايا، التزلف، البهجات، الصفقات المربحة، في ضربة واحدة. أردت أن تكسب حلفاء يمكنهم أن يمنحوك شرعية، دون أن تدرك أنك مهما أعطيت كلباً ذا حاسة شم حادة، فإنه سيطلب المزيد على الدوام.

وذلك المزيد هو السلطة نفسها.

لذلك لم يعد لديك، يا سيادة الرئيس، أوراق، لأنك لعبتها كلها. فخلال محاولاتك لإغواء الكثير من الأعداء المحتملين، أضعت فرصتك في قطع رؤوسهم. النتيجة؟ لم يعد أصدقاؤك الذين أعطيتهم كلّ شيء يحبونك، ولا حتى أعداؤك الذين منحتهم القليل. وأنت تعرف ذلك.

«منذ بضع دقائق، كان صديقي. وكانت نصف ساعة كافية لأن تحوله إلى عدوي».

كن صادقاً. لا تكذب. كم مرّة قلت هذه الكلمات لنفسك؟

صدقني. أنا صديقك، وأتفهم شكواك تماماً:

«البارحة كانوا جميعهم يهتفون لي! أما اليوم فقد لاذ جميعهم بالصمت. لو استطاعوا لوجهوا لي إهانة على الأقل! بالأمس لم يكن بالإمكان الاستغناء عني، أما اليوم فقد أصبحت مصدر إزعاج. لو استطاعوا لركلوني وطردوني على الأقل!»

أشعر تماماً هكذا. وهذا بالضبط ما سأفعله الآن يا سيادة الرئيس.

سيسلمك مساعدي، خسوس ريكاردو ماغون، هذه الرسالة شخصياً. ثم سيرافقك إلى باب بيتك. ومن هناك،

سيـرافقك مـرافق عسكري يناسب منزلتك ورتبـتك إلى المطار الدولي، حيـث ينتظرك مقعـد مريح للغـاية في مقـصورة في الدرجة الأولى على طائرة تابعة للخطوط الجـوية كانتاس، التي ستقلـك مباشرة إلى أرض الكنغـر الجميلة، أستراليـا. وعندما تصل إلى هناك، لا تـنس أن تلاحظ، أرجـوك، الكنغـر وهي تحمل صغـارها في جرابها، لتضمن نمو أبنـائها بشكل صحي، ومن ثم أحفادها بعد ذلك.

تقـبل مني فـائق الاحـتـرام والتـقديـر، وأتمنى لك رحلة سعيدة.

نيكولاس بالديبا

59

من الجنرال موندراغون فون بيرتراب إلى نيكولاس بالديبا

السيد الوزير، والصديق المبجل، تمشياً مع مبادىء الجمهورية، وامتثالاً للمادة 89، الفصل السادس من الدستور، فإني أودّ أن أعلمك أنه في الساعات الأولى من صباح اليوم، أشرفت شخصياً على إعدام الجنرال سيسيرو أروسا، الذي ثبت أنه مذنب بتهمة العصيان، ومحاولة إسقاط الحكومة الشرعية في هذا البلد، من قبل المحكمة العسكرية الخاصة التي شكلتها لمعالجة هذا الوضع الملّح، مع أني أعرف تمام المعرفة أنك ستؤيد ما قمت به وتصادق عليه تماماً، في غياب رئيس جمهورية بالوكالة، بعد أن فقدنا الرئيس لورينزو تيران على نحو مفجع.

إنك تعرف كما أعرف أنا، أنه توجد أوقات يتعين فيها على القوات المسلحة، أن تتصرّف بسرعة، ما دامت هذه الأعمال في صالح حماية مؤسساتنا الجمهورية.

إن نية الجنرال سيسيرو أروسا الإجرامية مدوّنة في الرسائل العديدة التي أرسلها لي منذ بداية الأزمة في شهر كانون الثاني، وقد كُتبت بتهوّر وطيش لا يصدران إلا عن أرواح سكيرة. وبما أنني قرأت كلاً من كلوسيوفيتز وميكافيللي، فلا يمكنني إلا أن أتمعن في العبارات الألمانية هنا، وأرى أن السياسة ما هي إلا استمرار للحرب لكن بوسائل أخرى. أما ذلك المفكّر من فلورينتين، فإني أقول إنه من الأفضل أن أتخذ تدابير وقائية في فترات السلم لكي لا نفاجأ في أوقات الحرب. لقد أزيل التهديد الذي كانت تشكّله محاولة انقلاب الجنرال أروسا.

يؤسفني أن أخبركم بأن الجنرال أروسا كان قد أُكتشف في السرير، وهو في حالة زنى مع جوزفينا ألماسان، زوجة وزير ماليتنا الموقر، أندينو ألماسان. وكان الجنرال قد حاول أن يُخرج مسدساً من تحت وسادته، وهذا، كما قد تتصور، أثار ردة فعل الرجال الذين أرسلوا لإلقاء القبض عليه. لكن لسوء الحظ، لم تنقذ الطلقات النارية السيدة ألماسان، التي سُلّم جسدها إلى زوجها الذي ستكون استقالته، إن لم أكن مخطئاً، بين يديك الآن.

السيد الوزير، إني على ثقة بأنك ستفهم وتؤيد قراري في نقل جسد الجنرال أروسا الجريح من على السرير في ساعاته الأخيرة إلى مقر القيادة العسكرية التابعة للمنطقة العسكرية الثامنة والعشرين في ميردا، حيث وضع جسمه منتصباً أمام الحائط لكي يموت بطريقة تليق به بأسلوب جدير باستحقاقاته

العسكرية التي لا مراء فيها. أوّد أن أقول إنه لم يكن خائفاً. لا لأنه كان شجاعاً، فلم تكن الشجاعة أمراً محتملاً بالنسبة له في تلك اللحظة: إذ لم يعد لديه مسدس ليقول حقيقته.

كانت كلماته الأخيرة وهو يُنقل من السرير: «لا يستخفّ أحد بي».

في وقت لاحق، بينما أخذ جرعته الأخيرة من الهواء، وجسمه أمام الحائط، تمكّن من القول، «ما خطبك؟ أطلق النار! أم أنه لا توجد لديك الشجاعة؟»

احتراماً وإقراراً بالتزامي بتقديم رواية صادقة عن الأحداث المذكورة أعلاه، أظل، كدأبي، تحت قيادتك اليوم، وفي جميع الظروف في المستقبل التي قد أعتبرها مناسبة لك ولأمتنا.

الجنرال موندراغون فون بيرتراب.

ملاحظة: إن يوكاتان مليئة بالأحواض الصخرية وبالكهوف تحت الماء. لقد دفن أروسا في قبر مائي.

60

من عضو الكونغرس أونيسمو كانابال إلى نيكولاس بالديبا

إلى سيادة الرئيس: بمزيد من الرضى أكون قد أنجزت التزامي الدستوري بموجب هذه الرسالة، وأعلمك أنه، بالتقيد التام بالمادة 84 من الدستور السياسي للولايات المكسيكية المتحدة، وفي غياب كونغرس الاتحاد الموقر الذي أفتخر بترأسه بكامل أعضائه، فقد دعوت اللجنة الدائمة للانعقاد لمتابعة الإجراءات المتعلقة بتعيين الرئيس بالوكالة والذي سيكمل فترة رئاسة السيد لورينزو تيران، بعد موته المؤسف الأسبوع الماضي.

وبوجود جميع أعضاء اللجنة الدائمة، واتباعاً لمبادرة بولينا تارديغاردا، ممثلة الكونغرس عن ولاية هيدالغو، صوّت أعضاء اللجنة بالإجماع لصالحك، يا نيكولاس بالديبا، يا من تشغل حالياً منصب وزير الداخلية، بأن تتبوأ مهام الرئيس التنفيذي للبلد، بصفتك رئيساً بالوكالة.

وقد صادق كونغرس الاتحاد، الذي دعوته للاجتماع في جلسة استثنائية بصفته هيئة انتخابية، على القرار الآنف الذكر بالإجماع، وبناء على ذلك، فقد انتخبت يا نيكولاس بالديبا، بموجبه رئيساً بالوكالة للولايات المتحدة المكسيكية، اعتباراً من هذا التاريخ وحتى تاريخ التغيير الدستوري للسلطات في اليوم الأول من كانون الأول من عام 2024.

أودّ أن أهنئك، وأدعوك لتسلم منصبك في احتفال رسمي في الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم الخامس من أيار من هذا العام. كما أودّ أن أنتهز الفرصة، يا سيادة الرئيس، لأتقدم لك بفائق احترامي وأطيب تمنياتي لنجاح التعيين الذي منحتك إياه الأمة.

أونيسمو كانابال

رئيس كونغرس الاتحاد الموقر

61

من خسوس ريكاردو ماغون إلى نيكولاس بالديبا

لقد أنجزت المهمة يا سيادة الرئيس. فبالسلطة التي أنطتها بي، أجد جميع الأبواب مشرعة أمامي. حتى أبواب قلعة مثل القلعة القابعة في سان خوان دي أولوا، تلك القلعة التي أرسلتني إليها لأنك تثق بي، لأني لا أجيب أحداً إلا أنت، لأني أحتفظ بأسرارك، ولأنني إذا خنتك فإني أخون نفسي.

«تستطيع أن تصنع لي هذا المعروف الكبير»، قلت لي، يا نيكولاس.

«لا يوجد شخص آخر يمكنني أن أثق به».

بحزن نظرت إلى حزنك. كنت وكأنك تكاد تقول لي: «هذا آخر معروف أطلبه منك. بعد هذا، إذا كان هذا ما تريد، لن يرى أحدنا الآخر مرة أخرى!...»

وبدلاً من ذلك، قلت لي: «ستجرع من أكثر الكؤوس مرارة».

نظرت إليّ نظرة مليئة بتواطؤ فلسفي لا يحتمل.

(كم بدأت أميّز وأحتقر تلك التشنجات اللا إرادية في وجهك).

«تجرعه حتى الثمالة. إن هذا العمل هو ذروة التعليم السياسي الذي وعدتك به عندما كنا على سطح بيتك المليء بالحمائم. هل تتذكّر؟ انطلق في الدرب الذي تشاء إن كنت تريد. عد فوضوياً ذا شعر طويل، إن كان هذا ما تريد. لقد اكتمل تعليمك».

لو كنت قد أرسلتني وحدي فقط يا نيكولاس. لكان ذلك عزائي الوحيد. سأفعل ما يطلبه مني، قلت لنفسي. عندما قبلت هذا العهد مع هذا الشيطان المتنكر في زي ملاك، الذي هو أنت، يا نيكولاس بالديبا، كنت أعرف في قرارة نفسي أنني لن أستطيع أن أتهرب من اختبار نهائي، وهو «اختبار الله» الذي أخُضع له الأبطال النرويجيون القدامى. ثم سأغادر على متن سفينة للفايكنغ. حتى لو احترقت السفينة مثل محرقة للموتى وكنت أنا الضحية القربانية...

كنت ذاهباً إلى إحدى الجنازات. لكنها كانت جنازتي أنا. لقد اختبرت ولائي إلى حدّ أنك جعلتني قاتلاً. المجرم المسلّح التابع لك. ورغم كلّ شيء، انظر كيف تبدو الأمور، انظر كيف أصبح التوأم، أنا وأنت، بالطريقة التي نتكلّم بها، نمشي،

نلبس ثيابنا. . . لقد جعلتني بيجماليون تماماً، يا نيكولاس بالديبا، لقد جعلتني المرآة التي كنت تحتاجها لكي تشعر بالأمان، لكي تشعر بأنك، أنت أيضاً، شاب ذكي، جميل، متمرد. كنت الصورة المستنسخة عنك، الطريقة التي أتكلّم فيها، الطريقة التي أمشي فيها. . . والآن، بالطريقة التي أقتل فيها.

«هل هذا ضروري؟» تجرأت وسألتك، مستعيداً شيئاً من ذلك التمرد القديم الذي سحقته بتدابير موازية من العاطفة والاستبداد. . .

«لا يمكننا أن نستمر في العيش مع شبح».

«لا. لا تستطيع أن تستمر في العيش مع شبح، يا نيكولاس. لا تعمم».

«حسناً. أنا لا أستطيع أن أعيش مع شبح».

رحت أجترّ تلك الكلمات مثل ثور حتى تجشّأت في وجهي، «شبح مضطرب، عصبي».

جعلتني أظن أنني سأذهب إلى أقبية أولوا وحدي.

«لن يعرف أحد سوانا».

لم يكن عليك أن تقول أكثر من ذلك. أنا وأنت نحتفظ بأسرارنا على الدوام. واحد تلو الآخر، فتح لي حرّاس السجن

الأبواب المعـدنية الثـقيلة، وكـان كل واحـد منهم يغلق ورائي الباب مـثل سمفـونية من الحديد، مـثل أفلام جيـمس جاغني القديمة بالأبيـض والأسود التي كنا نحب مشـاهدتها في سـاعة متـأخرة من الليل، أنا وأنت. لحن مـن المعدن سمـعتـه للمرة الأولى والأخيرة.

لكن كنت أنا وحدي فقط. أنا، باسمي، خسوس ريكاردو ماغـون، ابن موظف الأرشيف والخبّازة؛ الساكن الوحـيد في عـالم طوباوي بين الحـمائم والـكلمات؛ قـاريء نهم لروسـو وباكونين وأندرييف؛ فـوضوي الغيوم؛ طرزان الأسطح؛ شـعر طويل وبنطال جـينز ممزّق وقمـيص مطبوعـة عليه صـورة تشي غيفارا. ملوّث.

كنت هناك، الشـاب النقي الذي سـيتخلص مـن جمـيع المستبدين الفاسدين، أقف أمام زنزانة سـجن توماس موكتيزوما مـورو داخل قلعة سـان خوان دي أولوا، البطل الأكـثر نقـاء، السياسي الطاهر الكف، الذي كان يثير حنق الجميع، والذي لم يكن يحتمله أحد. شبح قلق، هل قلت ذلك؟ قلق إلى حد أنه يستطيع أن يحولك إلى شخص ضعيف، يدبر المكائد، شخص مفـرط الطموح، سـياسي سوقي، حـديث النعمـة. هل لهذا السبب كنت تخاف مورو، بسبب المقارنة الوحشية بين شخصيته وشخصيتك؟ هل كان يشكل تهديداً لك، حتى في السجن؟

قل لي، هل فكّرت في الموضوع؟ حتى لو كـان ميتاً، من الممكن أن يظل يشكل تهديداً لك، يا حبيبي؟

وهناك كنت، واقفاً أمام باب زنزانة مورو، أكاد أوافق على مـا قلته: «لا يوجـد فـوضوي لا يمكن أن يصـبح إرهابيـاً في النهاية. لغتك واهنة، لذلك فإنك تعوّض عنها بعمل إجرامي. لقد اكتمل الدليل».

لقد قبلتها. إنها جريمة، لكنها جريمة دولة. ألم تكن جميع أعـمـال الفـوضـويين الإرهـابيـة ضـد الملـوك، والرؤسـاء، وإمبراطورات العصر الجميل؟ لا تبتسم. ألم تقرأ رواية جوزيف كونراد «تحت عيون غربية»؟

«النساء، والأطفال، والثائرون يكرهون السخرية».

ليس من حق الـفـوضـويين الفكاهة. ولا حـتـى الفكاهة السوداء، يا سيدي الرئيس؟

وقفت أمـام زنزانة توماس مـوكتـيزوما مـورو. كنت على وشك أن أدخل، لأقتل رمـز الشرعـية والنقـاء ذاك الذي يجده الكثير من الناس مزعجاً.

كان ذلك عندما سمعت ورائي وقع خطوات خافتة، خفيفة كالـفراشـة. وفُتح باب الزنزانة وأشـحت بوجهي عن الرائـحة الكريهة الجهنميـة، كما لو كان ذلك النفق تحت الأرض الطريق

إلى جهنم نفسها، المكان الذي يلتقي فيه جميع الشياطين، هذا النفق تحت الأرض أسفل قلعة سان خوان دي أولوا، الذي لا تتسرب من سقفه قطرات من الماء المالح فقط، بل دم مائع، دم قديم جداً إلى حد أنه أصبح جزءاً من تيارات المحيطات العالمية، دم كلاب جائعة، وأسماك قرش ماتت غرقاً، وقراصنة مشنوقين، وعاهرات من حوريات البحر، وتوجد في ذلك النفق غابات شاسعة من الأعشاب البحرية ومحارات مغلقة بإحكام فيها لآليء. شعرت بكل هذا يطرق داخل رأسي يا نيكولاس. السراديب الغائرة المائية في قلعة أولوا، وكان عليّ أن أسير فيها وحدي، ولم يعانِ أحد من هذه التجربة التعيسة سواي.

لا أحد سواي وسواك يعرف ما حدث في ذلك المساء من شهر أيار في تلك السراديب والزنزانات تحت قلعة أولوا.

«مساء الخير، أيها الشاب»، قال لي المخلوق الزيتي، الناعم الملمس. غمرني وجوده، مثل رائحة دهن خنزير فاسدة. كان يتنفس، شهيقاً وزفيراً، في لهاث نتن، صوته خامل ومهدّد في آن معاً، مثل صوت السائر أثناء النوم الذي لا يعرف ماذا يفعل. . . .

انبعثت رائحة نتنة من جسده، حتى من عينيه المريضتين، وبيده الصلفة كان يمسك بصفاقة مسدس آلي من عيار 45 بدا أشبه بامتداد طبيعي لذراعه.

كان يضع قفازات سوداء.

حتى في ظلام النفق، كانت عيناه اللتان تشبهان عيني حيوان الراكون تتوهجان بالجنون.

«تعال، ماذا تنتظر، أيها الأبله؟» صاح، ودفع فوهة البندقية نحو أضلاعي.

«كنت. . كنت أظن أنني وحدي» قلت متلعثماً.

«وحدك؟ السلطعنات في تيكولوتيلا الآن وحدها، إنها تمشي إلى الخلف. ما عدانا، أنا وأنت يا صديقي، سنسير إلى الأمام الآن».

«لا أريد شهوداً»، قلت، مستدعياً شجاعتي. «كنت أظن أنني وحدي».

«نعم، وأنا كذلك»، ضحك الرجل القوي الأسطوري من تاباسكو، هومبيرتو بيداليس، المعروف أيضاً باسم «اليد السوداء»، كما لو كنت تعرف يا نيكولاس، أنه سيصبح شريكي في الجريمة. «لكن الرئيس الجديد ذكي، وهو يريد شاهدين على كلّ جريمة. حتى لو كان كلاهما مذنبين. بهذه الطريقة، كما يقول، إن أحدهما يلغي الآخر. كما لو كان القتلة كرات زجاجية، من ذات اللون، ذات الحجم، يمكنك أن تستبدل الواحدة بالأخرى»، قال وهو يضحك بوحشية وينفث تلك الزوبعة من أنفاسه المريضة التي يمكن أن توقظ الموتى.

فتح بيداليس باب الزنزانة.

كان توماس موكتيزوما مورو نائماً.

كان قناع الصبّار الشهير يغطي وجهه.

«إنه لا يخلعه أبداً، حتى عندما ينام»، قال لي الحارس المطيع.

لم يكن يريد أن يكون بوسع أحد أن يعرف ماذا كان يشعر، أن يكتشف فيه رقة أو عاطفة، أن يرى «الطبيعة الصامتة» في عالمه الداخلي، نيكولاس، «الجروح الباردة»، كما قلنا ذات يوم هنا في فيراكروز، لكن في ظروف مختلفة جداً.

اعترى بيداليس إحساس بما كنت أشعر به.

«لا تكن عاطفياً. أعرف بماذا تفكر. من الأفضل هكذا، وهو نائم، ألا ترى ذلك؟ حتى أنه لن يعرف. من الإحسان أن نفعل له ذلك، ألا ترى ذلك؟»

ضحك ضحكة مخنوقة.

«الراهبات فقط هن المحسنات. هذا ما كان معلمي القديم توماس غاريدو يقوله لي دائماً، حاكم تاباسكو، الذي يوجد نصبه التذكاري عند قوس نصر الثورة. سنكون أنا وأنت، أيها الفتى، محظوظين إذا حصلنا على قطعة صغيرة من الطوب في قوس المرحلة الانتقالية، في خدمة السيدة الديمقراطية...»

ضحك ثانية بطريقته الشريرة ولكز بقدمه ظهر توماس موكتيزوما مورو النائم. وبسرعة البرق، استيقظ الرجل الذي يرتدي قناع نوبال واستوى واقفاً، ينظر إلينا من خلال الشقّ الفظيع في القناع، الذي كان أشبه بجرح معدني بليغ. لبث مورو واقفاً دون أن يأتي بحركة، مثل تمثال أحد الأبطال. هادئاً لا يتحرك. تمثال، كان مخيفاً، كما لو كان ميتاً قبل أن يموت.

أطلق بيداليس النار.

لم ينبس مورو بكلمة.

خرّ على وجهه.

لم تبدو أية مشاعر عليه.

لم يصرخ: «قتلة!»

لم يتوسل ويطلب الرحمة.

لم يفه بكلمة واحدة.

سمعنا الصوت الجاف للقناع الحديدي وهو يرتطم بالأرض.

هكذا مات توماس موكتيزوما مورو للمرة الثانية. هكذا، يا سيادة الرئيس، استلقى شبح بانكو. لم يكن ماكبث هو الذي احتل مقعد السلطة الفارغ. فرغم أنها انتهت كما انتهت مسرحية شكسبير، فإن هذه مسرحية تفوح منها رائحة

فيراكروز، مكسيكو سيتي، وتاباسكو، كما أشار بيداليس «اليد السوداء».

«إنه ذكي جداً، هذا الرئيس الجديد»، قال، مبتسماً وقدم لي سيجاراً، «أنا لن أخونك وأنت لن تخونني، أليس كذلك؟»

رمقني بنظرة قبيحة.

«لا تنس، إذا حدث لي شيء فورائي سلالتي «الأبناء الأشرار التسعة» لينتقموا لي. من لديك أنت أيها الحمار الذكي؟»

ابتسم الآن.

«هيا، خذه. إنه كومانغويلو. إنني لا أقدم هذا النوع من السيجار إلى أي شخص كان».

نظر إلى جسد مورو الذي كان ينزف.

«اخرج من هنا. ولا تنس: هذا لم يحدث ولم يكن أي منا هنا. فأنا في فيلاهيرموسا أحتفل بعيد ميلاد الابن الثامن بميلاده الثامن عشر. ماذا عنك، أيها اللقيط الصغير؟»

أغلق باب الزنزانة وخرجنا إلى البرد الأبديّ لمتاهة أولوا. لم تكن هناك نهاية لحديثه.

«هل تعرف من ارتكب هذه الجريمة؟»

هززت رأسي، منزعجاً.

«فيليبيرتو الأعور والسيد تشينتشو أباسكال».

«من؟» سألت بغباء.

ضحك «اليد السوداء».

«فيليبيرتو الأعور والسيد تشينتشو. إنهما يرتكبان جميع جرائمي. إنهما غير مرئيين. لن يتمكن أحد من العثور عليهما، لأنني اختلقتهما». توقّف عن الضحك.

«لا تنس. أنا لست الحاكم فقط، بل أنا الرئيس. وعندما أموت، قلت لك، لديّ الأبناء الأشرار التسعة ليواصلوا عمليات القتل. إننا سلالة، ولدينا شعارنا: «الحجر بالحجر والضربة بالضربة»، رجال بيداليس يفوزون بالشجاعة والعزيمة».

وذهب، مخلفاً وراءه رائحة سيجار كومانغويلو وعشباً مخدراً.

كان السيد خسوس رييس هيروليس محقاً عندما قال إن المكسيك البربرية تغفو لكنها لا تموت أبداً، وتستيقظ بغضب عند أدنى استفزاز لها.

شكراً لك، أيها الرئيس العزيز، لأنك جعلتني أرى ذلك بأم عيني.

شكراً لأنك جـعلتني الشـخص الذي كنتـه قبل أن ألتـقي بك.

شكراً لأنك برهنـت لي بأن الفـوضـوي لا بد أن يصـبح دائماً إرهابياً في النهاية.

شكراً لأنك جعلتني أرى أن الثائر النظري لا بد أن يجعل تمرده حقيقة واقعة.

وانتبه، يا نيكولاس بالديبا، أني أصبحت الآن قاتلاً.

وستكون أنت ضحيتي التالية.

62

من نيكولاس بالديبا
إلى ماريا دل روساريو غالبان

سيدتي الجميلة، لا أريد أن أبدو شخصاً متطلباً وملحاحاً، لكنني أشعر أنه قد حان الوقت لأن تفي بالوعد الذي قطعته عليّ عندما التقينا لأول مرة. فأنا أنا وكان ذلك شرطك أنت، أليس كذلك؟

«نيكولاس بالديبا: سأكون ملكاً لك عندما تصبح رئيس المكسيك».

ولهذا السبب فإني أقف تحت نافذتك. أعشق أساليبك في الغنج والتدلل.

قبل أن تفتحي لي أبواب بيتك، هل سنكرر طقوسنا الأولى؟ هذا جميل. سأمتثل لنزواتك. فلديك الحق في أن تطلبي ما تريدينه مني. لقد تحقّقت نبوءتك. لقد وصلت، كما تنبّأت بجرأة في كانون الثاني. أو هل يجب أن أقول كما وعدت.

إني أدرك بأنني لا أدين بمنصبي إلى ماريا دل روساريو غالبان، بل إلى سلسلة من الأحداث التي لم يكن أحد يتوقّع أن تحدث في بداية هذه السنة التي تنذر بالسوء (أو المحظوظة جداً). مرة أخرى، فإن الحاجة هي مسألة حظ. لا تظني أنني لا أشعر بالامتنان لذلك. بالعكس. فقد أتيت إليك بدون التزامات، نقياً وحراً. إني أشكرك على تثقيفي السياسي. أنا الطالب اللامع الذي جاء ليقدم إلى معلمته مكافأتها. هل من الممكن أن أكمل ثقافتي الإيروتيكية الآن في سريرها؟

سأنفّذ تعليماتك. سأعود الليلة إلى الغابة المحيطة بمنزلك، ومن هناك سأراقبك وأنت تخلعين ثيابك أمام النافذة المضاءة. أعطني إشارة. أطفئي الأضواء الأخرى، أشعلي شمعة، كما لو كنت في أحد الأفلام البوليسية القديمة، وسآتي إلى «فراش المعركة، الحقل الطري».

المتلهف إليك، ن.

63

من ماريا دل روساريو غالبان إلى نيكولاس بالديبا

«في الليلة التي تسودها العتمة، غريب جميل. . .» كما تقول الأغنية. أنت، غريب؟ هل أنت غريب؟ شخص لا أعرفه؟ إنك خلقي أنا، طيني، ذكري غالاتيا. نعم، إنك تدين لي بالكثير. بكلّ شيء، أقول. بكلّ شيء. ماعدا الجائزة النهائية. الجائزة الكبرى. إنك تدين بذلك إلى الناس الأدنى أهمية. لقد استخدمت الأقزام لتصل إلى المكان الذي وصلت إليه. لماذا؟ هل كنت تخشاني؟ هل كنت تخشى أنك إذا كنت مديناً لي بكلّ شيء فإني سأجعلك لا شيء؟

لقد تعلّمت الكثير، لكنك لم تتعلم بمن تضع ثقتك. كلّ ما نستطيع أن نفعله يا نيكولاس، أن ندرس الشخصية كثيراً، إن لم يكن أكثر من الأعمال. ماذا قال غريغوريو مارافيون عن تيبيريوس؟ إن القوة أفسدته. لا! لقد كان شريراً دائماً. لكن كما ترى، فإن نور القوة قوي جداً إلى درجة أنه يكشف دائماً حقيقتنا، لكنه يظل مخفياً في الظّل.

إن قوتك وقوتي تكشفان نفسينا الحقيقيتين. انتهازيين. قاطعي طريق. ميتزين، مفترسين. مجرمين. من المؤكد أننا نحن الاثنان نعرف أن أكثر الأشخاص طموحاً هو الذي لا يظهر نفسه كثيراً.

إذن احذر من الأشخاص الأقل بروزاً. لقد قلت لك ذلك منذ البداية لكي تأخذ بذرائع تاسيتو دي لا كانال، فقد كان أكثر السياسيين الذين عرفتهم في حياتي وضوحاً وشفافية. إن الشيء الوحيد الذي كان بإمكانك أن تثق به هو عدم الثقة. كيف يمكن لمنافق مثل تاسيتو أن يصبح رئيساً، رجل يدعيّ أنه على حافة الفقر المدقع لكي يقوم أحد منا بإنقاذه؟

وسينيكا المسكين - كان عكس تاسيتو. ذكياً على الدوام. كان الشيء الذي يرثيه الإنكليز الذين يصعب إرضاؤهم. إن الألق الشديد يعمي الذين يعيشون في ظلّ الضآلة. لقد أساء سينيكا إلى الناس بذكائه، كما أساء تاسيتو إلى الناس بنفاقه.

انتقد سينيكا نفسه عندما قال: «إن مبادئي ثابتة، لكن ممارستي فظيعة. كلّ ما أستطيع أن أفعله الآن هو أن أصبح عجوزاً وأصبح متهكماً».

لا. لقد انتحر. رغم أنه لم يكن متزوجاً، لأن الزواج هو السبيل الأكيد للانتحار.

سيزار ليون. كان حـذراً مع الذين كانوا يفيدونه، لكنه لم يكن حذراً مع الذين كان يحتقرهم. لقد فار الطيش، في قلبه. كان شـخصـاً عاطفـياً، مع أنه كـان يشعـر بأنه مشـرد خارج السياسـة. وكأن الأرض التي يعيش عليهـا كرئيس هي الأرض الوحـيدة الموجـودة. في تلك المسـرحيـة سـتكون تلك كلمتـه الختامية: «لقد تكلمت مع القدر كندٍ. لقد تحدّيت الحظ. قلت: أتحداك أيتها الكلبة. أنا منيع أمام الخير. بل ومنيع أمام الشرّ».

هل تعرف أنه يحمل دائمـاً مقصلة صغيرة في جـيبه، وأنه يلعب بها كما يلعب الرجال بأيورهم؟

ومن الناحيـة الأخرى، كان الرئيـس لورينزو تيران كتـوماً جـداً. فقـد كـان يقـول القليل جـداً أو لا يقـول شيـئـاً على الإطلاق. نعم، كـانت تنتابه ردّود فـعل عضلية رائـعة. لذلك كان يجيد إدارة العلاقات العامة. كان يعرف أن قوى الطبيعة في المكسيك تقف إلى جانبنا. فإذا لم يكن زلزالاً، فهو فيضان، أو جفـاف أو إعصـار. في المكسيك، تصـبح الكوارث الطبـيعـية أرباحاً عامة. فكلّ مـا يجب على الرئيس أن يفعله هو أن يظهر في موقع الكارثة ويخـتفي ثانية. وبذلك لا يضطر لأن يتـعامل مع القضايا الأكثر عمقاً.

لكن قل لي، هل يوجد أحـد أكثر غـموضاً من أونيســمو كانابال، رئيس الكونغرس، ذلك الهارب من المراحيض العامة؟ ذلك التافـه، المذعن، الذي يشعـر بالحرج من هيـئته الجـسدية

القبيحة وخلفيته المتواضعة. لكن ألم يولد المسيح في إسطبل؟ لا يتخيّل أحد أبداً أن صانع الملك الحقيقي لهذه الخلافة سيكون أونيسمو كانابال المسكين العجوز.

ولم يكن أحد يعرف أنه كان يتآمر مع صديقتك الطيبة بولينا تارديغاردا، الأفعى التي تستطيع أن تعيد رسم الجنة بألوان جهنم. وظننت أنني أنا التي كنت نظيرة السيدة دي مينتينون، التي كانت تعلّم الأمراء، والتي انتهى بها الأمر للزواج من الملك! هل هذا ما ينبغي لي أن أفعله، أن أتقاعد مثل عشيقة لويس الرابع عشر الأخرى، مدام دي مونتيسبان، في دير تتدرب فيه الراهبات الشابات لكي يصبحن محظيات أفضل مني؟ أم هل تظن أنك بقوتك الحالية، يا نيكو، تستطيع أن تمنع عملية خلافة الرئاسة بطريقة ما، انتخابات 2024 التي أقسم بأنها سترفع بيرنال هيريرا إلى سدة الرئاسة؟ نعم، بيرنال هيريرا. لصالح البلد، نيكولاس. لأن بيرنال حذر، هذا هو الأمر، إذا كانت كلمة «حذر» تعني الحصافة، الحذر، الكياسة، الحكم الجيد، بالإضافة إلى الاستخدام الذكي والمدروس للقوة غير المتنازع عليها.

ستتصارع، أنا وأنت، يا نيكولاس بالديبا، لأنك لا تستطيع أن تخدعني. لقد أصبحت مجرد رئيس بديل حتى عام 2024. هل تظن أنني لا أستطيع أن أشعر بطموحك؟ إنك لا تستطيع أن تصبح خلفاً للرئيس. لكنك تستطيع أن تخلّد

نفسك. هذا ما أخشاه. خطّة هائلة من خططك لكي تبقى في السلطة.

لديك ترسانة من الذرائع. الأزمة الاقتصادية، قلاقل داخلية، احتلال أجنبي، فراغ سلطة. ما الذي لن تفعله لكي تبقى في السلطة! كلّ شيء يعجز عن التطلّع إلى جائزة نوبل للسلام. وهذا الطموح سيجرحك على نحو لا يمكن أن تبرأ منه، بالتأكيد. بالإضافة إلى ذلك، فأنا أخشى منك. هذا هو الصراع الآن. سنبذل أنا وبيرنال هيريرا كل ما يلزم لكي نجعلك تتخلى عن كرسي الرئاسة في عام 2024. كل ما يلزم، حتى المستحيل. تماماً كما ستفعل أنت كلّ ما يلزم، بل وحتى المستحيل لكي تبقى جالساً على عرش النسر إلى الأبد.

إنك لست لورينزو تيران، ذلك الرجل الطيب أو الديمقراطي الذي لا يعشق السلطة. إننا نحتاج دائماً إلى شخص نبيل، وقور، كريم، يمكنه أن يحررنا من حقارة ما تبقى منا. وذلك الرجل هو بيرنال هيريرا، كما كان لورينزو تيران من قبل، لكنه كان مريضاً. أتظن أنك تستطيع أن تستمرّ إلى الأبد. لديك فضيلة واحدة، أعترف بذلك. إنك تمثل دماً جديداً. لكنك ستشيخ قريباً، عندما تبدأ في إراقة دماء الآخرين، وهو شيء ستفعله إذا أردت أن تبقى في السلطة. لكن تذكّر ثمن الدم. تلاتيلولكو، 2 تشرين الأول 1968. دامت ليلة واحدة لكنها ألقت بظلالها فترة طويلة.

إنك تحظى بالاحترام اليوم لأنك شاب ونظيف. مدعاة للأمل. جدير بمنصبك. لكن السلطة ستفسدك في النهاية خذها مني. إنك لا تعرف كيف تقاوم الإغراء. أعرفك جيدا إنك لا تعرف متى يجب أن تتوقف. وقد أثبتّ ذلك، بكفا... وربما بشيء من العجلة، منذ اللحظة التي أصبحت فيها رئيسا فقد تخلصت من تاسيتو، وعاد سيزار ليون إلى المنفى، واغتيل سيسيرو أروسا، وأُعلن على الملأ أن أندينو ألماسان ديوث، ووري مورو الثرى إلى الأبد، وجسده مليء بالثقوب بالرصاص من تلك الحادثة الصغيرة في فيراكروز التي سلبت الرجل العجوز مبرر وجوده، لأنه بدون سرّ مورو فهو مجرد رجل عجوز مثير للشفقة يلعب الدومينو. على كل حال، يجب عليك أن تواجه الوزارة التي ورثتها من لورينزو تيران، والزعماء المحليين في باقي البلد. لنر كيف ستفعل، سأقف وأتفرج.

كما تعرف يا نيكولاس، يستطيع الرجل أن يتوقّف عن العمل في السياسة، لكن نتائج أعماله السياسية تبقى. إنك تعرف ذلك، وستكون تلك معضلتك. ستغطي ثقوب أخطائك (وجرائمك؟) لكن لكلّ ثقب تستره، ستنكشف ثلاثة ثقوب أخرى. وهذا ما يسمونه «العواقب». وهذا ما يفسر سلبية الرئيس تيران. فهو لم يكن يريد تلك «العواقب.» كان يريد أن يتقاعد ويعيش في سلام. ثم أصيب بسرطان الدم، لوكيميا مع انتفاخ رئوي. ومع ذلك كان يخشى دائماً «عواقب»

أعمالــه، أو تكاسله، الذي هو أيضاً نوع من العمل، ربما كان أكـثر الأعـمال خطورة، أن تلاحـقـه بعد أن ينزل عن عـرش النسر. لقـد تدخل القدر. يجب أن ننتظر ونرى كيف سـيُدَوَّن في كتب التاريخ.

التاريخ. لم تنجز الكثير بعد يا بالديبا. تذكّر أنك ستحكم بلداً مولعاً بالتدمير، يحمي نفسه ويخدع نفسه بنفسية وحساسية زائفـتين، ولد من المعاناة، مـن الفن والموت. لقد حـاولت أن تكون في الوسط. لا يوجد لديك خيار آخر وأنت مجرد نكرة. أما الآن فإنك تضـمر، وأعترف أنني شجـعتك على ذلك، ما يدعوه الألمان «غريزة الانتقام»، الرغبة التي يسـاء فهمها كثيراً، ولكنها الـرغبة العـميقـة في الحصـول على السلطة وممارستـها بأبهة.

الأبهة هي التي تصنع، كما يقولون. الأبهة هي كلّ شيء.

والجمـال؟ هل هو جزء من الأبهة؟ لا. الحمـقى فقط هم الذين يصدقون ذلك.

الجمال، مـثل الأبهة، مسألة إرادة. الجـمال سلطة أيضاً. انظر إليّ، أنا التي غـزوتك. هل تظن أنني لا أنظر إلى نفـسي في المرآة صـباح كلّ يوم؟ بدون مـكياج؟ هل تظن أني أخـدع نفسي؟ إني امرأة مغناج: أبذل مـا بوسعي لأخدع باقي العالم. لقد قلـت لك إنني في الخامـسة والأربعين، السابـعة والأربعين

من العمر؟ لا أتذكر. هذا ليس صحيحاً. أنا في التاسعة والأربعين. يجب أن أعيد خلق جمالي صباح كلّ يوم، مثل شخص يرسم لوحة، أصمم شكلاً، أو ربما أسوأ من ذلك، أصمم إعلاناً. سواء كنت مقنعة أم لا، أريد أن أنال الإعجاب لكي أحصل على ما أريد. أنال الإعجاب لكن دون أن يلمسني أحد. أريد أن أكون تمثالاً.

هل تعرف ماذا قال لي عاشق قديم؟ «المشكلة أنك جميلة جداً من الخارج، لكن لا بد أنك مريعة من الداخل».

«لا»، أجبت، «إن مشكلة الجمال أنه يحكم عليك بالجنس، ومشكلة الجنس أنه، رغم أنه يجلب المتعة، فهو لا يستطيع أن يحوّل الخبر السيء إلى خبر جيد».

«لكن لعله ينقذك، بالرغم من الأشياء السيئة»، قال.

«أريد أن أنقذ نفسي رغم كلّ الأشياء الجيدة»، قلت له، لأجعله مضطرباً إلى الأبد، وأرغمه على الهرب من كلّ شيء لا يفهمه، وكان ذلك كثيراً.

هل تفهمني، يا نيكولا الصغير المسكين؟ انظر إليّ جيداً. العمر هو قاتل المرأة الذي لا ينال عقاباً. إنك أصغر سناً مني. أراهن أنك ظننت أنك تستطيع أن تتمتّع بمزايا كوني ناضجة في السن وربما تكون آخر مضاجع لذيذ بالنسبة لي.

هل تخلصت من أوهامك البارحة، يا حبيبي الصغير الغبي؟

لقد رأيتك في ذلك اليوم الذي أدّيت فيه اليمين الدستوري كرئيس للجمهورية في سان لازارو. ورأيت ابتسامة خطيرة ترتسم عل شفتيك لم أر مثلها من قبل. لقد أخفتني. كانت ابتسامة تنم عن مكر أكثر مما تنم عن قوة. ابتسامة وغد حقيقي. ابتسامة تقول: «لقد خدعتهم جميعهم». ذلك عندما قرّرت أن أجعلك تعاني من أجل كل ما عانيته، مع أنه ليس لأنك أسأت لي.

لقد قرّرت أن أجعلك سبب جميع الأشياء السيئة التي واجهتني، كنت ستصبح الحقيبة التي أضع فيها آلامي، مع أنك لم تكن السبب.

بينما كنت أراقبك وأنت تعقد الوشاح ذا النسر والثعبان، أدركت أن «نيكولاس بالديبا قد أصبح عظيماً. لكن حبّه صغير. إنه رجل لا يعرف كيف يحبّ».

لقد قرأت أفكارك في لحظة، مثل كتاب مفتوح. لا يوجد حبّ في حياتك. أب، أمّ، عائلة، صديقات، عاشقات. إنك مثل جزيرة تقبع في وسط نهر ضخم. يشغلك الطموح، لا تعقد أي صلة عميقة مع أحد. لقد لعقتك مياه النهر لكنك لا تستطيع أن تستحم فيها.

قل لي إن كنت تعرف أن غـياب الحبّ لا يمكن أن تشفـيه تجـربة أن يكون المرء محـبوباً. كـان ذلك وعدي. لقـد أريتك الدرب الذي يقودك إليّ. لكنك حدت عن الطريق. لقد أجّلت الأشيـاء. لقد أهنتني. لقد فصـلت «تحقيق القوة» عن «تحـقيق القوة لأنـها سمـحت لي بذلك». هل تعتـقد أنني أسـتطيع أن أغفر لك ذلك؟

أريدك أن تعـاني كما عـانيت. انظر كم أنا صادقـة؟ انظر كيف أحطّ من قدر نفسي؟ انظر كيف تركت نفسي أهيم خارج الحب، ضد الهدوء، أن أحكم بشكل أفضل على حبيب قلبي، بيرنال هيريرا؟ لكـن افهم شيئاً واحـداً. أريدك أن تعاني كل ما عانيته منذ أن ولدت، لا لأنك آذيتـني. ولا لأني أعتقد للحظة واحدة بأنك أحببتني، أو بأنني أحببتك.

لقد التزمت بالترتيب الذي وضعناه، موعدنا أمام نافذتي، تماماً كما فعلت في كانون الثاني.

هل جُرحت لأنك رأيتني ليلة البارحة أمام النافذة؟

هل جُرحت لأنك رأيتني عارية مرة أخرى؟

هل جُرحت لأنك رأيتني بين ذراعي رجل آخر؟

هل سمعت، مشوشاً ببكاء الأشـجار، تنهداتي عند رعشة الجماع؟

لقد أجّلت الأشياء. اغفر لي. كنت دائماً تقول لي كم كنت تحبه. لم يكن يجب عليك أن تقول هذا. لقد أبعدته عنك. لقد لعبت أوراقك كلها جيداً إلا هذه الورقة.

هل ينبغي لي أن أشكرك لأنك عرفتني على أفضل وأجمل حبيب عرفته في حياتي، شخص يلعق مؤخرتي بدون خجل، بظري، يلج أصابعه في داخلي، ويجعلني أصل إلى قمة الرعشة مرتين، بلسانه وبأيره، يناديني، يتوسل إليّ لأن أداعب فتحة شرجه، الشيء الذي يرغبه جميع الرجال سراً، لمساعدتهم على القذف بشكل أسرع وأقوى، الشرج، الأقرب إلى البروستات، الفتحة الأكثر سرية، التي لا يُعترف بها كثيراً، المتعة الأقلّ طلباً.

إنه يطلب مني ذلك.

«إصبعك. في مؤخرتي، يا ماريا دل روساريو. أرجوك، اجعليني أقذف...»

أسمر، طويل، تكسوه العضلات، رقيق، قاس، عاطفي وشاب... يا له من حبيب رائع الذي قدمته لي، يا نيكولاس! منذ البداية، تكلم معي بدون رسميات!

لكن احذر منه جيداً.

إن خسوس ريكاردو ماغون مقتنع بأنك تريد أن تقتله.

هذه نصيحتي الأخيرة. أظن أنك أنت الذي يجب أن تحرص على ألا يقتلك.

إن الجرائم التي ترتكب بسبب الخوف من أن تُقتل أكثر شيوعاً من الجرائم التي ترتكب حباً في القتل.

انسني كحبيبة لك. اخشني كمنافستك السياسية.

اذهب. إنك تفتّش عبثاً عن صدع في روحي. لن تجده أبداً لأنه لا وجود له. هل أنا مختلفة عن الآخرين؟ من هو سيد روحه؟ الرجل الذي يظن أنّه يضلّل نفسه فقط. لا يمكن أن نكون. إننا في طور الوجود. إننا لا نسلم أنفسنا للحقيقة. إننا نخلقها. اذهب، أيها الكائن الصغير، mon choux...

64

من ماريا دل روساريو غالبان إلى بيرنال هيريرا

أعرف أنه توجد مسحة ساخرة في ابتسامتك، يا بيرنال، لكن هناك مودّة ورقة في عينيك، مودّة يشاطرها أحدنا الآخر على الدوام. وبعبارة «على الدوام» أقصد منذ أن كنّا شابين.

منذ ذلك الحين لم يخبيء أحدنا شيئاً عن الآخر، أنا وأنت. ويعرف أحدنا التاريخ الشخصي للآخر وتاريخ أسرته، الذي هو في نهاية الأمر الشيء نفسه. في الواقع - تعرف ذلك أكثر من أي شخص آخر - أن الشيء الأكثر غموضاً، وربما الأكثر إثارة، هو أننا تعلّمنا منذ طفولتنا أن نخلق عالماً داخلياً، وقد أحدثنا نوعاً من الالتزام المزدوج: لبيئتنا الموضوعية ولبيئتنا الذاتية. إن العالم الخارجي يتغيّر وكذلك العالم الداخلي. من ناحية، هناك الأشياء التي هي خارجنا وتحتوينا، ومن الناحية الأخرى، هناك الأشياء التي توجد في داخلنا والتي نحتويها. والحياة كلها صراع بين هاتين القوتين. ففي بعض الأحيان تكون

متناغمة، كما هي في معظم الأحيان بالنسبة لك، وفي أحيان أخرى، هي معركة صعبة، مثل السباحة ضد التيّار، صعبة مثل حياتي.

كم كنا محظوظين عندما التقينا عندما كنّا شابين، عندما عرفنا للتو أن كلاً منا يكمل ما ينقص الآخر. لقد أتت طبيعتك الثابتة من أبويك. إذ إنك ابن النشيطين الاجتماعيين المتواضعين والصادقين، بيرنال وكانديلاريا هيريرا، اللذين نظّما العمال في أحد المصانع في شمال البلاد. إنك تدين لهم بتضامنك مع الناس الذين هم في أشد الحاجة لمعرفة أنه يجب الأخذ بآرائهم أيضاً، وأن لديهم ملاذاً تحت سقف سياسي. إنك تقول إن هذه هي مهمّة اليسار الأبدية، وتقول للناس، «أنكم لستم وحدكم. فلديكم سقف هنا».

ومن أبويك فهمت أيضاً أن صفاء الأفكار المثالية لا تكفي بحد ذاتها. لذاك يجب علينا أن نحصل على نصف ما نريد، وعلينا في أحيان أخرى أن نضحّي بالنصف الآخر. لكن أبواك لم يكونا يقبلان بهذا الحل الوسط. كانا بطلين من أبطال حركة العمال، ومن المؤكد أن تضحيتهما لم تكن دون جدوى. من خدعهما؟ من الذي دفعهما لعبور ريو غراند في الليل، وجعلهما يعتقدان أنهما سينقذان مجموعة من المهاجرين غير الشرعيين، ليقعا في قبضة مصلحة الهجرة الأمريكية؟ وقد أُطلقت عليهما النار من خلفهما بينما أخذا يهربان وخضعا

«لقانون الهاربين اللائذين بالفرار»، بيرنال - الكذبة الظالمة والحارقة - أنت الذي عرفت أبويك، بيرنال وكانديلاريا، جيداً. لم يهربا قط من أحد. لم يديرا ظهريهما لأحد في حياتهما.

«لقانون الهاربين اللائذين بالفرار» كيف يمكنهم أن يسموا ذلك التصرف الكريه قانوناً؟

عندما التقينا في باريس، حدثتني عن حياتك وكيف ضُحيّ بأبويك بسبب مؤامرة دنيئة حبكها مهربو المخدرات في الشمال، السياسيون الفاسدون على كلا جانبي الحدود - تشيهواهوا وتكساس - وقوات إنفاذ القانون والنظام الفاسدين في المكسيك والولايات المتحدة.

قلت لي: «لن أكون مثالياً نقياً مثل أبويّ. سأتمكن من معرفة الفرق بين أهون الشرين والجيد الأعظم. سأخدم الأعظم بتقديم تنازلات لأهون الشرين».

إني أحسدك على أبويك، يا بيرنال. قلتها لك آنذاك وسأقولها ثانية الآن وأنا أنظر إلى الوراء إلى المهزلة والمأساة التي كانت حياتي العائلية. فأنا لم أولد فقيرة مثلك. لم يكن عليّ أن أعيش في تلك الحياة الشاقة كما فعلت أنت. بالعكس. كان عليّ أن أتغلّب على الثروة. كانت المائدة ممدودة.

فقـد ولدت في طبقـة ثرية. وقد جعلـني أبي أتمرد؛ كان عليّ أن أعـارضه، أن أكـون مـختلفـة عنه، أتجـاهل خطاباته الساخرة العنيفة، نفاقه الجـدير بالإعجاب وهو يتحدث بصراحة عن عمليـات الاحتيـال والتزوير، ومخطـطاته غير القـانونية، وفطنتـه التـجارية. في السـيـاسـة، يجب على المرء أن يكون مدعياً. أمـا في الأعمال التجارية، فـيمكن للمرء أن يكون فظاً ومتهكماً علناً.

كان أبي يزرع فيّ الخوف إلى درجة كبيرة، لذلك كان عليّ أن أتجسّس عليـه إذا أردت أن أراه. بدأت أتنصت على مكالماته الهاتفية من الهاتف في القاعة.

«بع أسطول الشـاحنات القـديمة إلى «شركـة الصعـود إلى السماء» بأعلى ثمن تستطيع. . .»

«لكن شركة الصعود إلى السماء، هي شركتنا يا سيدي».

«تماماً. نعلن أن رأس المال هو أرباح ثم نبيع الأسهم بأعلى سعر ممكن».

«آل هيريرا يثـيرون مشـاكل في الشمـال، ويطلبون وضع قوانين من أجل ضمان العمل في مصانعك، يا سيدي. . .»

«حسـناً، لنفعل كـما فـعلنا عندما أرادوا أن ينقـذوا الموقع الجبلي البـيئي ذاك المليء بالطيور وحيـوان الأسلوت. لا قوانين

لحماية البيئة، لا قوانين لحماية ضمان العمل، يا دومنيغز. اشتر أكبر عدد ممكن من المشرعّين».

«هل أشتريهم؟»

«حسناً، أقنعهم. اغفر لي فظاظتي».

«أحد المشرّعين عنيد جداً ويريد سنّ قانون يقرّ بالدعاوى ضد الاستثمارات التي توجد فيها عمليات الاحتيال».

«انظر، يا رويز، إنك لا تهتم إلا بتضخيم قيمة تلك الأسهم التافهة لنتمكن من بيعها ونحقّق أرباحاً. هذا هو عملنا. لا تلخبط المسألة».

«تفيد الأخبار بوجود خسائر في الشركة في ميردا، يا سيدي».

«لا توجد شركة من شركاتي تبلّغ عن خسائر إذا لم أكن أريد ذلك. بالنسبة لميردا، خبئها ببيع الشركة الفرعية بسعر مرتفع».

«من يريد أن يشتريها؟»

«نحن أيها الغبي، الشركة في كوينتانا روو.»

«كيف سيحدث ذلك؟»

«بقرض نقدمه نحن. بهذه الطريقة نبقيه في العائلة، إن

شركاتنا تموّل إحداها الأخرى، نخفي الخسائر ونجذب المزيد من المستثمرين.»

«وماذا يحدث عندما لا نعود نستطيع أن نفعل ذلك؟»

«انظري يا سيلفا، عندما نزيد حصصنا الشخصية عشرة أضعاف، عندها فقط سنعلن إفلاسنا ونجعل أصحاب الأسهم يتلقون الضربة. في الوقت نفسه، أريد أن يظن الجميع أن عملنا يسير على خير ما يرام، ويأخذون الفكرة ويمطّونها مثل العلكة، بقدر ما تستطيع أن تتمدد، لكي يواصل أصحاب الأسهم استثماراتهم، لكي لا يدركون أننا على وشك أن نعلن إفلاسنا. مفهوم؟»

«إنك عبقري، يا سيدي.»

«لا. أمي هي التي كانت عبقرية، فهي التي خرجت بالفكرة الرائعة عندما كانت تلدني!»

«ماذا سنفعل بعلاوات المديرين التنفيذيين هذه السنة يا سيدي؟»

«ارفعها إلى أقصى حد يا رودريغيس. ارفعها إلى أقصى حد بخيارات بيع الأسهم، واخفِ النفقات لكي لا يرتاب المستثمرون بالأمر. لا تسجّل خيارات بيع الأسهم على أنها نفقات على الإطلاق. تمسك بالملايين».

«وماذا عن الموظفين؟»

«لتحلّ اللعنة عليهم».

«يجب أن أحـــذّرك بأن كــويـكوي، الذي يكـتب لك خطاباتك، بدأ يخرج عن الخطّ قليلاً، فهو يشيع بأنه يقدم لك أفكارك جميعها يا سيدي».

«تخلّص من ذلك اللـقيط لاعق المؤخـرات الآن. أخـرج أغراضه من المكتب وارمها في الشارع».

«كان موظفاً وفياً لمدة اثنتي عشرة سنة...»

«يوجد عمل دائماً للاعق مؤخرة جيد مثله».

«والمستثمرون؟»

«يمكنهم أن يذهبوا إلى الجحيم».

«والمدّعون العامون؟»

«لا تقلق بشـأنهم. لا تقل كلمة واحدة. لن يـرسلنا أحد إلى السجن. هناك أناس يعتمدون علينا».

كانـت أمي أفضل. مـثل أبي تماماً كـانت تتشح بالـسواد دائماً. «إني في حداد على المكسيك. حداد أبدي»، كان يقول.

وهكذا راحت تقـلده، بل وذهبت شـأواً أبعـــد من ذلك الحزن الجنائزي، وراحت ترتدي دائماً تنورة سوداء طويلة.

هل يمكنك أن تتصوّرني فتاة صغيرة، أجلس إلى مائدة العشاء بين أبي وأمّي، وكلاهما يتشح بالسواد من رأسيهما حتى أخمص قدميهما، يتناولان وجبة طعامهما دون أن يتبادل أحدهما كلمة مع الآخر؟

كان يحدق فيها بعينيه اللتين تشبهان عيني قطة برية.

لم تكن ترفع رأسها قط عن صحنها.

وتعلّم الخدم ألا يحدثوا ضجة.

ومع ذلك كانت تقبع في عيني أمّي الكئيبتين كراهية تزيد بكثير على الكراهية في نظرات أبي القاسية.

إن كانت هناك محبة، فقد كانت في عيني أبي الصفراوتين وهو ينظر إليّ، لكنها كانت حذرة ومذنبة. مرة بعد أخرى، كنت أسمعه يوبّخ أمّي وراء الأبواب المغلقة.

«لا تستطيعين أن تنجبي لي وريثاً. لا فائدة ترجى منك».

«يمكنك أن تكون رئيساً على الجميع، يا باروسو الابن، لكنك لا تستطيع أن تعطي أوامر إلى الله. كانت إرادة الله أن تكون بنتاً».

كانت وكأن أم مريم العذراء تعتذر لروح القدس لأنها أنجبت بنتاً.

مع ذلك، فقد عمل سخط أبي لصالحي. لم يكن لديه وريث ذكر. ونصح الأطباء أمّي، كاسيلدا غالبان، بألا تجازف

وتحمل ثانية. لقد جعلهما ذلك يشعران بالمرارة. لذلك قرّر أبي أن يعلمني كما لو كنت صبياً، معتقداً أنني ذات يوم سأرث ثروته وأدير أعماله التجارية. لذلك استطعت أن أدرس في باريس، وأن ألتقي بك، وأن أقع في حبّك يا بيرنال. كنت تلك الفتاة المكسيكية الصغيرة الغنية التي ذهبت لتدرس في جامعة باريس، التي كانت جميع نفقاتها مدفوعة، لكي أحصل على كلّ تلك الملايين التي تركها لي أبي في النهاية. وكنت أنت الطالب الشاب الذي يدرس على حساب الحكومة، الشاب الذي أرسلتك المكسيك إلى فرنسا في بعثة كتعويض على موت أبويك والظلم الذي أحاق بك لأنك تحمل اسم أبيك نفسه.

«لأن اسمي بيرنال هيريرا، مثل اسم أبي، فقد اعتقلوني وعذّبوني، معتقدين أنني كنت هو. ثم جاء أخيراً رئيس شرطة خواريز وقال لهم: «لا تكونوا بلهاء. لقد مات أبوه، بل وحتى دفنّاه»».

كانت هناك معاناة في قسمات وجهك، لكن كان فيها صفاء، وقد حسدتك على ذلك؛ كانت نظرة ورثتها من الألم والشجاعة والإيمان... لا أعرف.

أما أنت، فقد استطعت أن ترى المرارة العائلية في عينيّ، وقد لمتني على ذلك.

«حبيبتي، إن الضغينة، والحسد، ورثاء الذات، سموم.

حوّلي مشاعرك هذه إلى إرادة للحبّ. إلى حرية للتصرّف. لا تبلي نفسك بكراهية أبيك. تغلّبي علـى ذلك. كوني أكثر منه. أفضل منه. لكن كوني مختلفـة عنه. ذلك سيجعله يلتهب في داخله». ضحكت، يا حبيبي.

أنا وأنت عـاشقان، يا بـيرنال هيـريرا. كان حبّـاً من أول نظرة. حبّ ولد في قاعات المحـاضرات والكتب التي قرأناها، في المقاهي في شارع بول ميش، في نزهاتنا على القدمين على ضـفاف السين، في الأفـلام القـديمة في شارع شـامـبوليـون، وخـلال وجـبات طعامـنا السريـعة croque-monsieur و cafe au lait، وقراءاتنا الحماسية من مجلة نوفيل أوبزيفاتور الخالدة وجين دانيـال، وجلسات دراسـتنا، ورحلاتنا بحـثاً عن الكتب على امتداد شارع سوفلوت، وليالينا العاطفية في شقتك العلوية في شـارع سان جاك، ومـشهد البـاثنيون عند الفـجر، الفجر حامينا. كان حباً من النظرة الأولى.

«إننا في باريس. لا شيء يتغيّر هنا. المدينة نـفسها دائماً. لذلك سيظل العشاق في باريس عشاقاً على الدوام!»

ترا لا لا.

كان لديّ سببان جعلاني أسرع في العودة إلى المكسيك.

الأول، لأنني اكتشـفت أن أبي خدع أمّي وسلبهـا مالها. فعندمـا تزوجا، جمعـا ثروتيهما مـعاً. فقد ورثت أمي شـركة

كبيرة لصنع البيرة، وكان مـن المفهوم أن أصول والديّ المشتركة لا تتضمّن مشاركة أمّي في الشركة، بل عقاراتها الشخصية.

ذات يوم جميل، استدعى المجلس التنفيذي في الشركة أمّي وأخبرها أن أبي لم ينزل ثروتها الشخصية إلى الحضيض من خلال سلسلة عمليات التزوير المالية فحسب، بل زوّر كذلك توقيع كاسيلدا غالبان دي باروسو، واستولى على أسهمها في الشركة، واحتال على الجميع واستولى على مالهم.

عدت إلى المكسيك في غمرة الميلودراما هذه، وزدت الأمر سوءاً. كان ذلك عندما أعلنت لأبي إنني واقعة في غرامك وأنني أنوي الزواج منك.

«إنه شيوعي! وفقير وسخ، لا أقل من هذا! ابن ألدّ أعدائي، رؤساء عصابات اتحاد العمال في الشمال! لقد جننت!» صاح أبي، ورماني بصحن الحساء المغلي، ونهض من على المائدة، وراح يضربني فأخذت أصيح وأبكي: «توقف! اضربني لكن لا تضرب طفلي!»

بيرنال، حبيبي. الميلودراما حتمية في الحياة الخاصة. لا توجد عائلة لا يوجد فيها مسلسلها التلفزيوني الخاص بها. وما هي الميلودراما، سوى كوميديا بدون هزل وفكاهة؟

«لا أريد أصهاراً!» انفجر أبي قائلاً.

كان الغضب الشديد الذي طالما أرّقه قد انطلق فجأة بسبب النكبات المتراكمة: «ابنة فقدها» الزوجة التي «دمرته». مع أنه هو الذي، في حقيقة الأمر، دمرّ كلّ شيء بالغضب الذي كان شديداً حتى عليه. كانت عاصفة، عاصفة في أرض عراء، حفيف أوراق الأشجار الجافة وسهول جرداء عقيمة، بيرنال، غضب تام مثل انبعاث جميع مواسم حياته الميتة، فصول ربيع صامتة، فصول صيف حارة طويلة، فصول خريف سوداء، فصول شتاء ساخطة. نعم، يا بيرنال، لقد انطلق غضب أبي بدون هوادة، وكأن تسميم نفسه لم يكن كافياً، فقد كان عليه أن يسمّم بقية العالم أيضاً.

«ابنتي! قحبة شيوعية!» راح يعوي مثل حيوان، «ابنتي، عشيقة رجل كان يزعج عائلة باروسو وحاول تهديمنا جميعنا! حفيدي، طفل يحمل دماً مسموماً»!

«عاهرة، خنزيرة، مكانك زريبة الخنازير»، أخذ يصيح، وضربني، ومزّق مفرش المائدة، وحطّم الكؤوس والصحون جميعها، ولوّث السجاجيد، كلّ ذلك أمام أمّي الجامدة، الباردة، المتشحة بالسواد، مؤنبة أبي بنظرة قاتلة. ثم، نهضت فجأة، وأخرجت مسدساً من حقيبتها، ورأت الصدمة التي كست وجهه. عند ذلك، أخرج أبي مسدسه ووقفا وجهاً لوجه، مثل إحدى لوحات بوسادا أو أحد أفلام تارانتينو، موجهاً أحدهما مسدسه صوب الآخر، وكنت أقف في

وسطهما، منهارة، مرعوبة، أريد أن أفصل أحدهما عن الآخر، لكن رحمي هزمني، بغريزة إنقاذ طفلي، طفلنا. . .

ابتعدت عن جسد والديّ المظلمين الفاجرين. انسحبت إلى الوراء وخرجت من غرفة الطعام. رأيت أن أحدهما ينظر إلى الآخر بكراهية، وفي عينيهما ورقات الدولار والحقد. يقف أحدهما أمام الآخر، كلّ منهما مسلّح، مصوباً سلاحه نحو الآخر، ينتظر. من سيطلق النار أولاً؟ المبارزة التي دامت وقتاً طويلاً.

خارج غرفة الطعام، أخذت أصرخ، وقد سددت أذنيّ لكي لا أسمع صوت الطلقات، مرتعشة، أمسكت بطني، لم أجرؤ على العودة إلى غرفة الطعام.

لقد ماتا.

كان أبي على الطاولة، وجهه نصف مدفون في صحن من الفريز والقشطة.

وكانت أمّي تحت الطاولة، وتنورتها السوداء منحسرة حتى فرجها. لأول مرة أرى ساقيها البيضاوتين بياض الحليب. كانت ترتدي جورباً يصل إلى كاحليها، قلت لنفسي.

كانا ميتين كليهما.

لقد ورثت ثروتيهما كليهما. صفّيت جميع ديون أبي.

وأنقذت أسهم أمّي. كانت شركة البيرة متفهمة جداً معي، بل وكانت سخية معي. لكن الحظّ السيء هو الذي ساد. أو بالأحرى، جاء الحظّ السيىء مع الحظّ السعيد، كما هو الحال غالباً.

«كم قليلة هي ثروتي الآن، متى سأراها تزداد؟» كما كان يقول الجنرال الراحل أروسا.

عدت أنت إلى المكسيك. وطلبت مني أن أتزوجك. الآن لم يعد ثمة شيء يقف في طريقنا. فقد مات أبي. لكن الصبي الصغير كان قد ولد.

ما هو الكروموسوم؟ إنه رسول الوراثة. إنه ينقل المعلومات الوراثية. فلكلّ خلية جسدية إنسانية نواة تحتوي على ثلاثة وعشرين كروموسوماً، منظمة بشكل ثنائي. نصفها أبوي ونصفها الآخر أمومي. ويستطيع كلّ كروموسوم أن يتضاعف: إنه توأمه الخاص. لكن عندما يتدخل كروموسوم طفيلي «رجل ثالث» يظهر فجأة، يصبح عدد الكروموسومات الكليّ سبعة وأربعين، ويؤدي هذا الشذوذ إلى إحداث مخلوق غريب: وجه مسطّح، عينان منغوليتان، أذنان مشوهتان، قزحيتان منقّطتان، يدان عريضتان وأصابع قصيرة ممتلئة، وعضلات ضعيفة، والخوف من توقف النمو العقلي. متلازمة داون «مرض المنغولية».

ماذا كان علينا، أنا وأنت أن نفعل؟

هل نبقي الطفل معنا، نعامله كإبننا، وهو كذلك؟ هل نكرّس نفسينا له؟ نعتني به «أنا الأمّ المخلصة، أحرّرك لتتابع عملك»؟

أنقتله يا بيرنال، ونخلّص نفسينا من هذا العبء غير المرغوب؟

أنحبّه يا بيرنال، ننظر في عينيه الصغيرتين الغريبتين لنرى شرارة الله فيهما، رغبة ذلك المخلوق في أن يحِبّ وأن يُحَبّ؟

وقرّرنا معاً أن الكفاح من أجل السلطة أقل إيلاماً من الكفاح من أجل طفل.

كم كنا باردين، ذكيين يا بيرنال. ماذا كنا نريد، أنا وأنت؟ الشيء ذاته. أن نكون لاعبين نشيطين في السياسة. أن ننفذ الأشياء التي تعلّمناها في الجامعة في فرنسا. أن نبني بلداً أفضل فوق أنقاض المكسيك الذي دمّرته بشكل دوري توليفة من الإفراط والشح: الفقر والفساد الضاربة جذورهما، أناس أشرار أكفاء إلى درجة كبيرة، وأناس طيبون غير مؤهلين؛ التصنّع والغرور في الأعلى والاستسلام المحبط في الأسفل؛ فرص مفقودة؛ حكومات تضع اللوم على الناس وعلى سلبيتهم المدنية، ويضع الناس اللوم على حماقة الحكومة؛ إيمان عام

بالإشارات، وكأنه بدلاً من وضع قانون اتحادي، كان دستورنا «بوبول ووج» (كتاب المجلس) في عصر المايا القديم. . .

كنا أنا وأنت سنغيّر كلّ ذلك. لدينا ثقة كبيرة بموهبتنا وبثقافتنا في بلد يحكمه سياسيون هواة. كنا نريد أن نتصرّف قانونياً، لكننا كنّا نريد أيضاً أن نكون مرنين.

«السياسة فنّ الممكن».

«لا. السياسة فنّ المستحيل».

من قال ماذا؟ أنت أولاً، ثم أنا، أم العكس، كما كان يقول وزير الزراعة لدينا الذي لا ينسى؟ في الحقيقة أننا يا بيرنال، لم نعد أبوين لصبي صغير لأننا ظننا أننا سنصبح عرابيّن للبلد كلها.

وقد أودع الصبي في مصحة. كنا نزوره من حين لآخر. وبدأت زيارتنا تتناقص شيئاً فشيئاً، ونتيجة البعد الجسدي، والجدار العقلي، بدأنا نشعر بالإحباط.

لم ننصت للأصوات التي كانت تقول لنا، «اقتربا منه أكثر. هؤلاء الأطفال أكثر ذكاء مما يبدو عليهم. إنهم يتمتعون بنوع مختلف من الذكاء».

«وما نوع ذلك الذكاء، يا دكتور؟»

«ذكاء عالم منكمش على نفسه».

«مستغلق؟»

«نعم، ربما. لا نزال لا نعرف. لكن حقاً. عمل من يجب أن نحاول؟»

«نحاول ماذا. ؟»

«عمل من هو؟ عملكما بصفتكما أبويه، أو عمله؟»

لم نسبر أغوار هذه الألغاز. لقد نأينا بنفسينا عن هذه الخيارات. لقد فعلنا ما علينا أن نفعله بدون تحمل عبء أبله، نعم، لا يهمني أن أذهب إلى جذر الكلمة Idio. هل تذكر محاضرة إمليو ليدو الرائعة في كوليدج دي فرانس عن فيدروس لأفلاطون، عن ذلك الخطاب الذي يعتبر بذرة اللغة؟ اللغة التي عندما «تدان بشكل ظالم» تحتاج إلى مساعدة أب، لأنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها». لهذا السبب، علّمنا ليدو، أنه يجب تفسير اللغة كلها لكي تستطيع أن «تُغمر» في اللغة التي نتألف منها، اللغة التي هي نحن».

لقد أمضينا قرابة عشرين سنة، أنا وأنت، ألم نكن قادرين على تكلم لغة السياسة التقليدية. ألم نكن قادرين على التحدث بلغة الطفل الخلاقة؟ ربما كانت لغة شاعرية؟

ماذا كان الثمن، يا بيرنال؟ لنقبل الأمر. لم ننأى بنفسينا فقط عن الصبي الذي هو ابننا، ملكنا. وبعد فترة، عندما كنا

منهمكين في عملنا السياسي، نأى أحدنا عن الآخر. لم يتوقف أحدنا عن حبّ الآخر، عن رؤية أحدنا الآخر، أن يكلّم أحدنا الآخر، أن نحيك المؤامرات معاً. . . لكننا لم نعد بلهاء، لم نعد نملك أنفسنا، لم نعد نعيش معاً، في بعض الأحيان، كنا نخرج إلى إحدى الحانات، وفي أحيان أخرى، كنا ننام معاً. لكن لم ينجح الأمر. لم يكن ثمة حبّ. ففضّلنا الكفّ عن ذلك لكي لا تتكدر صداقتنا العظيمة.

إنك رجل طيب، ولهذا السبب لم نستطع أن نعيش معاً. فبدونك، أصبح بإمكاني أن أمارس الجانب المظلم من روحي بحرية، ذلك الجانب الذي ورثته من أبي، دون أن أجرح مشاعرك.

كنت أحدثك دائماً عن علاقاتي الغرامية قبل أن تصل الثرثرة السامّة إلى أذنيك. أعرف أن ذلك في المهارة السياسية، لا في الحقيقة، هي التي تفوز في الجدالات. كنت قد قلت لك «الكذاب يسقط في وقت أقرب مما يسقط فيه رجل ذو ساق واحدة». أن تكون كذاباً جيداً عمل دائم. يجب أن تكرّس نفسك له بالكامل. وهذا بالضبط ما تسمح لك السياسة أن تفعله.

في الماضي البعيد، كان الكذاب يُرسل في أغلب الأحيان ليطهر ذنبه في دير. لكن المكسيك ليست ديراً. إنها مستودع. وقد كنت الراهب الصارم في مستودع السياسة المكسيكية. كانت

دائماً قوتك. مبادئك الأخلاقية. التـضاد. لقد صقلتها وعززتها باسم «التجديد الأخلاقي». تكون قاسياً وواقعياً عندما تستدعي الضرورة، وعادلاً وقانونياً عندما يكون الوقت ملائماً.

لم تحدثني قـط عن حياتك الخـاصة، وأظن أحـياناً أنه لا توجـد لديك حيـاة خاصـة على الإطلاق. أو كـما قـال أبي، ليوناردو باروسو الابن، ذات يوم سـاخراً: «يمتلك كل شخص الحق في أن تكون له حيـاة خاصة، مـا دام يستطيع أن يتـحمل نتائجها».

لقد عملت معك بدون شروط. في الحـقيقة، كنت أعرف أن لورينزو تيران كان مصاباً بمرض عضال منذ اليوم الذي أصبح فيـه رئيساً. لم يكن هو أول رجل مـريض يتولّى هذا المنصب. فقد أصبح فرانسوا ميتيران رئيس جمهورية فرنسا وهو يعرف أنه سيمـوت في قصر الإليزية؛ وكان روزفـيلت يعرف ذلك أيضاً، عندما ترك نفسه يُنتخب للمرّة الرابعة. ربما منحتهما تلك المعرفة الإرادة للعيش بالطاقة التي نتذكّرهم بهـا، والرغبة في الاحتفاظ بأسرارهما طي الكتـمان، كما فعل تيـران. لقد وثق بي تماماً. كان مرضه السبب الذي جعلني أعدّ شـاباً عديم الخبرة، شخصاً لم يكد يبدأ يحلق ذقنه، شخصاً كان بوسعي أن أقولبه. يتسلم كرسي الرئاسـة إذا مات تيران سـيكون الرئيس المؤقت إذا توفي تيران خـلال السنتين الأولين في منصبـه، والرئيس بالوكالة إذا مات في السنوات الأربع الأخـيرة. لكن الهـدف كان أن يكون

هذا الأمر عابراً؛ أن يكون نيكولاس بالديبا مجرد عابر، حتى تأتي رئاستك أنت با بيرنال، عندما يتم التخلص من خصمك تاسيتو.

امتثل بالديبا بوعي تام لكلّ ما طلبت منه أن يفعله. لكنه كان يظن دائماً كلما قلت له: «ستكون الرئيس»، أنني كنت أقصد ولاية ستّ سنوات كاملة. لم يشك أبداً بأنني أعتبره يصلح رئيساً بالوكالة فقط، لأن الرئيس تيران كان مريضاً. إمليو بورتيس غيل جديد. كان مطيعاً ووفياً. كانت هناك بعض الأشياء التي كان هو - ولا أحد غيره - يستطيع أن يسيطر عليها. الرجل العجوز تحت القنطرة. تلك الابتسامة المتكلفة في ذلك المسلسل التلفزيوني «ملكة دولس»، أو مهما كان اسمها. لغز أولوا المنيع، قضية مورو التي أردنا أنا وأنت أن نخفيها عن حديث العامة، وكأنها غير موجودة على الإطلاق، أن نكتم السرّ إلى الأبد في قعر البحر...

لكن من الناحية الأخرى، كان بالديبا مفيداً في إفساد المخططات الصغيرة للرئيس السابق، هذا إذا لم نذكر مؤامرة الجنرال أروسا الشنيعة: لم يتخيّل أي منا أن نيكولاس سيتجاوزنا ويدخل في علاقة مع الجنرال فون بيرتراب ليعرف ما يخطط له أروسا، بالإضافة إلى ما اكتشفه من ذرائع ألماسان الغبية، وعاهرة يكاتيكان تلك، وأندينو، حفرتها التي لا قرار لها في علوم الاقتصاد والتفاهة السياسية.

كل شيء تحت السيطرة وكل شيء لصالحك، يا بيرنال. إن القدر يبتسم لك. كان الشاطئ خالياً. أونيسمو كانابال، رئيس الكونغرس، يتظاهر بالغباء، لكنه أكثر دهاء من قرصان، ويعرف من أي اتجاه تهب الريح. لدينا جميعنا انتقامنا السري. وكان ثأر كانابال أن ينتقم من المهانة التي أهالها عليه الرئيس الفظيع السابق، سيزار ليون (يجب عدم الاستهانة بأي خصم على الإطلاق). فقد كان التخلص من سيزار ليون هاجس أونيسمو كانابال. لقد جعله أندينو يضحك، لا بيبا، لأنه كان يعرف عن العلاقة الغرامية السرية بين مدام بومبادور المكسيكية وبين تاسيتو وأروسا. فقد حسب أونيسمو، ابن العاهرة ذو الوجهين، بأن هذه العلاقات الغرامية المخادعة ستنتهي مثل الكذاب والرجل ذي الساق الواحدة، منبطحين على وجوههم. كما كان أونيسمو يعرف كيف يستغلّ الكونغرس المبلقن، لكي يتمكن من أن يفرّق ويسد.

إن الشيء الذي لم نحسب حسابه، أنا وأنت، يا بيرنال هيريرا، هو أن أونيسمو كان أكثر دهاء مما كنا نظنه، واستخدم عميلاً سرياً، امرأة عجوز غير فتّانة، تغيّر جلدها أكثر من حرباء، امرأة تستطيع أن تختلط في أيّ شئ من صحراء شيهوهوا إلى غابات تاباسكو، بولينا تارديغاردا، التي تشبه راهبة، عذراء، شهيدة. لم تكن مجرد حفرة لا قرار لها من المعلومات بالنسبة لأونيسمو، لكنها كانت أسوأ من ذلك بكثير، وبصراحة شديدة، كانت تجعلني أشعر بالغليان، يا بيرنال.

لقد وعدت نيكولاس بالديبا: «ستكون رئيس المكسيك».

وعبارة ثانوية: «سأجعلك رئيساً للمكسيك».

لم أكن هكذا. إن الشخص الذي جعل بالديبا رئيساً هو تلك الهاربة من الدير بولينا تارديغاردا. يستطيع بالديبا أن يشكر بولينا وأونيسمو، وليس أنا وأنت، لجعله يعتلي عرش النسر.

إني أشعر بالغليان يا بيرنال، أعترف بذلك، وأنا خائفة.

سيصبح نيكولاس بالديبا السيد تانكريدو، الهدف السهل في مصارعة الثيران الهائلة التي سنقيمها، المهرج الجامد المكلف بتحويل مسار الثور عندما يدخل إلى الحلبة، لكي يشتهر مصارع الثيران. حسناً، حسناً. لقد تبين الآن أننا أنا هو تانكريدو (سياسي برازيلي) وأن نيكولاس بالديبا يدين بمنصبه لأونيسمو وبولينا، وليس لي ولك.

في جميع الأحوال، تظل أنت أنت، حبيبي القديم، وتبقى أنت أفضل مرشح ولديك أفضل فرصة للفوز في انتخابات 2024. لكن «الحياة تجلب لنا مفاجآت»، كما يقول الشاعر الملحمي من بنما روبن بلايدس. إن الحياة تجلب لنا مفاجآت. قد يظهر مرشحون آخرون على الساحة. هذا شيء متوقع. في الحقيقة، أظن أنه يجب علينا أن نشجّع مرشحين آخرين. عندما أنظر إلى الأفق السياسي، لا أرى مرشحاً أقوى منك. في جميع الأحوال، يمكنك أن تتنفّس باسترخاء. إذ تقول المادة 82

من الدستور أن أيّ مواطن كان رئيساً للجمهورية - سواء كان منتخباً، أو مؤقتاً، أو رئيساً بالوكالة - لا يحق له أن يشغل المنصب ثانية. مهما كانت الظروف، يقول القانون. وهذا ما جعل سيزار ليون يبذل ما بوسعه ليهدد أونيسمو كانابال في الشروع بعملية إصلاح الدستور المعقدة، لأنه أراد أن يلغي المادة 82 ويصبح رئيساً مرة أخرى. إعادة انتخاب مباركة، يا بيرنال. لا يحق لأحد أن ينيكنا مرّتين.

ماعدا نيكولاس بالديبا ربما؟

إنه من خلقي أنا.

الشخص الذي رسمتّه أنا، بالطريقة الديمقراطية.

الدمية الطيعة، السهلة الانقياد الذي سيسلّمنا كرسي الرئاسة بدون مشاكل.

حسناً، انظر ما حدث. لقد تبين أن للفتاة عقلاً خاصًا بها.

لا، لا أظن أنك ستهزم في انتخابات ديمقراطية حرة. إن فوزك مؤكد. لكن ما أخشاه، يا بيرنال، أن بالديبا سيجد وسيلة للمكوث على عرش النسر. هل تظن أنه سيقتنع بثلاث سنوات فقط؟ هل تظن أنه لا يخطّط مع بولينا تلك للتمسك بكرسي العرش؟

ربما ليس الأمر كذلك. لكن من الأفضل أن نكون في مأمن على أن نكون نادمين. تذكّر دائماً أنه مهما كانت الظروف، يجب أن لا نغفر لنيكولاس بالديبا لأنه خدعنا. لكن اترك هذا الأمر لي. إذا سامحت الشخص الذي أخطأ بحقك، فإن أعداءك سيعرفون ذلك ويعاملونك على نحو أسوأ بكثير.

إني أقول لك ذلك، يا حبيبي بيرنال الطيب، لأنك تقول للجميع: «لا أستطيع أن أظلم عدوي».

إنك مخطيء. كن ظالماً. لأن عدوك سيظلمك.

65

من عضوة الكونغرس بولينا تارتيغارد إلى نيكولاس بالديبا

عزيزي نيكولاس، أظن أنك محـمي من جميع الجوانب. كنت حكيماً عندما تركت وزارة الرئيس تيران كما هي، باستثناء وزير الأشغـال العامة، أنطونـيو بيغـارانو، ووزير الاتصالات، فـيليب أغوير. فـقـد كان فـسادهمـا مـعروفـاً لدى الجمـيع. فبالتضحية بهمـا سترضي الرأي العام وتظهر التزامك بالعدالة. هذا هو ضعف النـظام: العدالة. فليس لدينا ثقـافة الشرعـية، وندع أنفـسنا نرمي بقطع اللحم إلى الأسـود كلّ ستّ سنوات. لكن النظام لا يتغيّر.

ستكون فكرة إصلاح الهيئة القضائية على الفور فكرة جيدة في جـميع الولايات التي لا يعـرّض فيـها هذا العـمل سلطتنا السياسية للخطر. إذ ستوّجه العامة اهتماماً كبيراً بأعمال العدالة التي تقوم بها في أواكساكا وغويريرو، وفي ناياريت وياليسكو، وفي هيـدالغو ومـيشـواكان، إذ لن يتـاح لهم الوقت للتفكـير

بسونورا وبايا كاليفورنيا، وتاموليباس وسان لويس بوتوسي، حيث لن تلمس أيًا من الزعماء المحليين القدامى. لقد كلّمتهم جميعهم. كلّمت كابيزاس، ومالدونادو، وكوينترو، وديلغادو. إنهم يتفهمون اقتراحك. عدم البروز. عدم الإقدام على عمل يثير الانتباه. الانزواء والاحتجاب. وستعمل معهم الإدارات المحلية، وأن يفعلوا ما يشاؤون، لكن بأقصى قدر من الحذر.

«ماذا تريدون، المال أم الشهرة؟» سألتهم نيابة عنك.

«لأنكم يجب أن تختاروا، أيها السادة. فلديكم الكثير من الشهرة، وهي ليست من النوع الجيد. ولديكم أموال كثيرة أيضاً، ويمكنكم أن تحصلوا على المزيد. والمال السيء تعبير ينطوي على تناقض. لا وجود له. المال أو الشهرة. لا يمكنكم الجمع بين الاثنتين في السياسية».

من الواضح أنهم يفضّلون المال. سيكونون حلفاءك الصامتين. سيمارسون القمع والإقناع من وراء الستار أيضاً. كلّ شيء بالمكر والدهاء. إنهم يعرفون أنك تستطيع أن تحكم بيد من حديد. إن قرارك بتسليم زعيم زعماء المافيا سيلفيستري باردو بثّ في نفوسهم الذعر. وهم يعرفون أنك إذا أردت، فإنك تستطيع أن تربط أياً منهم بجماعات تهريب المخدرات وترسلهم مباشرة إلى الولايات المتحدة حيث سيكون الإعدام بانتظارهم. وسيقرّ البيت الأبيض بالفضل لك.

نجاح آخر مباشر لك. فقد عفا الأمريكيون عنا. لقد قُدِّم قرارك بدعم التدخل الأمريكي في كولومبيا على أنه جزء من الحرب على المخدرات. فماذا سيحلّ بالأسواق المالية الأمريكية بدون هذه الأموال جميعها التي يتم غسلها لصالح إمبراطوريات المخدرات؟ أما بالنسبة للبترول، فقد تمكنت من إقناع الرئيسة كوندوليزا رايس بأنك ستترك السوق يقرّر السعر، وأننا لن ندلي بأي تصريح من شأنه أن يدعم العرب.

«الضرورات تبيح المحظورات»، كنت قد قلت لكوندوليزا على الهاتف، وهو شيء تفهمه تماماً.

على الهاتف يا نيكولاس! هل يمكن أن تصدق ذلك؟ كان ذلك كلّ ما احتاجه الأمر، بضعة تصرفات صغيرة تنم عن الاحترام لواشنطن لكي ترفع عنا العقوبات. وبما أن الرئيس تيران كان من الحكمة بألا يشتكي عما حدث بين كانون الثاني وأيار... لم يحدث مطلقاً. هذا كلّ ما في الأمر.

«هناك صفحات فارغة في جميع كتب التاريخ»، قالت لك كوندوليزا.

بعودة جميع الاتصالات اليوم، يمكننا أن نقول أخيراً الوداع لهذا العمل الشاق والمضجر من كتابة الرسائل.

لماذا إذن أكتب إليك الآن؟

من أجل السجلّ.

كما تعرف فأنا أحبّ أن أفتش في الأرشيفات. مثلك. فبفضل كاستولو ماغون الشارد الذهن، انتهى أمر تاسيتو دي لا كانال. وعندما رأيت ملفك من كلية الإدارة الوطنية في باريس، بدأت أربط الأمور، ومثل شرلوك هولمز بدأت تحقيقاتي. هل هكذا تلفظ «شرلوك هولمز»؟ لأنه كان لديّ صديق كوبي يلفظها «تشيلمويونيس». كان واحداً من أولئك الكوبيين الرائعين الذين يعيدون اختراع حياة كاملة على أساس لفظ الكلمات. كيف يمكننا أن نعرف من هو الممثل السينمائي المشهور إذا لفظوا اسمه «كاغابل»؟ وكيف نعرف «ريتامار» إذا لُفظ «ليتامال؟»

في جميع الأحوال، بدأت أتوصل إلى استنتاجاتي، من الأشياء المحددة إلى الأشياء العامة، قطعة قطعة.

كنت قد عدت من كلية الإدارة الوطنية في باريس مباشرة إلى المكسيك، واستقررت في مسقط رأسك، مدينة خواريز، وكنت تجتاز الحدود يومياً لكي تدرس في مكتبة جامعة تكساس في إل باسو، حيث التهمت كلّ شيء عن السياسة المكسيكية، بدءاً من ساليناس وحتى الآن. وكنت قد قدّمت طلباً للسكن في خواريز، وأبرزت شهادة ميلاد تثير الحيرة: ابن أب مكسيكي وأمّ من أمريكا الشمالية، يعملان محاسبين في شركات كانت واجهة لإمبراطورية تجارية أمريكية، فيها أمور محاسبية مزدوجة، بل وتصل أحياناً إلى ثلاثة أضعاف، يديرها

الثري ليوناردو باروسو الأب. بمعنى آخـر، إن خلفيتك العائلية غامـضة، وأيّ كشف عنها يضـر بعدد من الشركـات على كلا الجانبين من الحدود. كانت السرية مبرّرة. فقد ولدت في إحدى العيادات في تكساس، لكنك مُنحت الجنسـية المكسيكية بموجب المادة 30، القسم ألف، الفرع الثاني، التي تكفل حصول جميع الأطفـال الذين ولدوا خارج البـلاد من أبوين مكسـيكيين على الجنسية. كنت مـحظوظاً أكثر من خوزيه كـوردوبا أو روجيريو دي لا سيلفا، الزعيمين في مديريـتي كارلوس ساليناس وميغيل أليمان، لكنهما مُنعا من الترشح لرئاسة عرش النسر من الناحية الدستورية لكونهمـا «أجنبيين». لكنك تعرف كلّ هذا، لأنه لا يوجد أحد يعرف عن التاريخ السيـاسي المكسيكي أكثر مما تعرفه أنت، بما أنك تعمقت في دراسته وفي الآونة الأخيرة أيضاً. . . ليس مثلنا نحن، الذين درسناه في المدرسة الابـتدائية فقط. أو فُطمنا عليه.

وبعـد ذلك يا صـديقي الطـيب بالديبـا، مـات أبواك في حادث سيارة في تكساس، وأنت في الخامسة عشرة من عمرك، عندما أصبح يحقّ لك أن تحصل على جنسيـة ثنائية، وواريتهما الثرى في أمريكا، حـيث كانت الوثائق تحمل الاسم الذي كنت تستخدمه على الجـانب الآخر من الحدود، «نيك فال»، وهكذا تمكنت من الحـصول عـلى عمل، كـمـا قلت، وتخلصت من التمييز.

ثمة فجوة بين نيك فال الذي دفن أبويه في تكساس وبين نيكولاس بالديبا الذي درس في كلية الإدارة الوطنية في باريس، والذي كان يعمل مع المجموعات الطلابية المكسيكية في فرنسا، إنهم يتذكّرون جيداً وأنت تكلمهم، تراقبهم، تبحث في خلفياتهم العائلية، تحاول أن تحرز نقاطاً لكونك يتيماً وأجنبياً.

كنت تريد أن تعرف كلّ شيء عن البلد الذي اشتقت له كثيراً!

كنت تهيىء نفسك لخدمة المكسيك بالدراسة في فرنسا - تماماً مثل ماريا دل روساريو غالبان وبيرنال هيريرا - كما كانت الموضة. إذ كان يميّزنا عن الأمريكيين ويمنحنا هوية خاصة.

لست أنت الوحيد الذي يعرف كيف يستخدم سجلات الأرشيف. خذ الملف الذي تعرفه لأن كاستولو ماغون أراك إياه عندما ذهبت للعمل في لوس بينوس.

كلية الإدارة الوطنية، باريس

بالديبا نيكولاس

طالب. دراسة مفتوحة. كلية الإدارة الوطنية، باريس. جواز سفر مكسيكي. تاريخ الميلاد: 12 كانون الأول 1986. مكان الإقامة: باريس، فرنسا. الخطط المهنية: العودة إلى

المكسيك. التعليم والانضباط: مثالي. الوصف الجسدي: بشرة سمراء. عينان خضراوان. قسمات عادية. الشعر أسود. الطول: 1.79 متر. العلامات الفارقة: غمازة في الذقن.

هكذا هو ملفك من باريس، وعليه صورتك وكلّ شيء. لكن تملكني الفضول بعد ذلك. أين كنت قبل أن تذهب إلى باريس، خلال تلك الفجوة بين الخامسة عشرة والثانية والعشرين من العمر؟ حسناً، بما أنني عضوة في الكونغرس، لم تكن لديّ مشكلة في إرسال البيانات عنك إلى الانتربول. كانوا يحتاجون إلى الحروف الأولى فقط من اسمك. هنا، يا عزيزي نيكولاس، لم تكن ذكياً جداً، لا. كان كلّ ما عليّ أن أفعله هو أن أطلع على قوائم الطلاب المكسيكيين في أوروبا بين الأعوام 2010 و2015. كان عملاً مرهقاً بعض الشيء، لكنه لم يكن صعباً، خاصة بالوسائل الحديثة لتحديد المعلومات، وهي وسائل لا يعرفها رجال مثل كاستولو ماغون الطيب.

واختفى نيكولاس بالديبا في باريس دون أي أثر. لكن ملفاً عن شخص يدعى نيكو فالدز ظهر، يتضمن ملفاً من قسم الشرطة السويسرية وصورة: إنها صورتك.

نيكو فالدز، طالب. جامعة جنيف، سويسرا. مسجّل في فصول الاقتصاد السياسي والنظرية الدستورية. مطرود بسبب اكتشاف سجلّ أكاديمي مزور. العنوان مجهول.

ماذا كانت تلك الوثائق المزورة؟ السويسريون يتمسكون بجميع قصاصات الورق، كما تعرف جيداً. تبين أن «نيكو فالدز» كان مسجّلاً بصفة شخص أجنبي - نفس صورة «نيكو لابات» - ونظام العدالة السويسري لا يحبّ الهويات المزدوجة، لأنها قد تؤدي إلى دفع تعويضات مزدوجة.

من هو نيكو لابات ذاك الذي اعتقل ظلماً في سويسرا؟ كما تعرف، يمكن إجراء مسح للصور بواسطة عمليات تصوير إلكترونية يمكنها أن تظهر كيف يشيخ الشخص، شيء يدعو إلى الإعجاب، أليس كذلك؟ لكن النقطة المهمة أنها كانت واحدة من صور الوجه في «بطاقتي الهوية» صورة أخيك التوأم، يا نيكولاس.

نيكولاس لابات. موظف إسباني عمل بوّاب بناية المكتب الرئيسي لدار نشر لورون، 25 نيسان 2006. موظف نموذجي. قاريء نهم عندما لا يقوم بعمله المهني. فرنسي مثالي. متّهم بالتآمر مع عصابة لسرقة بنوك وبسرقة 250 ألف فرنك سويسري. أُطلق سراحه لعدم توفر الأدلة. الوصف الجسدي: البشرة سمراء. العينان خضراوان فاتحتان. السمات الجسدية. الشعر أسود مجعد. الطول 1.79 متر. العلامات الفارقة: غمازة في الذقن.

شيء يفضي إلى شيء آخر. بسيط، يا عزيزي واطسن. استخدم خلايا هرقل بويروت الرمادية الصغيرة فقط، إنه واحد

آخر من الأثيرين لديّ عندما يتعلق الأمر بفنّ التحري. انظر مثلاً هذا التقرير الموجود في ملفات إدارة شرطة برشلونة.

نيكو لابات. ولد في 12 كانون الأول 1986، في مارسيليا، فرنسا، من أبوين من كاتالونيا، عاملين مهاجرين. مرتبط منذ المراهقة بعناصر إجرامية من مارسيليا تعمل في المخدرات، الدعارة الذكورية، عصابات «حقيرة». ناشط في جبهة لوبان الوطنية. أمضى سنتين في السجن لارتكابه أعمالاً تخريبية مناهضة للسامية والإسلام، 2000-2002. مجهول مكان الإقامة بعد خروجه من السجن. لم ينفذ الالتزام بالتقدم إلى السلطات وتجديد الوثائق. الوصف الجسدي: البشرة سمراء. العينان خضراوان. السمات الطبيعية. الرأس حليق. الطول. 1.79 متر.

يا إلهي! في البداية امرأة سوداء رئيسة للجمهورية، والآن رئيس من كاتالونيا!

أرسل لك نسخاً من هذه الوثائق، يا عزيزي الجميل. سأحتفظ بالنسخ الأصلية في مكتبي في الكونغرس، في ظرف مختوم، لن أفتحه إلا إذا تعرضت للعنف الشخصي. وهذا احتمال بعيد، إذا كان هناك شخص محبّ ومتعاطف مثلك يحميني. لا، لا أظن أني يجب أن أوافق على اقتراحك بالزواج. إن كنت تريدني أن أكون إفيتا بيرون بالنسبة لك،

فهـذا جميل، مـا دام لا يتعين عليّ أن أنام تحت السقف نفسه معك، أو أطهو لأحـد ليتذوق طعامي كما فـعل بورغياس، أو أن أفقد عقلي، ويخيّل إليّ أنني في فيلم عن هيتشكوك في كلّ مرّة أدخل فيها إلى الحمّام.

لا، سنكون أفـضل حـالاً لو بقيـنا كمـا نحن، صـديقين محبين، متآمرين سريين، حبيبين شديدي الحرص.

دعني أقول لك شيـئاً يا نيكولاس. لا أريد شيئـاً أكثر من أكون رفيـقة لسياسي لا تعنينـي عواطفه الشخصـية. يمكنني أن أنقذك من مخـاطر الحبّ. فمعي لا تضطر لأن تكون مـدعياً، كمـا كنت تفعل مثل دوليسـيا المكسيكيكة، مـاريا دل روساريو غالبان.

يصـعب أن تتبـوأ السلطة وأنت تعرف أنه من المـستحـيل ممارستـها بأسلوب هاديء وموضـوعي. فالسلطة تخـضع دائماً للعاطفـة، والمتعـة، والألم، والحبّ، والخوف. وكمـا تعرف، فإني شديدة الإعجاب بهذا القدر الكبير من المعرفة والخبرة التي تمكنت من اكـتسابهـا، وقد أتيت من حيـث أتيت. ولا عجب أنك تستشهد بأولئك الفلاسفة اليونانيين دائماً. «القوة عبد لكلّ شيء آخـر» (بروتاغـوراس؟ اسم جمـيل. لو أنجـبنا أنا وأنت طفـلاً.) لكنني أعيش لقـدري، وللسنوات التي خلّفـتهـا. لا توجد لديّ ادعاءات تتعلق بالسلالة مثل صديقك «اليد السوداء» بيداليس وأبنائه الأشرار التسعة. لا أستطيع أن أنتظر لأرى كيف

يمكنك أن تسوي الأمور معه! أما بالنسبة لي. . . فلا أجد ضرورة لكي أخضع نفسي لأهوال الحميمية الزوجية. إني لست بحاجة إلى رجل. لأني سأفقد استقلاليتي. سأسحقك، ألا ترى ذلك؟ بروتاغوراس بالديبا تارديغاردا؟ أم مجرد بروتاغوراس لابات العجوز فقط؟ قد تكون أسماء من فيلم كوميدي من أفلام جوكين بارداب. الآن هناك اسم: بارداف. لا! نيكولاس لاكساتيبا!

معي لن تجازف بهذه المخاطرة. سأحميك من جميع الأفخاخ يا نيكولاس. سأحميك من الآخرين وسأحميك من نفسك.

أحبّ الطريقة الباردة الفعالة التي تضاجعني بها. يقولون إن جميع الشابات جميلات. ليس أنا. أظن أني تعلّمت كيف أعوض عن عدم جمالي بالموهبة، وأن أجعل شخصيتي جذابة أكثر من قبحي. أريدهم أن يحسدوني على شخصيتي، لا على وجهي.

وأنت، هل أنت وسيم؟ من هو الوسيم جداً عندما يأتي الوقت عندما يكشف عن روحه ويواجه حقيقته، وسرّه، وإثمه؟

كم نحن محظوظان لأنه لا توجد لدينا، أنا وأنت حميمية نتذكرها. لا توجد لدينا لحظات ضحك مشتركة، إفضاء

أسرار، عناق. لا شيء من هذا الهراء. إن ما لدينا هو سياسة.

إن ما لدينا هو العزم على أن نبقيك في السلطة أكثر من السنوات الثلاث التي يقر بها القانون. ثلاث سنوات. يجب أن تكون هذه فترة كافية، إذا لعبنا أوراقنا بصورة صحيحة، أن نعدّل الدستور ونسمح بإعادة الانتخاب. وقت كاف إذا حافظنا على الطاقة القانونية والمرونة العملية. إذا اخترنا الضحايا الملائمين الذين سنضحي بهم : غالبان وهيريرا (لا أعرف إن كان ذلك يبدو مثل علامة تجارية أو قصة مصوّرة بالرسومات). إذا حافظنا على واجهة الجدية والمصداقية.

تقدّم بحذر يا نيكولاس. تذكّر أن الحماقة أدت إلى تحطيم حكومات أمريكية لاتينية أكثر مما حطمه عدم الكفاءة أو الجريمة.

ساحرة مكسيكية اكتشفت عظام إحدى عضوات الكونغرس التي اختفت في حديقتها، لكن تبين أن هذه العظام هي عظام جدّها، أو شيئاً من هذا القبيل. (كان ذلك منذ زمن بعيد).

ساحرة أرجنتينية تتخذ قرارات عن راقصة ملهى صعدت إلى سدة الرئاسة. (حدث ذلك قبل ألف سنة).

رؤساء البيرو والبرازيل والأرجنتين يتحدثون عن نزاعاتهم الزوجية علناً.

رقص أحد رؤساء الإكوادور على موسيقى الروك وهيلا هوب حول قضيب رجل أمريكي ثم خصته جوديث كويتو النهمة.

كلّ ذلك إزاء خلفية الفساد الواسع الانتشار، والقروض الدولية التي ينتهي بها الأمر في الحسابات المصرفية السويسرية، وحملات زرع الرعب، والتعذيب، وجميع فلاديميروس هؤلاء... كيف يمكن أن تصبح أمريكا اللاتينية محترمة؟ كيف تتفادى أمريكا اللاتينية السخرية، والفضيحة، والإدانة، والإذلال؟

بحصافة وحذر، يا سيادة الرئيس. بحرية وديمقراطية. بأفق مفتوح أمام الفرص. بالكلمات العظيمة التي قالها العبقري السياسي الأعظم في العصر الحديث، بونابرت: «دع الدرب مفتوحاً أمام الموهبة».

يُسمح للشخص أن تكون له خلفية غامضة. إذا كنت تريد شيئاً من العزاء بعد قراءة هذه الرسالة التي لا تدعو للرثاء وكتبها صديق يجد العزاء دائماً في الحقيقة، أقدم لك هنا سجلين آخرين من سجلات الشرطة لكي تطلع عليهما.

شيكيلغروبر، أدولف، المعروف بهتلر. ولد في براونو، النمسا، عام 1889. كان عسكرياً برتبة عريف في الحرب العظمى. متشرّد في شوارع فيينا. أقام في ملجأ للمشردين.

انضم إلى منظمة يمينية متطرّفة. كسب أتباعاً بسبب خطاباته الحماسية المعادية لليهود والماركسية. شارك في محاولة انقلاب فاشلة في ميونخ، عام 1923. قدم للمحاكمة بتهمة الخيانة وحكم عليه بالسجن لمدة سنتين في سجن لاندسبيرغ، حيث كتب كتابه «كفاحي». مهووس بتفوق العرق الآري والقضاء على اليهود الطفيليين.

جوغاشفيلوسيف فيسيارونوفيتش، المعروف بستالين، كوبا سوسو. ولد في غوري بجورجيا عام 1879. سُجن في إركوتسك سنة 1900، وفي معسكر فولغودا في عام 1908. اقتحم البنك الحكومي في تيفليس في عام 1907. ألقى خطابات معادية للسامية. يطلق على اليهود اسم «أبناء يهوذا المختونين».

لن أسرد عليك التفاصيل الدنيئة التي قام بها هذان المستبدان. يكفي القول إن خلفيتيهما لم تكونا متواضعتين فقط، بل إجراميتين كذلك، ومع ذلك لم يشكل ذلك عقبة أمام صعودهما. كان كلّ ما تعين عليهما أن يفعلاه هو أن يزيفا شخصيات جديدة. كيف يمكن لشخص تافه متشرد يدعى شيكيلغروبر أن يسيطر على ألمانيا وعلى باقي العالم؟ كيف كان بإمكان سارق بنك يدعى كوبا أن يهيمن على روسيا وباقي العالم؟ كيف سيصبح سفاك كاتالاني الصغير الذي يدعى نيكو لابات رئيساً للمكسيك؟

نعم، يُسمح للمرء أن تكون لديه خلفية يشوبها الغموض. إن الوشاح الرئاسي أشبه بالمنظّف. إنه ينظّف ويجعل كلّ شيء يلمع. صحيح أن عرش النسر يرفع صاحبه، لكن «لا يستطيع أحد أن يجلس أعلى من مؤخرته»، كما يقولون. إنك لست أسوأ من منعم أو من فوجي موري. إنك تعرف من أية أعماق خرج منها هتلر وستالين، وكانا يتمتعان بقوة أقوى من القوة التي تحلم بها، يا سيادة الرئيس. أكثر بكثير.

لكنهما كانا حريصين على التخلص من أولئك الذين مهّدوا لهم الطريق. شركاء هتلر في محاولة انقلاب ميونخ الفاشلة. ورفاق ستالين الشيوعيين بعد وفاة لينين ورغم تحذيرات لينين («توجد لدى الرفيق ستالين سلطة غير محدودة ولست واثقاً من أنه سيمارسها بشكل صحيح»). الآن هل عرفت لماذا أرفض أن أستحمّ في حمّامك؟

حسناً. هراء، كما كانت جدّاتنا تقول: لندفن أحقادنا وننسى خصوماتنا، يا سيادة الرئيس. إن الحقيقة المجرّدة هي أن السياسة احتفال بربري. كلّ أزتي يطعن خنجره في صدر جاره التلاكسكالتيكاني، والعكس بالعكس. وها نحن، أنا وأنت، نجلس في أعلى الوليمة، نشاهد قبائل أتيلاس من الهنود الحمر يضرب أحدهم الآخر حتى الموت. أنا وأنت، يا عزيزي نيكولاس، رسولا التحكم بالنفس والتوسط.

التــحكــم بالنفــس، يا نيكولاس. إذا أردت أن تــكسب عدواً، أره أنك أشد حدّة منه.

الحذر والحصافة، يا نيكولاس. لا تســمح لتصرفاتك التي لا مفر منها المتعلقة بالسلطة غير الشرعية بأن تظهر إلى الملأ.

التواضع، يا نيكولاس. لنرض بالأفضل فقط.

إن السلطة قــدر هائل من الرغـبـات والقمــع، المخالفــات والدفــاعات، لحظات تضــيع وتكتــسب. إننا الحــساب الســري لحســاباتنا. ويجب أن أكرّر: لا يمكنــنا أن نسمح للأشــياء التي يجب أن تبــقى سرية أن تظهر إلــى العلن. حتى لو كــان السرّ نســبيــاً. من الغــباء الظن أن الشــيء الذي يحدث لشــخص لا يحــدث لشخص آخــر. فكلّ شيء يحدث يحــدث في الوقت نفــسه لملايين الناس الآخــرين. لا تنس هذا أبداً. صن الســرّ. لكن تذكّر قــوتنا. جميــعنا بشر، وجميــعنا الشيء ذاته. ينسى رؤســاؤنا ووزراؤنا في غــالب الأحيــان هذه الحــقيــقــة. لكننا سياسيون، لأننا لسنا مثل الآخرين تماماً. يا له من عزاء تعس، أعرف! وياله من تناقض مزعج!

لا بد أنك ستثير الحسد. فالجميع يريدون أن يكونوا قريبين من الرئيس لأن الجميع يريدون أن يــتمتعوا بامتــيازاته. أما الآن فــيــجب أن نتــصــرّف وحــدنا، يا عــزيزي. حــوّل كلّ شيء لمصلحتنا. لكن احــذر عندما يتعلق الأمر بنقاط ضــعفنا. أقول

هذا لأني امرأة. فالنساء تكره إحداهن الأخرى، إنك تعرف ذلك، وهن يعرفن جيداً كيف يخفين كراهيتهن. أما الرجال، فهم يحبون بعضهم بعضا، ويتعلّمون كيف يخفون عواطفهم. مزايانا هي مكمن ضعفنا، في كلتا الحالتين.

والآن هناك رجل يحبّك كثيراً إلى درجة أنه سيقتلك، وأنت تحبّه كثيراً إلى حد أنك لا تستطيع أن تقتله. إنه خسوس ريكاردو ماغون.

قرّر، يا نيكولاس. لا أستطيع أن أقدم لك أيّ نصيحة. إن السياسة هي التعبير العامّ عن العواطف الخاصة والرغبات الحبيسة. هل توجد سياسة عامة بدون عواطف خاصة؟ في هذه المرحلة من اللعبة، هل يجب عليّ أن أكرّر ما قاله ذلك الشخص الذي يحمل اسمك من فلورنسا؟

أن يخشاك الناس أكثر أماناً لك من أن يحبوك بكثير... إن ما يربط الحب سلسلة من الالتزام، ولأن الرجال أشرار، فإن هذه السلسلة تتحطم عند كلّ فرصة، أما الخوف فيربطه الخوف من العقاب الذي لا يتخلى عنك مطلقاً.

لذلك يجب على الأمير أن يكون مهاب الجانب وأن يخافه الناس بحيث، إذا لم يكتسب الحبّ، فإنه يتجنب الكراهية.

اختر كلماتك بدقة. لا تدع كلمة واحدة لا يمكن أن تُفسَّر بأنها هبة، نزاهة، إنسانية، استقامة، أو شفقة تخرج من

شفتيك. إن الناس يحكمون بما يرونه أكثر مما يفهمونه.

اختر كلماتك بدقة. لقد تحدث موسوليني كلاماً سيئاً عن نائب مستقل آخر من اليسار الإيطالي، ماتيوتي. وما إن سمعه مساعدوه وأتباعه حتى انطلقوا وقتلوا ماتيوتي. لقد قويت شوكة الدكتاتور الفاشي. بسبب هفوة شفوية. كم كان أوبريغون حكيماً عندما قال: «يجب على الرئيس ألا يقول شيئا سيئاً عن أحد».

جهّز كلماتك الأخيرة، يا نيكولاس. «نور، مزيد من النور»، من ناحية، «وليأت من بعدي الطوفان»، من الناحية الأخرى. كلمات قالها إنسان متحضر، وكلمات قالها ملك (لويس الخامس عشر). لكن لا تدع الأمر ينتهي بك كما انتهى بألفارو أوبريغون المذكور أعلاه، أفضل ضابط عسكري في تاريخ المكسيك (لماذا لم يأت في عام 1848 بدلاً من ذلك الخائن ذي الساق الواحدة سانتا آنا!)، أوبريغون، الرجل الذي هزم بانشو فيلا، الاستراتيجي والسياسي اللامع، الذي قتله متعصّب ديني في مأدبة عندما مدّ يده ليقول: «المزيد من رقائق التورتيلا من فضلك...»

المزيد من رقائق التورتيلا. لا تدع هذه الكلمات تكون كلماتك الأخيرة. لماذا قتلوا أوبريغون؟ لأنه أراد أن يُنتخب مرة أخرى. يجب أن تكون قادراً على أن تقول: «نور، المزيد من النور» إذا فزت و«ليأت من بعدي الطوفان» إذا خسرت. لكن لا

تقل على الإطلاق، وأعني ألا تقول: «المزيد من رقائق التورتيلا»، لأن ذلك سيكون مصدر إحباط لي. إني أكره أن أراك تعود إلى شوارع مرسيليا الخلفية مرة أخرى. سأقول ما قاله بيرنانوس عن هتلر: لقد اغتصب المكسيك مجرم وهي تغط في النوم.

تخلص من رقائق التورتيلا يا نيكولاس. إن معلوماتي شاملة. في عام 2011، كان الملحق العسكري للسفارة المكسيكية في فرنسا الجنرال موندراغون فون بيرتراب، الذي قدم لك أوراق هويتك الرسمية. لقد اخترع تاريخ حياتك. زوّر وثائقك. كلّ شيء موجود في خزانتي في الكونغرس.

لقد تخلصت من رقائق التورتيلا الصغيرة. تاسيتو دي لا كانال. أندينو ألماسان. بيبا زوجته. الجنرال سيسيرو أروسا. الرجل العجوز. تلك المرأة الباكية في مقابر فيراكروز، الآنسة مونتيري الصغيرة، دولس دي لا غارزا. وشبح هذه الأوبرا، توماس موكتيزوما مورو. ولم يبق الآن سوانا، أنا وأنت، يا نيكولاس. وظلّ يخيم فوق حياتنا. الجنرال موندراغون فون بيرتراب.

يجب أن نتصرّف بسرعة. نم مبكراً، تستيقظ مبكراً. هذا يصح إن كنت تعمل خبازاً. يجب على السياسي أن يستيقظ في وقت أبكر من الليلة الفائتة أحياناً؛ وإلا فقد يصبح أو تصبح ضحية يقظة فظة.

اطمئن تماماً بأنّ كلّ شيء قلناه سيبقى فيما بيننا نحن الاثنان. فكما يقولون لا يقرأ الغجري بخت غجري آخر. وفي جميع الأحوال، فأنا لست مقتنعة بكلّ هذه التقارير عنك. إنها محض خيال. إني أثق بك. لا أصدق ما يقوله أعداؤك. إن ذلك كله مجرد تخمين. وإذا ظهر أي شيء منه إلى النور، فإننا سنتّهم ماريا دل روساريو غالبان وبيرنال هيريرا بتهمة التشهير والافتراء. تذكّر ما قاله الرئيس السابق سيزار ليون لأعدائه: «لن أعاقبكم. سأشوّه سمعتكم وأحطّ من قدركم».

اعتمد على إخلاصي وولائي لك. ولا تكف عن حساب نسبة التكلفة مقابل كلفة الخداع.

66

من الجنرال موندراغون فون بيرتراب إلى نيكولاس بالديبا

للسبب نفسه الذي لم يعد ضرورياً الآن، أكتب إليك هذه الرسالة. وقد تظنّ أنني أرغب في أن أكتب هذه الرسالة، لا لكي أتواصل معك، بل لأترك دليلاً موثقاً. ولا بد أن الآخرين قد أخبروك بأنني حصلت على علومي العسكرية من كليات عسكرية رفيعة الشأن وذات مستوى ثقافي عال. إن كلية Hochschule der Bundeswehr في ألمانيا هي كلية عسكرية رائعة. فلا يمكن لأي طالب أن يغادر تلك الكلية دون أن يدرس يوليوس قيصر وكلوسيويز (من الواضح)، كما يُطلب من الطلاب أيضاً دراسة كنط ليتعلموا كيف يفكّرون، وشوبنهاور ليتعلموا كيف يشكّون. كما أن الأكاديمية العسكرية المكسيكية الموقرة مؤسسة ممتازة. ففي حين يتعلم المرء في ألمانيا كيف يناضل لينتصر، يتعلم المرء في المكسيك كيف يتحمّل الهزيمة.

لكن يجب ألا نخدع أنفسنا. فلا يزال بين ظهرانينا رجال مثل أروسا. لا يزالون أحياء يرزقون في المكسيك وفي ماضيها البربري، نذيرو مستقبلها البربري. إنهم يقبعون تحت أرض بلادنا على أعماق شديدة.

أما الضباط المكسيكيون المتعلّمون فهم شيء آخر تماماً، إلا أن كلّ جزء منهم حقيقي مثل حقيقة الهمج المتوحشين. ففي كلّ علاقة إنسانية هناك معركة بين الحقيقة والأكاذيب. وقد لا نستطيع أن نجيب عن السؤال «ما هي الحقيقة، ما هي الأكاذيب؟» إذا لم نطبّق المعايير المطلقة والنسبية. فعلى سبيل المثال، إن أول شيء يعلمونك إياه في مناهج الاستراتيجية العسكرية أن تشكّ بالمعلومات التي تتلقاها.

هل تعرف الأغنية القديمة منذ أيام الثورة، "Valentin de la Sierra" ؟

يسأله الكولونيل

كم رجلاً معك؟

ثمانمائة جندي

قادهم ماريانو ميا عبر الجبال.

سواء كان ذلك صحيحاً أم لا؟ هل يجب على هذا الكولونيل أن يقبل اعتراف الضابط الأسير، أم يجب أن

يستجـوبه؟ كيف ستُعـرف الحقيقـة؟ قد تكون الحقيـقة عنيدة، حذرة، كما تظهر الأغنية في الأبيات التالية:

فالانتاين، لأنه رجل حقيقي، لم يخبرهم شيئاً.

وهكذا، لا يبوح فالانتـاين بأي معلومات، ويدّعي الرجل الآخـر أنه يوجد ثمـانمائة رجل تحت قـيادة مـاريانو. آه، لكن فالانتاين، لكي يـكمل قافيته الرباعـية، أضاف شيئـاً زاد الحيرة والبلبلة أكثر:

وأنا واحد من الرجال الحقيقيين

الذين اخترعوا الثورة...

مـاذا فعل الضـابط بكلّ هذه المعلومات؟ إذا صـدق قصـة «ماريانـو» حقاً، فـيجب عليـه أن يثبـتهـا أو أن يعرض نفـسه للفشل. يسـتطيع أن يفسـر صمت فالانتـاين بأنه دليل على أن «مـاريانو» تلفـيق. لكن «فالانتـاين» يعطي المعلـومات انعطافـاً إيديولوجياً غـير متوقع عندمـا يقول إنه أحد الرجال الحقـيقيين الذين «اخترعوا الثورة».

سواء كانت صحيـحة أم خاطئة، يجب أن تعني المعلومات شيئاً. قد يفترض الضابط المسكين الذي يطرح الأسئلة أن حقيقة «ماريانو» موضوعـية عندما يستخدم اقتـراحاً واحداً في الحديث عن الشخص الآخر، «ماريانو ميبا». لكن فالانتاين دي لا سيرا

لا يفعل ذلك. إنه يتحدث عن الاقتراح بنفسه: إنه أحد الرجال الحقيقيين الذين اخترعوا الثورة.

وهنا تكمن الصعوبة في اتخاذ القرارات يا نيكولاس، بالالتزام بالقاعدة الصلبة بمعرفة ما هو صحيح وما هو زائف. ولحسن الحظ أن بعضاً منا، ضباط الجيش، مدينون بقانون يوجه سلوكنا. إلى نقطة محددة، بالطبع. لأنك حتى عندما تنفذ القانون حرفياً، فإن تناقض الكذبة هو أن ما نقوله لا يكون صحيحاً إلا إذا كان كذباً.

هذا ما أريدك أن تفهمه يا نيكولاس. في هذه الرسالة سأعترف بكذبتي فقط لأبرر حقيقتي.

ربما ينبغي أن يكون معيار قول الحقيقة هو هذا السؤال: «إذا قلت الحقيقة، سأكون مصدر ألم أم راحة؟»

إن الكذبة صحيحة لأنها ذات معنى. أما الأشياء التي لا معنى لها فلا يمكن أن تكون خاطئة. لهذا السبب، فإن معنى الحقيقة ما هو إلا جزء واحد مما تخفيه الحقيقة تحت سطحها. إن الأكاذيب هي نصف الحقيقة. أما الحقيقة فنصفها أكاذيب. لأن كلّ ما نفعله أو نقوله يا نيكولاس، هو جزء من علاقة لا تستطيع أن تستبعد نقيضها. وبصفتي مثقفاً مثلاً، يمكنني القول إن كلّ شيء مخلوق هو صحيح. حتى الأكاذيب.

أما بصفتي رجلاً عسكرياً، فلا أستطيع أن أمنح نفسي هذا الترف. لا يمكنني أن أعتبر أن الحقيقة هي ترابط وتطابق القواعد التي تحكمنا. لكن حتى عندما أطيع القواعد حرفياً - أي كما يحددها كتاب القواعد - لا يزال يعتريني شكّ، سرّ، صدع في روحي. لا يمكن تحويل الحقيقة إلى شيء ممكن إثباته. إن الحقيقة هي الاسم الذي نمنحه، في نهاية الأمر، إلى الرسائل المتبادلة بيني وبين شخص آخر.

تلك الرسائل هي التي تجعل حقيقتي نسبية.

تمعّن في هذه الأمور من الزاوية المعاكسة:

متى تُبرّر الأكاذيب؟

متى تجلب الأكاذيب الفرج، بدلاً من أن تسبّب الضرر؟

إن كلّ وجود يكمن في حقيقته، لكن دائماً في الرسائل في حقيقة الآخر. وقد تحوي كلّ كذبة على حقيقتها الخاصة، إذا حمتها الحقيقة العليا الأخرى، التي هي حياته...

عندما ولدت في إحدى العيادات في برشلونة (ليس في مرسيليا كما تعتقد بولينا تارديغاردا المنكودة الحظ) في 12 كانون الأول 1986، أرسلت إلى المنطقة العسكرية في سيوداد خواريس، بعيداً عن أمّك. كانت قد تزوّجت آنذاك، وكان الجميع يعرفون أن زوجها عنين، وأن حبيبها العجوز رجل

عـاجـز. لذلك لا بد أن يكون أبو ابنهـا رجـلاً ثالثـاً. كـانوا يعـاملونها وفـق عادات الطبـقـة الراقيـة السـائدة في المجتـمع المكسيكي، كما لو كانت شابّة غير متزوجة وقد حملت. وقبل أن تلد، مكثت في دار للأمومة تديره راهبات في ساريا.

لم يكن بوسعي أن أكـون معها. كنت شـاباً صغيراً جـبانًا أكثر من كوني لامـبالياً، وكنت عاشقاً أكثـر مما كنت لا مبالياً. كان عليّ أن أمـتثل للانضباط الـعسكري في تشيهـواهوا. كان ذلك عذري. كانت تلك نقطة جـبني. كان يجب أن أكون إلى جـانب أمّك في برشلونة، كـان يجب أن آخذك، أن أجـعلك ابني مـنذ اليـوم الأول... احكـم عليّ، أدني، لكـن دعني أعوّض عن الوقت الضائع بيننا، دعني ألوي عنق القدر وأستردّ الآن كلّ مـا كـان يمكن أن يكون، لكن الأمـر لم يكن كـذلك على الإطلاق.

كانت عائلة أمّك خطـيرة للغاية. إذ كانت عشـيرة باروسو تسيطر على الحدود الشمالية مـن ميكسيكالي وحتى ماتامورروز. عائلة باروسـو، ليوناردو باروسو وأحفـاده، بمن فيهم حفـيدته ماريا دل روسـاريو باروسو غالبـان. وقد أصبحت الآن مـجرد غالبـان، مثل أمّهـا، لأنها كـانت تشمئـز من اسم عائلة أبيـها وجدها، باروسـو العجوز، الذي جـعل أمّك ميـشيلينا لابورد أكثر من مجرد عشيقة. كانت جاريته الجنسية. جاريته السجينة. لقد جـعلها تتـزوّج ابنه وهو فتى خجـول حسّـاس كان الناس

يقولون عنه إنه بسيط بعض الشيء. دم فاسد. لم يمسّ ميشيلينا قط. عاش وحيداً في الريف، في مزرعة مليئة بالأيائل وهنود الباكواش، هؤلاء «الهنود المحيون» من تشيهواهوا. وقد احتفظ ليوناردو باروسو العجوز بتلك المرأة ذات الجمال الآخاذ - أمك يا نيكولاس - لنفسه فقط، وهو يشعر بامتنان أكبر من أي وقت مضى لملايين باروسو بعد محاولة قتل الرجل العجوز على جسر بين خواريز وإل باسو. لقد تُخليّ عنه واُعتبر ميتاً. وانتهى به الأمر أنه أصيب بالشلل، وأصبح نصف جسمه السفلي عديم الفائدة. كُتب عليه أن يمضي بقية حياته على كرسي المعوقين، تماماً مثل أخيه، إمليانو باروسو، الزعيم الشيوعي. يا لها من عدالة خيالية! ليوناردو عاجز على كرسي للمعوقين، مركزاً كل طاقات عقله المنحرفة لإذلال ابنه، واحتقار زوجته، وحبس عشيقته في غرفة. كان لديه سليل آخر، ليوناردو الابن، طفل من زواج زوجته الأول الذي أصبح ابنه الثاني. هذا الطفل المُتبنّى كان والد صديقتك ماريا دل روساريو غالبان. وكان باروسو الأب شريراً جداً إلى حد أنه أخذ يحثّ أمّك على أن تصبح عشيقة ليوناردو الأب أيضاً، لكي يتمكن من التلصص عليهما ويتمتّع بالإثارة بالنيابة عن شخص آخر.

لذلك، ألم يكن من المنطقي أن ترغب أمّك، منذ خمسة وثلاثين عاماً، في أن تجد عزاء ومحبة لدى ضابط عسكري جذّاب صغير مثلي؟

أريدك أن تفهم، أريدك أن تعرف، أريدك أن تسأل نفسك: «في أيّ نقطة يصبح فيها الغياب أقوى من الوجود؟» ما الشيء الذي يجعل الغياب يثير عواطفنا إلى حدّ أن نفقد عقولنا؟

ومن الناحية الأخرى، في أي نقطة تجبرنا الضغوط الاجتماعية على أن نتخلى عن نور الحبّ ونهبط إلى الظلام، والقذارة، والرذيلة؟ وأخيراً، لماذا، بدلاً من أن نصل إلى وسط ذهبي، تقبع هذه العواطف الزائدة - الجوع من أجل الوجود، رذيلة الهجران - في وسط شرير في منتصف النسيان؟ بل الأسوأ، اللامبالاة؟

لم يعد بوسع ميشيلينا لابورد أن تعود إلى أحضان عائلة باروسو القوية، التي كان جميع أفرادها شخصيات هامة، مع فتى نكرة مثلي. لذلك عادت إلى الحدود لتحمي سرّها وفق العادات السارية في العائلة. كانت «تمضي إجازة» في أوروبا. تزور المتاحف.

لم أرها ثانية قط. لقد ماتت بعد ذلك بفترة وجيزة. أظن أنها ماتت من شدة الحزن، ومن ذلك الحنين إلى المستحيل الذي كان ينتابها أحياناً عندما تعرف أن ما كنت ترغب فيه قد يكون ممكناً.

كنت قد أُعطيت إلى أسرة كاتالانية باسم لابات، التي منحها آل باروسو قدراً من المال من أجل دراستك، لكنهم لم

يفعلوا ذلك، وأنفقوا المال على متعهم الحياتية التافهة، ودفعوا بك إلى الشارع وإلى حياة الجريمة التي كانت مدرستك الحقيقية، يا نيكولاس. بدأ ذلك عندما كنت طفلاً في برشلونة، واستمر ذلك في مرسيليا، التي انتقلت إليها أسرة لابات، التي كان أفرادها عمالاً مهاجرين، وأنت في العاشرة من عمرك.

لكن ثمة شيئًا فيك، ربما كان ذلك الحنين إلى المستحيل، دفعك في عمر مبكّر نحو المجازفة، لكن أيضاً نحو الرغبة في أن تشحذ عقلك، ذكاءك، طموحك، أن تصبح أكثر مما كنت، كما لو كان دمك ينادى حقيقة نسبك المحتوم، الغامض، الذي أضاء فجأة على نحو غريب وبشكل نادر في مخيلتك. لقد تعلمت وسط القذارة والبؤس، في الشوارع، في الجريمة، بانضباط لحاجتك في البقاء، وبإيمان عميق بأنك لن تصبح ذات يوم شخصاً مهماً فقط، بل أنك كنت للتو شخصاً مهماً، ابناً حُرم من الميراث، طفلاً سُلب منه تراثه. طحلباً. شيئاً. ابن شيء مهم. رجلاً من سلالة نبيلة.

لم تكن مجرماً أعمى. كنت طفلاً ضائعاً بعينين مفتوحتين على وسعيهما على قدر مختلف - لم تكن طفلاً غير محظوظ - قدر صاغه نسبك المجهول والمستقبل الذي كنت تتوق إليه.

لم أنسك يا بني. لم أكن أعرف من كنت. كنت أعرف أن

حبيبتي ميشيلينا الجميلة كانت قد أنجبت طفلاً في أوروبا. فعندما عادت إلى تشيهواهوا، استطاعت أن تكتب لي رسالة صغيرة:

أنجبنا طفلاً يا حبيبي. ولد في برشلونة في 12 كانون الأول 1986. لا أعرف الاسم الذي أطلقوه عليه، أعرف أنهم وضعوه بين أيدي عمال. سامحني. سأحبّك على الدوام - م.

كان العثور عليك أشبه بالعثور على إبرة في كومة من القش كما يقول المثل. لكن طموحاتي المهنية، مهنتي في القوات المسلحة، هي التي طغت عليّ. مناصبي داخل المكسيك وخارجه. ثم عُيّنت ملحقاً عسكرياً للسفارة في باريس، وكانت صلاحياتي تشمل سويسرا وبلجيكا وهولندا ولكسمبورغ أيضاً. كان ذلك عندما وجد ملف معين طريقه إلى مكتبي، ملف عن شابّ يدعيّ أنه مكسيكي وكان قد أودع السجن في جنيف بتهمة التخطيط مع أفراد عصابة للسطو على البنوك.

زرتك في ذلك السجن في جنيف. كان شعرك طويلاً آنذاك. تجمدت في مكاني. كنت أرى أمّك بجسد رجل. كنت أكثر سمرة منها، لكن ذات الشعر الأسود الطويل المسترسل. قسمات متشابهة تماماً. وجه كلاسيكي من أمريكا اللاتينية من أصول أوروبية. في البشرة لمسة متوسطية، من الزيتون والسكر المصفّى. عينان سوداوان كبيرتان (في حالتك خضراوتان،

بسببي). دوائر داكنة تحت عينيك، عظام الوجنة مرتفعة، منخران عصبيان. وتفصيل صغير كان توقيع أمّك: وهو الذقن ذات الغمازة. الشقّ العميق تحت شفتك السفلى.

من غيري يمكنه أن يلاحظ هذه التفاصيل؟ من غير أبيك؟ من غير حبيب أمّك الذي أرقّه النوم، الذي كان يحاول أن يعوض الزمن الضائع بأن يظل مستيقظاً متذكراً وجهها النائم؟

لقد استجوبتك، محاولاً أن أظل متماسكاً وأحافظ على هدوئي. جمعت الخيوط معاً. كنت أنت. تاريخ ميلادك، شكلك الجسدي، كلّ شيء ملائم. أعلنت أنك مكسيكي وسددت مبلغ الكفالة لإخراجك. وبشكل رسمي بدأت أرعاك، لكنني طلبت منك - لقاء شهادتي - أن توافق على أن تدرس لفترة في جامعة جنيف. لكن السويسريين كلاب. فقد طردوك لأنه تبين لهم أن وثائقك السابقة مزورة.

وتدخّلت للمرة الثانية، يقودني قلبي لكنني كنت أحاول أن أفكّر بعقلي. فكما ترى، لم أشأ أن أعرّض منصبي للخطر. أليس من المهم أن يكون بوسعي ممارسة شيء من النفوذ؟ فأحضرتك معي إلى باريس وسجّلتك كطالب في كلية الإدارة الوطنية وطلبت منك أن تقرأ كلّ شيء، أن تتعلم كلّ ما يمكنك أن تتعلمه عن المكسيك، وبدأنا نمضي ساعات طويلة معاً حتى ساعة متأخرة من الليل، وكنت تنصت إلى كلّ ما أحكيه لك

عن المكسيك، بلدنا، تاريخنا، عاداتنا، حقائقنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومن فعل ماذا، الخطابات، الأغاني، الفولكلور، كلّ شيء.

مما قرأت عنه وتعلمته مني، عدت إلى المكسيك وأنت أكثر مكسيسكية من المكسيكيين. كان ذلك الخطر، أن يتم اكتشاف تزييفك. فأرسلتك إلى الحدود، إلى سيوداد خواريز، لمدة خمس سنوات. وبمساعدة السلطات هناك، زوّرت أوراقك، وغيّرت مكان ولادتك من كاتالونيا إلى تشيهواهوا. كلّ شيء في مكتب السجلات العامة في سيوداد خواريز: ابن لأب مكسيكي وأمّ من أمريكا الشمالية. وكان من السهل تزوير وثائق أبويك المتخيلين أيضاً. وكما تعرف، فإن الجميع يفعل ذلك في المكسيك. إذا لم تخدع فإنك لا تنجز شيئاً.

عندما أصبحت وزيراً للدفاع أثناء رئاسة لورينزو تيران، ازددت ثقة فأحضرتك، جعلتك قريباً مني، وبدأت أرسلك لكي تسلّم مراسلاتي، خاصة إلى وزارة الداخلية، حيث التقيت بماريا دل روساريو غالبان. ما حدث لاحقاً كان أمراً محتماً. إن ماريا دل روساريو تُغرم بالشباب الجذّابين. وإذا خيّل إليها أنها تستطيع أن تعدّهم سياسياً، فلا بد أن تقيم معهم علاقة غرامية. إنها ببجماليون طبيعية ترتدي تنورة.

كانت تعرف أن الرئيس مصاب بسرطان الدم المميت. وبصفتي رئيساً للأمن القومي، كنت أعرف ذلك أيضاً. كان من

واجبي أن أعرف. ولعب كلّ منا لعبته الخاصة به. جعلتك تظن أنها تضع كل ما تملك لتصبح رئيساً. وأصبحت الآن تعرف الحقيقة. الرئيس، نعم، لكن لفترة قصيرة فقط بعد وفاة تيران، فترة كافية للإعداد لحملة هيريرا وانتخابه. وللقيام بذلك، يجب أن نتخلص من مجموعة كبيرة من الشخصيات. «المشتبه فيهم العاديون»، كما يقولون في الأفلام. تاسيتو دي لا كانال، سيزار ليون، أندينو ألماسان، الجنرال سيسيرو أروسا. كان علينا أن نتفوق في خداع ذاك الرئيس السابق الآخر، الرئيس في فيراكروز وأن نفشل المؤامرة التي حبكها والتي تشمل سجينه السري في قلعة أولوا. كان علينا أن ننظر في الحوادث العاطفية لامرأة الميناء الباكية، دولس دي لا غارزا؛ لكن تهدئة النساء أمر في غاية السهولة، وخاصة عندما يكن بسيطات العقل ومغرمات مثل دولس دي لا غارزا، أو مدبرات المكائد بغباء وفاسقات ببلادة مثل جوزفينا ألماسان، أو ذكيات - ربما كنّ ذكيات إلى درجة أنهن يلحقن الضرر بمصالحهن - مثل بولينا تارديغاردا، امرأة لن تسمع منها ثانية، أؤكد لك. تفصيلاً شخصيًا، بل ربما حتى تفصيلاً رومانسيًا: رفاق بولينا الوحيدين المحتملين وهي مقيّدة من ساقيها إلى خزنتها، توجد أسماك القرش في قاع البحر.

لا، لا ينقصها الماء الآن، صديقتك المريبة بولينا تارديغاردا، التي تحفظ أسراراً كثيرة، التي حوّلتك إلى ضحيّة

ابتزاز. تعلّم ألا تثق بأحد. حتى بي، أنا أبوك، يا نيكولاس. ولا تبكي على بولينا. فأسماك القرش في خليج المكسيك ستلتهمها، لكن قلبها سيبقى حياً. من ميزات القلب المسمّم أنه محصّن من النار والماء. إذا كان ثمة أيّ عزاء، فكّر كيف سيعيش قلبها، مثل شرنقة من الدم في قعر البحر.

لا تزال توجد نهايات مفككة يا بني، إلا إذا كنت قد نسيت. أن يتحرر صنيعتك، خسوس ريكاردو ماغون، من الأوهام بأنه لم تعد لديه ميول فوضوية أو قاتلة. لقد رحلّته بتهمة تهريب المخدرات. إنه في السجن في فرنسا. ما إن وطأت قدمه خارج الطائرة حتى ألقى القبض عليه أعضاء من الشرطة الفرنسية الذين كنت على اتصال بهم. لا تقلق. لقد دفعت ثمن تذكرته، من الدرجة الأولى. ويظن والداه، دون كاستولو ودونا سيرافينا، بأنه ذهب إلى أوروبا للدراسة. إنه شاب صغير! إنهما لا يكفان عن شكري على «المنحة الدراسية» التي جلبتها له بناء على تعليماتك. وحصلت الآنسة آراسيلي الآن على اشتراك مدى العمر في مجلة iHola! ومنذ تزوجت (أو بالأحرى، كنت حريصاً على أن تتزوج) هوغو باترون، السعيد بحانة الديسكو التي يديرها الآن في كانكون.

ثم هناك مسألة منافسينا الرسميين، ماريا دل روساريو غالبان وبيرنال هيريرا.

إن حساباتهمـا صحيحة. إذ سيفـوز هيريرا في الانتخابات الديمقـراطية التي ستجـري في تموز 2024. لا يمكن لأحد أن يتفوق عليه. وقد أصبـحت الآن خارج الترشيح بسبب منصبك الحالي. لا توجد ثمة طريقة تستطيع بها أن تفوز.

خلال أربع عشرة سنة، من العشرين إلى الرابعة والثلاثين، حصلت على تعليم ممتـاز، بفضل موهبتك الـطبيعية وتـوجيهي وتعليمي لك. لكن عليّ الآن أن أسدي لك نصيحة. لا تنضج قبل الآوان. لا تكشف عن ألوانك الحقيـقية بأن تضيء بإشراق شديد وعلى نحو زاه الآن. تذكّر كيف حاول الرجل العجوز أن يخدعـك عدة مرات : حـرب الفطائر مـابي كورتيس، رقـصة الكونغا، بيم-بام- بم؟ لم يكن عندك سـبب لتعرف شيـئاً عن مـابي كورتيس أو رقـصة الكونـغا. لكن كـان يجب عليك أن تعـرف عن حـرب الفطائر. كن حـذراً. لا تغـالي في تقـدير تعليمك الجـديد. لا تعطي أحداً سبباً ليـخدش سطحك المطلي بالذهب ويكتشف أن تحته معدناً خسيساً. لا تمنح الآخرين سبباً للغيرة. لا تتحدث عن تعليـمك. راقب أي عمل غير شرعي. إن ذلك غيـر مبرر دائمـاً. إننا نفعل كل ما يمكننـا عمله لندعم قاعـدة سلطتنا. لكنه يجب أن يتـوقّف هناك. بعض الموتى بين الفينة والأخـرى؟ لكن عندما تسـتدعي الضرورة المطلقـة فقط. رأيت ما حـدث لسمعة أروسـا بسبب ذلك. كان مشـغولاً في التباهي بنشاطه الإجرامي ولم يتوقف عن التفكير بأن أحداً آخر

قد يتفوق عليه في لعبته هذه، بأن أحـداً سيقتل سيسيرو أروسا العظيم. ومـوروا - كـان يجب أن يُقـتل. لـكنك أخطأت في إرسال «اليـد السوداء» بيـداليس، إنه يحب الانتقـام وهو على قناعة بأن سلالته ستثأر له. لقد ظننت أنك تهدده بذنبك عندما أرسلته إلى ألوا. لا تصدق ذلك. فـهو الذي يمكن أن يهددك. سيسبب لنا قليـلاً من الصداع. ما يجب علينا أن نفكّر به الآن ما هي أفضل وسـيلة لتحييده. هدايا سـامّة، هذا ما يجب نقدمـها إلى تلك الأفعى. من الآن وصاعـداً، يجب أن نغويه إلى حدّ أن نجـعله يخلد إلى النوم. للسبـات الرئاسي فوائده، كما تعرف. تيران لم يعرف كيف يستغلّه. يجب أن تجد وسيلة لكي لا يعـرف الناس أنك رجل عنيف، احـرص على أن يتم أي عنف يمكن أن تلجأ إليـه باسم «العدالة.» واحرص على أن تبقي لحظة الحقيقـة بعيدة المنال. لكن لا تظنن للحظة واحدة أن العنف في المكسيك قد انتهى.

بنيّ، ابني المحـبوب. لا بد أنك تفهم عـمق مشـاعري، مشـاعر أب فقد امـرأة لا مثيل لهـا، أمّك، بسبب الاستـبداد والإجحاف الوحشي الذي عاملته بها عائلتها، آل باروسو. لقد كانت المذبح الـهشّ لأقوى عواطفي وحـبي. لنبنِ، أنا وأنت، من جديد هذا المعـبد الذي هدمته أكـاذيب، وغرور، وطمع، وغطرسـة الطبقـة الحاكـمة عـديمة الضـمير التي تمثلها عـائلة باروسـو، والتي وريثهـا الوحـيد مـاريا دل روسـاريو غالبـان الفاسـدة، المنحرفة. هل تظن أنني سـأدعها تتآمـر بسلام؟ لماذا

يجب أن يكون لدينا وازع أخلاقي مع الأشخاص الذين يكونون عديمي الضمير معنا؟

تذكّر دائماً: أن ماريا دل روساريو من هناك، من ذات الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها أمّك. اعتبر ماريا دل روساريو مثل أمّك، لكن لديها ثروة، عشيقة حياة حرمت ميشيلينا من الحياة. انتقم لمصير أمّك القاسي من ماريا دل روساريو.

وسأعتني أنا ببيرنال هيريرا.

إنك من خلقي أنا يا نيكولاس. وريثي. شريكي. معاً سننتصر. إن كلّ ما يهم: تسلم السلطة والاحتفاظ بها إلى الأبد.

نيكولاس بالديبا، يا بني، إن القوة توحّدنا كشوق إلى الحقيقة.

أنا وأنت سنمتلك تلك الحقيقة.

أريد أن أقدم لك نصيحة أخرى. من الآن وصاعداً، لا تدع أحداً يعرف في ماذا تفكّر، حتى أنا. خاصة إذا كنت تخطّط لخيانتي.

أعدك: في السياسة، أيّ خيانة ممكنة. أو على الأقل يمكن تخيّلها.

67

من عضو الكونغرس أونيسمو كانيبال إلى نيكولاس بالديبا

سيادة الرئيس، أكتب إليك بثقة كبيرة، وبفزع شديد. فقد انتُهك قلب وروح كونغرس الاتحاد. مكتب واحد فقط، أما الكونغرس، رغم كل ذلك، فهو منيع. إنه ملاذ القانون، يا سيادة الرئيس. على أي حال، استيقظت اليوم على مكالمة هاتفية عاجلة من المشرف على المبنى، سيرنا.

ففي منتصف الليل، دخل أحدهم قصر سان لازارو التشريعي. عطّل أحدهم أجراس الإنذار، تسلل وتجاوز الحرّاس، ربما رشى رجال الأمن. لا أعرف. من الواضح أنه شخص ذو نفوذ. سيادة الرئيس: لقد فُتّش ونُهب مكتب صديقتنا عضوة الكونغرس بولينا تارديغاردا، المرأة التي ندين لها كثيراً، أنا وأنت. لقد اُقتلع صندوق خزنتها بالقوة من مكانه، نعم، لقد اُقتلع وسُحب بالكامل من مكانه في الحائط، تاركاً فجوة مكانه، مما جعل المكتب يبدو في هيئة مزرية، يجب أن

نعيد بناء الجدار كاملاً، هل تدرك كم سيكلّف ذلك؟ (بمناسبة الحديث عن النفقات، متى سترشح وزير مالية جديد بعد أن غادرنا أندينو ألماسان؟)

إن سرقة الخزنة لم يكن أسوأ شيء في الأمر. فقد اختفت أيضاً عضوة الكونغرس الموقرة، يا سيادة الرئيس. إنها غير موجودة في شقّتها في شارع إدغار ألان بو. وتقول مدبرة منزلها إنها لم تعد إلى البيت ليلة البارحة. لقد شرعنا في إجراء تحقيق، بالسرّ، طبعاً. لكننا لم نعثر عليها في أي مكان. لقد اختفت ولا يوجد لها أي أثر.

ماذا يمكن أن يكون قد جرى لها؟ هل تعرف شيئاً؟ لو كانت قد أخذت إجازة مفاجئة فقط، أو كانت تقضي وقتاً ممتعاً مع أحد، حسناً، هذا جميل. لكن الخزنة أيضا، يا سيادة الرئيس؟ إن حدوث الشيئين في الوقت نفسه هو ما يثير فزعي.

أريد أن أعرف منك. هل يتعين علينا أن نعلن حالة تأهب وطني بسبب اختفاء بولينا تارديغاردا؟ المسكينة. لم تكن قديسة، لكنها لم تكن آثمة أيضاً. لا أستطيع أن أتخيّل أن أحداً سيختطفها لأنه واقع في غرامها، فلم تكن جذّابة تماماً. فهي بدينة إلى درجة أنها تستطيع أن تختطف أحداً هي نفسها إذا أرادت.

في جميع الأحوال، يجب أن تصدر أمراً بإعلان حالة

التأهب الوطـني. لا يمكنني أن أفعل ذلك؛ لا يسـتطيع أحد أن يفـعل ذلك إلا أنـت. وإلا فلن يكون بالإمكان العـثـور على رفاتها، أو يُـعثر عليها فـي حديقة ساحرة من الـساحرات، ثم يتبين أنها ليست رفاتها. أو أن تجري بولينا فـجأة عملية تجميلية مثل مهرّب المخدّرات المشهـور، «رب السماوات». سامحني إن كان هذا خارج السياق، يا سيد نيكولاس، لكنك تعرف، أظن أنها مغرمـة بك. . . أوه، آسف آسف، من يعرف، ربما تحاول أن تجمّل نفسها قليلاً. المسكينة بولينا، تستطيع أن تستعملها. . .

حسناً، أظن أن هذا يكفي. إنك توافق على أن هذه المسألة عاجلة جداً، كما أعتـقد. إني بانتظار تعليماتك لاتخاذ الإجراء المناسب، أو أن نترك المسألة تموت، أيهما يراه الرئيس أفضل.

خادمك المتواضع والوفي

أونسيمو كانابال

رئيس كونغرس الاتحاد الموقر

68

من بيرنال هيريرا
إلى ماريا دل روساريو غالبان

إنك على حق يا ماريا دل روساريو. لقد غيّروا قواعد اللعبة. قد يبدو أن بالديبا يحترم التقويم الانتخابي لكنني لا أظن أنه يوجد ثمة شيء في رأسه أو في قلبه يرغمه على تسليم كرسي الرئاسة في الأول من كانون الأول 2024، لو انتخبت فعلاً. أمامنا مشكلة: إذ لا يوجد سياسي ناجح يستطيع أن ينافسني في الترشيح. سيكون تاسيتو، على الأقل، من الوزارة الرئاسية مثلي. ولا يوجد لدى الأحزاب الصغيرة مرشّحون مؤثّرون يمكن الحديث عنهم. وسيدعم الزعماء المحليون من يوفر لهم حماية أكثر. إن الخطر الذي أواجهه هو أن أصبح وحدي. سأبرز، وسأكون عرضة للهجوم. إن الشيء السيء هو أننا طوال القامة، كما قال ديغول، لذلك يرانا الجميع أكثر من غيرنا. ما هو استنتاجه؟ «الرجال الطوال القامة يجب أن يكونوا أخلاقيين أكثر من أي شخص آخر».

لقد قلتِ لي ذات مرة، مشيرة إلى تاسيتو، إن الكراهية أكثر ذكاء من الحبّ. وسأظل أحمي نفسي من ذلك الشخص المعروف بالسيد دي لا كانال. إني لا أثق بتواضعه الجديد. إنه يرتديه وكأنه عثر عليه في سوق الملابس المستعملة الرخيصة. يجب عدم الثقة بالحبّ البنوي الذي يصرّح به. إنه لا يؤمن إلا بولائه للجنس. حسب مصادري، فقد أغوى خادمة أبيه، امرأة تدعو نفسها «غلوريا مارين». حسناً، كما قلت ذات مرة، «الأمانة حزينة جدا».

ماريا دل روساريو، سنواصل العمل أنا وأنت كفريق، لكن هذه المرة سنكون في موقع ضعف. لا تسخري مني إذا حذرتك من أي محاولة لتأجيج حبنا القديم. من الأفضل أن نكون صريحين. إن الوقوع في الحبّ ثانية يعني فقط أننا نعاني من نكسة وأننا نحاول أن نعوضها. سيكون برهاناً على ضعفنا وخذلاننا.

إني أقول لك هذا كإجراء وقائي. يبدو أنك أصبحت عاطفية أكثر في الآونة الأخيرة، وربما يساعد ذلك حالتنا. لقد أغرتني الفكرة، ولا تزال تغريني، بأن نستطيع أن يحبّ أحدنا الآخر مرة أخرى، كما فعلنا في البداية.

لكنه سيكون ضعفاً، وأنتِ تعلمين ذلك. لن نكون معاً إلا لكي يلعق أحدنا جروح الآخر. سيواسي أحدنا الآخر اليوم. ويمقت أحدنا الآخر غداً.

الق نظرة متمعنة كيف كانت علاقتنا في البداية. كنت أريد أن أمنحك الحبّ. كنت تريدين الحبّ. أظن أن النوع الوحيد من الحبّ الذي يرضيك هو حبّ يتألف من الرغبة المحضة. إنك لا تحتملين مودّة وعاطفة يومية آمنة. بدون مجازفات. إنك امرأة تعشق المجازفات. تأخذين الأمر إلى حدوده القصوى إلى درجة أن بعض الناس الذين لا يحبّونك كما أحبّك أنا، يسمونه لا أخلاقياً. سرقة رجل من امرأة أخرى، أو من رجل آخر يجعلك سعيدة. إن شهوتك الجنسية تهيمن عليك إلى درجة أنها أصبحت متأصلة فيك تماماً. لا تنكري ذلك.

إني لست عنيداً. أنا رجل ثابت. وفي ثباتي لا يوجد مكان للحنين، للعاطفة. أعرف: بالنسبة لك أن تكوني غير مخلصة لا يعني أن تكوني غير وفية. ولهذا السبب، فإن العيش معك سيجبرني على أن أفعل شيئاً لا أريد أن أفعله مرة أخرى. لا أريد أن أفحص دائماً وأعيد فحص علاقتي وقلبي. إن العيش معك سيعرضني لتلك المعاناة، وستكون معاناة دائمة، لا نهاية لها. ماروشا، هل أنت مخلصة أم لا؟

أشكر الله أننا لم نتزوج. استطعنا أن نعمل معاً، كشخص واحد، دون أن نضطر للعيش معاً. لا يمكننا أن نعود إلى ما كنا عليه. لن يكون بوسعك تحمل ذلك. سأشرح لك السبب. أن نعود حبيبين مرة أخرى؟ إننا نعرف، أنا وأنت، أن المرة الثانية لن تكون خطأ فقط، بل ستكون جنوناً. أليس كذلك؟ إن

أفضل شيء يمكنك أن تقدميه لي هو أن نحافظ على المسافة الضرورية من أجل حبك إلى حد أنني سأعتبرك غير جديرة بحبّي.

(تعرفين أنني أعجب بك للأشياء التي يحتقرك الآخرون من أجلها).

(لا تعذّبي نفسك. فكّري بجميع الأشياء التي لم يقلها أحدنا للآخر).

يجب ألا يغوينا تأجيج عواطفنا في هذه اللحظة الصعبة. فنحن لم ننفصل. لقد وحدّنا الأشياء. ماهي الأمور التي تجمعنا؟ إننا ضعفاء أمام الحبّ، وضعفاء أمام السلطة إذا لم نكن معاً.

أريد أن أعيد تأكيد تحالفنا.

تذكّري أنه بوسعنا أن يدمّر أحدنا الآخر. من الأفضل أن نبقى معاً. ليسود السلام بيننا. كانت متعتنا عاصفة. الآن، أكثر من أي وقت مضى، لنواصل طريقنا بهدوء.

لا تنسِ، أنه كان بوسعنا دائماً، أنا وأنت، أن نتوصل إلى اتفاق حتى عندما لم نكن متفقين عملياً.

أسلمي نفسك كما أسلمت نفسي. استسلمي إلى خيالي، كما استسلمت إلى خيالك. ففي داخل عقولنا، نستطيع أن نواجه عواطفنا إلى الأبد.

لكنني يجب أن أعترف الآن بأن الأبواب المفتوحة على عقلي تشبه أبواب صالون: إنها تنفتح، إنها تغلق، تغلق بقوة... لكن هناك شيئًا واحدًا أعرفه: يجب أن نعثر على نقطة ضعف نيكولاس بالديبا. الجرح الذي يجعله ينزف. السرّ الذي يجعله يشعر بالخزي والعار. هذا هو أملنا الوحيد في هزيمته. إذا كنا نريد أن نمنع نيكولاس بالديبا من البقاء في السلطة، فيجب أن نضع رأسينا معاً.

وفي نهاية المطاف، تذكري : إن حظاً سيئاً صغيراً هو أفضل ترياق للمرارة التي ستأتي فيما بعد. وأعظم المرارة هي التي يتجرعها الذين يمارسون السلطة المطلقة. لا شيء يرضيهم، فهم دائماً يريدون المزيد، وهنا مكمن خسارتهم. إذا حددنا نقطة ضعف نيكولاس بالديبا فسيكون لدينا مفتاح سقوطه.

69

من ماريا دل روساريو غالبان إلى بيرنال هيريرا

لقد سرت درباً طويلاً هذا الصباح، يا بيرنال، أبحث عن بقعة عالية ومنبسطة أطل منها على وادي المكسيك لأجدّد أملي. إن المدينة البائسة، المبهرجة الألوان التي أرعبت (وقتلته قبل أوانه) الشاعر العظيم ريمون لوبيز بيلارد. إنه «وادي المكسيك، فم فاغر، حمم من البصاق، عرش الغضب المنهار» التي قالها أوكتافيو باز بغضب. أو ربما كانت الصورة المتوازنة، الدقيقة لخوسيه إمليو باتشيكو، شاعر الصفاء الذكي الذي احتفلنا بعيد ميلاده الثاني والثمانين مؤخراً، عندما أخذته الحقائق، وغنى بصوت مجروح «غسق المكسيك، في الجبال الحزينة باتجاه الغرب. . .»

أيها الليل

الشديد الكآبة إلى درجة أن يقول المرء:

الليلة التي ستولد ستكون أبدية

مكسيك الفصول الأبدية، «ربيع خالد». . .

لقد بدأ موسم الأمطار، جارفاً الليل الأبدي،

فم فاغر، تبدو بائسة وذات ألوان مبهرجة. . . الغبار يستقر. الجو يصفو. صحيح أنه في فترات بعد الظهر الماطرة، بين سقوط الأمطار رذاذاً ثم انهماراً، حتى من الطريق السريع الكارثي، أنيّو بيريفريكو، تستطيع أن ترى حدود سلسلة الجبال بوضوح شديد.

قرّرت أن أصعد إلى قلعة تشابولتيبيك كي أنظر إلى المدينة والوادي من ارتفاع يبدو أنه أكثر إنسانية، حيث أستطيع أنْ أرى الجبال التي أعرف أن اسمها - Ajusco وبوبوكاتيبيتل، إستاكدواتل - في الضوء الحميمي الذي أريد أن أكتشفه للمرة الثانية، يا بيرنال، في نهاية قصة حياتنا هذه.

هل تدرك أننا عشنا هذه القصة ونحن حبيسان، كما لو كنا نمثل على مسرح في أحد السجون؟ قصة مجرّدة تماماً من الطبيعة. كان باتشيكو محقاً: «هل الأحجار هي الأشياء الوحيدة التي تحلم؟. . . هل أن العالم لا شيء سوى هذه الأحجار الصامتة؟» هذا ما أفعله هنا الآن، أحاول أن أتذكر العالم الطبيعي الذي انسل من بين يدينا، ضعنا في غابة من الكلمات، دفنا في مستنقع من الخطابات، قطعتنا سكينة الطموح. . .

قبل أن أخــرج، نظرت إلى نفسي في المرآة بــدون مكياج، بدون أوهام. استطعت أن أحافظ على قوامي، لكن وجهي بدأ يخذلني. أدرك الآن أنني كنت جميلة جمالاً طبيعياً عندما كنت شابة. أما اليــوم، فإن الجمال الذي تركــته هو عمل من الإرادة المحضــة. إنه سرّ بيني وبين مــرآتي. أقول للمــرآة: «إن العالم يعرفني. لكن لم يعد العالم يتذوقني».

لماذا نهــدر شبــابنا وجــمــالنا؟ أرى كيف سلّــمت شبــابي وحيــاتي الجنسيــة للرجال الذين أصــبحوا تراباً أو تماثــيل. لقد لمست جسدي هذا الصباح- لا شيء يجرح الجسد مثل الرغبة- ولم أتمكن من إرضــاء نفسي ، إني أعتــرف لك بذلك، لأنك أنت الرجل الوحيــد الحقيــقي في حياتي. لم يــكن يرضيني يا بيرنال. لماذا؟ لأنني تــربعت فوق مذابح كــثيرة حــيث كان الله غائبــاً. إن مذابحي من النوع الذي يــجعل القلوب تشــيخ قبل أوانهــا. الشهــرة والسلطة. لكنني امــرأة. أرفض أن أستــسلم لدليل الزمن. أقنع نفسي بأن جاذبيتي الجنســية لا تتأثر بالعمر. بأنه ليس من الضروري أن أكون شابة لكي أكون مرغوبة.

أنظر إلى الماضي إلــى الناس، إلى الأمــاكن، إلى الظروف منذ بدء الأزمــة في كانون الثــاني، فأجــدني فقــدت إحســاس التــذوق في فمي. أتمنّى لو أســتطيع أن أســتدعي الحــلاوة، أو الإحــســاس بالمرارة، أو حتــى القيء. لكن لســاني وحلقي لا يتذوقان شيئاً على الإطلاق.

أستشير أحاسيسي الأخرى. ماذا أسمع؟ نشاز الكلمات الفارغة. ماذا أشم؟ الغائط الذي يخلّفه عند الاستيقاظ. ماذا ألمس؟ بشرتي، التي بدأت تصبح أقل لدونة، أكثر ضعفاً، أكثر رقة يوماً بعد يوم. بماذا ألمس؟ عشرة أظافر مثل سكاكين تهاجمني. ليس فقط تخفق في مداعبتي. ليس فقط تخمشني. تغوص فيّ وتسأل، وماذا سيّحل ببشرتي، إلى متى ستدوم، ما المتعة المهدورة التي تنتظرها؟ العدم.

لديّ عيناي. بعد ظهر اليوم، سأصبح مجرد رؤية. كلّ شيء آخر يخدعني، يجعلني أصبح شخصاً لا أعرفه. لم يبق لديّ شيء سوى نظرتي وأكتشف، بصدمة، يا بيرنال، أن عينيّ مليئتان بالحبّ. لا أحتاج إلى مرآة لإثبات ذلك. أنظر من تشابولتيبيك وأشعر بالحب نحو المدينة ووادي المكسيك.

نظرة حبّ. هذه هي هديتي إلى مدينتي وإلى زمني. لا يوجد لديّ ما أقدمه إلى المكسيك لكن نظرتي المحبّة بعد ظهر هذا اليوم المشرق من شهر أيار بعد هطول الأمطار، عندما تجمّل نباتات الزينة المتسلقة الصابرة المدينة، وللحظة مجيدة تتوج المدينة أزهار شجرة الياكاندرا بلون الخزامى. هذا النور المشع بقوة في الوادي في هذا الوقت من اليوم، يا بيرنال، يجعلني أخرج من نفسي، ثم يتخلى عني ويتركني على شرفة ألكاسار العظيمة بسطحها الرخامي الأسود والأبيض، ثم يتنقل بي وكأني أمتطي بساطاً سحرياً طائرًا أجوب به المدينة، فوق

عناقيد المناطيد ذات الألوان المتعددة التي تباع في الشوارع، ويسمح لي أن أداعب رؤوس الأطفال الصغار في الحدائق، أن أمشي في مياه الخزان الموحلة في غابة تشابولتيبيك، وأواصل السير، الآن في المياه التي تنتشر فوقها زهرة الياقوتية في إكسوتشيملكو، كما لو كانت قدماي العاريتان تحاولان بشدة أن تصبحا نظيفتين يا بيرنال، في القنوات الضائعة التي كانت ذات يوم فينيسيا الأمريكتين، مدينة تعتنق المياه والحياة، مدينة أصبحت جافة ببطء حتى ماتت من العطش والاختناق.

لكن ليس هذا المساء يا بيرنال، إن هذا المساء الذي اخترت أن أولد فيه من جديد معجزة، لأنه مساء سائل، فقد هطلت الأمطار وأصبحت جميع الشوارع والدروب قنوات، وأصبحت جميع الصحاري الكلسية بحيرات، وأصبحت كلّ أنابيب المجاري شلالات متدفقة. . .

بعينيّ المولودتين من جديد، أمسح المدينة التي مسحها بيرنال دياس دل كاستيلو في عام 1519، اللتين بعثتهما قوة الرغبة، وأترك ورائي كلّ الميلودراما السياسية التي عشناها أنا وأنت، وأبعث الحياة في المدينة القديمة، أخرج إلى الدروب المصنوعة من الذهب والفضة، ذات الأسطح المصنوعة من الريش والجدران المصنوعة من الأحجار الكريمة، عباءات مصنوعة من جلود النمور، والفهود، وكلاب الماء، والأيائل، وأتجاوز مجموعة الأدوية الهندية المصنوعة من جلود الثعابين،

وأسنان سمك القرش، وشمـوع الجنائز، والبذور المعروفة باسم «عيون الأيّل». أدخل إلى الساحات المدهونة بالأحمر وأستنشق رائحة شـجرة الصمـغ الحلو والتبغ الطازج والكزبرة والفـستق والعسل. أقف أمام الأكشاك التي تبيع jicama , cherimoya, marney، والصبار. أستـريح على المقاعد المصنوعة من ألواح الخشب تحت سرادق مبلط بالقـرميد، أنصت طوال الوقت إلى الحـفلة الموسيـقيـة التي يحـييـها الدجـاج، والديك الرومي، والبطات الصغيرة...

كيف لا يمكننا أن نغوص في وعـينا المكسيكي (إذا لم نكن قد فقدناه) ونعود إلى تلك المدينة الواقعـة على ضفاف البحيرة التي توقظ محبتنا للأغاني العاطـفية العظيمة، المدينة التي يبدو أنها مـهد أصولنا؟ «تخـرج الأزهار، تتفتح من بتـلاتها، ومن الداخل تنبثق أزهار الأغنية». لكن أوه، يا أعز أصدقائي، هل توجد قصـيدة واحدة من العالم الأصلي لا توجد فيـها حكمة توحـدّ أغنية الحـياة مع نذيـر الموت؟ «المرارة تتنبأ بالقـدر... بالحبـر الأسود ستـمـحو مـا كان ذات يوم مـجتـمع الإخوة، الكرامة...»

بيـرنال، ماذا يحـذّرنا من حدوث كـارثة وشيكة؟ ذاكـرة الجمال والسعادة التي كانت، أو لم تكن، لا أعرف. أعرف أن الجمال والسعادة شيئان مـتخيلان وأن الخيال يفرض ثمناً علينا، الذي هو أيضاً مـوهبة: الذاكرة. وبما أني أصـدق ذلك، أدعو

الله أن لا يسلبنا أحد أو شيء ذاكرتنا. إنها منحة من الأعلى: التذكر. لأنه يمكنني أن أعدك، ستجرح الرغبة جسدينا. هل ستتمكن، أنا وأنت من استعادة كلّ الأشياء التي وضعناها جانباً لنصبح الشخصين اللذين نحن هما الآن؟ لحظات الحبّ، الواجب، الأحلام؟ حتى تلك الخسائر يمكن أن تعوّضها الذاكرة.

نعم، إني أنظر من تشابولتيبيك إلى المدينة التي لم تعد المكسيك - تينوختيتلان، وفجأة أرى قططاً وحشية وحيوان الغرير في شوارعها، وفجأة، يا بيرنال، أسمع نباحاً ثم لا يعود بإمكاني أن أحصي عددها لأن مئات الكلاب تجري في الوادي الآن، جميعها كلاب الدرواس الضخمة المتوحشة، تنبح، ومع كلّ نباح يغمر صوتها زعيق الدجاج، رائحة شجرة الصمغ الحلو، أصوات طرقات الطحن اليومي، حتى تغزوا الكلاب البرّية الهائلة الوادي برمته، أطلقها أصحابها الأشرار مع هبوط الليل... موكب مرعب من كلاب الصيد الضخمة الجرباء المهرولة، ذات عيون جائعة وأنوف حقودة، كلاب لا أصحاب لها، كلاب هجرت لأن أصحابها سافروا في إجازة أو لم يتمكنوا من الاهتمام بها ورعايتها، أو يضربوها بدافع من المتعة: المدينة برمتها، في قبضة الكلاب المسعورة هذه، يا بيرنال، يحدق كلّ واحد منها بعينين فيهما لهيب نار، يتسلق كلّ منها هضبة، نحو الشرفة التي أقف عليها، تقترب أكثر

وأكثر، تزداد شراسة ورعباً، بجلودها القذرة وأنيابها الصفراء، يقودها كلب درواس ضخم واحد بصوت قوقأة بشري وحول رقبته ياقة من المسامير القاتلة على أهبة الاستعداد لمهاجمتي، يا بيرنال. ثم أعرفه. إنه الكلب الذي يخص رئيسنا الراحل تيران، إل فارون، يبحث عن قبر سيده.

كلاب بأصوات مخيفة، تصيح عليّ: «اذهبي. لا تتردّدي. لا تنظري إليه ثانية على الاطلاق».

«من؟ من؟» أصيح، «عمن تتحدّثين؟ ومن هو الذي يجب ألا أنظر إليه ثانية؟»

الوادي مليء بالمسامير الضخمة.

إن بحيرة الزمن، ليست البحيرة في هذا الوادي فقط، تصغر وتصغر.

الشيء الوحيد المتبقي لنا هو غبار الزمن.

ثم، وفجأة، يظهر الملك الحقيقي. ملك الوادي. لا أريد أن أنظر إليه. أقول لنفسي إنه سراب.

أبحث يائسة عن فضاء صامت حيث يمكنني أن أسمع وأفهم.

أشعر أن حياتي المنسية تنبثق من البحيرة الميتة.

أو الحياة التي لم أعشها قط.

أتمنّى أن أستطيع أن أكون سهما وأدافع عن نفسي.

ملك المكسيك ينظر إليّ، بدون جفون، ويفتح فما من الطين والفضة:

«العواصف ستهب».

لا يقول شيئاً آخر، ثم يختفي مع الكلاب التي سبقته والغبار الذي تلاه.

أوه، يا بيرنال، كم أشعر بثقل في قلبي، وكم روحي برمة. كم يلاحقني ظلّ الألم والإثم.

كم أسأل نفسي لماذا لم أقتل نفسي قبل أن تمزقني تلك الكلاب الجائعة إرباً إرباً.

كم أحبّ أن أغوص في بركة عميقة من المياه المتجمدة التي قد تنظّفني وتعيد لي روحي.

خمدت الجلبة.

فرغت المدينة.

هدأت الكلاب وهربت، عائدة إلى عرائنها في مكب النفايات الهائل في المدينة.

إل فاراسو فقط يظل يجوب وهو يعوي على سيده.

وأعود إلى بيتي في بوسك دو لاس لوماس.

مرة أخرى أصبح أنا،

لن يغريني الانتحار ثانية على الإطلاق.

لأن عشقك مرة أخرى سيكون شكلاً من الانتحار للشخصية التي خلقتها، بهذا الجهد من ناحية، وبهذا الضعف من الناحية الأخرى.

لا تقلق.

إنك على حق.

أيّ نوع من الزواج ذاك الذي يمكن أن يجمع شخصين يتآمر أحدهما ضد الآخر؟

سأعيد تسليم نفسي لانتحار السياسة البطيء.

أردت أن أفرّغ نفسي لكي أتمكن من أن أولد من جديد.

بدلاً من ذلك، أستسلم للعالم.

بيرنال هيريرا، ستكون رئيس المكسيك.

أقسم لك.

70

(لورينزو هيريرا غالبان)

(ألعب لعبة الاستغماية في الحديقة أضحك كثيراً لا يستطيعون أن يجدوني أختبيء وراء الشجرة ويقولون إنه هناك وسنمسك به الآن وأجري إلى هناك وأختبيء وراء شارع آخر ويصيح إنه هناك لكنني أنا الذي أصيح لأنني وحيد ألعب وحدي وأظن أني يجب أن أصيح أني هنا، صحيح؟ ألعب هنا وحدي وسط جميع الأشجار في البيت الذي عشت فيه دائماً هل ولدت هنا؟ تقول الطبيبة لا إنهم أحضروني إلى هنا، من جلبني إلى هنا؟ أسأل ولا تخبرني شيئاً وأحاول أن أتذكر من أحضرني إلى هنا إلى بيتي أسمع البيت يتكلم لكنني أقول بيتي فقط لأنه لم يكن يوجد لديّ بيت آخر أبداً وأعرف أنني لن أغادر هذا المكان لكني لا أبالي لأنه توجد لديّ صورة ضبابية في رأسي عن رجل وامرأة أتيا إلى هنا عندما كنت صغيراً لكن مجيئهما بدأ يقلّ وقالت لي الطبيبة إنهما يحبانك يحبانك إنهما قلقان عليك وهما

شخصان طيبان ولا أعرف ماذا يعني أنهما شخصان طيبان لكني أعرف أنني أحبّهما أيضاً وأحبّ كلّ شيء يقترب مني ويقول مرحباً ويتكلّم ويلمسني، أحبّ ذلك كثيراً لكن ذلك لا يحدث كثيراً، أنا وحدي تماماً وأحبّ كل هذه الأشياء كثيراً لكن من الصعب عليّ أن أقول للطبيبة هذا ما يطلقون عليها إنهما يحبانك وأتمنى أن أتكلم مثلها لكني لا أستطيع أن أتكلم دون أن أفتح فمي، لو عرفا كل الأشياء التي أقولها دون أن أفتح فمي، أسمع الجميع لكن لا يسمعني أحد، أتكلم إلى الداخل: كلّمني كلّمني كثيراً أرجوك إني أسمعهم إني أفهم، أفهم كل شيء يقولونه، يظنون أني لا أفهم لأنني لا أتكلم، لكن نعم أفهم كل شيء، لا يخبرونني كثيراً لأنهم يظنون أنني لا أفهم لا أعرف كيف أقول الأشياء التي أفكر فيها وبدون تكلم أقول، ماذا يقولون إني أفهمهم جيداً «إنك ذكي» تقول الطبيبة ذكي ذكي، إني أفهمهم جيداً لكنهم لا يعرفون ذلك ولهذا السبب لا يتحدثون إليّ إنهم يتكلمون عني فقط لكنهم لا يكلمونني يجب أن يعرفوا أنني أفهم كل شيء حتى لو كان صعباً عليّ أن أقوله، يجب أن تدرك الطبيبة أني أفهم لأنني إذا لم أكن أفهم فكيف أستطيع أن أضحك كثيراً لأنهم مرة في الأسبوع وهو يوم الأحد الأحد الأحد سيضعوننا معاً ويرونا أفلام رسوم متحركة عن الكلاب والفئران والقطط التي تضحكنا جميعنا، في البداية لم أعرف ماذا أفعل وأنا أراقب البطة غاضبة، وهي تكسر الصحون لأنها كانت شديدة الغضب ورحت أضحك عندما رأيت جميع الأطفال

يضحكون، كـان لا بأس أن نضحك، لم يكن سيئـاً أن يضحك الجميـع، يضحكون، يشاهدون البطة غاضـبة، لكني لا أرى إلا الأطفال يوم الأحد الأحد الأحد، ويبعدونني ما تبقى من الوقت، وتهمس الطبـيبة للمـمرضات - كـما يطلق عليـهن هكذا يسمين كلهن متشحـات بالبياض باللون الأبيض الأبيض - وترين أني لا أفهم الأبيض، الأحد الأحد الأحد، بطة بيضـاء غاضبة، الطبيبة تتكلم همـساً، لا أعـرف مـا تقوله لهـن أنا وحيـد ما عـدا أيام الأحد، الآن قد تغيرت لأني أكبر كـما يقولون لي، لم أعد صبياً صغيـراً «انتبه ليديك» لا أعرف ماذا أفـعل بيدي، أسألهم لماذا لا أرى أحداً آخر فأنا وحدي دائماً قبل أن يربتوا عليّ، على رأسي، والآن حتى أنهم لا يفعلون ذلك وكل ما يقولونه انتبه ليديك لكن الطبيبة تمتليء عيناها بالماء وتهمس للممرضات الأخريات بالأبيض الأبيض الأبيض. الآن لا أحد يأتي لزيارتـي مثلما كنت صغـيراً واستخـدمت يدي لألعب الكرة «انتبه ليـديك عندما تلعب الكرة لينشو» يطلقون عليّ لينشو، أو لينشيتو، الآن أريد أن أسألهم لماذا يبدون شـاحبين كثيراً مـا الخطأ ماذا سيحـدث لا أعرف أي شيء خـارج هذا المكان؟ من يعـرف مـاذا يوجـد وراء الجـدران؟ لماذا يحـزنون عندما ينظرون إليّ؟ لماذا يهـزون رؤوسهم هكذا عنـدما يسـقط الماء؟ يغلقـون النوافـذ، لا أعرف مـاذا يحـدث هناك في الخارج حيث كنت ألعب الاستغماية؟ الآن يغلقون الباب عليّ في غرفة مظلمة. ماذا فـعلت؟ ماذا فعلت؟ لا أعرف. أحس برأسي يدور مع أنني لا أتحرك، أنا وحدي في غـرفة مظلمة، وأقول إني

لطيف للنباتات والحيوانات والأشجار التي أحبها. أشم النباتات، أقف عند الأشجار، إني مثلها، أنا هي، لا يوجد لديّ أحد غيرها إلا الحديقة. قبل الآن لم يسمحوا لي أن أخرج إلى الحديقة. أنا الشجرة. أنا النبتة. أنا الحيوان. لا يوجد عندي أحد غيرها. لا أرى الأطفال الآخرين. لا أزال أستطيع أن أرى السنجاب، كلبًا. بعض أصص الأزهار فيها أزهار لكن لا توجد أزهار في الأشجار، لا يسمحون لي أن أخرج. كلّ ما لدي هو دفتر أزرق أزرق أزرق. سمعتهم يقولون: اتركوه يخربش في دفتره الأزرق. عندما أخربش أكتب أشياء مثل هذه الأشياء التي أكتبها بدون حبر في الدفتر، حروفًا لدي أصبع واحد لأكتب على هذه الأوراق البيضاء. أتذكر الرجل والسيدة اللذين كانا يأتيان. لزيارتي ولم يعودا يأتيان ولم أعد أسألهما إن كنت سأراهما ثانية، وأظن، أحياناً أني أظن، أني لم أرهما في حياتي، فقط كنت أحلم بهما، أسال الطبيبة من هما لماذا لا يأتيان ولم يعودا يرياني وتقول: لينشو الحب حقيقي، لينشو الحب حقيقي، اكتبه في دفترك الأزرق بإصبعك تذكر كل شيء تفكر به وتحلم به لأنك لن تراهما ثانية، إنهما مهمانْ للغاية، أقرع على الباب ألا يسمعاني؟ ألن يأتيا لرؤيتي؟ ألا يستطيعان أن يرياني وحيداً؟ ألا يعرفان أن الصبي لا يستطيع أن ينسى؟ لماذا يقيدون يديّ وراء ظهري؟ كيف يمكنني ان ألعب هكذا؟ كيف أستطيع أن أكتب في دفتري الأزرق؟)

هذا الكتاب

يالها من جائزة لا أستحقها في أن أتجسس عليك من الغابة وأنت تقفين أمام النافذة المضاءة في البيت تخلعين ثوب السهرة الأسود، ثم تمدين يديك خلف ظهرك، وتفكين إبزيم حمالة صدرك السوداء بحركة مبهمة وجريئة في الوقت ذاته، لتكشفي عن هذين الكوبين الممتلئين المترعين، ثم ترفعين الجزء الأمامي من حمالة صدرك وتحررين ثدييك بمداعبة مزدوجة، تقفين هناك لا يستر عريك شيء سوى سروالك الداخلي الأسود الذي تخلعينه وأنت جالسة على حافة سرير، والذي كان يبدو - اغفري لي أن أقول ذلك - بارداً جداً ووحيداً، ثم تنهضين بغتة يا سيدتي، في بهاء نضجك الجنسي، جسدك الناصع البياض، الوردي مرّتين، والأسود مرة واحدة، تواجهينني قبل أن تديري ظهرك لي لكي أبدي إعجابي بتلك المؤخرة، مؤخرة فينوس غالييغوس، التي عشقت حتى غاصت في الأرض وردفاها لا يزالان يرتعشان، لذلك استطعت أن أرى ما كنت قد تحدثت عنه في ذلك اليوم، رؤية متعة يجب أن أتملكها لقاء ثمن - أسخر من نفسي يا سيدتي - ربما كان يفوق طاقتي.

دار كنعان
للدراسات والنشر
والخدمات الإعلامية